

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ

التفسير وأصوله عند المعتزلة

رسالة جامعية مقدمة إلى قسم التفسير وعلوم القرآن بالكلية لنيل

درجة العالمية (الدكتوراه)

إعداد

محمد سليمان ربيع

إشراف الأستاذ الدكتور

مجاهد محمد هريدي

إستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بالكلية

سنة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
عِلْمٌ عَظِيمٌ

صدق الله العظيم

إهداء

وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً
إلى روح والديّ الكريمين - رحمهما
الله تعالى - وطيب ثراهما ، وجعل
الجنة مأواهما

إلى الذيّن ربياني صغيراً ، ووهباني
للأزهر الشريف رغبةً منهما أن أكون
أحد ابنائه .

أهدى إليهما ثواب هذا العمل اعترافاً
لهما بالعرفان والجميل والفضل العظيم
داعياً المولى أن يتغمدهما برحمته وأن
يسكنهما فسيح جنّته وأن يجمعني
وإياهما في مستقر رحمته مع النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين وحسن
أولئك رفيقاً

إنه نعم المولى ونعم النصير

حمد و شكر و تقدير

حمد وشكر وتقدير

الحمد لله تعالى المستحق للحمد كله أن وفقني لإعداد هذا البحث . شاكراً له عز وجل موفور نعمه التي انعم بها علىّ ومن أهمها نعمتا الدين والعلم . واستناداً إلى ما رواه الترمذى بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال : " من لا يشكر الناس لا يشكر الله " (١) - يكون لزاماً علىّ أن أتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى صاحب الخلق النبيل والعلم الغزير استاذى الدكتور مجاهد محمد هريدى الذى تفضل مشكوراً بالإشراف على هذه الرسالة ولقد لمست فى استاذى الجليل صفات الأتقياء وتواضع العلماء - وكانت لتوجيهاته الدقيقة السديدة أكبر الأثر وأعظم الفائدة وليس هذا مدحاً أو ثناءً بقدر ما هو إسناد الفضل لآهله وذويه . والله هو الكفيل بمكافئته على ما أعطى وأحسن وفتح بيته لطلاب العلم أثناء الليل وأطراف النهار بغير ملل ولا كلل .. ولكن عطاء متواصل .. وكرم دائم ... فאלله أسأل أن يبارك له فى وقته وماله وبنيه ، وأن يمتعته بالصحة والعافية وأن يحشره مع الصالحين يوم يقوم الناس لرب العالمين ..

كما إننى أتقدم بخالص الشكر إلى استاذى وشيخى الدكتور أحمد محرم الشيخ ناجى الذى كان اهتمامه بى بالغاً وسؤاله عنى دائماً كما أتقدم بخالص الشكر إلى استاذى الدكتور على فراج الذى غمرنى بوصاياه وتشجيعه الدائم ووقف معى كثيراً فجزاه الله خيراً فى الدارين ...

كما أتقدم بخالص الشكر لإستاذى الدكتور رمضان عسىرى على ما قدم لى من خدمات جليلة .

(١) رواه الترمذى حـ ٦ / ص ٧٥ : ٧٦ ك البر والصلة ب ما جاء فى الشكر لمن أحسن

إليك حديث رقم : ١٩٥٤ وقال حسن صحيح .

كما أتقدم بخالص الشكر إلى أخی وصدیقی الدكتور أمیر محمد أحمد علی
مجهوداته القيمة وخدماته المتعددة ..

وإنی أشکر كل من قدم ید المساعدة فی إعداد بحثی هذا سواءً كان ناصحاً
أو أهدي إلى مرجعاً أو نبهنی إلى خطأ ما أو موظفاً قدم لی ید المساعدة أو
من دعا لی بالتوفیق

وأخيراً فإنی أشکر كل من له أثر فی إعداد هذا البحث كما أشکر لجنة
المناقشة التي تجشمت المصاعب فی قراءة هذا البحث والحضور إلى مكان
المناقشة والله أسأل أن ینال بحثی الرضا والقبول لدى اللجنة الموقرة ..
وصلی الله علی سیدنا محمد وعلی آله وصحبه وسلم .

مكتبة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . إنه من يهد الله فلا مضل له . ومن يضل الله فلا هادي له . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله :

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون "

" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام أن الله كان عليكم رقيباً " .

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً " .

ثم أما بعد : فإن أحسن الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدى هدى سيدنا محمد " صلى الله عليه وسلم " وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار " .

" من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " اللهم فقهننا في الدين وعلمننا التأويل يا رب العالمين ، " ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين " .

إن القرآن الكريم خير كتاب أنزله الله على خير الرسل الذي أرسله إلى خير أمة أخرجت للناس .. فإنه حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا يشبع منه العلماء ، ولا تزيغ به الأهواء ..

وقد بذل العلماء جهداً وافراً نحو كتاب ربهم في علوم متفرقة تتعلق بالقرآن الكريم ، وأعظم هذه العلوم علم التفسير ، لأنه علم له أهمية ، في حياة البشر فالقرآن قد تضمن بين دفتيه جميع ما يحتاجه البشر في أمور دينهم ودنياهم من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بتفسير القرآن واستخراج ما فيه من كنوز ودرر تتفع المسلمين في حاضرهم

(ب)

ومستقبلهم لذا كان الصحابة يسألون رسول الله " صلى الله عليه وسلم " عما خفى عليهم فهمه وتعذر عليهم استيعابه فبين لهم الرسول عليه الصلاة والسلام ما غاب عنهم ووضح لهم ما لم يمكنهم إدراكه امتثالاً لقوله تعالى :-
" وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون " (١)

ثم كانت جهود الصحابة والتابعين فى التفسير .. ووجدت بعد ذلك فرق وجماعات نتيجة لاختلاف المسلمين فى تفسير القرآن ..
وانتشر المسلمون بعد ذلك فى أنحاء متعددة من الأرض نتيجة للفتوحات الإسلامية التى دخل على أثرها المسلمون بلاد الهند والصين والبلاد العربية ونتيجة لذلك اختلط العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى التى لا تتكلم العربية وكان لهؤلاء وأولئك جهود ملحوظة فى التعامل مع كتاب الله تعالى فى تفسيره وفهمه وإدراك معانيه ..

ونظراً للاختلاف الموجود بين هذه الطوائف وجد ما يسمى بالفرق الإسلامية وكان لكل فرقة اتجاهها الذى سارت عليه وكان لهذه الاختلافات أسباب سياسية وعقدية واجتماعية فانتحت كل فرقة سبيلاً معيناً ، وكان لها منهجاً فى تفسير كتاب الله تعالى ..

ومن هذه الفرق " فرقة المعتزلة " التى كانت من أشهر هذه الفرق الإسلامية فسارت فى تفسيرها لكتاب الله تعالى على أسس اعتمدها ، وأصول ارتكزت عليها ، وبناء على هذه الأسس وتلك الأصول وقعت منها بعض المخالفات التى تتعارض مع المنهج الإسلامى القويم .

ولما أراد الله بى خيراً وكنت من أبناء الأزهر الشريف وتدرجت فى مراحل المختلفة حتى حصلت بعون الله تعالى على درجة التخصص " الماجستير "

(١) سورة النحل من الآية : ٤٤

(ج)

فى التفسير وعلوم القرآن بدأت أبحث عن موضوع اكتب فيه لنيل درجة العالمية " الدكتوراة " فاستخرت الله أولاً وبذلت بعض الجهد واستشرت بعض أساتذتى الأجلاء فى اختيار موضوع يتعلق بالتفسير فوق اختيارى بعون الله تعالى على الكتابة فى تفسير المعتزلة محاولاً إمطة اللثام عن بعض تلك المخالفات التى وقعت فيها هذه الفرقة مقارنةً ذلك بما عليه أهل السنة والجماعة حتى أصبح بعض هذه الأفكار وأقوم ما أعوج منها .. وأسأل الله عز وجل أن يوفقنى إلى ما أقصد إليه إنه على ما يشاء قدير ..

وقد سميت هذا البحث " التفسير وأصوله عند المعتزلة "

- ومن الأسباب التى دفعتنى إلى اختيار هذا الموضوع - إلى جانب ما ذكرته أنفاً أن المعتزلة تحتل مكاناً مرموقاً فى التراث الإسلامى بما أبدعت من فكر كان له أثره الذى لا ينكر فى بناء فلسفة إسلامية استطاعت بها أن تواجه التيارات المخالفة للإسلام والمعادية له ، وبناءً على هذه الشهرة اغتر بها من لم ينتبه إلى المخالفات التى وقعت فيها هذه الفرقة فأردت بكتابتى هذه أن أنبه إلى تلك المخالفات حتى يكون المسلمون على علم بها .

-المعلوم أن للعقل شططه وبعده عن جادة الصواب أحياناً إذا لم يهتد بالسير على منهج الشرع ، وكان لتحكيم العقل عند المعتزلة أثاره السيئة التى انحرفوا بها عن جادة الصواب ، فأردت أن أبرز تلك المخالفات العقلية ، وأقوم بالرد عليها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً مبيناً أن الدين لا يؤخذ بالرأى فيما ثبت فيه النص

-أردت أن أسهم إلى أرفف المكتبة الإسلامية بموضوع لعله من الموضوعات المهمة - ولعل الله ينفع قارعه . ويثيب كاتبه ..

وهناك اسباب أخرى ستتضح من خلال كتابتى .

وأسأل الله أن ييسر لى أمرى ويحقق لى قصدى إنه على كل شئ قدير ، وبالإجابة جدير وإنه نعم المولى ونعم النصير

منهجى فى البحث

- ١- اعتمد إعتماً كلياً على الآيات القرآنية التى أبطلت مزاعم المعتزلة فهى الأصل فيما أكتب .
 - ٢- دعمت ما توصلت إليه من أبحاث من خلال القرآن بالأحاديث النبوية الصحيحة .
 - ٣- استعنت فى إعداد هذا البحث بأمهات كتب التفسير المعتمدة وكذلك كتب الأحاديث المعتمدة وعلى شروح السنة المعتمدة . واستعنت ببعض كتب السيرة والتاريخ .
 - ٤- استعنت فى إعداد هذا البحث بما كتبه الباحثون المحدثون فى بعض الفرق الإسلامية .
 - ٥- قمت بعزو النصوص إلى مصادرها والآيات إلى سورها مبيناً رقم الصفحة والجزء والطبعة - ذكراً اسم السورة ورقم الآية .
 - ٦- قمت بتشكيل وضبط الآيات القرآنية .
 - ٧- قمت بعزو الأحاديث إلى مصادرها ذكراً اسم الكتاب والباب ورقم الحديث - عدا الأحاديث التى رواها الإمام مسلم فإن النسخة التى بين يدي غير مرقمة أحاديثها - كما ذكرت صحة الحديث والحكم عليه ... فما رواه الترمذى ذكرت حكمه من حيث إنه صحيح أو حسن أو حسن صحيح إلى غير ذلك من المصطلحات التى أطلقها الترمذى والتى هى معروفة عند علماء الحديث وما سكت عنه ابو داود عزوته إليه مطمئناً أنه حديث صالح حيث معروف لدى المحدثين أن ما سكت عنه ابو داود فهو صالح وما كان فيه وهن شديد أو لا يصلح سنده بينه .. وما سكت عنه الترمذى ذكرت أنه سكت عنه ..
- وما تحدث عنه النسائى ذكرت حديثه وهكذا ..
- أما ما رواه الشيخان فإنى اكنفيت بعزو الحديث إلى أحدهما أو كلاهما -

حسب ما يقتضى الحديث - دون حكم عليه إذا جمعت الأمة على صحة ما
فى الصحيحين

خطتى فى البحث

جاءت خطة هذا البحث مكونة من :-

مقدمة - وتمهيد وستة فصول بعضها مقسم إلى مباحث وخاتمة :

أما المقدمة فإنى ذكرت فيها الأسباب التى دفعتنى إلى اختيار هذا الموضوع

- والمنهج الذى سرت عليه ...

وأما التمهيد فإنى ذكرت فيه نبذة صغيرة عن حياة العرب قبل الإسلام - ثم

عن معايشة الصحابة رسول الله " صلى الله عليه وسلم " وعن بعض ما كانوا

يسألون عنه وما لا يسألون ... ثم ذكرت تدرج الخلاف ونموه بعد حياة

الصحابة حتى كانت الفرق الإسلامية .. والتى منها فرقة المعتزلة ...

الفصل الأول :- (نشأة المعتزلة) وقد جعلته مبحثين .

المبحث الأول : نشأة المعتزلة

المبحث الثانى : فرقة المعتزلة

الفصل الثانى :- (التوحيد) وهو يتكون من ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : حكم رؤية الله فى الدنيا والأخرة

المبحث الثانى : الصفات ليست شيئاً غير الذات

المبحث الثالث : خلق القرآن

الفصل الثالث :- (العدل) ويتكون من ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : العبد خالق لأفعال نفسه

المبحث الثانى : الله لا يريد الشر والقبائح

المبحث الثالث : وجوب فعل الصلاح على الله لعباده ...

الفصل الرابع :- (الوعد والوعيد) .

الفصل الخامس :- (المنزلة بين المنزلتين) .

الفصل السادس :- (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) .

أما الخاتمة : فإني ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث .. والوصايا التي أذكر بها المسلمين عسى الله أن ينفع بها
ثم قائمة المراجع والفهرست ..

هذا .. وإني لأدعو الله تعالى أن ينال بحثي أهمية في المكتبة الإسلامية كما أدعوه سبحانه أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل : " اللهم إني أعوذ بك من كل عمل جعلته لك فخالطني فيه ما ليس لك " ...

والله أسأل أن ينفعني بهذا البحث يوم لا ينفع مال ولا بنون .. وأن يكون نجاة لى يوم ينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم
واغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم ؛

تهذيب

كان العرب قبل الإسلام يعيشون فى فوضى عارمة فى شتى مناحى حياتهم - فوضى فى العقيدة ، فوضى فى الإجتماع ، فوضى فى الأخلاق ، فوضى فى كل شئ ثم من الله عليهم بحكمته البالغة وإرادته العالية ، أن بعث فيهم محمد بن عبد الله - رسولا لهم وللناس كافة ، يبين لهم الطريق السوى ويردهم عن كل إعوجاج .

فالله ارتضى لهم الإسلام دينا ، وجعل شريعته أخر شريعة للبشر فقال سبحانه : **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** (١)

ورسول الله "صلى الله عليه وسلم" بلغ كل شئ عن ربه مما يخص البشرية فى دينها ودنياها ، وعلم أمته كل شئ حتى قضاء الحاجة ... وكان الصحابة "رضى الله عنهم" - يسألون رسول الله "صلى الله عليه وسلم" - عن كبير الأمر وصغيره ، حتى جماع الرجل زوجته

وكان القرآن الكريم ، والرسول العظيم المورد المورد للصحابة الكرام فإذا حزمهم أمر أو نزل بهم شئ نظروا فى كتاب الله تعالى ، أو ذهبوا إلى رسول الله "صلى الله عليه وسلم"

وبعد وفاته "صلى الله عليه وسلم" وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، ظل الصحابة والتابعون من بعدهم وأتباع التابعين عاكفين على كتاب الله قراءةً وتفسيراً ... "وجرى التفسير منذ زمن النبوة إلى زمن أتباع التابعين على طريقة تكاد تكون واحدة ، فخلف كل عصر يحمل التفسير عن سلف بطريقة الرواية

والسمع ، وفي كل عصر من هذه العصور ، تتجدد نظرات تفسيرية ، لم يكن لها وجود قبل ذلك ، وهذا راجع إلى أن الناس كلما بعدوا عن عصر النبوة ازدادت نواحي الغموض في التفسير فكان لابد للتفسير أن يتضخم كلما مرت عليه السنون ولم يكن هذا التضخم في الحقيقة إلا محاولات عقلية ، ونظرات اجتهادية ، قام بها أفراد ممن لهم عناية بهذه الناحية - غير أن هذه الناحية العقلية في التفسير لم تخرج عن قانون اللغة ، ولم تتخط حدود الشريعة ، بل ظلت محتفظه بصيغتها العقلية والدينية ، فلم تتجاوز دائرة الرأي المحمود إلى الرأي المذموم الذي لا يتفق وقواعد الشرع ... وظل الأمر على ذلك إلى أن قامت الفرق المختلفة ، وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة ، ووجد من العلماء من يحاول نصره مذهب والدفاع عن عقيدته بكل وسيلة وحيلة وكان القرآن هو هدفهم الأول الذي يقصدون إليه جميعاً ، كل يبحث في القرآن ليجد فيه ما يقوى رأيه ويؤيد مذهبه ، وكل واجد ما يبحث عنه ولو بطريق إخضاع الآيات القرآنية لمذهبه ، والميل بها مع رأيه وهواه ، وتأويل ما يصادمه منها تأويلاً يجعلها غير منافية لمذهبه ولا متعارضة معه ، ومن هنا بدأ الخروج عن دائرة الرأي المحمود إلى دائرة الرأي المذموم ، واستفحل الأمر إلى حد جعل البعض يتسعون في حماية عقائدهم ، والترويج لمذاهبهم ، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله على وفق أهوائهم ، ومقتضى نزعاتهم ونحلهم ! (١)

ثم أخذ هذا الخلاف والتفرق يتدرج شيئاً فشيئاً ، وينمو حيناً بعد حين حتى ظهرت الفرق المتعددة والتي خرجت من دائرة النقل إلى الرأي المذموم التي

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهني ص ٣٤٣ - ٣٤٤

كان منها فرقة: الخوارج^(١) الشيعة^(٢) وسموا بالشيعة لأنهم شايعوا علياً
رضى الله عنه " وكانوا

يقدمونه على سائر أصحاب رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ^(٣)

(١) هم الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب (رضى الله عنه) - بعد أن قبل التحكيم في معركة صفين وأبى قتالهم بعد التحكيم رغم إنه (رضى الله عنه) - قبل التحكيم نزولاً على رأيهم لذلك قال لهم : قد أبيت عليكم في أول الأمر فأبيتم إلا إجابتهم إلى ما سألوا ، وأجبناهم وأعطيناهم العهود والمواثيق وليس يسوغ لنا الغدر ، فأبوا إلا خلعه وإكفاره بالتحكيم ، وخرجوا عليه فسموا خوارج - انظر هامش مقالات الإسلاميين ج ١ / ٦٤ يتعرف وتقديم وتأخير ...

(٢) الشيعة كانوا في حياة الإمام علي "رضى الله عنه" - ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : منهم يرون إمامة إبي بكر وعمر وعثمان إلى أن غير السيرة وأحدث الأحداث ، وهم الجمهور الأعظم الكثير .

الفرقة الثانية : يرون الإمام بعد رسول الله "صلى الله عليه وسلم" - أبا بكر ثم عمر ثم علياً ، ولا يرون لعثمان إمامة ، ، قال أحدهم :

وله في رقاب الناس عهد وبيعه كعهد أبي حفص وعهد أبي بكر

وكان في الصدر الأول لا يسمى شيعياً إلا من قدم علياً على عثمان ولذلك قيل : شيعي وعثماني ، فالشيعي : من قدم علياً على عثمان ، والعثماني من قدم عثمان على علي . وهذه الفرقة أقل من السابقة عدداً .

الفرقة الثالثة : وهي يسيرة العدد جدا ، يرون علياً أولى بالإمامة بعد رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ويرون إمامة أبي بكر وعمر كانت من الناس على وجه الرأي والمشورة ، ويصوبونهم في رأيهم ، ولا يخطؤونهم، إلا أنهم يقولون : أن إمامة علي كانت أصوب وأصلح - هامش مقالات الإسلاميين ج ١ / ٦٥- ٦٦ تحقيق محمد محي

الدين عبد الحميد

(٣) مقالات الإسلاميين ابو الحسن الأشعري ج ١ / ٦٥

والمرجئه^(١) والمعتزلة : وهى التى ستكون محل بحثنا بمشيئة الله تعالى ..

(١) المرجئة : الذين يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة -
وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى القيامة فلا يقضى عليه بحكم فى الدنيا
من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار ،، انظر الملل والنحل للشهر ستانى حـ ١/
١٨٦ ط دار المعرفة - بيروت - لبنان

الفصل الأول

نشأة المعتزلة

ويتكون من مبحثين :

المبحث الأول : نشأة المعتزلة

المبحث الثاني : فرق المعتزلة

نشأة المعتزلة

نشأت هذه الفرقة في العصر الأموي ، ولكنها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحا طويلا من الزمن .
والمعتزلة أتباع واصل بن عطاء^(١) أحد تلاميذ الحسن البصري - " رحمه الله ومن أتباعه المقربين لكن اختلف معه في مرتكب الكبيرة حيث قام من مجلس بعد أن قال ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ثم جلس في مجلسه آخر وأخذ يقرر رأيه على من انضم إليه ويقول: (إن مرتكب الكبيرة ليس

(١) هو واصل بن عطاء البصري الغزال - لقب بالغزال لأنه كان يلزم حوانيت الغزالين - المتكلم البليغ المتشدد الذي كان يلثغ بالراء نقل عنه أنه هجر الراء وتجنبها في خطابه سمع من الحسن وغيره. قال أبو الفتح الأزدي: رجل سوء كافر. لكن ابن حجر لم يرتض هذا القول في واصل فرد على أبي الفتح يقول :

" قلت كان من أجلاء المعتزلة ولد سنة ثمانين بالمدينة ومما قيل فيه:

ويجعل البر قمحا في تصرفه وخالف الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق مطرا والقول يعجله فعاد بالغيث إشفاقا من المطر

وقال المسعودي : وهو قديم المعتزلة وشيخها وأول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين - . وكنيته أبو حذيفة . وله من التصانيف كتاب "أصناف المرجئة" وكتاب في التوبة "وكتاب في المنزلة بين المنزلتين" وكتاب "خطبته" التي أخرج منها الراء "وكتاب معاني القرآن" وكتاب الخطب في التوحيد والعدل "وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد" وكتاب "السبيل إلى معرفة الحق" وكتاب في الدعوة " وكتاب "طبقات أهل العلم والجهل" : ... وغير ذلك . توفي في سنة إحدى وثمانين ومائه .

انظر لسان الميزان للحافظ ابن حجر العسقلاني ٦/ ١٢٤ - ٢١٥

بتصرف وتقديم وتأخير في العبارات ط مجلس دار المعارف النظامية وانظر وفيات

الأعيان لابن خلى كان ٦/ ١١ ط دار الثقافة بيروت - لبنان

بمؤمن ولا كافر بل هو فى منزلة بين المنزلتين معللا ذلك بأن مؤمن اسم مدح والفاسق لا يستحق اسم المدح فلا يكون مؤمنا وليس بكافر أيضا لإقراره بالشهادتين ، ولوجود سائر أعمال الخير فيه فإذا مات بلا توبة خلد فى النار إذ ليس فى الأخرة إلا فريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير ولكن يخفف عنه وتكون دركاته فوق دركات الكفار^(١)

والإعتزال نشأ فى البصرة ، ولكن سرعان ما انتشر فى العراق ، واعتنقه من خلفاء بنى أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، وفى العصر العباسي استفحل أمر المعتزلة ، واحتلت أفكارهم وعقائدهم من عقول الناس وجدل العلماء مكانا عظيما ، ومالبت ان تكونت للأعتزال مدرستان :

مدرسة البصرة وعلى رأسها واصل بن عطاء ، ومدرسة بغداد وعلى رأسها بشر بن المعتمر ، وكان بين معتزلى البصرة ، ومعتزلى بغداد جدال وخلاف فى كثير من المسائل^(٢)

وكان المعتزلة أسرع الفرق للإفادة من الفلسفة اليونانية وصبغتها صبغة إسلامية ، والإستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم ، وكان من أشهر من استخدم الفلسفة فى ذلك ابو الهذيل والنظام و الجاحظ^(٣)

هذا والمعتزلة يرون أن مذهبهم أقدم فى نشأته من واصل فيعدون من رجال مذهبهم كثيرين من آل البيت ، ويعدون من مذهبهم أيضا الحسن البصرى^(٤)

(١) الملل والنحل للشهر ستانى حـ ٦١/١ ط دار المعرفة

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبى حـ ١ / ٣٤٩

(٣) فجر الاسلام لأحمد أمين صـ ٢٩٩ ط مكتبة النهضة المصرية .

(٤) هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى ، كان من سادات التابعين وكبرائهم ،

وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة ، وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصارى //

فقد كان يقول فى أفعال الإنسان مقالة القدريّة وهى مقالتهم ، ويقول كلاما فى مرتكب الكبيرة يقارب كلامهم وليس مناقضا له إذ أنه يقول إنه منافق وبذلك لا يتباعد منهم ، إذ أن المنافق مخلد فى النار ولا يعد من أهل الإيمان^(١) ويؤيد القول بأن مذهبهم أقدم فى نشأته من واصل الإمام محمد أبو زهرة فيقول : والذى نراه أن المذهب أقدم من واصل وأن كثيرين من آل البيت قد

﴿"رضى الله عنه" ، وأمة خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي "صلى الله عليه" وربما غابت فى حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة "رضى الله عنها" - ثديها تعلله به إلى أن تجئ أمه ، فدر عليه ثديها فشربه ، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك قيل له أنك تقول قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" - ولم تدركه . فقال كل شئ أقول قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" - فهو عن علي بن أبي طالب غير أنى فى زمان لا أستطيع أن أذكر علياً - يعنى زمان الحجاج .

روى عن أبي بن كعب وسعيد بن عباد وعمر بن الخطاب وغيرهم وروى عنه حميد الطويل ويزيد بن أبي مريم وأيوب وقتاده وبكر بن عبد الله المزني وآخرون . . . وهو شيخ أهل البصرة قال عنه أنس سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا ، وقال أبو عوانة عن قتادة ما جالست فقيها قط إلا رأيت فضل الحسن عليه . . . ومناقب الحسن كثيرة ومحاسنه غزيرة ، وعلومه مشهورة .. كان مولده لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة وتوفى بالبصرة فى رجب سنة عشر ومائة "رضى الله عنه" وكانت جنازته مشهورة توفى عشية الخميس وفرغوا من أمره بعد صلاة الجمعة فلم يصل أحد العصر بالمسجد لأن الناس كلهم تبعوا جنازة الحسن ولم تترك صلاة العصر بالجامع منذ جاء الإسلام إلا يومئذ . انظر وفيات الأعيان حـ ٤ / ٦٩ -

٧٢ . وتهذيب التهذيب لابن حجر حـ ٢ / ٢٦٣ ط دار صاد - بيروت

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد أبو زهرة ص ١١٨-١١٩ .

نهجوا مثل نهجه كزید بن علی الذی كان صديقا لواصل^(١) وهذا رأى أراه بعيدا عن الصواب حيث إن المعتزلة نشأت فى أواخر العصر الأموى ، وانتشرت وظهرت بقوة فى العصر العباسى - كما سبق أن ذكرنا - وأن مذهب الجمهور أن مؤسس هذه الفرقة وشيخها الأول واصل بن عطاء الذى ولد سنة ثمانين من الهجرة . كما سنبين ان شاء الله .

ثم إن للمعتزلة أصولا خمسة ، هذه الأصول لابد أن تتوافر فى الفرد حتى يكون معتزليا . يقول أبو الحسين الخياط المعتزلى فى كتابه الإنتصار : " وليس يستحق أحد اسم الإعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإذا كملت فى الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلى . وأما من سوى ذلك فليس تفنقر المعتزلة إلى إضافتهم إلى أنفسهم ولا إلى إدخالهم فى جملتهم .^(٢) ولا أظن أن كان بين الأمة خلاف - قبل ظهور واصل بن عطاء - فى فساد قول من زعم أن مذنبى المقرين بالشهادتين ليسوا بمؤمنين ولا كافرين ولا منافقين - خلافا للخوارج الذين كفروا كل مذنب ولو نطق بالشهادتين

وكذلك زعمهم أن الحسن البصرى منهم بحجة أن قال عن مرتكب الكبيرة منافق غير مسلم به .

فليس كل منافق مخلدا فى النار وإنما هناك نفاق العقيدة وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله واليوم الآخر ويبطن ما ينافى ذلك كله - وهذا الذى ذمه

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد أبو زهرة ص ١١٩

(٢) الإنتصار ص ١٢٧ بتصرف ط دار الندوة الإسلامية بيروت لبنان سنة ١٩٨٧

القرآن وكفر صاحبه . قال تعالى : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ
وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا
مُذَبذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ
سَبِيلًا " (١) وقال سبحانه: " إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَمْ تَجِدْ
لَهُمْ نَصِيرًا " . (٢)

وهناك نفاق العمل وهو أن يظهر الإنسان صالح العمل ويبطن خلاف ذلك
وهذا وإن كان مذموماً إلا أن صاحبه مسلم وغير مخلد في النار . فقد ثبت
في الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله
"صلى الله عليه وسلم" . أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه
خلةٌ منهن كانت فيه خلةٌ من نفاق حتى يدعها . إذا حدث كذب وإذا عاهد
غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر (٣)

قال النووي رحمه الله : أجمع العلماء على أن من كان صادقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه
الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق يخلد في النار ، فإن إخوة يوسف "صلى الله
عليه وسلم" جمعوا هذه الخصال وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله (٤)
وقال ابن رجب الحنبلي " رحمه الله " : وهو - أي النفاق - في الشرع ينقسم إلى قسمين
أحدهما النفاق الأكبر . وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه وهذا هو النفاق الذي كان على عهد
رسول الله

(١) سورة النساء آيتان ١٤٢ - ١٤٣

(٢) سورة النساء آية ١٤٥

(٣) رواه مسلم حـ ٢ / ٤٦ كتاب الإيمان باب خصال المنافقين - المطبعة المصرية

(٤) شرح النووي حـ ٢ / ٤٦

"صلى الله عليه وسلم". ونزل القرآن بدم أهله وتكفيرهم . وأخبر أن أهله
فى الدرك الأسفل من النار .

والثانى النفاق الأصغر ، وهو نفاق العمل وهو أن يظهر الإنسان علانية
صالحه ويبطن ما يخالف ذلك ^(١) ويؤيد هذا النووى "رحمه الله" : فيقول فى
شرح صحيح مسلم : (فالذى قاله المحققون والأكثررون وهو الصحيح المختار
أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين فى هذه
الخصال ومتخلق بأخلاقهم فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه وهذا المعنى
موجود فى صاحب هذه الخصال ويكون نفاقه فى حق من حدثه ووعد
واتممه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق الإسلام فيظهره وهو
يبطن الكفر ولم يرد النبى صلى الله عليه وسلم" . بهذا أنه منافق نفاق الكفار
المخلدن فى الدرك الأسفل من النار ^(٢)

وفى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم أن "النبى صلى الله عليه وسلم" ،
قال: "يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ
شَعِيرَةً ثُمَّ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا
يَزِنُ بَرَّةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا
يَزِنُ ذَرَّةً ^(٣) وَمَنْ هُنَا يَتَّبِعِينَ أَنْ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ - بعيد عن مذهب
المعتزلة حتى وإن كان قد قال : إن مرتكب الكبيرة منافق فإن المنافق نفاقاً
عملياً لا يخلد فى النار كما وضح من الأدلة التى ذكرها العلماء من أهل السنة
والجماعة - وهذا بخلاف ما يعتقد أهل المعتزلة من أن المنافق نفاق عقيدة

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص ٥٢٠ - ٥٢١ ط دار مصر للطباعة

(٢) شرح النووى ج ٢ / ٤٧

(٣) مسلم ٦٠٩/٣ كتاب الإيمان باب الشفاعة

أو عمل مخلد في النار مثله كمثل الكافر وإن نطق بالشهادتين ومما يدل على أن الحسن البصرى لا يؤمن بفكر المعتزلة ما رواه ابن خليكان في كتاب وفيات الأعيان :

أن رجلاً أتى الحسن فقال يا أبا سعيد إنى حلفت بالطلاق أن الحجاج في النار فما تقول؟! أقيم مع إمراتي أم أعتزلها؟ فقال له : قد كان الحجاج فاجراً فاسقاً وما أدري ما أقول لك ، إن رحمت الله وسعت كل شيء ، وأن الرجل أتى محمد بن سيرين فأخبره بما حلف فرد عليه شبيهاً بما قاله الحسن ، وإنه أتى عمرو بن عبيد^(١) فقال له: أقم مع زوجتك فإن الله إن غفر للحجاج لم يضرك الزنا^(٢)

قلو كان الحسن يعتقد مذهب الإعتزال لأفتى السائل أن زوجه حلال ولا شيء عليه إذ أن الحجاج مرتكب كبيرة ومن ثم فهو مخلد في النار " على مذهب الإعتزال " ولذلك لم يتردد عمرو بن عبيد المعتزلى حتى أفتى السائل أن يقيم مع زوجه لإعتقاده أن الحجاج في النار وكأنه يرى أن الله عز وجل إذا غفر للحجاج الذى قتل وسجن فلا بد أن يغفر للسائل الذى زنى ! .

(١) عمرو بن عبيد أول من انضم إلى واصل بن عطاء في تأييد المعتزلة وسوف نذكر

له ترجمة عند الحديث عن بعض فرق المعتزلة إن شاء الله

(٢) وفيات الأعيان حـ ٢ / ٧٠ ط دار الثقافة بيروت - لبنان

أو عمل مخلد في النار مثله كمثل الكافر وإن نطق بالشهادتين ومما يدل على أن الحسن البصرى لا يؤمن بفكر المعتزلة ما رواه ابن خليكان في كتاب وفيات الأعيان :

أن رجلاً أتى الحسن فقال يا أبا سعيد إنى حلفت بالطلاق أن الحجاج في النار فما تقول؟! أقيم مع إمراتي أم أعتزلها؟ فقال له : قد كان الحجاج فاجراً فاسقاً وما أدري ما أقول لك ، إن رحمت الله وسعت كل شيء ، وأن الرجل أتى محمد بن سيرين فأخبره بما حلف فرد عليه شبيهاً بما قاله الحسن ، وإنه أتى عمرو بن عبيد^(١) فقال له : أقم مع زوجتك فإن الله إن غفر للحجاج لم يضرك الزنا^(٢)

قلو كان الحسن يعتقد مذهب الإعتزال لأفتى السائل أن زوجه حلال ولا شيء عليه إذ أن الحجاج مرتكب كبيرة ومن ثم فهو مخلد في النار " على مذهب الإعتزال " ولذلك لم يتردد عمرو بن عبيد المعتزلى حتى أفتى السائل أن يقيم مع زوجه لإعتقاده أن الحجاج في النار وكأنه يرى أن الله عز وجل إذا غفر للحجاج الذى قتل وسجن فلا بد أن يغفر للسائل الذى زنى ! .

(١) عمرو بن عبيد أول من انضم إلى واصل بن عطاء في تأييد المعتزلة وسوف نذكر

له ترجمة عند الحديث عن بعض فرق المعتزلة إن شاء الله

(٢) وفيات الأعيان حـ ٢ / ٧٠ ط دار الثقافة بيروت - لبنان

سبب تسميتهم بالمعتزلة

يرجع سبب تسميتهم بالمعتزلة إلى أمور يستطيع الإنسان ^{أن} يتبينها من مطالعته لما كتب عن المعتزلة ومن خلال القراءة المتأنية في المصادر المعنية بذلك خرجت بالوجوه الآتية:

أولاً : إعتزالهم مجلس الحسن البصرى ومخالفتهم قول الأمة في مرتكب الكبيرة حيث يقول الشهرستاني : دخل واحد على الحسن البصرى فقال : ياإمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة. فكيف تحكم لنا في ذلك إعتقاداً ؟ ففكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر . ثم قام وإعتزل إلى إسطوانة من إسطوانات المسجد : يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فسمى هو وأصحابه معتزلة (١)

ثانياً : يرى بعض العلماء أن المراد بالمعتزلة إعتزال أمور السياسة والإنشغال بالعبادة، وأنها بدأت في قوم من أصحاب على " رضى الله عنه " عندما نزل الحسن بن على " رضى الله عنهما " عن الخلافة لمعاوية بن أبى

(١) الملل والنحل ص ٢٢-٢٣ للشهرستاني ج ١ مؤسسة ناصر للثقافة بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م

سفيان "رضى الله عنهما" وسلم الأمر إليه.: إعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس ، ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشغل بالعلم والعبادة (١) وهناك رأى للمستشرقين أراه بعيداً جداً عن الصواب ولكن لا بأس من ذكره يقول بعض المستشرقين : "أنهم سموا أنفسهم معتزلة لأنهم كانوا رجالاً أتقياء متقشفين ضاربي الصفح عن ملاذ هذه الحياة (٢) ولعله يرى أن سبب تسميتهم بذلك إعتزالهم ملاذ الحياة . وسيوضح تفاهة هذا الرأى من خلال كتابتنا عنهم فى الرسالة إن شاء الله. هذا والذى أراه أقرب إلى الصواب وأولى بالقبول الرأى الأول أما الرأى الثانى القائل بأنهم اعتزلوا السياسة والخلافة ولزموا المساجد فغير جدير بالقبول حيث إن المعتزلة ضربت بجذورها فى أمور السياسة فى عهد الدولة العباسية ، واتهموا من لم يوافقهم الرأى من كبار الفقهاء بالضلال بل وبالكفر - كما قالوا ذلك فى الإمام أحمد بن حنبل وغيره "رضى الله عنه"

وسوف نذكر ذلك فى حينه إن شاء الله - والقول بهذا يؤيد من قدم المعتزلة ووجودها فى عصر الصحابة وهذا ما أنكرناه من قبل أما رأى المستشرقين فإنه لا يصح حيث ليس كل المنتسبين لهذه الفرقة متحلّين بالزهد والتقوى ، بل كان منهم المتقون ، ومنهم المتهمون بالمعاصى ، ومنهم الأبرار ومنهم الفجار والذى تميل إليه النفس ويؤيده الجمهور أن هذا الإسم كان بسبب إعتزال واصل مجلس الحسن البصرى ، وقول الحسن إثر ذلك اعتزلنا واصل.

(١) تاريخ المذاهب للإمام محمد أبو زهرة ص ١١٨

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية أبو زهرة ص ١١٩

يقول صاحب مروج الذهب "عن واصل بن عطاء" - وهو قديم المعتزلة
 وشيخها وأول من أظهر القول بين المنزلتين (١)
 يقول الدكتور / الذهبي "رحمه الله :

...ثم ظهر في زمن الحسن البصرى بالبصرة ،خلافُ واصل بن عطاء في
 القدر ، وفي القول بالمنزلة بين المنزلتين ، ومجادلته للحسن البصرى في
 ذلك، واعتزاله مجلسه ، ومن ذلك الوقت ظهرت فرقة المعتزلة . (٢) ويقول
 الشهر ستانى عن واصل بن عطاء . " وهو مؤسس فرقة المعتزلة ورئيسها
 الأول " . (٣)

(١) لسان الميزان لابن حجر حـ ٢١٥/١ ط مجلس دار المعارف النظامية

(٢) التفسير والمفسرون حـ ٣٤٥/١

(٣) الملل والنحل للشهر ستانى حـ ٢٢ ط مؤسسة ناصر للثقافة ببيروت - ولبنان

التسميات الأخرى للمعتزلة

للمعتزلة أسماء وألقاب أخرى غير هذا الاسم فإنهم :

(يسمون أصحاب العدل

والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية والعدلية ، وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً ، وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، احترازاً من وصمة اللقب ، إذ كان الذم به متفقاً عليه لقوله النبي "صلى الله عليه وسلم" "القدرية مجوس هذه الأمة" (١).

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني ص ٢١ والحديث رواه أبو داود ونصه: "حدثنا موسى بن اسماعيل أخبرنا عبد العزيز بن أبي حازم قال حدثني عن أبيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم" قال : القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم . سنن أبي داود ح ٢٢٢/٤ باب في القدر . حديث رقم ٤٦٩١ ط دار الفكر ورواه ابن ماجه ح ٣٥/١ المقدمة باب القدر (١٠) حديث رقم ٩٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار إحياء الكتب . قال المنذرى : هذا منقطع . أبو حازم سلمه بن دينار لم يسمع من ابن عمر . وقال الحافظ ابن حجر هذا الحديث حسن الترمذى وصححه الحاكم ورجاله من رجال الصحيح إلا أن له علتين :

الأولى : الإختلاف فى بعض رواته عن عبد العزيز بن أبي حازم وهو ذكرى ابن منظور فرواه عن عبد العزيز بن أبي حازم فقال : عن نافع عن ابن عمر . والآخرى ما ذكره المنذرى وغيره من أن سنده منقطع لأن أبي حازم لم يسمع من ابن عمر فالجواب عن الثانية إن أبا الحسن بن القطان القابس الحافظ صحح سنده فقال : إن أبا حازم عاصر ابن عمر فكان معه فى المدينة ، ومسلم يكتفى فى الإتصال بالمعاصرة فهو صحيح على شرطه . انظر عون المعبود بشرح سنن أبي داود لآبى //

ولقد سماهم المسلمون قدرية لأنهم زعموا - كما يقول البغدادي - أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم وأنه ليس لله عز وجل في أكسابهم ولا في أعمار سائر الحيوانات صنع ولا تقدير. (١) فهم يستندون أفعال العباد إلى قدرتهم ، وينكرون القدر فيها (٢)

ويلقبون بالمعطله لأنهم يعتقدون نفي صفات المعاني فيقولون : الله عالم بذاته ، قادر بذاته حى بذاته لا بعلم وقدره وحياة. (٣)

الطيب محمد شمس الحق العظيم أبادى تحقيق عبد الحمن محمد عثمان حـ ٤٥٣/٢
ط دار الفكر الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(١) الفرق بين الفرق ص ٩٤ ج ١ دار الجبل

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ / ٣٤٨

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ص ٢١، وانظر التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي

حـ ٣٤٩ / ١

المبحث الثاني : فرق المعتزلة

فرق المعتزلة

افترقت المعتزلة - فيما بينها - عشرين فرقة كل فرقة منها تكفر
سائرهما وهن:

الواصلية - العمرية - الهديلية - النظامية - الأسوارية - المعمرية --
الإسكافية - الجعفرية - البشرية - المردارية - الهشامية - التمامية -
الجاحظية - الخابطية - الحمارية - الخياطية - أصحاب صالح قبه -
المريسيه - الشحامية - والكعبية - والجبائية - البهشمية المنسوبة إلى
أبي هاشم بن الجبائي فهذه ثنتان وعشرون فرقة ثنتان منها ليستا من فرق
الإسلام وإنما من فرق الغلاة في الكفر وهما الخابطية والحمارية^(١)
وهذه نبذه صغيرة عن بعض هذه الفرق الإعتزالية :

(١) الفرق بين الفرق عبد القادر البغدادي ص ١٨ ، ٩٣

١- الواصلية : أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الأثغ كان تلميذاً للحسن البصرى يقرأ عليه العلوم والأخبار وكان فى أيام عبد الملك بن مروان ، وهشام بن عبد الملك ، وبالمغرب شردمة قليلة فى بلد إدريس بن عبد الملك الحسن الذى خرج بالمغرب أيام أبى جعفر المنصور (١)

واعتزال هذه الفرقة يدور على أربع قواعد :

القاعدة الأولى : القول بنفى صفات البارى تعالى ، من العلم والقدرة والإرادة والحياة ، وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر وهو الإتفاق على إستحالة وجود إلهين قديمين أزليين .

قال : ومن أثبت معنى صفة قديمة فقد أثبت إلهين (٢)

القاعدة الثانية : القول بالقدر : وسلخوا فى ذلك مسلك معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى (٣) وقرر واصل بن عطاء هذه القاعدة أكثر مما كان يقرر قاعدة الصفات . فقال :

إن البارى تعالى حكيم عادل ، لا يجوز أن يضاف إليه شر . ولا ظلم ، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر . (٤)

(١) الملل والنحل للشهرستانى ص ٢٢ ج ١ : مؤسسة ناصر للثقافة

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

(٣) غيلان الدمشقى : قال بنفى القدر وبالغ فيه وقد همّ عمر بن عبد العزيز بقتله لولا أن تراجع غيلان عن رأيه وأعلن توبته منها . ولكنه عاد إلى الكلام عن نفى القدر وأسرف فى ذلك إسرافاً عظيماً فى أيام هشام بن عبد الملك الذى كان شديداً على القدرية... وقد أظهر غيلان تمسكاً شديداً بأرائه فأمر هشام بصلبه على باب دمشق

انظر الملل والنحل للشهرستانى ص ٢٢

(٤) الملل والنحل ص ٢٢

القاعدة الثالثة : القول بالمنزلة بين المنزلتين هذه القاعدة من أهم صفات المعتزلة لا سيما الواصيلية منهم فأول من أعتقد ذلك واصل بن عطاء حيث قال :

(أنا لا أقول إن مرتكب الكبيرة مؤمن مطلقاً ، ولا كافر مطلقاً بل هو في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى إسطوانة من إسطوانات المسجد يقرر أن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمى المرء مؤمناً وهو اسم مدح والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمناً وليس بكافر مطلقاً أيضاً ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه ، ولا وجه لإنكارها .

لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة ، فهو من أهل النار خالد فيها . إذ ليس في الآخرة إلا فريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير ، لكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار (١)

القاعدة الرابعة : قوله - أي واصل بن عطاء - في الفريقين من أصحاب الجمل - وأصحاب صفين إن أحدهما مخطئ لا بعينه - وكذلك قوله في عثمان وقاتليه وخاذليه - قال : إن أحد الفريقين فاسق لا محالة ، كما أن أحد المتلاعنين فاسق لا محالة . لكن لا بعينه . وأقل درجات الفريقين أنه لا تقبل شهادتهما كما لا تقبل شهادة المتلاعنين . فلا يجوز قبول شهادة عليّ ، وطلحة ، والزبير على باقة بقل - وجوز أن يكون عثمان وعليّ على الخطأ ، ووافقهم عمرو بن عبيد (٢) على مذهبه وزاد عليه في تفسيق أحد

(١) المرجع السابق ص ٢٢-٢٣

(٢) هو عمرو بن عبيد بن باب يكنى أبا عثمان مولى بنى تميم ، وقيل بنى عقيل - حيث جاء في كتاب وفيات الأعيان كان مولى ابن عقيل ثم آل عرادة بن يربوع بن

مالك كان جده من سبى كابل ، وكان شيخ المعتزلة فى وقتها وفتيها ، وله
خطب ورسائل وكلام كثير فى العدل والتوحيد وغير ذلك وكان عمرو بن
عبيد على قدر كبير من الورع والأدب والتقوى والجرأة فى الحق لا يخاف
الأمراء ولا تغريه الأموال . أما عن أدبه وتقواه فإن الحسن البصرى سئل
عنه فقال للسائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكان الأنبياء
ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشئ كان ألزم
الناس له ، وإن نُهى عن أمر كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه
بباطن ولا باطناً أشبه بظاهر منه . ومما يدل على جرأته فى الحق وأنه لا
يخاف الامراء مع التحلى بالورع فذاك الموقف الفريد الذى يدل على قوة إيمانه
و على عظيم ورعه وزهده وهو أنه : (دخل على أبى جعفر - أبى المنصور
- وكان أمير المؤمنين فى ذلك الوقت ، وكان صاحبه وصديقه قبل الخلافة
و ا معه مجالس وأخبار ، فقربه وأجلسه ، ثم قال له عظى فوعظه بمواعظ
منها : إن هذا الأمر الذى أصبح فى يدك لو بقى فى يد غيرك ممن كان قبلك
لم يصل إليك ، فأحذرك ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده . فلما أراد النهوض
قال : أمرناك بعشرة آلاف ، قال لا حاجة لى فيها ، قال أبو جعفر والله
لتأخذها ، قال لا والله لا أخذها . وكان المهدي ولد المنصور حاضراً ، فقال :
يحلف أمير المؤمنين ، وتحلف أنت؟! فألنفت عمرو إلى المنصور وقال :
من هذا الفتى ؟ فقال هذا المهدي ولدى وولى عهدى فقال : أما لقد ألبسته
لباساً ما هو من لباس الأبرار وسميته بأسم ما استحقه ومهدت له أمراً أمتع ما
يكون به أشغل ما يكون عنه . ثم الفت عمرو إلى المهدي وقال : نعم يا ابن
أخى إذا حلف أبوك أحنته عمك ، لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك

فقال له المنصور : هل من حاجة ؟ قال : نعم . قال : ما هي ؟ قال إن لا تبعث إليّ حتى آتى إليك . قال : إذاً لا نلتقى . قال : هي حاجتي فمضى وأتبعه المنصور طرفه ثم قال :

كلكم يمشى رؤيّد كلكم يطلب صيد (١)

غير عمرو بن عبيد

والعجيب في حياة عمرو بن عبيد أن أباه كان يخلف أصحاب الشرط بالبصرة ، فكان الناس إذا رأوا عمراً مع أبيه قالوا : هذا خير الناس ابن شر الناس فيقول أبوه صدقتم ، هذا إبراهيم وأنا آزر . وكانت ولادته سنة ثمانين من الهجرة ، وتوفى سنة أربع وأربعين ومائه وقيل إثنين ، وقيل ثلاث ، وقيل ثمان ، وهو راجع من مكة بموضع يقال له مّرّان ورثاه المنصور بقوله :

صلى الله عليك من متوسّد قبراً مررت به على مّرّان
قبراً تضمن مؤمناً متحنفاً صدقَ الإله ودان بالعرفان
لو أن هذا الدهر أبقى صالحاً أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ولم يسمع بخليفة يرثي من دونه سواه .

ومرّان : بفتح الميم وتشديد الراء موضع بين مكة والبصرة على ليلتين من مكة . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان حـ ٣/١٦٠-١٦٢ ط دار الثقافة - بيروت - لبنان . وانظر مروج الذهب حـ ٣/٣١٤ ط دار المعرفة.

(١) يلاحظ أن قواعد النحو تقتضى أن يكون يمشى رويدا ، يطلب صيدا ، ولكن يبدو أن ضرورة السجع ألزمت أمير المؤمنين أن يجعل القافية على وزن عبيد ليكتمل السجع الذى ظهر بشراهة فى العصر العباسى .

الفريقين لا بعينه بان قال : لو شهد رجلان من أحد الفريقين مثل على ورجل من عسكره ، أو طلحة والزبير لم تقبل شهادتهما ، وفيه تفسيق الفريقين وكونهما من أهل النار (١)

وواصل - غفر الله له - مخطئ في مقولته هذه خطأ غير يسير ، وصدق من قال فيه :

ومقولة ما وصلت بواصل بل قطع الله بها أوصالها . (٢)

وقد افرقت القدرية بعد واصل وعمرو في هذه المسألة فقال النظام ومعمرو والجاحظ في فريقى يوم الجمل بقول واصل وقال حوشب وهاشم الأوقصى نجت القادة وهلكت الأتباع . (٣)

وفى قول كل منهم من الخطأ البيّن ما لا يخفى ..

والذى أعتقده وأطمئن إليه ما قرره أهل السنة والجماعة من :

" تصويب علىّ وأتباعه يوم الجمل وقالوا : إن الزبير رجع عن القتال فلما بلغ وادى السباع قتله بها عمرو بن حرمون غرّةً وبشر علىّ قاتله بالنار وهمّ طلحة بالرجوع فرماه مروان بن الحكم - وكان مع أصحاب الجمل - بسهم قتله . وعائشة "رضى الله عنه" قصدت الإصلاح بين الفريقين فغلبها بنو أزد وبنو ضبة على أمرها حتى كان من الأمر ما كان . ومن قال بتكفير الفريقين أو أحدهما فهو الكافر دونهم هذا قول أهل السنة فيهم والحمد لله على ذلك (٤) . وأرى أن للصحابه "رضى الله عنهم" مكانة بمثابة الحصانة - بتعبير العصر

(١) الممل والنحل ص ٢٣

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٠٠

(٣) المرجع السابق ص ١٠١

(٤) الفرق بين الفرق ص ١٠١-١٠٢

- لا يحق لمسلم أن ينسب إلى أحدهم خطأ مقطوعاً به .. يقول القرطبي "رحمه الله" ولا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ولنهي النبي "صلى الله عليه وسلم" عن سبهم^(١) وأن الله غفر لهم وأخبرنا بالرضا عنهم . هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن طلحة شهيد يمشى على الأرض .^(٢) فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل فيه شهيداً لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من إخبار عليّ بأن قاتل الزبير في النار . وقوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم "

(١) الحديث مروى في الصحيحين ولفظ البخارى عن أبى سعيد الخدرى "رضى الله عنه" عن النبي صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) البخارى حـ ٢٥/٧ كتاب فضائل الصحابة باب لو كنت متخذاً خليلاً " حديث رقم ٣٦٧٣ ومسلم ك فضائل الصحابة (ب) تحريم سب الصحابة حـ ٩٢/١٦

(٢) الحديث رواه ابن ماجه ونصه عن جابر : أن طلحة مر على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " شهيد يمشى على وجه الأرض" وفي رواية . عن معاوية بن أبى سفيان قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم " إلى طلحة فقال : هذا ممن قضى نحبه" انظر سنن ابن ماجه حـ ١٠٤٦/١ المقدمة باب (١١) فضل طلحة بن عبيد الله "رضى الله عنه" - حديث رقم ١٢٥ - ١٢٦ . ط دار أحياء الكتب العلمية تحقيق محمد فؤاد

يقول : " بشر قاتل ابن صفيه بالنار " (١). وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصين ولا آثمين بالقتال ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم " فى طلحة شهيد " ولم يخبر أن قاتل الزبير فى النار . وكذلك من قعد غير مخطئ فى التأويل ، بل صواب أراهم الله الإجتهد . وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم ، وإبطال فضائلهم وجهادهم وعظيم عنائهم فى الدين "رضى الله عنهم" (٢)

وإذا كان الحديث عما وقع بين على ومعاوية رضى الله عنهما" فيجب أن تسكت الألسنة وترفع الأقلام ويسود الصمت ولا نخوض فى سيرة قوم رضى الله عنهم" ورضوا عنه - ولا سيما - أننا غير مسئولين عما كانوا يعملون. وسئل بعضهم عنها فقال : تلك دماء قد طهر الله منها يدي ، فلا أخضب بها لساني .يعنى فى التحرز من الوقوع فى خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون فيه .. (٣)

وقال ابن فورك : ومن أصحابنا من قال : ان سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف ، ثم إنهم لم يخرجوا بذلك

(١) من قول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه -انظر شهداء الصحابة للاستاذ

محمد فهمى عبد الوهاب - ص ٢٦ ط دار الإعتصام .

(٢) القرطبي ج ١٦/٣٢١-٣٢٢ بتصرف

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٦/٣٢٢

عن حد الولاية والنبوة^(١) فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة ، وقد سئل الحسن البصرى عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد" صلى الله عليه

(١) اختلف العلماء فى نبوة اخوة يوسف - عليه السلام - هل كانوا انبياء ام غير انبياء فقال الفخر الرازى والجواب الصحيح ان يقال ما كانوا انبياء . وان كانوا الا ان هذه الواقعة انما اقدموا عليها قبل النبوة - انظر التفسير الكبير ج١٦/٦٦- ويرى القرطبى ان تدبيرهم لقتل اخيهم يمنع ان يكونوا انبياء اولا واخيرا فيقول فى تفسير قوله تعالى (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين) يوسف اية ١٠- وفى هذا ما يدل على ان اخوة يوسف ما كانوا انبياء لا اولا ولا اخرا لأن الانبياء لا يدبرون فى قتل مسلم لان الانبياء معصومون من الكبائر بل كانوا مسلمين فارتكبوا معصية ثم تابوا ... وقيل ماكانوا فى ذلك الوقت انبياء ثم نبأهم الله - الجامع لاحكام القران -ج٩/١٣٣

وكلام الفخر الرازى والقرطبى يدل على انهما يريان ان الانبياء غير معصومين قبل البعثة " وهو قول مختلف فيه " وخالصة قولهما ان اخوة يوسف حين فعلتهم التى فعلوها لم يكونوا انبياء ثم تابوا فتاب الله عليهم وجعلهم انبياء ... ولعله يُستأنس فى ذلك بقول الله عن آدم (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) طه ١٢١-١٢٢ - فالمعصية كانت قبل النبوة - قال الامام ابو بكر بن فورك رحمه الله : كان هذا من ادم قبل النبوة ودليل ذلك قوله (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) فذكر ان الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان ، واذا كان هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا لأن قبل النبوة لا شرع علينا فى تصديقهم - فاذا بعثهم الله تعالى الى خلقه وكانوا مأمونين فى الاداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب - الجامع لآيات الاحكام للقرطبى ج ١١ / ٢٥٧ . ويرى ابن كثير انه ليسوا بأنبياء لعدم إقامة الدليل على ذلك فيقول :

(واعلم انه لم يقم دليل على نبوة اخوة يوسف وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم انه اوحى اليهم بعد ذلك وفى هذا نظر ، ويحتاج مدعى ذلك

وسلم" - وغبنا ، وعلموا وجهلنا واجتمعوا فاتبعنا واختلفوا فوقفنا . قال الحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم. بما دخلوا فيه ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ، إذا كانوا غير متهمين في الدين^(١).. هذا ، ومقولة كل من واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد في عثمان وعلى وبقية الصحابة- رضوان الله عليهم- مردودة عليهما وأن كلا منهما خطأ خطأ جسيماً ولا يشفع لهما زهدهما وأدبهما اللذان زعم البعض أنهما يتحليان بهما . يقول الشهرستاني :

الى دليل ولم يذكروا سوى قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط) البقرة من الاية ١٣٦- وهذا فيه احتمال لان بطون بنى اسرائيل يقال لهم الاسباط كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب ، يذكر تعالى انه اوحى الى الانبياء من اسباط بنى اسرائيل فذكرهم اجمالاً لأنهم كثيرون ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم .. تفسير القرآن العظيم حـ٤/١٦١.

وما ذهب إليه ابن كثير أراه أقرب إلى الصواب من غيره ، لأن " الأصل في النبوة النفي إلا ما ثبت بدليل " نص صريح بالنبوة أو معجزة " ولم يحدث شئ من ذلك مع إخوة يوسف .. وما ذكر عن آدم عليه السلام " لا ينطبق على إخوة يوسف ، فقد جاء النص صريحاً أ آدم عليه السلام عصى ربه ، وجاء النص صريحاً ايضاً أن الله منّ عليه بالنبوة ..

إما إخوة يوسف فقد ذكر القرآن معصيتهم . وذكر توبتهم ، أما عن نبوتهم فلم يُذكر عنها شئ صريح في القرآن أو الحديث ، لذلك نرى كلام ابن كثير هو إلا جدر بالقبول . والله تعالى أعلم .

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي حـ٣٢٢/١٦.

" كان عمرو بن عبيد من رواة الحديث ، معروفاً بالزهد ، وواصل مشهوراً بالفضل والأدب عندهم " (١)

قلت فى هذا نظر فليس من الأدب أن يتهم عثمان وعلى ولفيف من أصحاب رسول الله " صلى الله عليه وسلم " اللذين هم خير القرون كما قال عليه الصلاة والسلام " " خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " (٢) إلا أن يكون مراد الشهرستاني أن واصل كان مشهوراً بالفضل والأدب عندهم عند المعتزلة أى ذو أدب وفضل مع قرنائهم المعتزلين سليط اللسان مع غير المعتزلين وتلك شنشنة أهل الأهواء والفرق الضالة .

(١) الملل والنحل ص ٢٣

(٢) الحديث رواه البخارى ج ٥/٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم " ومن صحب النبي أوراه من المسلمين فهو من أصحابه - حديث رقم ٣٦٥٠ ورواه مسلم ح ٨٣/١٦ - كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم .

٢- الهذيلية : أصحاب أبي الهذيل "

فى الحديث عن هذه الطائفة سأقصر الكلام
عن شيخهم أبى الهذيل مخافة التطويل ، ولأن الكلام عنه كلام عن أتباعه
لأنهم يأتون به.

أبو الهذيل : هو حمدان بن الهذيل العلاف شيخ المعتزلة ، ومقدم الطائفة ،
ومقرر الطريقة ، والمناظر عليها ، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل
، عن واصل بن عطاء (١)

وأبو الهذيل كان مولى لعبد القيس وقد جرى على منهاج أبناء السبايا لظهور
أكثر البدع منهم ، وفضائحه تترى تكفره فيها سائر فرق الأمة من أصحابه
فى الاعتزال ومن غيرهم وللمعروف بالمرداد من المعتزلة كتاب كبير فيه
فضائح أبى الهذيل وفى تكفيره بما إنفرد به من ضلالاته .. (٢)

وللجبائى كتاب فى الرد على أبى الهذيل فى المخلوق ويكفره فيه ولجعفر بن
حرب أيضا كتاب سماه توبيخ أبى الهذيل وأشار إلى تكفير أبى الهذيل وذكر
فيه أن قوله يجر إلى قول الدهرية . (٣)

ومن فضائح أبى الهذيل قوله بفناء مقذورات الله عز وجل حتى لا يكون بعد
فناء مقذوراته قادراً على شئ . (٤)

لأجل هذا زعم أن نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار يفتيان ويبقى حينئذ أهل
الجنة وأهل النار خامدين لا يقدرون على شئ ولا يقدر الله عز وجل فى تلك

(١) الملل والنحل ص ٥٣

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٠٢

(٣) الفرق بين الفرق ص ١٠٢

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة

الحال على إحياء ميت ولا على إماتة حي ولا على تحريك ساكن ولا على تسكين متحرك ولا على إحداث شئ ولا على إفناء شئ مع صحة عقول الأحياء فى ذلك الوقت (١).

وقول أبى الهذيل هذا شر ممن قال بفناء الجنة والنار لأن من قال بفنائهما فقد قال بان الله عز وجل قادر بعد فنائهما على أن يخلق أمثالهما وأبو الهذيل يزعم أن ربه لا يقدر بعد فناء مقدوراته على شئ .

وقد شنع المعروف منهم بالمرداد على أبى الهذيل فى هذه المسألة فقال يلزمه إذا كان ولى الله عز وجل فى الجنة قد ينال بإحدى يديه الكأس وبالأخرى بعض التحف ثم حصل وقت السكون الدائم أن يبقى ولى الله عز وجل على هيئة المصلوب . (٢)

وهذا القول باطل بالكتاب والسنة .

أولاً : من القرآن الكريم - (١) قال تعالى :

" مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ " (٣)

يقول الطبرى فى تفسيره لهذه الآية :

يعنى ما يؤكل فيها هو دائم لأهلها ، لا ينقطع عنهم ولا يزول ولا يبيد ولكنه

ثابت إلى غير نهاية " وظلها " أيضا دائم ، لأنه لا شمس فيها . (٤)

وقال ابن كثير رحمه الله . حول هذه الآية :

(١) المرجع السابق ص ١٠٢ - ١٠٣

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٠٣

(٣) سورة الرعد آية ٣٥

(٤) تفسير الطبرى ح ٧/٤٣٤

" أكلها دائم وظلها" أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء. (١)

ويقول القرطبي رحمه الله ..

(... أى ثمرها لا ينقطع ، وظلها لا يزول ، وهذا رد على الجهمية فى زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى) (٢)

ويذكر الفخر الرازى - رحمه الله - مقارنة بين جنات الدنيا وجنات الآخرة ، وأن الفرق بينهما دوام الثانية وزوال الأولى فيقول :

أن جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها ، أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطع . وأن ظلها دائم أيضا - والمعنى أنه ليس هناك حر ولا شمس ولا ظلمة (٣)

ومن الايات التى تدل على دوام نعيم أهل الجنة قول الله تعالى عن أهل الجنة " إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَالُهُ مِنْ نَفَادٍ " (٤)

يقول القرطبي حول هذه الآية : دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع (٥) ووصف الله نعيم أهل الجنة بقوله :

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . (٦)

(١) تفسير القرآن العظيم حـ ٢١٦/٤

(٢) الجامع لأحكام القرآن حـ ٣٢٥/٩

(٣) التفسير الكبير حـ ٢٥٦/١٧

(٤) سورة (ص) آية ٥٤

(٥) الجامع لأحكام القرآن حـ ٢٢٠/١٥

(٦) سورة الواقعة ٢٧ : ٣٣

وكل هذا يدل على البقاء وعدم الفناء والزوال .
فقول الله تعالى :

وظل ممدود أى دائم باق لا يزول ولا تتسخه الشمس .
قال أبو عبيدة : نقول العرب للشئ الذى لا ينقطع ممدود .
وقال لبيب :

غلب العزاء وكنت غير مغلَّب دهر طويل دائم ممدود
" وماء مسكوب " جارٍ لا ينقطع .

" وفاكهة كثيرة لا مقطوعة " ، أى فى وقت من الأوقات بانقطاع فاكهة
الصيف فى الشتاء ... " ولا ممنوعة " لا يُمنع من أرادها بشوك ولا بعد
حائط . فليست مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان . (١)

وكما أن نعيم أهل الجنة دائم كذلك عذاب أهل النار دائم لا ينقطع ولا يفنى أو
يزول - كما زعم أبو الهذيل - لا سيما عذاب الكافرين حيث إن عصاة
المؤمنين يدخلون النار - إلا ما رحم ربي - ومن دخل منهم يخرجون بحديث
الشفاعة - كما ذكرنا من قبل - وحسبنا دليلاً فى بقاء عذاب
أهل النار من الكفرة قوله تعالى :

" الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى " (٢)

أى لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تتفعه بل هى مضرة عليه ، لأن بسببها
يشعر بما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال . (٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي حـ ١٧/٢٠٩-٢١٠

(٢) سورة الاعلى ١٢: ١٣

(٣) تفسير القرآن العظيم حـ ٨/٢١٦ ط مكتبة الإيمان الطبعة الاولى سنـ ١٤١٧

وذلك لأن العرب كانت إذا وصفت الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا : لا هو حي ولا هو ميت ، فخطبهم الله الذي ^(١) جرى به من كلامهم ^(٢) وفي هذا يقول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى

عناها ولا تحى حياة لها طعم ^(٣)

وكيف يدعى أبو الهذيل فناء عذاب أهل النار والله يقول إخباراً عنهم :
 " وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ
 عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ " ^(٤)
 ثانيا من السنة :

كما جاء في القرآن الكريم أن نعيم أهل الجنة دائم لا ينقطع وعذاب أهل النار كذلك دائم لا ينقطع جاء أيضا في السنة المطهرة ما يفيد ذلك .
 ففي الصحيحين - واللفظ للبخاري - أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال
 " إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة . " وأقروا إن شئتم
 "وظل ممدود" ^(٥) وفي رواية " مائة عام لا يقطعها " ^(٦)

(١) لعل الصواب : بالذى

(٢) تفسير الطبرى حـ ٥٨٨/١٢ ط دار الغد

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي حـ ٢١/٢٠

(٤) سورة فاطر اية : ٣٦

(٥) مسلم حـ ١٦٧/١٧ كتاب الجنة وصف نعيمها وأهلها والبخارى حـ ٣٦٨/٣ ك

بدء الخلق ب ما جاء في صفة الجنة وإنها مخلوقة حديث رقم ٣٢٥٢

(٦) البخارى حـ ٣٦٨/٣ ك بدء الخلق ب ما جاء في صفة الجنة حديث رقم ٣٢٥١

قال : قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" :

" أما أهل النار الذين هم أهلها فأنهم لا يموتون فيها ولا يحيون (١)

بهذه الإحاديث- والإيات سالفه الذكر - يتبين بقاء النعيم لأهله ، وبقاء الجحيم لأهله..

ومن ثمَّ فإنَّ القول بفناء النعيم والجحيم قول أدنى من أن يقال فيسمع ، أو يذكر فيناقش ، وإنما ذكرته خوفاً من أن يبغى المسلمون بمثل هذه الآراء الهابطة ، والإعتقادات الزائفة ، فيظن البعض أنها من الدين في شيء .. والله نسأل أن يحفظ دينه من أهل الأهواء ، وأن يقيض للأمة من يذب عن دينها شبه المفترين ..

(١) رواه مسلم حـ ٣٧/٣ كتاب الإيمان باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار

ط المطبعة المصرية ومكتبتها

٣- النظامية :

والكلام عنهم مقصور على شيخهم كما أشرت إلى ذلك عند

الحديث عن الفرقة السابقة .

النظامية هم أصحاب إبراهيم بن يسار بن هاني النظام (١)
طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخط كلامهم بكلام المعتزلة .

وإنفرد عن أصحابه بمسائل منها ..

١- أنه زاد على القول بالقدر خيره وشره منا قوله :

أن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي ، وليست هي
مقدورة للباري تعالى ، خلافاً لأصحابه فإنهم قضوا بأنه قادر عليها ولكنه لا
يفعلها لأنها قبيحة ..

ومذهب النظام أن القبح إذا كان صفة ذاتية للقيح وهو المانع من الإضافة إليه
فعلاً ، ففي تجويز وقوع القبيح منه قبح أيضاً فيجب أن يكون مانعاً ، ففاعل
العدل لا يوصف بالقدرة على الظلم ..

٢- قوله في الإرادة : إن الباري تعالى ليس موصوفاً بها على الحقيقة .
فإذا وصف بها شرعاً في أفعاله فالمراد بذلك أنه خالقها ومنشئها على حسب
ما علم ،

وإذا وصف بكونه مريداً لأفعال العباد فالمعنى به أنه أمرٌ بها ناهٍ عنها ،

(١) المعتزلة يموهون أنه كان نظاماً للكلام المنثور والشعر الموزون. وإنما كان ينظم
الخرز في سوق البصرة ولأجل ذلك قيل له النظام .. انظر الفرق بين الفرق ص. ١٤٤
ط دار التراث العربي

وعنه أخذ الكعبي^(١) مذهبه في الإرادة .

٣- وافقهم في قولهم أن الإنسان في الحقيقة هو النفس ، والروح ، والبدن ، آلتها وقالها - غير أنه تقاصر عن إدراك مذهبهم فمال إلى قول الطبيعيين منهم : إن الروح جسم لطيف مشابك للبدن مداخل للقلب بأجزائه مداخل المائية في الورد ، والدهنية في السمسم ، والسمنية في اللبن ، وقال إن الروح هي التي لها قوة واستطاعة وحياة ومشية ، وهي مستطبعة بنفسها والإستطاعة قبل الفعل ..

٤- مذهبه أن الله تعالى خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن معادن - ونباتاً - وحيواناً - وإنساناً - ولم يتقدم خلق آدم عليه السلام " خلق أولاده ، غير أن الله تعالى أكرم بعضها في بعض ، فالتقدم والتأخر إنما يقع في ظهورها من مكانها دون حدوثها ووجودها. وإنما أخذ هذه المقالة من الفلاسفة . (٢)

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي - كان رأس الإعتزال لطائفة كبيرة من المعتزلة يقال لهم " الكعبية " سوف يأتي الحديث عنها إن شاء الله . وهو من متكلمي المعتزلة البغداديين ، صنف في الكلام كتباً كثيرة ، وأقام ببغداد مدة طويلة ، وانتشرت بها كتبه ، ثم عاد إلى بلخ فأقام بها حين وفاته في أول شعبان سنة تسع عشرة وثلاثمائة . انظر تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر البغدادى - ٣٨٤/٩ ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

والبلخي بفتح الباء وسكون اللام نسبة إلى بلخ إحدى مدن خراسان - انظر وفيات الإعيان - ٤٥/٣ ط دار الثقافة

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٦٧ : ٦٩ ط : دار المعرفه

ولم يكتف النظام بهذه الأقوال الخاطئة فحسب بل أنه :

(أنكر ما روى في معجزات نبينا - صلى الله عليه وسلم من انشقاق القمر وتسييح الحصى في يده ونبوع الماء من ييب أصابعه ثم إنه أسنتقل أحكام شريعة الإسلام في فروعها ولم يجسر على إظهار دفعها فأبطل الطرق الدالة عليها فأنكر لأجل ذلك حجة الأجماع وحجة القياس في الفروع الشرعية (١) من أغرب ما زعمه النظام ويعد من فضائحه الشنيعة قوله :

(ان الله عز وجل لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم ولا يقدر على ان ينقص من نعيم أهل الجنة ذرة لأن نعيمهم صلاح لهم ولا يقدر أن يزيد في عذاب أهل النار ذرة ولا على أن ينقص من عذابهم شيا ، وزعم أيضا أن الله تعالى لا يقدر أن يخرج أحداً من أهل الجنة عنها ولا يقدر على أن يلقى في النار من ليس من أهل النار . . وقال لو وقف طفل على شفير جهنم لم يكن الله قادرا على إلقائه فيها . وقدر الطفل على إلقاء نفسه فيها وقدرت الزبانية أيضا على إلقائه فيها . ثم زاد على هذا بان قال ان الله تعالى لا يقدر على ان يعمى بصيرا أو يزمن صحيفا أو يفقر غنيا إذا علم أن البصر والصحة والغنى أصلح لهم . ولا يقدر على أن يخلق حية أو عقرباً أو جسماً يعلم أن خلقه غيره أصلح من خلقه . (٢)

هذه بعض آراء النظام ، وأرى أن بطلانها لا يخفى على عاقل . (فإذا قال النظام أن الله تعالى لا يقدر على الظلم والكذب لزمه أن لا يكون قادرا

(١) الفرق بين الفرق ص ١١٤

(٢) الفرق بين الفرق ص ١١٥-١١٦ بتصريف

على الصدق والعدل . والقول بأنه لا يقدر على العدل كفر فما يؤدي إليه
مثله . (١)

ومن ثمَّ فإن أقوال النظام مردودة عليه من قبل المعتزلة أنفسهم بل إن أكثر
المعتزلة يعدونه كافرًا ، ولم يتبعه إلا اصحاب الأهواء ممن هم على
شاكلته .

يقول البغدادي : (وأكثر المعتزلة متفقون على تكفير النظام ، وإنما تبعه في
ضلالته شردمة من القدرية كالأسواري وابن حايط وفضل الحدثنى وإعجاب
هؤلاء النفر اليسير به كإعجاب الجُعَل (٢) بد حروجه (٣)

(١) المرجع السابق ص ١١٦-١١٧

(٢) الجعل : دابة سوداء من دواب الأرض قيل أبو جعران وجمعه جعلان ... الخ

انظر لسان العرب لابن منظور حـ ٦٣٨/١ ط دار المعارف باب الجيم .

(٣) الفرق بين الفرق ص ١١٤ - ١١٥

٤-البشرية أصحاب بشر بن المعتز .

كانه من أفضل علماء المعتزلة ، وهو

الذى أحدث القول بالتولد وأفرط فيه . وانفرد عن أصحابه بمسائل منها :

١- أنه زعم ان اللون والطعم والرائحة والإدراكات كلها من السمع والرؤية ، يجوز أنها متولدة من فعل العبد ، وإذا كانت أسبابها من فعله ، وإنما أخذ هذا من قول الطبيعيين .

إلا أنهم لا يفرقون بين المتولد والمباشرة بالقدرة . وربما لا يثبتون القدرة على مناهج المتكلمين^(١)

٢- أن الله تعالى قد يغفر للإنسان ذنوبه ثم يعود فيما غفر له فيعذبه عليه إذا عاد إلى معصيته^(٢)

وهذا قول غريب ، وهو عن الصواب بعيد ولقد سئل بشر: (عن كافر تاب عن كفره ثم شرب الخمر بعد توبته عن كفره من غير استحلال منه للخمر وغامضه الموت قبل توبته عن شرب الخمر هل يعذبه الله تعالى فى القيمة على الكفر الذى قد تاب منه؟ فقال نعم . فقيل له يجب على هذا أن يكون عذاب من هو على ملة الإسلام مثل عذاب الكافر فالترزم ذلك^(٣)

قلت كيف يترك العبد الكفر ثم يعاقب عليه من قبل الله الغفور الرحيم وهو لم يكفر وإنما أذنب ؟!

(١) الملل والنحل ص ٢٨

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٤٣

(٣) الفرق بين الفرق ص ١٤٣

إن رجوع العبد إلى المعصية بطلان للتوبة حيث فقد شرطاً من شروطها ومن ثمَّ يجب عليه أن يجدد التوبة مع الله .يقول النووى رحمه الله - فى كتابه رياض الصالحين : قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى ، فلها ثلاثة شروط : أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً . فإن فقد أحد الثلاثة لم تصلح توبته- وأن كانت المعصية تتعلق بأدمى فشروطها أربعة: هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحلها منها ،

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، ويبقى عليه الباقي . وقد تظاهرت دلائل الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة على جواب التوبة (١) ومن أقول بشر بن المعتمر ايضاً .

٤- أن الله تعالى ماوالى مؤمناً فى حال إيمانه ولا عاد كافراً فى حال كفره(٢) وهذا القول يتعارض مع صريح القرآن الكريم يقول الله سبحانه وتعالى : -

(١) رياض الصالحين ص ١٣ ط دار التراث العربى الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ

- ١٩٨٣م

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٤٢

(اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ
الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ) (١)

ويقول جل جلاله :-

(فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) (٢)

وقبول هذا القول بالرفض التام من علماء الأمة ، بل كفروا بشراً على هذا
الإفك . يقول عبد القاهر البغدادي :

(ويجب تكفيره في هذا على قول جميع الأمة لأن الله تعالى لم يزل مواليا
لمن علم أنه يكون ولياً له إذا وجد ، ومعادياً له قبل كفره وفي حال كفره
وبعد موته. (٣)

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٧

(٢) سورة البقرة من الآية : ٩٨

(٣) الفرق بين الفرق ص ١٤٢

هؤلاء أتباع هشام بن عمرو الفوطى . وفضائحه تترى منها :
أنه حرم على الناس أن يقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل من جهة تسميته
بالوكيل (١)

واعتذر الخياط عن الفوطى بأن قال :

إن هشاماً كان يزعم أن الوكيل فى أكثر ما يتعارفه الناس فوجه من وكله...
ولم يكن يمتنع من أن نقول : حسبنا الله " وإنما كان يمتنع لفظة " وكيل " فقط
ويبدل مكانها " المتوكل عليه " (٢)

وهذا تبرير ليس بالسديد إذا أن الممنوع والجائز ليس حسبما تعارف عليه
الناس وإنما حسب الأحكام الشرعية والقواعد اللغوية .
وقد أصاب البغدادى أذ وصف كلاهما بالجهل فقال :

وهذا من علامات جهل هشام والمعتذر عنه بمعانى الأسماء فى اللغة . (٣)

كان إذا قيل للفوطى إن الله قال فى كتابه :

" وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ " (٤) قال لهم :

إن الله قد أقام الأدلة على أنه لا يخطئ فى قول ولا فعل . فإذا قال قولاً
يحتمل معنيين أحدهما حسن والآخر قبيح علمنا أنه إنما أراد المعنى الحسن
دون القبيح . ونحن فليس لنا أدلة تدل على أن أقاويلنا كلها صواب وأنه لا

(١) الفرق بين الفرق ص ١٤٥

(٢) الأنتصار لأبى الحسين الخياط ص ٨٣ ط دار الندوة الإسلامية .

(٣) الفرق بين الفرق ص ١٤٦

(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٧٣

هو ليس بشعر وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة (١) وإنه يعلو ولا يُعلى عليه
وما أشك أنه سحر. (٢)

والقول الذى يعلو ولا يُعلى عليه لا يحتمل إلا معنى واحداً وهو الغاية فى
الحسن والجمال وكمال البيان ، ولا يحتمل القبح كما زعم الفوطى - بحال من
الأحوال - تعالى الله عما قال الفوطى علواً كبيراً ...

أما قول الفوطى أن ليس لنا أدلة تدل على أن أقاويلنا كلها صواب فلذلك لم
يجز أن نأتى بقول مشكل ولا نصف الله بقول يحتمل أمرين أحدهما يجوز
عليه والآخر لا يجوز عليه ... الخ

أقول الأدلة واضحة ساطعة بينة على ما إذا كانت أقاويلنا صواباً أو خطأً
أوصواباً يحتمل الخطأ أو خطأً يحتمل الصواب فما وافق القرآن الكريم
والحديث الصحيح فهو صواب وحق لا ريب فيه لأن القرآن والسنة حق وما
وافق الحق فهو حق . فإذا ما وصفنا الله ربنا بما وصف به نفسه أو بما وصفه
به أنبيأؤه - عليهم الصلاة والسلام فهو حق قطعى لا ريب فيه ولا شك ،
وكذلك إذا وصفه بعض عباده وأقرهم الله على هذا الوصف .

وقد مدح الله قوماً وصفوا ربهم بأنه وكيلهم . فقال سبحانه

" الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا
حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء
واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . (٣)

(١) الطلاوة : بضم الطاء وفتحها : الحسن وبعض العمر يسمى الخمر الطلاء يريد
تحسين اسمها لا إنها الطلاء بعينها - انظر مختار الصحاح للامام ابى بكر الرازى
باب الطاء كلمة "طلا" ص ٣٩٧ طالمطبعة الاميرية الطبعة السابعة سنة ١٩٥٣م

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٨ / ١٤٩

يجوز أن نقصد إلى الخطأ . فلذلك لم يجر أن نأتي بقول مشكل ولا نصف الله بقول محتمل أمرين أحدهما يجوز عليه والأخر لا يجوز عليه (١)
وهذا عذر أقبح من الذنب والقول بأن كلام الله يحتمل معنيين أحدهما حسن والأخر قبيح قول قبيح بل غاية فى القبح لأنه يقتضى أن يكون قول الله تعالى غير واضح ولا بيّن! كيف هذا والله يقول :

" تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ " (٢) فوصف الله القرآن بأنه مبین -

قال الفخر الرازى : وصف الله القرآن بكونه مبينا لأنه يبين فيه الهدى والرشد ، والحلال والحرام، ولما بُيِّنَتْ هذه الأشياء فيه كان الكتاب مبينا لهذه الأشياء (٣)

وقال قتاده : أى والله لمبين ، بيّن الله هداه ورشده (٤)

ثم إنه إذا كان قول الله يحتمل الحسن والقبيح فما المانع أن يحمله الكافرون على المعنى القبيح؟! ومن ثم فلا يصلح أن يكون معجزة . والثابت أن الكفرة شهدوا بعظمة القرآن، وأنه يعلو ولا يُعلَى عليه حتى قال الوليد بن المغيرة المخزومى وهو من صناديد الكفر : والله لقد نظرت فيما قال الرجل (٥) فإذا

(١) الإنتصار لأبى الحسين الخياط ص ١٥٥ ط دار الندوة الإسلامية .

(٢) سورة يوسف من الآية : ١

(٣) التفسير الكبير ح ١٦ / ٦٤٥

(٤) تفسير الطبرى ح ٧ / ١٦٣

(٥) يعنى النبى محمدا صلى الله عليه وسلم .

من الآية يتبين أن ليس فى كلمة " وونعم الوكيل : ما يستدعى ردها بل فيها المدح لمن يقولها وليس أدل على ذلك من أن الله سبحانه وتعالى احسن عاقبة قائليها فمنّ عليهم بنعمته وفضله ، وأنجاهم من أن يمسهم السوء والله ذو فضل عظيم لمن يتخذه وكيلا .

ثم إن كلمة الوكيل فى لغة العرب التى نزل بها القرآن الكريم .. لا تتعارض مع جلال الله وكماله وصفاته الحميدة التى وصف بها نفسه سبحانه وتعالى .
قال صاحب لسان العرب :

(الوكيل هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد ، وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكل إليه . وفى التنزيل " أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً " (١) وقيل الوكيل الحافظ .
وقال أبو إسحق : الوكيل فى صفة الله تعالى الذى توكل بجميع ما خلق ..
وحسبنا الله ونعم الوكيل كافينا الله ونعم الكافى . كقولك رازقنا الله ونعم
الرازق (٢)

وقول الله تعالى : " وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ " (٣) أى من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه . (٤) وقد يكون الوكيل ايضاً بمعن الحفيظ (٥)
ومنه قولة تعالى : " قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ " (٦)
ومما يدل على استحباب قول العبد " حسبنا الله ونعم الوكيل "

(١) سورة الإسراء من الآية : ٢

(٢) لسان العرب ابن منظور جـ ٤/٤٩٠٩ ط دار المعارف

(٣) سورة الطلاق من الآية ٣

(٤) القرطبي حـ ١٦١/١٨

(٥) كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف ص ٧٧

(٦) سورة الأنعام من الآية : ٦٦

مارواه البخارى بسنده عن ابن عباس قال فى قوله تعالى :

" الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم " ... إلى قوله تعالى
" وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل "

قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقى فى النار ..

وقالها محمد صلى الله عليه وسلم - حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم
فاخشوهم فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل " (١) ومن فضائح الفوطى امتناعه عن
إطلاق كثير مما نطق به القرآن الكريم فمنع الناس من أن يقولوا .

إن الله عز وجل ألف بين قلوب المؤمنين وأضل الفاسقين . (٢)

ومن أتباع هشام بن عمرو الفوطى عباد بن سليمان العمري . وهو وعمرو
فى الضلال سواء حيث (منع عباد من أن يقال إن الله تعالى ثالث كل اثنين .
ورابع كل ثلاثة . وكان يمنع أن يقال إن الله عز وجل أملى للكافرين) (٣)

وهذه أقوال بطلانها واضح لا يخفى . ويكفى أنها تتعارض مع القرآن الكريم
. فمنعه مثلا أن يقال " إن الله ألف بين قلوب المؤمنين وأضل الفاسقين " يدل

على جهله بالتنزيل -

قال تعالى : " لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَّتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
أَلْفَ بَيْنَهُمْ " (٤)

(١) البخارى ح ٧٧/ ٨ كتاب تفسير القرآن باب " الذين قال لهم الناس إن الناس قد

جمعوا لكم " حديث رقم ٤٥٦٣

(٢) الفرق بين الفرق ص ٤٦

(٣) المرجع السابق ص ٤٦

(٤) سورة الانفال من الآية : ٦٣

" وقال سبحانه : " وما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ " (١)

وزعمُ عباد بن سليمان وهو تلميذ هشام بن عمرو بأن لا يقال أن الله ثالث كل اثنين ، ولا يقال أن الله يملئ الكافرين - جهل عميق ويدل على أن التلميذ أجهل من أستاذه ولا تلد الحية إلا حية ، ويدل أيضا أن عباد بن سليمان يجهل آيات بينات في كتاب الله أو معاند بمكابرة وإلا فماذا يقال في قول الله تعالى : " مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ " (٢) .. وقوله سبحانه : " وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا " (٣)

وهشام الفوطى كما كان يفتري على الله الكذب بمخالفته صريح القرآن كذلك يفتري الكذب على المسلمين ويبيح دماءهم... يقول عبد القاهر البغدادي : وكان الفوطى مع ضلالاته التى حكيناها عنه يرى قتل مخالفيه فى السر غيلة (٤) وإن كانوا من أهل ملة الإسلام . (٥) وأهل السنة يقولون فى الفوطى وأتباعه أن دماءهم وأموالهم حلال للمسلمين وفيه الخمس وليس على قاتل الواحد قود (٦) ولا دية ولا كفارة بل لقائله عند الله تعالى القربة والزلفى والحمد لله على ذلك . (٧)

(١) سورة البقرة من الآية ٢٦

(٢) سورة المجادلة من الآية ٧

(٣) سورة آل عمران من الآية ١٧٨

(٤) الغيلة : بالكسر الخديعة والإغتيال وقتل فلان غيلة أى خدعه - لسان العرب

حـ ٥ باب الغين ٣٣٢٩

(٥) الفرق بين الفرق ص ١٥٠ - ١٥١

(٦) القود قتل النفس بالنفس لسان العرب حـ ٥ / ٣٧٧١ باب القاف

(٧) الفرق بين الفرق ص ١٥١

هؤلاء أتباع عيسى بن صبيح المعروف بأبي موسى المردار وكان يقال

له راهب المعتزلة (١).

ولقب راهب غير لائق به والمردار ليس جديرا بالرهبانية لأنها تقتضى كثرة العبادة من صيام وصلاة وقيام وجهاد.

بل أخرى أن يلقب بفاسق المعتزلة لفسقه الظاهر وجهله الواضح .

يقول عبد القاهر البغدادي :

"وهذا اللقب لائق به إن كان المراد به مأخوذا من رهبانية النصارى ولقبه بالمردار لائق به أيضا كما قيل :

وقل ما أبصرت عينك من رجل إلا ومعناه إن فكرت في لقبه (٢)

وللمردار مزاعم باطلة جدية بأن تخرجه عن الملة. من هذه المزاعم قوله إن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن وبما هو أفصح منه (٣)

وهذا باطل لا يخفى بطلانه على عاقل ولا يحتاج إلى مناقشة كيف ذلك؟! والله تعالى يقول: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" (٤)

ثم أن المردار واحد من الناس فلم يأت بمثل هذا القرآن أو بما هو أفصح منه إن كان صادقا في زعمه؟! ومن مزاعمه أيضا أنه يقول بتكفير من لابس السلطان ويزعم أنه لا يرث ولا يورث. وكان أسلافه من المعتزلة يقولون فيمن لابس السلطان

(١) الفرق بين الفرق ص ١٥١

(٢) المرجع السابق ص ١٥١

(٣) التبصير في الدين ص ٤٧ لابي المظفر الإسفرايني ط اللانوار

(٤) سورة الأسراء الآية ٨٨

من موافقيهم فى القدر والإعتزال أنه فاسق لامؤمن ولاكافر . وأفتى المردار بأنه
كافر (١)

وزعم المردار أن من أجاز رؤية الله تعالى بالأبصار بلا كيف فهو كافر والشاك فى
كفره كافر . والباقون من المعتزلة انما قالوا بتكفير من أجازوا الرؤية على جهة
المقابلة أو على اتصال شعاع بصر الرائي بالمرئى والذين أثبتوا الرؤية مجمعون على
تكفير المردار وتكفير الشاك فى كفره (٢)

والمردار قال : بتكفير شيوخه وقال شيوخه بتكفيره . وكلا الفريقين محق فى تكفير
صاحبه (٣)

ولعل نظير ذلك قول الله تعالى : " وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ
النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ " . (٤)

(١) الفرق بين الفرق ص ١٥١ وانظر التبصير فى الدين ص ٤٧ ط الأنوار

(٢) ~ ~ ~ ص ١٥٢

(٣) ~ ~ ~ ص ١٥٣

(٤) سورة البقرة من الآية ١١٣

٧- الجعفرية :

هؤلاء أتباع جعفر ابن أحدهما جعفر بن حرب والأخر جعفر بن

مبشر . وكلاهما للضلالة رأس وللجهالة أساس.

أما جعفر بن مبشر فإنه زعم أن في فساق هذه الأمة من هو شر من اليهود والنصارى
والمجوس والزنادقة . هذا مع قوله بأن الفاسق موحد وليس بمؤمن ولا كافر - فجعل
الموحد الذى ليس بكافر شرا من الثنوى الكافر !!!^(١)

وأهم ما نرد به هذا الزعم الباطل قوله تعالى : " إِنْ أَلِهَ إِلَّا اللَّهُ دُونَهُ يُتَّخَذُ مِنْهُ
دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " ^(٢)

وقول النبى " صلى الله عليه وسلم " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله داخل الجنة " ^(٣)
وفى رواية : " وإن زنى وإن سرق " ^(٤)

يتضح من الآية والحديث أن المسلم من أهل الجنة وإن سرق وإن زنى ،

أما اليهودى والنصارى - الذى لا يعترف برسالة الإسلام وكذلك المجوس وغيرهم من
أهل الكفر فإنهم من أصحاب النار وإن لم يسرقوا ولم يزنوا - لفساد عقيدتهم ...
قال القاضى عياض - رحمه الله - هذا الحديث حجة على الخوارج والمعتزلة . ^(٥)

(١) الفرق بين الفرق ص ١٥٣

(٢) سورة النساء من الآية ١١٦

(٣) مسلم ح ٢١٨/١ ك الأيمان ب من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً

(٤) هذه الرواية فى حديث رواه البخارى " عن أبى ذر " رضى الله عنه " قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أتانى آت من ربي فأخبرنى أو قال فبشرنى أنه من مات من أمتى لا يشرك بالله شئ دخل الجنة فقلت : وإن زنى ، وإن سرق . !؟ قال وإن زنى وإن سرق " البخارى ح ٣ / ١٣٢ ك الجنائز ب فى الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله - حديث رقم ١٢٣٧ .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووى ح ١ / ٢١٩ ط المطبعة المصرية ومكتبتها

وذلك لأن الخوارج قالوا فمن عصى الله تعالى من أهل الشهادتين تضره - أى المعصية- ويكفر بها ، وقالت المعتزلة يخلد فى النار إذا كانت معصية كبيرة ولا يوصف بأن مؤمن ولا كافر ولكن يوصف بأنه فاسق (١)

ومن ضلالات ابن مبشر أنه زعم أن إجماع الصحابة على ضرب شارب الخمر الحد وقع خطأ لأنهم أجمعوا برأيهم (٢)

وللرد على هذا نقول :

إجماع الصحابة لا يكون على خطأ لأن الله عصمهم من أن يجتمعوا على خطأ .. يقول ابن كثير فى تفسير قول الله تعالى :

" وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا " (٣)

.. ويتبع غير سبيل المؤمنين " قد تكون المخالفة لنص الشارع ، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية ، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة فى اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم صلى الله عليه وسلم . ، وقد وردت فى ذلك أحاديث صحيحة كثيرة ..

والذى عول عليه الشافعى ، رحمه الله " فى الإحتجاج على كون الأجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد النزوى والفكر الطويل وهو من أحسن الإستنباطات وأقواها . (٤)

ومن الأحاديث التى وردت عن النبى " صلى الله عليه وسلم .وتفيد أن إجماع الصحابة واجب الإلتباع قوله "صلى الله عليه وسلم" لأبى بكر وعمر" رضى الله عنهما ":

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ج ١ / ٢١٨ - ٢١٩

(٢) لفرق بيت الفرق ص ١٥٣

(٣) سورة النساء اية ١١٥

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ح ٢/٢٥٥

لو اجتمعما في مشورة ما خالفنكما (١)

فإذا كان اجتماع اثنين من الصحابة على أمر يجعل رسول الله " صلى الله عليه وسلم ".
- لا يخالف هذا الأمر فإن اتفاق لفيف من خيار الصحابة على حكم يكون واجبا على
المسلمين اتباعه من باب أولى. وحد شارب الخمر الذي يزعم ابن مبشر أنه وقع خطأ -
- جاء من أقوى الطرق بإجماع الصحابة " رضى الله عنهم "...

فقد روى الشيخان وأبو داود والترمذى وابن ماجه (واللفظ لمسلم) عن أنس بن مالك
" رضى الله عنه "

أن النبي " صلى الله عليه وسلم " أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو
أربعين . قال وفعله أبو بكر . فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن (٢) أخف
الحدود ثمانين (٣) فأمر به عمر (٤)

(١) رواه احمد حـ ٤ / ٢٢٧ عن أبي غنم الأشعري ط المكتب الاسلامي

(٢) أى عبد الرحمن بن عوف

(٣) أخف بنصب اخف وهو منصوب بفعل محذوف أى أجلده اخف الحدود كما جاءت
رواية أخرى وهي لمسلم ايضا (...قال ماترون فى جلد الخمر فقال عن عبد الرحمن
بن عوف أرى أن تجعلها كأخف الحدود فجلد عمر ثمانين " صحيح مسلم

حـ ٢١٥/١١ - ٢١٦

(٤) رواه مسلم حـ ٢١٥/١١ ك الحدود ب حد الخمر ورواه البخارى حـ ١٢ صـ ٦٧

ك الحدود ب الضرب بالجريد والبنعال ، وأبو داود ك الحدود باب الحد فى الخمر
حديث رقم (٤٤٧٩) والترمذى حـ ٤ / ٨٢٤ ك الحدود / ١٥ باب ما جاء من شرب
الخمر فاجلده وابن ماجه ك الحدود باب السكران حديث رقم ٢٥٧٠

والرأى الذى رآه عبد الرحمن بن عوف "رضى الله عنه" ذهب إليه على بن أبى طالب كرم الله وجهه معللاً ذلك بأن الخمر تؤدى به إلى الخلط والإفتراء.

فعن ثور بن زيد الديلمى - أن عمر بن الخطاب "رضى الله عنه" استشار فى الخمر يشربها الرجل . فقال له على بن أبى طالب نرى أن تجلده ثمانين فإنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى^(١) وإذا هذى افترى^(٢) أو كما قال فجلد عمر فى الخمر ثمانين^(٣)

هذا ، وقد يظن ظان أن عمر "رضى الله عنه" - حينما استفتى علياً وعبد الرحمن بن عوف وبعض أصحابه فى شارب الخمر وماذا يفعل به كما جاء فى الوطأ وغيره - أنه يعارض بذلك ما جاء عن النبى "صلى الله عليه وسلم" ولم يعمل به فيما نقل عنه صلى الله عليه وسلم - أنه ضرب شارب الخمر بجريدتين أربعين كما ورد فى مسلم .

وأقول أن ما كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر الصديق "رضى الله عنه" - لم يكن حداً ثابتاً وإنما كان يراعى فيه حال الشارب فأحياناً يضرب بالجريد، وأحياناً بالنعال وغير ذلك .

(١) هذى خلط وتكلم بما لا ينبغى

(٢) افترى : كذب وقذف

(٣) رواه مالك فى الموطأ ص ٦٥٨ ك الأ شربه تعليق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار احياء الكتب العربية

يؤيد هذا ما جاء عن جمهور السلف والفقهاء ومنهم مالك وأبو حنيفة والأوزاعي والنووي وأحمد وإسحاق رحمهم الله تعالى : أن فعل النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن للتحديد فهذا جاء في الرواية الأولى (١) نحو أربعين. (٢)

فلما جاء عهد عمر "رضى الله عنه" زاد الناس في شرب الخمر (٣) فأراد عمر ابن الخطاب "رضى الله عنه" - أن يزجر الناس بشئ أشد - يؤيد هذا ما جاء في صحيح البخارى عن السائب بن يزيد قال: كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وإمرة أبى بكر فصdra من خلافة عمر فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا (٤) ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين حتى إذا عتوا وفسقوا جلد ثمانين (٥) وربما يكون قد تخوف عمر "رضى الله عنه" - أن تتعدد اجتهادات الناس في ذلك وربما يكون ضرب بعضهم لشارب الخمر إنتقاما وليس حدا فيتجاوزوا بذلك الحد . قال ابن حجر العسقلانى :

(١) اى فى الرواية الأولى من الحديث الذى معنا فى هذا الموضوع .

(٢) شرح صحيح مسلم النووى ج ١١ / ٢١٧ .

(٣) ولعل هذا راجع إلى كثرة الفتوحات الإسلامية حيث دخل كثير من الناس فى دين الله الظافر طمعا لا حبا كاملا فيه

(٤) جمع رداء

(٥) صحيح البخارى ج ٢ / ٦٧ كتاب الحدود باب الضرب بالجريد والنعال حديث رقم

أخرج عبد الرزاق عن ابن جريج أنبأنا عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول : كان الذى يشرب الخمر يضربونه بأيديهم ونعالهم فلما كان عمر فعل ذلك حتى خشى فجعله أربعين سوطا ، فلما رآهم لا يتناهون جعله ثمانين سوطا وقال هذا أخف الحدود. (١)

وبذلك يكون عمر قد جمع الناس على حد ثابت معترف به من قبل الصحابة

وأصبح ما رآه على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف "رضى الله عنهما" إجماعا من الصحابة عند جمهور العلماء الذين يرون : (أن حد الخمر ثمانون محتجين بأنه هو الذى استقر عليه إجماع الصحابة) (٢)

لكن بعض العلماء مثل الإمام الشافعى وأبو ثور وداود وأهل الظاهر يرون أن حد الخمر أربعون (وحجتهم فى ذلك أن الرسول "صلى الله عليه وسلم" وأبا بكر الصديق

"رضى الله عنه" جلدًا أربعين - وأن عليا "رضى الله عنه" جلد الوليد بن عقبة أربعين فى إمرة عثمان بن عفان وذلك بعد عمر (٣) وحديث الوليد بن عقبة رواه مسلم فى صحيحه بسنده عن عثمان بن عفان انه (أتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال ازيدكم فشهدا عليه رجلان أحدهما حُمَران أنه شرب الخمر وشهد آخر أنه راه يتقياً فقال عثمان أنه لم يتقياً حتى شربها فقال يا علي قم فاجلده فقال على قم يا حسن فاجلده فقال الحسن ول حارها من تولى قارها (١) فكأنه وجد عليه " فقال يا عبد الله بن

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١٢ / ٧٣

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى جـ ١١ / ٢١٧

(٣) المرجع السابق جـ ١١ / ٢١٧

(٤) الحار الشديد المكروه ، القار البارد الهنئ الطيب وهذا مثل من أمثال العرب .. معناه ول شدتها وأوساخها من تولى هنيئها ولذاتها والضمير عائد الى الخلافة

جعفر قم فاجلد فجلده وعلى يعد حتى بلغ أربعين فقال أمسك ثم قال جلد النبي "صلى الله عليه وسلم" أربعين وجلد ابو بكر أربعين وعمر ثمانين وكل سنة وهذا أحب إليه (١)

من خلال هذا الحديث رأى الإمام الشافعى "رضى الله عنه" وموافقوه أن الحد أربعون وقالوا : أما زيادة عمر فهي من التعزيرات والتعزير إلى رأى الإمام إن شاء فعله وإن شاء تركه بحسب المصلحة فى فعله وتركه فرأه عمر ففعله ولم يره النبي "صلى الله عليه وسلم" . ولا أبو بكر ولا على فتركوه . (٢)

وخلاصة القول أن حد الخمر ثابت بإجماع الأمة - خلفا وسلفا - لا خلاف فى ذلك وإنما الخلاف فى عدد الجلادات . قال القاضى عياض - رحمه الله - : أجمعوا على وجوب الحد فى الخمر واختلفوا فى تقديره ، فذهب الجمهور إلى الثمانين ، وقال الشافعى فى المشهور عنه وأحمد فى رواية وأبو ثور وداود أربعون . وتبعه على نقل الإجماع ابن دقيق العيد والنووى من تبعهما . (٣)

ونرى أن رأى الجمهور أرجح وأنه أولى بالقبول . لأن المعروف عن الصحابة "رضى الله عنهم" أنهم لا يتقدمون ولا يتأخرون مع وجود النص الشرعى سواء من القرآن أو

والولاية أى كما أن عثمان وأقاربه يتولون هنىء الخلافة ويختصون به يتولون نكدها وقاذوراتها ومعناه ليتول هذا الجلد عثمان بنفسه أو بعض خاصة أقاربه الأذنين انظر شرح صحيح مسلم للنووى حـ ٢١٩/١١

(١) مسلم حـ ٢١٦/١١ - ٢١٧ كتاب الحدود باب حد الخمر .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى جـ ١١ / ٢١٧

(٣) فتح البارى فى صحيح البخارى حـ ٧٤/١٢ .

السنة . يقول المازرى : لو فهم الصحابة أن النبي " صلى الله عليه وسلم " حد فى الخمر حدا معيننا لما قالوا فيه بالرأى ، كما لم يقولوا بالرأى فى غيره ، فلعلهم فهموا أنه ضرب فيه باجتهاده فى حق من ضربه (١)

وذكر أبو عيسى " الترمذى " رحمه الله " حديث أنس " رضى الله عنه " والذى يفيد أن عمر استشار فى الخمر ثم جعله كأخف الحدود ثمانين ثم قال أبو عيسى : حديث أنس حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم

من أصحاب النبي " صلى الله عليه وسلم " . وغيرهم أن حدَّ السكران ثمانون . (٢) هذا ، وإن اختلف العلماء فى تقدير الحد لا يضر فمن جلد أربعين فقد أقام الحد وكذلك من جلد ثمانين حيث إن كلا وارد وله أصل فى الشرع ... قال الشوكانى :- أن دعوى إجماع الصحابة غير مسلمة فإن اختلفهم فى ذلك قبل إمارة عمر وبعدها وردت به الروايات الصحيحة ولم يثبت عن النبي " صلى الله عليه وسلم " . الإقتصار على مقدار معين بل جلد تارة بالجريد وتارة بالنعال وتارة بهما فقط وتارة بالأيدى والنعال والمنقول من المقادير فى ذلك إنما هو بطريق التخمين ولهذا قال أنس نحو أربعين فالأولى الإقتصار على ما ورد عن الشارع من الأفعال وتكون جميعها جائزة فأبها وقع فقد حصل به الجلد المشروع الذى أرشدنا إليه " صلى الله عليه وسلم " . بالفعل والقول كما فى حديث : من شرب الخمر فاجلدوه (٣) فالجلد المأمور به هو الجلد الذى وقع منه

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر حـ ٧٣/١٢

(٢) الترمذى حـ ٨٢٥/٤ ك الحدود ب ما جاء من شارب الخمر فاجلده .

(٣) رواه الترمذى حـ ٨٢٦/٤ ك الحدود ب من شرب الخمر فاجلدوه عن معاوية قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من شرب الخمر فاجلدوه فإن عاد فى الرابعة فاقتلوه " قال أبو عيسى : حديث معاوية ، هكذا روى الثورى أيضا عن عاصم ، عن

"صلى الله عليه وسلم" ومن الصحابة بين يديه ولا دليل يقتضى تحتم مقدار معين لا يجوز غيره (١)

هذا ، ويروى عن طائفة من أهل العلم : أن الخمر لا حد فيها ، وإنما فيها التخدير واستدلوا بأن الأحاديث ساكتة عن تعيين عدد الضرب وأصرحها حديث أنس ولم يجزم فيه بالأربعين فى أرجح الطرق عنه وإن ابن شهاب سئل كم جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخمر فقال لم يكن فرض فيه حدا ، كان يأمر من حضره ان يضربوه بأيديهم ونعالهم حتى يقول ارفعوا- وعن ابن عباس- رضى الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوقت فى الخمر حداً ، وعن ابن عباس : أن رجلاً شرب فسکر فانطلق به إلى النبى صلى الله عليه وسلم - فلم حاذى دار العباس انفلت فدخل على العباس فالتزمه فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فضحك ولم يأمر بشئ" (٢)

أبى صالح ، عن معاوية عن النبى صلى الله عليه وسلم وروى ابن جريج ومعمر عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أى الترمذى سمعت محمداً ومحمد هذا هو الإمام البخارى يقول حديث أبى صالح عن معاوية عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا أصح من حديث أبى صالح عن ابى هريرة عن النبى وإنما كان هذا فى أول الأمر ثم نسخ بعد .. أتى النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك برجل قد شرب الخمر فى الرابعة فضربه ولم يقتله .. وكذلك رواى الزهري عن قبيصة بن ذؤيب عن النبى صلى الله عليه وسلم نحو هذا قال فرفع القتل وكانت رخصة والعمل بهذا الحديث عند عامة أهل العلم لا نعلم بينهم اختلاف فى ذلك فى القديم والحديث انظر تحفة الأحوذى حـ ٨٢٦/٤ - ٨٢٨ -

(١) نيل الأوطار محمد بن على الشوكانى حـ ١٤٢/٧ ط مكتبة دار التراث.

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر حـ ٧٤/١٢

وهذا مذهب باطل مردود ولا يصح العمل به لمخالفته الإجماع .

قال الشوكاني : بعد أن ذكر هذا القول - وأجيب عليه بأنه انعقد إجماع الصحابة على جلد الشارب واختلافهم في العدد إنما هو بعد الإتفاق على ثبوت مطلق الجلد .. (١)

وهناك أكثر من حادثة وقعت في عهد الخلفاء الراشدين تدل على أن شارب الخمر يحد ولا يعزر .

شرب قدامة بن مظعون الخمر - وكان واليا على البحرين . وكان ختن (٢) عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما - ولما قدم من البحرين رجل يدعى الجارود قال :

يا أمير المؤمنين إن قدامة بن مظعون قد شرب مسكراً ، وإني رأيت حقاً من حقوق الله حق عليّ أن أرفعه إليك ، فقال عمر : من يشهد على ما تقول ؟ فقال : أبو هريرة ،

فدعا عمر أبا هريرة فقال : علام تشهد يا أبا هريرة ؟ فقال لم أراه حين شرب ، ورأيتُه ساكران يقي فقال عمر : لقد تنطعت في الشهادة ، ثم كتب عمر إلى قدامة وهو بالبحرين يأمره بالقدوم عليه فلما قدم قدامة والجارود بالمدينة كلم الجارود عمر فقال : أقم على هذا كتاب الله .. فقال أبو هريرة . يا أمير المؤمنين إن كنت في شك من شهادتنا فسئل بنت الوليد امرأة ابن مظعون فأرسل عمر إلى هند ينشدها بالله فأقامت هند على زوجها الشهادة فقال عمر ماترون في جلد قدامة ؟ فقال القوم : لا نرى أن

(١) نيل الأوطار للشوكاني حـ ١٤٢/٧

(٢) الختن كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ وهم الأختان هكذا عند العرب - أما العامة فختن الرجل عندهم زوج ابنته - المختار الصحاح ص ١٦٩ - باب الخاء كلمة ختن

تجلده ما دام وجعاً فسكت عمر عن جلده ثم أصبح يوماً فقال لأصحابه ما ترون في جلد قدامة؟ فقال القوم: لا نرى ان تجلده ما دام وجعاً^(١) فقال: إنه والله لن يلقى الله تحت السوط أحب إليّ من أن ألقى الله وهو في عنقي. والله لأجلدنه، اتونى بسوط. فجاءه مولاة أسلم بسوط فأمر عمر بقدامة فجلد ثم عزله^(٢)

فلو كان في شارب الخمر التعزير لا الحد لم يكتب عمر إلى قدامة يأمره بالحضور. ثم يستشير الناس في جلده وهو مريض ثم يقول هذه العبارة " والله لإن يلقى الله تحت السوط أحب إليّ من أن ألقى الله وهو في عنقي " فعمر لم يقل هذه الكلمة إلا لعلمه أن جلده حدٌ يجب أن يقام - وحسبك بعمر عالماً بالشرع فقيهاً في الدين .. كذلك قول الجارود لعمر أقم على هذا كتاب الله - لا تقال في شيء فيه التعزير وإنما فيه الحد .. لان الإمام لو ترك التعزير لا يلام.

وفي عهد عثمان بن عفان - رضى الله عنه - شرب الوليد بن عقبة الخمر وكان والياً على الكوفة - وجاء بالمدينة من شهد على الوليد بشربه الخمر فزجرهم عثمان فذهبوا إلى علي بن أبي طالب وأخبروه بالأمر فأتى عثمان وهو يقول: دفعت الشهود وأبطلت الحدود. فقال له عثمان: فما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضره فحضر الوليد.. وأقيم عليه الحد^(٣) فنرى في هذه القصة ما يبطل الزعم بأن شارب الخمر فيه التعزير لا الحد.. بل فيه الحد وجوباً وأقوى دليل على ذلك قول

(١) وجع: أى مريض.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ح ٦ / ٢٩٧ - ٢٩٨ للقرطبي.

(٣) مروج الذهب أبو الحسن المسعودي ح ٢ / ٣٤٤ - ٣٤٥ ط دار المعرفة بيروت

الإمام على لعثمان - رضى الله عنهما دفعت الشهود وأبطلت الحدود واستجابة سيدنا عثمان لسيدنا على رضى الله عنهما فى إحضار الوليد من الكوفة من أجل أن يقام عليه حد الله ..

إذاً حد الخمر إجماع لا يجوز مخالفته - يقول ابن حجر : استقر الإجماع على ثبوت حد الخمر وأن لا قتل فيه واستمر الإختلاف فى الأربعين والثمانين . (١)

لذلك لم يكن مستساغاً أن ينكر أحدٌ حدَّ الخمر حيث تم الإجماع عليه ، ومن أنكره كأنما أنكر معلوماً من الدين بالضرورة . يقول عبد القاهر البغدادى :-

وقد أجمع فقهاء الأمة على تكفير من أنكر حد الخمر وإنما اختلفوا فى حد شارب النبيذ اذا لم يسكر منه. (٢)

(١) فتح البارى ٧٦/١٢

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٥٣

هؤلاء أتباع محمد بن عبد الله الإسكافي من مؤسسي مدرسة المعتزلة في بغداد . كان يرى أن عليا أفضل من أبي بكر رضي الله عنهما " .. أخذ ضلالتة في القدر عن جعفر بن حرب ثم خالفه في بعض فروع و زعم أن الله تعالى يوصف بالقدرة على ظلم الأطفال والمجانين ولا يوصف بالقدرة على ظلم العقلاء (١)

وهذا كلام سمج لا يصح ان يقوله مسلم لأنه يتعارض مع النقل ولا يقبله العقل ..

أولا : قول الإسكافي : إن الله يوصف بالقدرة على ظلم الأطفال والمجانين .. إنه سبحانه يقدر على ذلك وله أن يفعل . ولكنه أخبرنا سبحانه أنه لا يظلم احداً . فقال جل جلاله " إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ " (٢)

وقال سبحانه : " وَمَا أَنَا نَأُ بِظِلَامٍ لِّلْعَبِيدِ " (٣) وكلمة الناس والعبيد تشمل العقلاء والمجانين والأطفال والكبار " إِنَّ كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا " (٤) ثانيا : قول الإسكافي : ان الله لا يوصف بالقدرة على ظلم العقلاء ففيه البطلان البين .. لأن قدرة الله مطلقة وأنه سبحانه لو أراد أن يظلم عاقلا أو مجنونا فإن هذا لا يعجزه .

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين حـ ٧٧/٣ ط النهضة المصرية الطبعة السابعة وانظر الفرق بين الفرق ص ١٥٥ ، وانظر المنية والأمل ص ١٠٦ تأليف القاضي عبد الجبار المهذاني - جمعه أحمد بن يحيى المرتضى . تحقيق عصام الدين محمد على ط دار المعرفة الجامعية .

(٢) سورة يونس آية : ٤٤

(٣) سورة ق آية : ٢٩

(٤) سورة مريم آية : ٩٣

قال تعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (١)

وقال سبحانه : " وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (٢)

والقول بأن الله لا يوصف بالقدرة على كذا .. قول باطل لما فيه من نقص يجب أن ننزه الله عنه - حيث له سبحانه صفات الكمال كله وليس من الكمال ألا يقدر على شيء وإن قدر على غيره ..

(١) سورة فاطر من الآية : ٤٤

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٨٤

٩- الثمامية :

هؤلاء أتباع الثمامة بن أشرس النميرى من مواليمه وكان زعيم القدرية فى زمان المأمون والمعنصم والوائق وقيل إنه هو الذى أغوى المأمون بأن دعاه إلى الاعتزال . وانفرد عن سائر أسلاف المعتزلة ببدعتين كفرته الأمة كلها فيهما . إحداهما : أنه زعم أن من لم يضطره الله تعالى إلى معرفته

لم يكن مأمورا بالمعروف ولا منهيًا عن الكفر وكان مخلوقا للسخره والإعتبارية فحسب كسائر الحيوانات التى ليست بمكففة ، وزعم لأجل ذلك أن عوام الدهرية والنصارى والزنادقة يصيرون فى الأخره تراباً .

والبدعه الثانية : قوله بأن الأفعال المتولدة أفعال لا فاعل لها . (١)

البدعه الاولى : وهى زعمه أن من لم يضطره الله تعالى إلى معرفته لم يكن مأمورا بالمعروف ولا منهيًا عن الكفر ... الخ .

وهو قول فيه من الجهل والإفتراء ما لا يخفى ... وهو قول

لم يقل به أحداً من العلماء ، وإنه يتعارض مع القواعد الشرعية . فإن الله أرسل رسوله إلى الناس كافة . قال تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (٢) ومن ثم فإن الناس جميعاً مطالبون بالتكاليف . ولا يكونون كسائر الحيوانات غير مكلفين إلا اذا سلب منهم العقل فإنه مناط التكليف ، وبفقدته يسقط الواجب .

فقد سقط ما وجب

فإذا سلب ما وهب

(١) الفرق بين الفرق ص ١٥٧

(٢) سورة سبأ آية : ٢٨

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المرء إذا فقد عقله فقد رفع عنه القلم فعن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يشبَّ وعن المعتوه حتى يعقل" (١) وفي رواية الترمذى أيضاً - وعن الغلام حتى يحتلم .

أما البدعه الثانية وهى قوله: بأن الأفعال المتولدة أفعال لا فاعل لها ، فانها خطأ جسيم يجر إلى ضلال كبير فإنه يقتضى إنكار صانع العالم لأنه لو صح وجود فعل بلا فاعل لصح وجود كل فعل بغير فاعل وهذا يتعارض مع قوله تعالى: " ذلكم الله ربكم لا آله إلا هو خلق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل " (٢)

(١) رواه الترمذى حـ ٧٨٧/٤ كتاب الحدود باب: ماجاء فيمن لا يجب عليه الحد

• • • وقال حديث عليّ حسن غريب من هذا الوجه .

(٢) سورة الأنعام آية: ١٠٢

١٠- الجاحظية :

هؤلاء أتباع عمرو بن يحيى الجاحظ . من ضلالاته قوله : " إن المعارف كلها طباع وهى مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم . (١) وهذا القول منه يتنافى مع أمرين ظاهرين .

الأمر الأول : إنكار الصانع فالقول بتأثير الطبيعة فى الشئ يدل على أن الأمور تسير حسب الطبيعة وذلك إنكار للفاعل .

الأمر الثانى : أنه يتناقض مع نفسه وهو يقول أولا بتأثير الطبيعة فى الأشياء ثم يقول ثانيا أن العبد يخلق فعله بنفسه فكيف يوفق بين هذه المتناقضات وهذا كله يدل على جهل القائل به وبعده عن جاده الصواب وكفره الصراح بإنكاره الفاعل المختار . عز وجل .

(١) الفرق بين الفرق ص ١٦٠

١١ - الكعبية :

أتباع أبي القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي المعروف بالكعبي خالف البصريين من المعتزلة في أحوال كثيرة منها أن البصريين منهم (أى من المعتزلة) أقروا بأن الله تعالى يرى من الأجسام والألوان وأنكروا أن يرى نفسه كما أنكروا أن يراه غيره وزعم الكعبي أن الله تعالى لا يرى نفسه ولا غيره إلا على معنى علمه بنفسه وبغيره (١) وهو صاحب مقالات ومن مقالته : أن الله سبحانه تعالى ليس له إرادة ، وأن جميع أفعال واقعه منه بغير إرادة ولا مشيئة منه لها . (٢)

أقول : إذا كان الكعبي أنكر أن يرى أحد الله في الدنيا فقد أصاب إذ أن رؤية الله في الدنيا مستحيلة إلا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - أما إذا أنكر أن يراه غيره في الآخرة فهذا مردود عليه - لما ثبت من الآيات والأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة على ما سيأتى بيانه في بحث رؤية الله في الآخرة إن شاء الله تعالى . أما إنكار مشيئة الله وإرادته فهذا قول واضح البطلان بالقرآن والسنة .

وأما القرآن فإن آيات كثيرة تبين أن مشيئة الله ثابتة وواقعة لا محالة ...

من هذه الآيات قوله تعالى : " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ " (٣) وقوله سبحانه : " وَمَا تَشَاؤُنْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ " (٤) وقوله جل جلاله : " إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ " (٥)

(١) الفرق بين الفرق ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلى كان ح ٤٥/٣

(٣) سورة آل عمران من آية : ٢٦

(٤) سورة التكوير من آية : ٢٩

(٥) سورة القصص من الآية : ٥٦

وقوله سبحانه وتعالى :

" وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ " (١)

فواضح من الآيات أن كل حركة وسكون لا تتم إلا بمشيئة الله وإرادته وقدرته .
ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعلمنا أن الأمور تجري حسب مقادير الله
ومشيئته . وعلى المؤمن أن يرد كل أمر إلى قدرة الله ومشيئته ..

فعن أبي هريرة رضى الله عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن
القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك
واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ولكن قل
قدر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان .. (٢)

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال بايعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى رهط (٣) فقال: أبايعكم على أن لا تشركوا بالله
شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم
وأرجلكم ولا تعصون فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك
شيئاً فأخذ به فى الدنيا فهو له كفارة وطهور ، ومن ستره الله فذلك أمره إلى الله إن
شاء عذبه وإن شاء غفر له (٤)

(١) سورة الكهف ٢٣-٢٤

(٢) مسلم حـ ٣١٥/١٦ كتاب القدر باب الإيمان للقدر والإذعان له .

(٣) الرهط ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة قال تعالى :

" وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ " النمل من الآية ٤٨ والجمع أرهط) و (أرهاط)

و (أرهاط) المختار الصحاح صـ ٢٥٩ باب الرء .

(٤) البخارى حـ ٤٥٥/١٣ ك التوحيد ب المشيئة والإرادة حديث رقم ٧٤٦٨

قال صاحب فتح البارى : قال البيهقى بعد أن ساق بسنده إلى الربيع بن سليمان قال الشافعى المشيئة له دونهم فقال : " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله " (١) وقال ابن خزيمة : أنشدنى المزنى وقال : أنشدنى الشافعى لنفسه قوله :

وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن	ما شئتُ كان وإن لم اشأ
ففى العلم يجرى الفتى والمسئ	خلقت العباد لما قد علمت
ومنهم قبيح ، ومنهم حسن	فمنهم شقى ، ومنهم سعيد
وذاك أعنيتُ وذالم تعن (٢)	على ذا مننت ، وهذا جذلت

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر حـ ١٣ / ٤٥٧ - والأية ٢٩ من سورة التكوير

(٢) ديوان الإمام الشافعى ص ٤٠ ط دار المنار

١٢- الجبائية:

هم أتباع أبي على محمد بن عبد الوهاب الجبائي، وهو من معتزلة البصرة، وكان رأساً في علم الكلام، وأخذ هذا عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري، وله في مذهب الإعتزال مقالات مشهورة، وعنه أخذ شيخ أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعري^(١)، وابنه هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي من كبار المعتزلة وإليه تنسب البهشمية منهم، وتوفي الجبائي الكبير سنة ثلاثمائة وثلاثة من الهجرة وتوفي ابنه أبو هاشم في سنة ثلاثمائة وإحدى وعشرين^(٢).

(١)- هو أبو الحسن على بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بُرْدَة عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري. كان تلميذاً لأبي على الجبائي عندما كان يعتقد مذهب الإعتزال ويدين به ولكن اعتناقه لمذهب المعتزلة لم يطل كثيراً - فإنه اعتكف في بيته خمسة عشر يوماً يفكر في كل ما تعلم من المعتزلة. ثم خرج إلى الجامع وصعد المنبر وقال:

معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأنني نظرت، فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي شيء على شيء فاستهديت الله فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا- وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به " انظر مقالات الإسلاميين حـ ٣/١ تحقيق محي الدين عبد الحميد، وانظر ظهر الإسلام حـ ٦٤/٤ لأحمد أمين. وانظر تاريخ المذاهب الإسلامية محمد أبو زهرة ١٥٢.

(٢)- مقالات الإسلاميين حـ ٢٣٧/١ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

وانفرد الجبائي وأبو هاشم عن أصحابهما بمسائل، وانفرد أحدهما عن صاحبه بمسائل، فمن المسائل التي انفردا بها عن أصحابهما أنهما حكما بكونه تعالى "متكلما" بكلام يخلقه في محل، وحقيقة الكلام عندهما أصوات مقطعة، وحروف منظومة، والمتكلم من فعل الكلام لا مَنْ قام به الكلام.. والجبائي خالف أصحابه خصوصاً بقوله:

يحدث الله تعالى عند قراءة كل قارئ كلاماً لنفسه في محل القراءة، وذلك حين ألزم أن الذي يقرؤه القارئ ليس بكلام الله...، والمسموع منه ليس من كلام الله... (١)

والقول بأن الله يخلق كلامه في محل... والمتكلم من فعل الكلام لا من قام به الكلام... الخ. هذا كلام غير واضح... كما أن القول بأن القرآن مخلوق قول مرفوض عند أهل السنة والجماعة، وسوف يأتي بيان ذلك عند الحديث عن مسألة "خلق القرآن" إن شاء الله تعالى.

أما ما انفرد به الجبائي من زعمه أن يحدث عند قراءة كل قارئ كلاماً لنفسه... وأن الذي يقرؤه القارئ ليس بكلام الله، والمسموع منه ليس من كلام الله... فإن هذا محال. وكأن الجبائي أثبت كلامين في محل واحد، وإذا كان الذي لا يقرؤه القارئ ليس من كلام الله، والذي يسمعه ليس أيضاً من كلام الله، فيكون كلام من إذا؟!!

(١) المنية والأمل ص ١٧٦: ص ١٧٧ للقاضي عبد الجبار الهمداني

١٣- الشامية :

أتباع أبي يعقوب الشحام وكان أستاذ الجبائي وضلالاته
كضلالات الجبائي (١)

١٤- الخياطية :

أتباع أبي الحسين الخياط الذي كان أستاذ الكعبي في ضلالاته
وشارك الخياط سائر القدرية في أكثر ضلالاتها (٢)

١٥- البهشمية :

أتباع أبي هاشم الجبائي ويقال لهم الدمية لقولهم باستحقاق الذم
لاعلى فعل . وقد شاركوا المعتزلة في أكثر ضلالاتها وانفردوا بفضائح
لم يسبقوا إليها.

منها قولهم باستحقاق الذم والعقاب لاعلى فعل وذلك أنهم زعموا أن القادر
منها يجوز أن يخلو من الفعل والشرك مع ارتفاع الموانع من الفعل (٣) ومن
فضائح أبي هاشم : قوله له في التوبة أنها لاتصح مع ذنب (٤) مع الإصرار

(١) الفرق بين الفرق ص ١٦٣

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

(٣) الفرق بين الفرق ص ١٦٩

(٤) هكذا النسخة التي معي ولعل الصواب "لاتصح من ذنب"

على قبيح آخر يعلمه قبيحاً أو يعتقد قبيحاً وإن كان حسناً . وزعم أن التوبة من الفضائح لاتصح مع الإصرار على منع حبة تجب عليه^(١). هذه بعض فرق المعتزلة كل فرقة منها تكفر سائرهما وهم مجمعون على تأييد صاحب الكبيرة في النار مع قولهم أنه موحد ليس بكافر أو مشرك أو حلال الدم وهم بذلك قرييون من الخوارج بل موافقون لهم في تخليد أصحاب الكبائر في النار وإن لم يكفروهم ولم يحاربوهم كما فعل الخوارج ولهذا قيل في المعتزلة : - (أنهم مخانيث الخوارج لأن الخوارج لما رأوا لأهل الذنوب الخلود في النار سموهم كفرة وحاربوهم والمعتزلة رأيت لهم الخلود في النار ولم تجسر على تسميتهم كفرة ولاجسرت على قتال أهل فرقة منهم فضلاً عن قتال جمهور مخالفينهم ولهذا نسب إسحاق بن سويد العدوى واصلاً وعمرو بن عبيد إلى الخوارج لاتفاقهم على تأييد عقاب أصحاب الذنوب فقال في بعض قصائده :-

برئت من الخوارج لست منهم	من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا علياً	يردون السلام على السحاب ^(٢)
ولكني أحب بكل قلبي	وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حباً	به أرجو غداً حسن الثواب ^(٣) .

(١) الفرق بين الفرق ص ١٧٥

(٢) الفرق بين الفرق ص ٩٩

(٣) التبصير في الدين ص ٧٢ ط " الأنوار "

ويقصد إسحاق العدوى بقوله :

ومن قوم إذا ذكروا علياً يردون السلام على السحاب

يقصد بهذا غلاة الروافض (١) حيث كانوا يعتقدون أن علياً رضى الله عنه -
حي لم يقتل ولم يمت وإنما هو في الغيم، والرعد صوته ،والبرق سوطه ، وإذا
سمعوا الرعد قالوا السلام عليك يا أمير المؤمنين (٢)

(١) الروافض الذين رفضوا إمامة أبي بكر وعمر وكانوا يرون أن علياً أولى بالامامة
منهما

(٢) التبصير فى الدين ص ٧١ : ٧٢

مدرسة المعتزلة

تكونت للمعتزلة مدرسة كبيرة في العراق ، هذه المدرسة تفرعت إلى فرعين
الفرع الأول : بالبصرة بقيادة واصل بن عطاء مؤسس الفرقة - وعمرو بن
عبيد الذي أول من أنضم لواصل بن عطاء ..

الفرع الثاني : ببغداد أسسه بشر بن المعتمر ..

وكان بين المدرستين اتفاق واختلاف - فقد اتفقتا على :-

* - نفى صفات الباري تعالى : وهدفهم من وراء ذلك التوحيد المطلق

* - كلام الله مخلوق : وهدفهم من وراء ذلك التنزيه المطلق .

* - أن أفعال العباد مخلوقة لهم ، والإنسان حر ، ويتبع ذلك مسؤوليته عن كل
ما يفعل .

* - استحالة رؤية الله عز وجل بالأبصار ، وزعموا أنه لا يرى نفسه ولا
يراه غيره .

* - حال الفاسق منزلة بين المنزلتين إلى أن يتوب وإنه لا يغفر لمرتكب
الكبائر بلا توبة ..

* - وجوب كثير من الأشياء على العبد ، من غير أن يكون ممن أمر الله
تعالى فيه أمرا ، مثل النظر ، والإستدلال ، وشكر المنعم .

* - إنكار مفاخر زائدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم زائدة على
الأنبياء: كالشفاعة والمعراج ... (١)

هذا ما اتفقت عليه المدرستان ، أما النبوة والإمامة فان كلام البغداديين يخالف كلام البصريين .

فإن من شيوخهم من يميل إلى الروافض ، ومنهم من يميل إلى الخوارج . فالجبائي وأبو هاشم قد وافقوا أهل السنة في الإمامة ، وأنها بالاختيار ، وأن الصحابة مترتبون في الفضل ترتبهم في الإمامة ، غير أنهم ينكرون الكرمات أصلاً للأولياء من الصحابة وغيرهم . وبيالغون في عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - عن الذنوب كبائرها وصغائرها ، حتى منع الجبائي القصد إلى الذنب إلا على تأويل ، والمتأخرون من المعتزلة مثل القاضي عبد الجبار وغيره انتهجوا طريقة أبي هاشم . وخالفه في ذلك أبو الحسين البصري ، وتصفح أدلة الشيوخ واعترض على ذلك بالنزيف والإبطال ، وانفرد عنهم بمسائل (١) . ليس هذا مجال ذكرها .

(١) الملل والنحل للشهرستاني حـ ٨٤١-٨٥ ط الحلبي سنة ١٣٩٦/١٩٧٦

* فرع البصرة *

عمر بن عبيد (١٤٣)

واصل بن عطاء (١٣١١هـ)

ابراهيم بن يحيى المدني
خالد بن صفوان (١٣٣)

الحسن بن زكون
حفص بن سالم
عثمان الطويل

معر بن عباد (٢٢٠)
ابو الهذيل الالف (٢٣٠) أبو بكر الأصم

بشر بن المعتصر (٢١٠) مؤسس فرع بغداد
النفوطي (٣١٨) الشحام (٢٣٣) النظام (٢٣١)

عبيد بن سليمان (٢٥٠)
الاسواريس (٢٠٠)

ابو الحسن الاشعري

أبو هاشم الجبائي (٢٣١)
الجاحظ (٢٢٥) ابو علي الجبائي (٢٠٣)

* المنية والامل : للقااضي عبد الجبار ص ١٠٧

** فرغ بغداد **

ثمامة بن الأثرس (٢١٣)

أحمد بن أبي داود (٢٤٠)

أبو موسى المراد (٢٢٦)

جعفر بن مبشر (٢٣٤)

جعفر بن حرب (٢٣٦)

الإسكافي (٢٤٠) عيسى بن الهيثم الصوفي الخياط (٢٩٠)

أبو القاسم البلخي الكعبي (٣١٩)

** لمنية و الأمل : للفاضل عبد الجبار ص ١٠٨ *

هذا ، وقد صنف كثير من شيوخ المعتزلة تفاسير للقرآن الكريم ساروا فيها على مذ هبهم الخاص الذي لا يخرج عن الأصول الخمسة - التي اتفقوا عليها .

ورغم أن للمعتزلة جرأة كبيرة على كتاب الله وعلى المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - إلا أن لهم جهداً مشكوراً تجاه كتاب الله .

وهذه التفاسير قُدم منها الكثير ، وكان في فقدانها حرمان للمكتبة الإسلامية من تراث علمي لوبقى إلى يومنا هذا لألقى لنا ضوءاً واضحاً على مدى التفكير التفسيري لشيوخ هذا المذهب الإعتزالي ، ولكشف لنا عن حقيقة ما ينسب لبعض شيوخهم من تفسيرات واسعة النطاق . نسمع بها من علمائنا المتقدمين ، ونقف منها موقف الحائر بين الشك واليقين ، لما يذكر عنها من الاستفاضة ، والتضخم الى حد يكاد يكون متخيلاً أو مبالغ فيه^(١) .

ويذكر لنا كل من العلامة السيوطي والعلامة الداودي رحمة الله تعالى عليهما في كتابيهما "طبقات المفسرين" أن علماء كثيرين من المعتزلة صنفوا في التفسير . أشهر هؤلاء العلماء :-

[١] محمد بن عبد الوهاب بن سلام المعروف بأبي علي الجبائي والمتوفى

عام ثلاثة وثلاثمائة أحد شيوخ المعتزلة

الذين كانت لهم شهرة واسعة في الفلسفة والكلام ويعد رأس المعتزلة وانتهت إليه رياستهم وله مقالات وتصانيف "التفسير" ومتشابهه القرآن^(٢)

(١) انظر التفسير والمفسرون د/ الذهبي حـ ٣٦٥/١

(١) طبقات المفسرين للداودي حـ ٢ ص ١٨٩ ط مكتبة وهبه

[٢] عبد الرحمن بن كيسان أبو بكر الأصم المعتزلي . كان له تفسير عجيب

- وله تصانيف كثيرة (١) ...

[٣] عبد السلام بن محمود بن يوسف بن بندار - أبو يوسف القزويني شيخ

المعتزلة ونزيل بغداد .. كان أحد المعمرين

والفضلاء المقدمين جمع "التفسير الكبير" الذي لم يُر في التفسير أكبر منه ولا

أجمع لفوائد لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة ، وبث فيه معتقده وهو في

ثلاثمائة مجلد ، منها سبع مجلدات في الفاتحة (٢) .

[٤] محمد بن علي بن إسماعيل الإمام أبو بكر الشاش الفقيه الشافعي

المعروف بالقفال الكبير . كان إمام عصره بما وراء

النهر ، فقيهاً محدثاً، مفسراً، أصولياً ، لغوياً، شاعراً ، لم يكن للشافعية بما

وراء النهر مثله في وقته صنف في التفسير والأصول و الفقه (٣).

[٥] أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري المتوفى سنة ثمان وثلاثين

وخمسمائة من "الهجرة" فسر القرآن الكريم تفسيراً

عظيماً لولا ما فيه من نزعات الاعتزال التي غلبت عليه واسمه الكشاف عن

حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل .

(١) طبقات المفسرين للداودي حـ ٢٧٤/١ ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان -

(٢) طبقات المفسرين للسيوطي ص ٥٦ ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان -

(٣) المرجع السابق ص ٩٤-٩٥

[٦] القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني . المتوفى سنة خمس عشرة
وأربعمائة "له كتاب تفسير اسمه تنزيه القرآن من
المطاعن" وإن كان هذا الكتاب بين أيدينا لكنه لم يشمل جميع آيات القرآن
الكريم . ولعل اشمل ما وصل إلينا من تفاسير المعتزلة كتاب الكشاف
للزمخشري ثم كتاب القاضي عبد الجبار " تنزيه القرآن عن المطاعن".
لذا سوف نذكر نبذة إن شاء الله - على الكاتين ...

الزمخشري

اسمه ولقبه وكنيته :

هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي

الزمخشري المكنى أبا القاسم الملقب بجار الله^(١) الإمام الكبير في التفسير^(٢) والحديث والنحو واللغة وعلوم البيان ، كان إمام عصره من غير مدافع ، تشد إليه الرحال في فنونه^(٣)

مصنفاته :-

صنف الزمخشري التصانيف البديعة: منها "الكشاف" في تفسير القرآن و "المحاجة بالمسائل النحوية" و "المفرد المركب" في العربية . و "الفائق في تفسير الحديث" و "أساس البلاغة" في اللغة و "ربيع الأبرار" و "متشابهة أسامي الرواة" و "النصائح الكبار" و "النصائح الصغار"^(٤) .
و الزمخشري بجوار ما يتحلى به من ثقافة إسلامية عميقة تؤهله أن يكون من العلماء كذلك له من الصلاح والتقوى ما يجعل من العلماء من يثنى عليه خيراً

(١) وسبب هذا اللقب أنه سافر إلى مكة وجاروا بها زماناً فصار يقال له "جار الله" وكان هذا الاسم علماً عليه انظر طبقات المفسرين للداودي حـ ٣١٥/٢ ط مكتبة وهبة، وانظر وفيات الأعيان حـ ١٦٩/٥ ط دار صادر

(٢) أرى أن الزمخشري ليس جديراً بأن ينال هذا اللقب إلا أن يراد به أنه إمام المعتزلة ، فإذا نسب إليه لفظ الإمام الكبير فينبغي أن يقرن بما يفيد أنه إمام المعتزلة فقط .

(٣) وفيات الأعيان حـ ١٦٨/٥

(٤) المرجع السابق حـ ١٦٨/٥

لولا أنه معتنق مذهب الاعتزال داعٍ إليه الأمر الذي جعل بعض العلماء يستجير بالله منه ،

بل إن بعضهم ليحذر من كشفه ، ويمنع النظر فيه ولو كان الناظر يعلم إعتزال صاحبه.

يقول ابن حجر رحمه الله . واصفاً الزمخشري :

إنه - صالح ولكنه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله . فكن حذرا من كشفه ... ويقول الإمام محمد بن حمزة : "والناظر في الكشف إن كان عارفاً بدسائسه فلا يحل له أن ينظر فيه لأنه لا يأمن الغفلة فتسبق إليه تلك الدسائس وهو لا يشعر ، أو يحمل الجهال بنظره فيه على تعظيم وأيضاً فهو مقدم مرجوحاً على راجح وإن كان غير عارف بدسائسه فلا يحل له النظر فيه لأن تلك الدسائس تسبق إليه وهو لا يشعر معتزلياً^(١).

ومما يروى عن الزمخشري أن إحدى رجليه كانت ساقطة ، وان كان يمشى في جاون خشب . وسبب سقوطه رجليه شدة البرد في بلدته خوار زم حيث الثلج كثير والبرد وهذا وذاك يؤثران في الأطراف فتسقط وقد سقطت أطراف خلق كثير بهذا السبب فلا يستبعده من لم يعهده .

ولكن الزمخشري رحمه الله سئل عن سبب سقوط رجليه فقال دعاء الوالدة :
إني أمسكت عصفورا وربطته بخيط في رجليه ، وأفلت من يدي ، فأدركته وقد دخل في خرق ، فجذبتة فانقطعت رجليه في الخيط ، فتألمت والدتي لذلك وقالت : قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجليه فلما رحلت إلى بخاري في

(١) لسان الميزان لابن حجر حـ ٤/٦ ط مجلس دائرة المعارف النظامية .

طلب العلم سقطت عن الدابة فانكسرت الرجل ، وعملت على عملاً أوجب قطعها^(١) .

لعله وقع عن الدابة أولاً فأصيب ثم أثر البرد والتلج على رجله المصابة فأوجب هذا وذلك القطع والله أعلم بالصواب .

والبعض يرى أن هذه الحادثة قد رسخت في نفس الزمخشري حيث أرادت أمه أن يكون منذ طفولته راعياً لله في خلقه من إنس أو طير ، ولعلها كانت تذكره يوماً بعاقبة قسوته على الطير لينشأ مفطوراً على رعاية الدين فلا يتعرض لأحد بإيذاء أو مضره^(٢) .

قلت إن صحت هذه الرواية فإن الأم تكون أحسنت إذ أرادت إن تجنب ابنها القسوة على الضعفاء من المخلوقات منذ الصغر ، ولكنها أخطأت في اتخاذ وسيلة الأدب والتربية ، ففي دعائها عليه مخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقد روى مسلم في صحيحه بسنده - " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تدعوا على أنفسكم و لا تدعوا على أولادكم و لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاءً فيستجيب لكم^(٣) .

هذا ، وقد كان الزمخشري شديد الاعتزاز باعتقاده الاعتزال ، متظاهراً به ، شديد الفخر بتفسيره الكشاف .

(١) وفيات الأعيان ح/١٦٩-١٧٠

(٢) انظر منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٢٥ للأستاذ /مصطفى الصاوي الجويني ط دار المعارف .

(٣) أخرجه مسلم ح ١٨/١٣٩ كتاب الزهد باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر

أما اعتزازه بأنه معتزلي فإنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأذن له الأذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب ... وأول ما صنف كتاب "الكشاف" كتب استفتاح الخطبة "الحمد لله الذي خلق القرآن" فقل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه فغيره بقوله: "الحمد لله الذي جعل القرآن" وجعل عندهم بمعنى خلق... وفي كثير من النسخ "الحمد لله الذي أنزل القرآن" وهذا إصلاح للناس لإصلاح المصنف (١)

ويبدو أن هذا الرأي ليس بالقوى لأن الزمخشري كان شديد الاعتزاز بالإعتزال - كما سبق - فلا يضيره أن يظن الناس أنه معتزلي وذكر في مقدمة الكتاب بما هو صريح في المعنى ولم يبال بأنه قبيح حيث قال: "أنشأ كتاباً ساطعاً تبيانه" (٢) وأنشأ بمعنى خلق ..

وأما اعتزازه بكشافه فإنه يصفه بشعر له بما يفيد أن ليس له مثيل فيقول.
 إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمرى مثل كشافى
 إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كشافى (٣)
 وكانت وفاة الزمخشري "رحمه الله" - بجرانية خوارزم بعد رجوعه من مكة وذلك ليلة عرفه (٤) سنة ثمان وثلاثين وخمسائة من الهجرة وقد رثاه

(١) وفيات الأعيان ص ١٧٠/٥ ط دار الثقافة

(٢) انظر مقدمة الكشاف للزمخشري ح ٢/١ .

(٣) طبقات المفسرين للداودي ح ٣١٦/٢ تحقيق على محمد عمر

(٤) ان صح هذا فربما يكون قد خرج من مكة قبل أيام الحج واستغرق سفره الى بلده زمناً طويلاً حتى وصل في التاريخ المذكور .

بعضهم بأبيات من الشعر من جملتها :
فأرض مكة ندّى الدمع مقلتها

حزنا لفرقة جار الله محمود (١)

القاضي عبد الجبار

وهو قاض القضاء .^(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل القاضي أبو الحسن الهمداني الأسداباذي .. كان من غلاة المعتزلة وكان إمام أهل الاعتزال في زمانه ، وكان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع ، ومذهب المعتزلة في الأصول وله التصانيف السائرة الكثيرة ، ومن أجل مصنفاته وأعظمها كتاب دلائل النبوة في مجلدين أبان فيه عن علم وبصيرة جيدة . عاش دهوراً طويلاً حتى ظهرت له الأصحاب وبعد صيته ورحلت إليه الطلاب ، وولى قضاء الري وأعمالها .

ونشأ القاضي عبد الجبار فقيراً ووصل من رقة حاله ما روى عنه أنه كان له زوجة وولد وابتاع ليلة من الليالي دهنًا ليداوي به جرباً كان عليه فلم أظلم الليل تفكر هل يطلى الجرب أو يشعل به السراج ولا تفوته مطالعة الكتب ، فرجح عنده الإشعال للمطالعة .^(٢) ثم اغتنى بعد ذلك وبلغ من الغنى حداً كبيراً فاقتنى المال والعقار حتى أجمع المؤرخون على كثرة الأموال التي صادرها منه فخر الدولة بعد أن عزله عن القضاء .

(١) هكذا يلقبه المعتزلة ، ولا يطلقون هذا اللقب على سواه ، ولا يعنون به عند الأطلاق غيره ، طبقات المفسرين الدوادى حـ ٢٦٢/١ .

(٢) هذا يدل على ان القاضي عبد الجبار — رحمه الله — كان شغوفاً بالعلم حريصاً على تحصيله محافظاً على وقته ، وان فقره لم يقعدة عن تحصيل العلم .

توفى القاضي عبد الجبار في ذي القعدة سنة خمس عشرة وأربعمائة (٤١٥)
بالري ودفن في داره (١).

(١) انظر طبقات المفسرين للسيوطي ص ٤٩ ط دار الكتب العلمية تاريخ بغداد لأبي بكر البغدادي ح ١١٣/١١ - ١١٥ ط دار الكتب العلمية وميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ح ٢٤٧/٣ ط دار الفكر العربي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي ح ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ ط دار التراث العربي ، طبقات المفسرين للدوادى ح ٢٦٢/١ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الأصول الخمسة عند المعتزلة

تمهيد:-

للمعتزلة أصول خمسة تمسكوا بها ودعوا إليها ، وأوجبوا على كل من يحمل صفة الإعتزال أن يعتنق هذه الأصول وإلا فلا يستحق اسم الإعتزال ، وقد سبق قول أبي الحسين الخياط " وليس يستحق أحد منهم اسم الإعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد-والعدل-والوعد والوعيد-والمنزلة بين المنزلتين-والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -فإذا كملت في الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي (١)

هذه هي الأصول الخمسة الجامعة لمذهب المعتزلة ، فكل من يرغب عن طريقها ، ويتبع عبر سبيلها ، فليس منهم ولا يحتملون إثمه ، ولا تلقى عليهم تبعة قوله.

والمعتزلة اتخذوا هذه الأصول قواعد وبنوا عليها مذهبهم الإعتزالي ، ثم حاولوا بعد ذلك إخضاع آيات القرآن الكريم حتى يتسنى لهم استخراج أدلة تثبت صحة هذه الأصول الخمسة ..

وحتى تعم الفائدة ، وتوضح الصورة كاملة ، سوف نلقى الضوء بالحديث عن كل أصل من هذه الأصول . ونجعل كل أصل في فصل كامل بعد أن أصدر الفصل بهذا الأصل ثم ناقشه مناقشة علمية ، وأبين أخطأهم التي انحدروا فيها ، وأرد عليهم من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة ، وأراء العلماء المنصفين فيما ذهب إليه هؤلاء الإعتزاليون ... والله الموفق والمعين

(١) الانتصار ص ١٢٧

الفصل الثانى

التوحيد

ويتكون من ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : رؤية الله فى الدنيا والآخرة

المبحث الثانى : الصفات ليست شيئاً غير الذات

المبحث الثالث : خلق القرآن

التوحيد

التوحيد يعد الأصل الأول من أصول المعتزلة ، وهو لب مذهبهم ورأس نحلّتهم يقول الأشعري في كتابه " مقالات الإسلاميين " " أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة ، ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ولا بذى أبعاد وأجزاء وجوارح وأعضاء ، وليس بذى جهات ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسّة ، ولا العزلة ولا الطول في الأماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ولا يوصف بأنه متناهٍ ، ولا يوصف بمساحة ولا زهاب في الجهات ، وليس بمحدود ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الأفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما يخطر بالبال وتُصوّر بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل أزلاً سابقاً للمحدثات موجوداً قبل المخلوقات لم يزل عالماً قادراً حياً ولا يزال كذلك ، لا تراه العيون ، ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ، ولا يُسمع بالأسماع شيء لا كالأشياء ، عالم قادر حى ، لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وإنه القديم وحده ، ولا قديم غيره ، ولا إله سواه ولا شريك له فى ملكه ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلقه شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ولا بأصعب عليه منه ، ولا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه

المضار ، ولا يناله السرور واللذات ولا يصل اليه الأذى والألام، وليس بذى غاية فينتاهى ولا يجوز عليه الفناء ، ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدر عن ملامسة النساء وعن اتخاذ صاحبة والأبناء .

هذه جملة قولهم فى التوحيد ، وقد شاركهم فى هذه الجملة الخوارج ، وطوائف من المرجئه ، وطوائف من الشيع ، وإن كانوا للجملة التى يظهرونها ناقضين ولها تاركين .^(١)

هذا تعريفهم للتوحيد ، وإذا ما نظرنا فيه وجدنا تكراراً لا تدعو الحاجة اليه ، كما أن فيه بعض الألفاظ التى لا تليق بذات الله تعالى ، ولا تتفق مع أصحاب العقيدة السلمية ، فقولهم مثلاً :

ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسمة . يغنى عنه اجماعهم على أن الله ليس كمثله شئ وهو السميع البصير

وقولهم : لا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ولا بذى أيعاض ولا أجزاء وجوارح فيه شئ من التكرار فليس ثمة فرق بين لا يتبعض وبين ولا بذى أيعاض وأجزاء . فالأبعاض هى الأجزاء كما أن الأجزاء هى الأبعاض ... قولهم : ليس بذى جهات ثم قولهم ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان ... أرى أن الجملة الأولى وهى قولهم : ليس بذى جهات تغنى عما ذكر بعدها فإن كل ذى لب يفهم بأن الله إذا وصف نفسه بأنه ليس بذى جهة فهو ليس بذى يمين ولا شمال ... الخ

(١) مقالات الإسلاميين حـ ١ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ ط السعادة

قولهم : لا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود ولا والد ولا بمولود ... الخ.. أيضاً هذا مما تكرر ذكره وليس هناك فرق بين ليس بذى جهات وبين وليس بمحدود ..

قولهم : "شئ لا كالأشياء " هذه العبارة أرى أنها لا تليق بذات الله-جل في علاه . حيث إن كلمة شئ إنما هي نكرة والنكرة تطلق على الشيء غير المعروف . ثم إن كلمة شئ تعنى أن قد شاءه غيره - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - يقول ابن منظور :

شئت الشيء أشأوه شيئاً ومشئته (١)

قولهم: وأنه القديم وحده ولا قديم غيره ، ولا إله سواه ولا شريك له فى ملكه ولا وزير له فى سلطانه ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق" فان كل جملة من هذه الجمل يغنى أولها عن آخرها فالقول بأنه سبحانه القديم وحده لا يحتاج إلى ولا قديم غيره ولا إلى لا اله سواه ، وكذا لا شريك له فى ملكه ، وكذلك قولهم ولا وزير له ... ولا معين فان الذي ليس له وزير ليس له معين حيث إن الاثنين بمعنى -

قولهم: لا تلحقهم المضار ولا يصل إليه الاذى والآلام-المضار والآذى والآلام كلها بمعنى (ولو قالوا لا تلحقه الأفات لكان أنسب والله أعلم.)

قولهم : تقدس عن ملامسة النساء..وسبق أن قالوا ولا تجوز عليه المماسمة..والعبارة الأخيرة فى تعريفهم وهى تقدس الله عن ملامسة النساء .

تغنى عن العبارة السابقة وهى قولهم ولا تجوز عليه المماسه
فإذا كان سبحانه تقدر عن ملامسة النساء فإنه يتقدس عن المماسه من باب
أولى. لان المماسه تعنى الجماع ومباشرة الرجل المرأة سواء كانت زوجته أو
لم تكن .

قال صاحب لسان العرب : المماسه كناية عن المباشرة وكذلك التماس قال
تعالى "مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَا" (١) وفى الحديث فأصبت منها دون أن أمسها (٢) يريد
أنه لم يجامعها (٣).

وقد بنوا على هذا الأصل " التوحيد " ثلاثة أشياء :

١- استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لاقتضاء ذلك فى زعمهم
الجسمية والجهة .

٢- إن الصفات ليست شيئاً غير الذات وإلا تعدد القدماء فى
نظرهم .

(١) سورة المجادلة من الآية : ٣

(٢) الحديث رواه الترمذي وقال حسن صحيح ونصه "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه
وسلم وقال إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها مادون أن
أمسها ، وأنا هذا فأقض فى ما شئت ، فقال عمر لقد سترك الله ولو سترت على نفسك
، فلم يرد عليه رسول الله "صلى الله عليه وسلم " شيئاً ، فانطلق الرجل فأتبعه رسول
الله صلى "الله عليه وسلم" رجلاً فدعاه فتلا عليه : " وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ
اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ " هود : ١١٤-فقال رجل من
القوم هذا له خاصة قال لا بل للناس كافة . انظر الترمذي ح ٨ / ٥١٢ - ٥١٣ كتاب
تفسير القرآن عن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" / ١٢ باب ومن سورة هود .

(٣) لسان العرب ح ٦ / ٤٢٠١ - ٤٢٠٢

٣- إن القرآن الكريم مخلوق لله سبحانه وتعالى .
ومن الخير أن نجعل لكل موضوع من هذه الموضوعات مبحثا خاصا ،
لنتعرف علي آرائهم وحججهم في كل موضوع ...
ومن الله نستمد العون والتوفيق

"مذهب المعتزلة في رؤية البارئ"

أنكر المعتزلة رؤية الله في الدنيا والآخرة ، زاعمين أن هذا يتنافى مع عظمة الله - فالله في نظرهم أعظم من أن يري لأن الرؤية علي مذهبهم تجعل الله في حيز من المكان ..

وهي تتنافى في نظرهم مع التوحيد لأنها يترتب عليها أن الله شبيه بالحوادث ، واحتجوا بآيات يوهم ظاهرها نفي الرؤية. وسوف نذكر بمشيئة الله تعالى الآيات التي احتجوا بها ووجهة نظرهم وتفسيرها تهم لهذه الآيات ثم نقوم بالرد عليهم بعون الله وتوفيقه من خلال تفاسير وأقوال علماء أهل السنة والجماعة والله نسأل أن يوفقنا إلى مافية الصواب والرشاد ،

أدلة المعتزلة النقلية على نفي الرؤية

استدل المعتزلة ببعض آيات يوهم ظاهرها استحالة رؤية الله جل جلاله من هذه الآيات

(١) قول الله تعالى : " يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ " (١)

استدل القاضي عبد الجبار والزمخشري وغيرهما من علماء المعتزلة بهذه الآية على نفي رؤية الباري سبحانه وتعالى .

يقول القاضي عبد الجبار في كتابه متشابه القرآن : وقوله تعالى : يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا... الآية يدل على نفي الرؤية عن الله تعالى لأنه عظم من قوم موسى هذه المسألة وأكبرها، وجعلها لعظمتها مثلا في تكذيب القوم بالنبي "صلى الله عليه وسلم" في المعجزة واقترحهم عليه في المعجز ما اقترحوا ، وتركهم الإيمان به مع ما قد ظهر عليه من القرآن وسائر المعجزات ، وبين أنهم عند هذا السؤال أخذتهم الصاعقة ، وبين أنهم ظلموا فيما سألوا ، لأن مسألتهم وإن لم تكن ظلماً للغير فهي ظلم لأنفسهم (٢) أما الزمخشري فإنه يرى أن ظلمهم هو سؤالهم رؤية الله ومن ثم أخذتهم الصاعقة ، وسموا ظالمين لأنهم سألوا سؤالاً غير جائز ، ولو كان سؤالهم جائزاً لما أخذتهم الصاعقة ، ولما كانوا ظالمين ، فإن إبراهيم عليه السلام سأل الله أن يريه إحياء الموتى ولم يسمه ظالماً ولا رماه بصاعقة...

(١) سورة النساء من الآية: ١٥٣

(٢) متشابه القرآن القسم الأول تحقيق د/ عدنان محمد زرزور ص ٢١٠ ط دار النصر

ثم يتناول الزمخشري - كعادته - علي أهل السنة والجماعة فيقول : فتباً
للمشبهة ورمياً بالصواعق^(١).

الرد عليهم وتفنيدهم :-

أولاً : رأي القاضي عبد الجبار :

قول القاضي عبد الجبار أن هذه الآية تدل
علي نفى الرؤية ... الخ قول مردود فإنه لم يأت به النقل ، ولا يتناسب مع
العقل .

وليست الصاعقة لذات السؤال ولكن لتكذيبهم وعنادهم وطغيانهم . يقول ابن
كثير - رحمة الله عليه - في معني قوله تعالى : (فقلوا أرنا الله جهرة
فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) أي بطغيانهم وبغيهم ، وعتوهم وعنادهم^(٢)
وذلك لأن سؤالهم لم يكن لأجل العلم والأسترشاد ، بل لمحض العنت والعناد
يقول القرطبي :

إنما قالوه علي سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد كما تعنت آباؤهم من قبل
حيث سألوا موسى أكبر من هذا فقالوا " أرنا الله جهرة " ^(٣) أي عياناً^(٤)
وكذلك سأل كفار قريش رسول الله " صلى الله عليه وسلم " - تعنتا وعنادا

(١) الكشاف حـ ٣١٠/١ - بتصريف واختصار وتلخيص

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ ٢٧٦/٢ ط مكتبة الإيمان الطبعة الأولى

١٤١٧/١٩٩٦م

(٣) سورة النساء الآية ١٥٣

(٤) الجامع لأحكام القرآن حـ ٦/٦ ط دار الكتب .

كما سال اليهود وأسلافهم مما يدل علي أن العناد والتعنت منهج الكافرين في كل عصر وجيل ومن ثمَّ كان العقاب من الله .قال تعالى :

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝ (١)

ثانياً : رأى الزمخشري :-

أما كلام الزمخشري فإننا نستطيع أن نجعله قسمين :

القسم الأول : زعمه أن الظلم الذي وقع منهم وبه أخذتهم الصاعقة هو طلب الرؤية ويصرح بأنهم لو طلبوا أمراً جائزاً لما سموا ظالمين ولما أخذتهم الصاعقة ثم يستشهد على ذلك بسؤال إبراهيم ربه "رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ" (٢)

القسم الثاني : تطاوله على أهل السنة والجماعة ودعاؤه عليهم بالهلاك ، ووصفه إياهم بالمشبهة . ولنا على ذلك ملاحظات .

زعمُ الزمخشري أن الظلم هو طلب الرؤية باطل - كما مر من قبل . فلم تأخذهم الصاعقة لمجرد سؤالهم رؤية الله كما زعم الزمخشري - ولكن بسبب طغيانهم وعتوهم وعنادهم كما قال ابن كثير (٣) رحمه الله تعالى .

أما ما ذهب إليه الزمخشري من تنظير هذا السؤال بسؤال سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فعجيب وفيه تعسف واضح ، حيث إن القياس فاسد ، والمقارنة لا تصلح ، ووجه الشبه معدوم ، وشتان بين السؤالين ...

(١) سورة الإسراء : ٩٠

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٦٠

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٢ / ٢٧٦

وكيف نقارن بين من سأل وصرح لسانه بالإيمان حيث قال له ربه " أَوَلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ " (١)

وبين هؤلاء الذين طبوا من موسى خصوصية وعلقوا إيمانهم بها وصرح لسانهم بنفي الإيمان وقالوا : "لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً" (٢)

إن إبراهيم لم يكن شاكاً في قدرة الله وإلا ما استحق ثناء الله عليه في كثير من آيات القرآن الكريم ، ولما قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " نحن أحق بالشك من إبراهيم " عليه السلام " إذ قال " رب أرني كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي " (٣).

بل إن الشك على سيدنا إبراهيم عليه السلام - لا يجوز - وكذلك بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . يقول القرطبي - رحمه الله :-

ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر ، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث . وقد أخبر الله تعالى أن الأنبياء وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ " (٤) . وإذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشكهم؟! فالشك يبعد على من تثبت قدمه

(١) سورة البقرة من الآية ٢٦٠

(٢) سورة البقرة من الآية ٥٥

(٣) رواه مسلم كتاب الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة ح ٢ / ١٨٣

ط المطبعة المصرية ومكتبتها .

(٤) الحجر من الآية : ٤٢

فى الإيمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة ، والأنبياء معصومون من الكبائر
ومن الصغائر التي فيها الرذيلة إجماعاً (١)
وأراد إبراهيم عليه السلام أن يترقى من خلال سؤاله ربه إلهي أعلى
الدرجات وهي عين اليقين.

يقول ابن كثير - رحمه الله - :-

... أنه لما قال النمرود " رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيَمِيتُ " (٢) أحب أن يترقى من علم
اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة ، ويعاين ذلك معاينة لأن
الخبر لا يكون عند ابن آدم كالعيان ، على ما قيل ليس الخبر كالمعاينة ، فقال
رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي (٣).
وقيل: بل كانت مسألته ربه عند البشارة التي أنته من الله بأنه اتخذه خليلاً،
فسأل ربه أن يريه عاجلاً من العلامة له على ذلك ، ليطمئن قلبه بأنه قد
أصطفاه لنفسه خليلاً ، ويكون ذلك لما عنده من اليقين مؤيداً ، فقام يدعو ربه
يقول :- رب أرني كيف تحي الموتى حتى أعلم أني خليلك قال أولم تؤمن
بأنى خليلك ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي بخُلوئتك (٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن حـ ٤ / ٢٩٨ - ٢٩٩

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٥٨

(٣) تفسير القرآن العظيم حـ ١ / ٣٩٥ وانظر الدرر المنثور حـ ١ / ٣٣٤

(٤) جامع البيان فى تأويل القرآن للطبري حـ ٣ / ٧١ : ٧٢ ط دار الغد .

وقيل قوله : بلى ولكن ليطمئن قلبي أي ليطمئن قلبي ، وأعلم أنك قد استجبت لي فيما دعوتك ، وأعطيتني الذي سألتك ، ويطمئن قلبي أنك أرييتني الذي أردت^(١).

ويقول صاحب التأويلات :

يحتمل أن يكون إبراهيم - عليه الصلاة و السلام - أراد بسؤاله ذلك أن تكون له أية حسية ، لأن آيات إبراهيم كانت عقلية ، وآيات سائر الأنبياء كانت عقلية وحسية . فأحب إبراهيم - صلوات الله عليه وسلامه ، أن تكون له أية حسية على ما لهم كسؤال ذكرها ربه حيث قال " رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً " " قَالَ آيَتِكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا " ^(٢)

وأرى أن في هذا الرأي نظراً ، والقول بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم تكن له أية حسية غير سديد ، فإن نجاته من النار أية حسية مرئية بل هي غاية في الإعجاز أن يكون إبراهيم عليه السلام في قلب النار ولم تحرقه ، ولم تؤذيه ، بل كانت عليه برداً وسلاماً لأن الله أبطل مفعولها وفي هذا أية كريمة ومعجزة عظيمة قال تعالى " فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . " ^(٣)

(١) تفسير جامع البيان للطبري حـ ٣ / ٧٥ دار الغد .

(٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي ص ٦٠٩ : ٦١٠ - والآية في سورة آل عمران

من الآية : ٤١

(٣) سورة العنكبوت آية : ٢٤

وقال سبحانه :

" قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ " (١) كما لا نؤيد صاحب التاويلات فى قوله : أن آيات الأنبياء كلهم كانت حسية وعقلية إذ المعروف أن النبي محمداً "صلى الله عليه وسلم" هو الذي أعطى معجزات حسية (٢) ومعجزات معنوية وهو القرآن الكريم

(١) سورة الأنبياء آيتان ٦٨ : ٦٩

(٢) مثل انشقاق القمر ، وحنين الجذع ونبع الماء من أصابعه وغير ذلك - فحديث انشقاق القمر رواه الشيخان ولفظ البخاري "عن أنس بن مالك رضى الله عنه " أن أهل مكة سألوا رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر ح ٦٠٧ / ٧٣٠ ك المناقب ب سؤال المشركين أن يريهم النبي "صلى الله عليه وسلم" آية فأراهم انشقاق القمر ومسلم ، ح ١٧ / ١٤٣ ك صفات المنافقين وأحكامهم ب انشقاق القمر ورواه الترمذي وقال عنه حديث حسن صحيح ح ٩ / ١٦٤ ، ١٦٥ ك تفسير القرآن / ٥٤ ومن سورة القمر. وحديث حنين الجذع رواه النسائي ح ٣ / ١١٣ كتاب الجمعة باب الصلاة يوم الجمعة لمن جاء وقد خرج الإمام حديث رقم ١٣٩٥ - ونصه " كان رسول الله "صلى الله عليه وسلم" إذا خطب ! يستند إلى جذع نخلة من سواري المسجد ، فلما صنع المنبر واستوى عليه ، اضطربت تلك السارية كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد ، حتى نزل إليها رسول الله "صلى الله عليه وسلم" . فاعتنقها فسكتت " وعن نافع عن ابن عمر أن النبي "صلى الله عليه وسلم" كان يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم - المنبر ، حن الجذع حتى أتاه فالتزمه فسكن " انظر الترمذي ح ٣ / ٣٨ ك الصلاة ب الجمعة حديث رقم ٥٠٥ ، قال أبو عيسى حديث ابن عمر حديث حسن غريب صحيح ... وفى رواية البخاري ... فسمعنا لذلك الجذع /

لتناسب مع عمومية رسالته فى الزمان والمكان ، أما غيره من الأنبياء فكانت معجزاتهم حسية فقط ... اللهم إلا أن يقصد صاحب التأويلات أن معجزات الأنبياء تدرك بالعقل .

والدليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنفرد بالمعجزة المعنوية ما جاء فى السنة عن أبى هريرة "رضى الله عنه" قال : قال النبي "صلى الله عليه وسلم" : ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه من البشر ، وإنما كان الذي أُنْتِبه وحيأً أوحاه الله إليّ ، فارجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة " (١) وقيل - يحتمل سؤاله عما يسأل لما نازعته نفسه وحدثته فى كيفية الإحياء ، وقد تنازع النفس وتحدث بما لا حاجة لها إليه من حيث

// صوتاً كصوت العشار ، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم" فوضع يده عليها فسكنت " البخاري حـ ٦ / ٦٩٦ ك المناقب حديث رقم ٣٥٨٥
حديث نبع الماء من بين يديه صلى الله عليه وسلم رواه مسلم أن سيدنا جابراً "رضى الله عنه" أتى سيدنا رسول الله "صلى الله عليه وسلم" بجفنه ووضعها بين يديه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجفنة هكذا فبسطها وفرّق بين أصابعه ثم وضعها فى قعر الجفنة وقال خذ يا جابر فصب علىّ وقل بسم الله فصببت عليه وقلت بسم الله فرأيت الماء يتفور من بين أصابع رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ... الخ الحديث مسلم حـ ١٨ / ١٤٥ - ١٤٦ - كتاب الزهد باب حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسير.

(١) البخاري حـ ٨ / ٦١٩ ك فضائل القرآن ب كيف نزل الوحي حديث رقم : ٤٩٨١

نفسه ليقع له فضل علم ومعرفة (١) .

وأرى أن هذا الرأي هو الأقرب للصواب ، بل هو المعتمد لأن صريح القرآن يؤيده حيث قال سيدنا إبراهيم أرني كيف تحي الموتى ولم يقل هل تحي الموتى مثلاً . لأنه عليه السلام كان يؤمن بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى " قال أولم تؤمن قال : بلى " ولكن سأل عن الكيفية . وليس في هذا حرج لذلك لم يعاقبه الله تعالى على سؤاله - كما عاتب سبحانه - نوحاً عليه السلام - على سؤاله . وعاقب ذكريا عليه السلام على سؤاله . - كما قال سبحانه :

" قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " (٢)

وقال جل جلاله عن سيدنا ذكريا :-

"قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا " سورة آل عمران من الآية : ٤١

وذلك لأن سيدنا ذكريا - عليه السلام - طلب أية أي علامة - يعرف بها صحة هذا الأمر وكونه من عند الله تعالى، فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآية يعد مشافهة الملائكة إياه . قاله أكثر

(١) تأويلات أهل السنة ص ٦٠٩ ط الإرشاد - بغداد ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

(٢) سورة هود آية : ٤٦

المفسرين .. قالوا وكذلك إن لم يكن من مرضٍ خرسٍ أو نحوه ففيه على كل حال عقاب ما (١) .

وكون سيدنا إبراهيم عليه السلام - أراد أن يطمئن قلبه لا يدل على عدم إيمانه فقد يؤمن الإنسان بالشيء ولكن قلبه لا يطمئن حتى يرى بعينه والمعاناة أقوى من الخبر . والله أعلم

فالمسألة من سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . لم تعرض من جهة الشك ، ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالا يفيد الاستدلال (٢)

وأقول من صريح القرآن يتضح :-

أن سؤال إبراهيم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - فيه صريح الإيمان ، أما سؤال هؤلاء الملائعين فهو محض الكفر والإلحاد ، والتكذيب والعناد . فأنى يكون هذا نظير ذلك !؟

إن سؤال إبراهيم - عليه السلام - لا يدل البتة على أنه ليس بمؤمن ، وسؤال اليهود يدل على نفي الإيمان عن قلوبهم وهم يقولون " لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " (٣) لذلك أخذهم الله بالصاعقة .

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ح ٤ / ٨٠

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ح ١١ / ٣٩٥ بالهامش تحقيق طه عبد الرؤف

سعد - ط مكتبة الإيمان الطبعة الأولى ١٤١٧ - ١٩٩٦

(٣) سورة البقرة من الآية : ٥٥

وقد جمع الله بين سؤال رؤية الله جهرة وسؤال إنزال كتاب من السماء لما فيهما من تشابه الخبث والعناد ، ويذكر ابن كثير أن نظير ذلك سؤال كفار قريش لرسول الله "صلى الله عليه وسلم - الذي جاء في سورة الإسراء .
فيقول :-

سأل اليهود رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة وإنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك كما هو مذكور في سورة سبأ " وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً " (١) ففي سؤال كفار قريش وسؤال قوم موسى من التعنت والعناد ما لا يخفى ، كما لا يخفى أن ما طلبه قريش ممكن وغير مستحيل عقلاً ونقلًا وما طلبه قوم موسى مستحيل ولكن الله عاب على الفريقين فإنهما وإن اختلفت أسئلتهم فقد تشابهت قلوبهم من حيث الكفر والعناد ، وما انطوت عليه نياتهم الخبيثة من إلحاد .

(١) تفسير القرآن العظيم حـ ٢ ٢٧٦١ والآية رقم ٩٠ من سورة الإسراء .

استعظام سؤال الرؤية

لعل سؤالاً يتبادر إلى الذهن يقول صاحبه :

إذا كانت رؤية الله جائزة بل هي من أجل النعم - فلم يكون إلتماسها عتوا
وذنباً كبيراً؟!!

علماً بأن من سأل الله نعمة في الدين أو الدنيا لم يكن عاتياً أو مذنباً إذ المعلوم
أن الله سبحانه وتعالى يمنح عباده ما شاء ، أو يمنع عنهم ما شاء ، حسبما
تقتضيه حكمته لعلمه الأزلي عز وجل أن ما يمنعه أو ما يمنحه هو ما
تقتضيه مصلحة عباده .

يقول الفخر الرازي مبيناً سبب استعظام سؤال القوم الرؤية علماً بأنها ممكنة
إذ لا يستحيل عليه شيء .

الجواب في ذلك يحتل وجوهاً :

أحدها : أن رؤية الله تعالى لا تحصل إلا في الآخرة فكان طلبها في الدنيا
مستكراً .

ثانيها : لا يمتنع أن يعلم الله تعالى أن في منع الخلق عن رؤيته سبحانه في
الدنيا ضرباً من المصلحة المهمة فلذلك استتكر طلب الرؤية في الدنيا كما علم
أن في إنزال الكتاب من السماء وإنزال الملائكة من السماء مفسدة عظيمة
فلذلك استتكر طلب ذلك .

ثالثها : أنه لما تمت الدلائل على صدق المدعى كان طلب الدلائل الزائدة تعنتاً
والمتعنت يستوجب التعنيف (١)

(١) التفسير الكبير حـ ١٢١/٣ ط دار الغد

ثم أن تعليق إيمانهم على رؤية الله جهرة يعد تكذيباً صريحاً برسالة سيدنا موسى - عليه السلام رغم ما ظهر من معجزات باهرة .
 وبناءً على ما تقدم يكون كلام الزمخشري في رمية أهل السنة والجماعة بالحشوية والمشبهة ، ودعاؤه عليهم بالهلاك هو نوع من السفه ولغو الكلام ، ليس فيه أدلة علمية تبرهن صحة ما زعم ، وهو وصف باطل مردود ، فإن أهل السنة والجماعة أبعد الناس عن التشبيه والحشو حيث قالوا أن رؤية الله عز وجل ممكنة بلا كم ولا كيف ولا انحصار ، والله قادر على ذلك لا يعجزه شيء . قال تعالى : " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا " (١) .

٢- قوله تعالى :

" لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " (٢)

لعل هذه الآية تعد من أقوى الأدلة النقلية - عند المعتزلة على نفى رؤية الله عز وجل في الدنيا والآخرة ، فهم يرون أن الآية صريحة في نفى الرؤية وذلك على جهة التنزيه والمدح ، كما يرون أن الله أعظم من أن يرى بالأبصار في الدنيا أو الآخرة .

يقول القاضي عبد الجبار حول هذه الآية الكريمة :

(١) سورة فاطر من الآية : ٤٤

(٢) سورة الأنعام : ١٠٣

" يدل على أنه تعالى لا يجوز أن يرى بالأبصار والعيون على وجه، في كل وقت من غير تخصص ، لأنه تعالى عم بالنفى ، وذكر ذلك على جهة التنزه والمدح وما تمدح بنفيه مما يرجع إلى ذاته لم يقع إثباته إلازماً فيجب أن يدل الظاهر على ما قلناه ، كما كان يدل لو قال :

لا تراه الأبصار ، لأن الإدراك إذا قرن بالبصر زال عنه الإحتمال ، ولا يجوز في اللغة أن يراد به إلا الرؤية بالبصر ، ولذلك يجريان في النفي والإثبات على حد واحد (١)

وقريبا عن هذا القول قول الزمخشري في كشافه :

(أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه لأنه متعال أن يكون مبصراً في ذاته لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً كالأجسام والهيئات (٢)

ومن خلال هذه الآية أعتقد المعتزلة أن الله لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة . (٣)

أصاب المعتزلة في تأويلهم لهذه الآية من حيث نفى رؤية الله في الدنيا فهذا متفق عليه بين العلماء أن الله لا يراه أحد من المؤمنين أو الكافرين في الدنيا

(١) متشابه القرآن ص ٢٥٥ ط مكتبة دار التراث .

(٢) الكشاف ح ٣٢/٢

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ح ١٩٢/٣ ط مكتبة الإيمان .

الكوفة أن معنى " إلى ربها ناظرة " تنظر إلى خالقها نظراً وبذلك جاء الأثر عن رسول الله "صلى الله عليه وسلم". (١)

أما تأويل المعتزلة الآية " لا تدركه الأبصار " فأراه باطلاً لعدد أسباب منها " ١- أن النصوص النقلية تنطق بالرؤية صراحة . وما ذهب إليه المعتزلة إنما هو استنباط وفهم واجتهاد منهم . وما جاء صريحاً في القرآن الكريم ، والحديث الصحيح أولى بالقبول مما جاء اجتهاداً واستنباطاً .

٢- أن هناك فرقاً واضحاً بين الإدراك والرؤية ، الإدراك الإحاطة بالشئ أما الرؤية ففوق البصر على الشئ عادة .
قال ابن كثير رحمه الله :

الإدراك أخص من الرؤية ، وهو الإحاطة ، ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم ، قال تعالى :
" وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا " . (٢)

وقول النبي "صلى الله عليه وسلم " لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " (٣) لا يستلزم منه عدم الثناء فكذلك هذا .

(١) الطبري حـ ٣٧١/١٢ - ٣٧٢ ط دار الغد

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ ١٩١/٣ والآية ١١٠ من سورة طه

(٣) الحديث رواه الترمذى حـ ١٠ / ١٤ كتاب الدعوات باب في دعاء الوتر حديث رقم

٣٥٦٦ وقال حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث حماد بن سلمه

— ورواه النسائي حـ ٢٧٥/٣ : ٢٧٦ كتاب قيام الليل باب الدعاء في الوتر حديث رقم //

وعن ابن عباس إنه قال فى قوله تعالى : " لاتدرکه الأبصار "

لا يحيط بصر أحد بالملك . (١)

وقيل لعكرمة " لا تدرکه الأبصار " قال ألت ترى السماء ؟ قال بلى ،

قال فكلها ترى (٢)

فالإنسان يرى السماء ويرى القمر ولكن لا يدرك حقيقة السماء ولا يحيط
علماً بما يتعلق بالقمر فالإدراك أعم من الرؤية ، ونفى العموم لا يلزم منه
نفى الأخص .

إن المنفى فى الآية هو الإدراك ، أما الرؤية فلا دليل قاطع ، ولا برهان
ساطع على نفيها .

يقول ابن جرير رحمه الله :

هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، وبصره محيط بهم

فذلك قوله " لا تدرکه الأبصار وهو يدرك الأبصار (٣)

ويبين ذلك ويؤيده قول الله تعالى :

"قَلَمًا تَرَاءَ ۖ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي

سَيَهْدِينِ " (٤)

// ١٧٤٦ - والرواية المذكورة هنا رواية الترمذى .

(١) الطبرى حـ ٣٢٩/٥

(٢) تفسير القرآن العظيم حـ ١٩٢/٣

(٣) تفسير الطبرى حـ ٣٧/١٢

(٤) الشعراء ٦١-٦٢

تراءى الجمعان أى تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه وهو تفاعل من الرؤية ..

هنا قال بنو إسرائيل إنا لمدركون فرد عليهم موسى قولهم فقال كلا " أى لم يدركوكم (١) فكل من موسى وبنى إسرائيل أثبت الرؤية لفرعون وقومه ولكن بنى إسرائيل اعتقدوا أنهم مدركون وموسى أنكر ذلك . فبان أن لا تناقض بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك . ومن ثم فلا تناقض بين أن الأبصار لا تدرك الله ، وأن الوجوه إلى ربها ناظرة نظر رؤية .

ثم أن الله سبحانه قال : "لا تدركه الأبصار " ولم يقل " لا تراه الأبصار " وعلى المعتزلة أن يبينوا أن الإدراك فى لغة العرب مرادف الرؤية وأن كل من رأى شيئاً يقال فى لغتهم أنه أدركه وهذا لا سبيل إليه .

كيف وبين لفظ الرؤية ولفظ الإدراك ، كما يقول ابن تيمية - عموم وخصوص فقد تقع رؤية بلا إدراك وقد يقع إدراك بلا رؤية أو اشتراك لفظى ، وإن الإدراك يستعمل فى إدراك العلم وإدراك القدرة فقد يدرك الشئ بالقدرة وإن لم يشاهد كالأعمى الذى طلب رجلاً هارباً ولم يره

وفى قوله تعالى : "قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا (٢) نفى موسى الإدراك مع إثبات الترائى فعلم أنه قد يكون رؤية بغير إدراك والإدراك هنا هو إدراك القدرة أى ملحقون محاط بنا (٣)

(١) القرطبي حـ ١٠٦/١٣

(٢) سورة الشعراء ٦١-٦٢

(٣) منهاج السنه النبوية لابن تيمية حـ ٢١٦/١ ط دار الكتب العلمية

وبذلك يبطل كلام القاضى وزعمه أن الإدراك والرؤية بمعنى، وأنهما يجريان فى النفس والإثبات على حد واحد لأن الرؤية تطلق على من رأى شيئاً ولو لم يحط به أما الإدراك فإنه الإحاطة بالشيء مع الوصول إلى الغاية يقول الألوسى "رحمه الله" (وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إلى غايته والإحاطة به)^(١)

أما ادعائهم أن الله ذكر ذلك على وجه التنزه والمدح وما دام الله تمدح بنفى رؤيته فيكون إثباتها ذمّاً .. . فهذا غير مسلم به ، بل إن علماء أهل السنة يرون أن العكس هو الصحيح . لأن إثبات الرؤية لله صفة كمال ومدح لا صفة نقص ودم، فإن الذى لا يرى هو العدم والعدم ليس بشئ . والله أكبر من كل شئ قال تعالى :

" قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ " ^(٢)

كما أن إثبات الرؤية من عدم الإحاطة صفة كمال وعظمة ، فإن الشيء العظيم يرى ولا يدرك ولا تعرف حقيقته ، ألا ترى الشمس ساطعة ويراهما كل الناس ولكن لا يدركون حقيقتها وإن لم تغب عنهم رؤيتها ، فكيف بمن خلق الشمس والقمر وكل شئ جل فى علاه -

يقول العلامة ابن تيمية - رحمه الله - حول هذا الموضوع :

إن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفسه سبحانه وتعالى ومعلوم كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح لأن النفس المحض لا يكون مدحاً إن لم يتضمن أمراً

(١) انظر روح المعانى جـ ٢٤٥/٧ ط دار إحياء التراث العربى الطبعة الرابعة سنة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م

(٢) سورة الأنعام من الآية ١٩

ثبوتياً لأن المعدوم أيضاً لا يرى والمعدوم لا يمدح فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه وإن كان المنفى هو الإدراك فهو سبحانه لا يحاط به رؤية كما لا يحاط به علماً ولا يلزم من نفي إحاطة العلم والرؤية نفي الرؤية بل يكون ذلك دليلاً على أنه يرى ولا يحاط به فإن تخصيص الإحاطة يقتضى أن مطلق الرؤية ليس بمنفى وهذا الجواب قول أكثر العلماء من السلف وغيرهم وقد روى معناه عن ابن عباس (١) رضى الله عنهما - وغيره (٢)

والجدير بالذكر أن تفسير المعتزلة لهذه الآية :

"لا تدركه الإبصار" خالف أقوال الصحابة والسلف رضوان الله تعالى عليهم - يقول ابن كثير رحمه الله "حول هذه الآية "لا تدركه فى الدنيا" وإن كانت تراه فى الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله "صلى الله عليه وسلم". من غير ما طريق ثابت فى الصحاح والمسانيد والسنن (٣) وكانت أم المؤمنين عائشة "رضى الله عنها" تثبت الرؤية فى الدار الآخرة وتنفيتها فى الدنيا. (٤)

(١) سبق كلام ابن عباس لا يحيط بصر أحد بالملك

(٢) منهاج السنة النبوية - ٢١٦/١

(٣) أحاديث كثيرة وردت منها - سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون فى

رؤيته الترمذى - ٣١٠/٧ ك صفة الجنة ب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى

(٤) روى مسلم فى صحيحة بسنده عن مسروق قال كنت متكئاً عند عائشة فقالت يا أبا

عائشة (وهى كنية الإمام مسروق المتوفى سنة ٦٣هـ - وسمى مسروقاً لأنه سرقه أحد

الناس فى صغره ثم وجد "هامش شرح النووى - ٤١٩/١ ط الشعب) ثلاث من تكلم

بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية قلت ما هن قالت من زعم ان محمداً "صلى الله //

وتحتج بهذه الآية "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار" فالذى نفته الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال ، على ما هو عليه ، فإن ذلك غير ممكن للبشر ، ولا للملائكة ، ولا لشيء ، وقوله "وهو يدرك الأبصار" أى يحيط بها ويعلمها على ما هى عليه ، لأنه خلقها قال تعالى : " أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١)"

// عليه وسلم" رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال وكنت متكئاً فجلست فقلت يا أم المؤمنين انظرينى ولا تعجلينى ألم يقل الله عز وجل "وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ" سورة التكويد اية ٢٣ "وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَى" سورة النجم اية : ١٣ فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله " صلى الله عليه وسلم " فقال إنما هو جبريل لم أراه على صورته التى خلقه عليها غير هاتين المرتين رأيت من منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض فقالت أو لم تسمع أن الله يقول :

"لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" الأنعام ١٠٣ أولم تسمع أن الله يقول : "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ" الشورى اية ٥١ قالت ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول : "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ" المائدة من الآية ٦٧ قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الفرية والله يقول " قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ" النمل من الآية ٦٥ انظر صحيح مسلم حـ ٩:٨/٣ كتاب الإيمان باب إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ ١٩١/٣ : ١٩٣ بتصرف واختصار والآية من

من كلام ابن تيمية وكلام ابن كثير "رحمة الله عليهما" يتبين لنا أن قوله تعالى : "لا تدركه الأبصار" ليس حجة للمعتزلة على نفى الرؤية ، بل هو حجة عليهم فى إثباتها ، لأن الإدراك إما أن يراد به مطلق الرؤية أو الرؤية المقيدة بالإحاطة والأول باطل لأنه ليس كل من رأى شيئاً يقال أنه أدركه كما لا يقال احاط به كما سئل ابن العباس -رضى الله عنهما - عن ذلك فقال: ألسنت ترى السماء ؟ قال : بلى . قال أكلها ترى ؟ قال لا .. ومن رأى جوانب الجيش أو الجبل أو البستان أو المدينة لا يقال أنه أدركها وإنما يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية (١)

قلت: يؤيد هذا قول الله تعالى : "وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا" (٢) فهذا لا ينفى العلم كليةً.

وإن تأويل المعتزلة لهذه الآية لا يقبل لما فيه من الخلل بقواعد اللغة العربية ، والجهل مما دل عليه كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله "صلى الله عليه وسلم" وفيه المخالفة لأقوال الصحابة الكرام وسلف الأمة وأئمتها يقول ابن تيمية - رحمه الله - فى كتابه مجموع الفتاوى: وهذا هو الحق - أى نفى الإحاطة دون الرؤية - الذى اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها (٣) وقال ابن المقيم

(١) منهاج السنه النبوية حـ ١/٢١٥/٢١٦ ط دار الكتب العلمية .

(٢) سورة طه الآية ١١٠

(٣) حـ ٣/٣٦

- رحمه الله - فى قوله " تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ " (١) أجمع أهل اللغة على ان اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظراً بالأبصار . (٢)

(١) سورة الاحزاب من الاية ٤٤

(٢) حادى الارواح ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ط دار احياء الكتب الفوقية

هل رأى النبي "صلى الله عليه وسلم" ربه جل جلاله؟

لا خلاف بين العلماء أن رؤية الله في الدنيا لم تحدث لأحد من البشر ، ولم ير أحد ربه في الدنيا ولن يكون . هذا ما لا خلاف فيه بين أهل العلم ولكن الخلاف في رؤية النبي "صلى الله عليه وسلم" ربه سبحانه وتعالى في الدنيا هل رأى النبي "صلى الله عليه وسلم" ربه في الدنيا - فمن الصحابة من يرى أن ذلك قد حدث ومنهم من يرى أن هذا لا يجوز ومخالف لصريح القرآن الكريم .

يقول القاضي عياض " رحمه الله " اختلف السلف والخلف هل رأى نبينا "صلى الله عليه وسلم" - ربه ليلة الإسراء والمعراج فأنكرته السيدة عائشة - رضى الله عنها - وجاء مثله عن

أبي هريرة وجماعة وهو المشهور عن ابن مسعود "رضى الله عنه" وإليه ذهب جماعة من المحدثين والمتكلمين - وروى عن ابن عباس "رضى الله عنهما" " إنه رأى بعينه ومثله عن أبي ذر وكعب" رضى الله عنهما " والحسن " رحمه الله " وكان يحلف على ذلك .. وعن أبي موسى الأشعري وجماعة من أصحابه أنه رأى .. ووقف بعض مشايخنا في هذا وقال ليس عليه دليل واضح ولكنه جائز ورؤية الله تعالى في الدنيا جائزة وسؤال موسى إياها دليل على جوازها إذ لا يجهل نبي ما يجوز أو يمتنع على ربه .. وأما صاحب التحرير . فإنه اختار إثبات الرؤية قال والحجج في هذه المسألة وإن كانت كثيرة ولكننا لا نتمسك إلا بالأقوى منها ،

وهو حديث ابن عباس رضى الله عنهما " (أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد "صلى الله عليه وسلم") وعن عكرمة سئل ابن عباس رضى الله عنهما هل رأى محمد "صلى الله عليه وسلم" ربه ؟ قال

: نعم وقد روى بإسناد لا بأس به عن شعبة عن قتادة عن أنس - رضى الله عنه - قال رأى محمد "صلى الله عليه وسلم" ربه وكان الحسن يحلف لقد رأى محمد "صلى الله عليه وسلم" ربه - والأصل فى الباب حديث ابن عباس حبر هذه الأمة والمرجوع إليه فى المعضلات وقد راجعه ابن عمر "رضى الله عنهم" وراسله هل رأى محمد "صلى الله عليه وسلم" ربه ؟ فأخبره أنه رآه ، ولا يقدر فى هذا حديث عائشة رضى الله عنها" لأن عائشة لم تخبر أنها سمعت النبى "صلى الله عليه وسلم" يقول لم أر ربي ، وإنما ذكرت متأولة لقول الله تعالى :

" وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا " (١) ولقوله تعالى : "لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ" (٢) والصحابى إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة .

وإذا صحت الروايات عن ابن عباس فى إثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها فإنها ليست مما يدرك بالعقل ، ويؤخذ بالظن ، وإنما يتلقى بالسمع - ولا يستجيز أحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم فى هذه المسألة بالظن والإجتهد ، وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس - ثم إن ابن عباس أثبت شيئاً نفاه غيره ، والمثبت مقدم على النافى . (٣)

(١) سورة الشورى من الآية ٥١

(٢) سورة الأنعام من الآية ١٠٣

(٣) شرح صحيح مسلم للنووى ج ٣ / ٤٠٥

أقول لا ننظر إلى المسألة بأن عائشة ليست بأعلم من ابن عباس - وإنما دليل ابن عباس أقوى من دليل السيدة عائشة "رضى الله عنهم" - ومن الواضح أن السيدة عائشة -رضى الله عنها - قالت ما قالته اجتهاداً من عندها واستتباطاً من الآيات التي ذكرتها، لكن رأى ابن عباس رضى الله عنهما "مبنى على معاصرتهم لرسول الله "صلى الله عليه وسلم" بل وملازمته له كثيراً فعرف عنه أكثر مما عرفه غيره ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يراه العلماء من أن قول الصحابي فيما ليس للعقل فيه مجال حجة يكون القول بأن الرسول "صلى الله عليه وسلم" رأى ربه في الدنيا أرجح من رأى السيدة عائشة المبني على مجرد الإستتباط ، بل إن كلام ابن عباس فيه تصريح بإثبات الرؤية ، إما قول عائشة ليس فيه تصريح بإنكارها على الصورة التي أثبت بها ابن عباس الرؤية ولهذا نرى أن القول بإثبات الرؤية أرجح من القول بنفيها وهو رأى الكثير من العلماء .

يقول النووي الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس .. وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسمع من رسول "صلى الله عليه وسلم" - هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه - ثم إن عائشة رضى الله عنها" لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" - ولو كان معها فيه حديث لذكرته وإنما أعتمدت على الإستتباط من الآيات (١).

٣- قول الله جل جلاله :

"وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرَاكَ وَلَكِن نُنظِرُكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي" (١)

اتخذ المعتزلة هذه الآية دليلاً على نفي رؤية الله تعالى وحبثهم قوله تعالى " لن ترانى "

قالوا كلمة "لن" تفيد التأكيد أى تأكيد النفي مستقبلاً ومن ثمّ فالمعنى لن ترانى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، هذا ما ذهب إليه الزمخشري ووافقه عليه كل معتزلى اتبع طريقته وسار على منواله

حيث قال فى كشافه : " فإن قلت ما معنى (لن) قلت معناها تأكيد النفي الذى تعطيه لا وذلك أن لا تنفى المستقبل تقول لا أفعل غداً فإذا أكدت نفيها قلت لن أفعل غداً والمعنى أن فعله ينافى حالى . كقوله (لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ) (٢)

كما يزعم الزمخشري أن موسى عليه السلام كان يعلم علم اليقين أن الله لا يرى بالأبصار وأن هذا لا يجوز عليه البتة وإنما طلب ذلك من الله ليكون حجة قوية له على قومه بأن الله لا يرى وكان قومه قد طلبوا رؤية الله فقالوا أرنا الله جهرة (٣) فيكون هذا درساً عملياً للقوم بأن الله لا يرى فيقول فى كشافه :

(١) سورة الأعراف من الآية ١٤٣

(٢) الكشاف حـ ٩٠/٢ والأية من سورة الحج : ١٧٣

(٣) قال تعالى فى سورة البقرة: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً

فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ " آية ٥٥

فإن قلت كيف طلب موسى "عليه السلام" ذلك وهو من أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز وما لا يجوز وبتعالیه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس وذلك إنما يصح فيما كان في جهة . وماليس بجسم أو عرض فمحال أن يكون في جهة - وكيف يكون طالبه وقد قال حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة - أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إلى قوله تضل بها من تشاء فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالاً . قلت ما كان طلب الرؤية إلا ليبتكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم وليلقمهم الحجر وذلك حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا لا بد ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأراد أن يسمعوا النص من عند الله . بإستحالة ذلك وهو قوله : " لن ترانى " ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبه فلذلك قال رب أرنى أنظر إليك^(١)

وإلى مثل هذا القول يصبوا القاضى عبد الجبار فيقول فى كتابه متشابه القرآن بعد كلام طويل حول هذه الآية الكريمة :

(.. فأما شيوخرنا رحمهم الله ، فقد استدلووا بهذه الآية على أنه تعالى لا يرى ، لأنه تعالى قال " لن ترانى " وذلك يوجب نفى رؤيته تعالى فى المستقبل أبداً فإذا صح ذلك من موسى وحب مثله فى الأنبياء والمؤمنين^(٢)

ويستدل القاضى عبد الجبار على نفى رؤية الله تعالى بأن الله علق رؤيته بأمر بعيد وهو أستقرار الجبل ، والجبل لم يستقر فيقول فى متشابه القرآن :

(١) الكشاف حـ ١ / ٨٩ - ٩٠

(٢) متشابه القرآن ص ٢٩٦

وقوله تعالى (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) يدل على إنه لا يرى حيث علق الرؤية باستقراره، والمعلوم أنه لا يستقر ، وذلك طريقة العرب إذا أرادوا تأكيد اليأس من الشيء علقوه بأمر يبعد كونه ، فلما جعله تعالى دكاً وظهر بعد استقراره لذلك فى النفوس حل محل الأمور التى يبعد بها الشيء إذا علق بها الكلام ، لأن استقراره ، وقد جعله دكاً يستحيل لما فيه من اجتماع الضدين فما علق به يجب أن يكون بمنزلته ، فمن هذا الوجه يدل ايضاً على نفي الرؤية . (١)

ثم يذكر القاضى عبد الجبار أربعة وجوه حول هذه الآية تدل على نفي رؤية الله فى الدنيا والآخرة فيقول :

الذى قال المحصلون من العلماء فى ذلك أقوال أربعة :

أحدها : أن موسى "عليه السلام" ما عرف أن الرؤية غير جائزة على الله تعالى ، ومع الجهل بهذا المعنى قد يكون المرء عارفاً بربه وبعده وتوحيده ، فلم يبعد أن يكون العلم بامتناع الرؤية وجوازها موقوفاً على السمع .

ثانيها : أن موسى "عليه السلام" سأل الرؤية عن لسان قومه ، فقد كانوا جاهلين بذلك يكررون المسألة عليه يقولون : "لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة" (٢)

فسأل موسى الرؤية لا لنفسه - فلما ورد المنع منها ظهر أن ذلك لا سبيل إليه ، وهذه طريقة أبى على وأبى هاشم .

(١) متشابه القرآن ص ٢٩٦-٢٩٧

(٢) البقرة من الآية ٥٥

وقوله تعالى (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) يدل على إنه لا يرى حيث علق الرؤية باستقراره، والمعلوم أنه لا يستقر ، وذلك طريقة العرب إذا أرادوا تأكيد اليأس من الشئ علقوه بأمر يبعد كونه ، فلما جعله تعالى دكاً وظهر بعد استقراره لذلك في النفوس حل محل الأمور التي يبعد بها الشئ إذا علق بها الكلام ، لأن استقراره ، وقد جعله دكاً يستحيل لما فيه من اجتماع الضدين فما علق به يجب أن يكون بمنزلته ، فمن هذا الوجه يدل أيضاً على نفي الرؤية . (١)

ثم يذكر القاضى عبد الجبار أربعة وجوه حول هذه الآية تدل على نفي رؤية الله فى الدنيا والأخرة فيقول :

الذى قال المحصلون من العلماء فى ذلك أقوال أربعة :

أحدها : أن موسى "عليه السلام" ما عرف أن الرؤية غير جائزة على الله تعالى ، ومع الجهل بهذا المعنى قد يكون المرء عارفاً بربه وبعده وتوحيده ، فلم يبعد أن يكون العلم بامتناع الرؤية وجوازها موقوفاً على السمع .
ثانيها : أن موسى "عليه السلام" سأل الرؤية عن لسان قومه ، فقد كانوا جاهلين بذلك يكررون المسألة عليه يقولون : "لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة" (٢)

فسأل موسى الرؤية لا لنفسه - فلما ورد المنع منها ظهر أن ذلك لا سبيل إليه ، وهذه طريقة أبى على وأبى هاشم .

(١) منشابه القرآن ص ٢٩٦-٢٩٧

(٢) البقرة من الآية ٥٥

ثالثها : أن موسى عليه السلام سأل ربه من عنده معرفة باهرة باضطراب .
وأهل هذا التأويل مختلفون ، فمنهم من يقول سأل ربه المعرفة الضرورية
ومنهم من يقول بل سأله إظهار الآيات الباهرة التي عندها تزول الخواطر
والوساوس عن معرفته ، وإن كانت من فعله وهو الذى اختاره أبو القاسم
الكعبى .

رابعها : المقصود من هذا السؤال أن يذكر الله تعالى من الدلائل السمعية ما
يدل على امتناع رؤيته حتى يتأكد الدليل العقلى بالدليل السمعى ، وتعاضد
الدلائل أمر مطلوب للعقلاء ، وهو الذى ذكره أبو بكر الأصم (١)

هذا مجموع أقوال المعتزلة فى تأويل هذه الآية الكريمة ، حاولوا فيها قدر
الجهد أن يثبتوا صحة مذهبهم فى نفي رؤية الله فى الآخرة ، ضاربين الصفح
عما جاء من آيات صريحة ، وأحاديث صحيحة ، وأقوال علماء الأمة من
الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

بل إنهم خلفوا فى تأويلهم قواعد اللغة العربية التى نزل القرآن الكريم بها
والتي خاطب الله عز وجل العرب بها.

وهذه التاويلات الواردة عن علماء المعتزلة لم تتل القبول لدى علماء أهل
السنة والجماعة ، وإنما ردها على أصحابها لما فيها من أخطاء ظاهرة
ومغالطات واضحة.

ونحن أيضا لا نسلم بما قاله أهل الاعتزال ، وإنما لنا على تأويلاتهم
ملاحظات كثيرة وسوف نزيد هذا الأمر توضيحاً وتبيّناً بمشيئة الله بكثير من
أدلة النقل والعقل التى ذكرها علماؤنا الأجلاء من أهل السنة والجماعة .

(١) انظر التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى حـ ٢٦٦/١٣ ط دار الغد .

وقبل ذكر هذه الملاحظات وتفنيد تلك الأراء يجدر بنا أن نعلن :
 أننا ندين لله تعالى بأن رؤيته عز وجل جائزة لعباده المؤمنين في الآخرة ،
 وأن أبصار المخلصين من الموحيدين تنظر إليه يوم القيامة وهي مشرقة
 متهللة سعيدة بالنظر إليه يوم القيامة . قال تعالى :

" وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ " (١)

وهي الرود التي ندحض بها أراء المعتزلة وسفاهتهم حول ما قالوه في
 هذه الآية مبالغين في منع رؤية الله عز وجل .

يقول الفخر الرازي : إن الآية دالة على أن موسى عليه السلام سأل الرؤية
 ولا شك أن موسى عليه السلام يكون عارفاً بما يجب ويجوز ويمتتع على الله
 تعالى ، فلو كانت الرؤية ممتعة على الله تعالى لما سألها ، وحيث سألها
 علمنا أن الرؤية جائزة على الله (٢)

كان ينبغي أن نكتفى بتلك السطور ، وهذه الكلمات عن رؤية المؤمنين ربهم
 يوم القيامة ، حيث إن جوازها لا غموض فيه ولا إشكال لا سيما أن النقل
 جاء صريحاً في هذا الصدد .. ولكن لماناً المعتزلة عن الصراط المستقيم
 وجأوا بحجج بطلانها ظاهر ، وخطأها فادح كان لزاما الرد عليهم فنقول وبالله
 التوفيق .

استدلال الزمخشري على نفي الرؤية بحجة أن كلمة "لن" تفيد تأكيد النفي
 مستقبلاً ومن ثم فالرؤية منفية ومستحيلة في الدنيا والآخرة - هذا يخالف
 التنزيل .

(١) سورة القيامة ٢٢ : ٢٣

(٢) التفسير الكبير حـ ٢٦٦/١٣ ط دار الغد

يقول الله تعالى : عن اليهود " قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ " (١)

فعلى تفسير الزمخشري لن يتمنى اليهود الموت فى الدنيا ولا فى الآخرة وهذا مما لا يخفى فساده لما فيه من مخالفة لقوله تعالى :

"وَتَمَنَّوْا بِأَمْوَالِكُمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ عَلَيْهَا رَبُّكُمْ" (٢) فهذه الآية تبين أن اليهود وغيرهم من أهل النار يتمنون لو يموتون ، بل إنهم يتوسلون إلى الله أن يقضى عليهم بالموت حتى يخلصوا من هذا العذاب . (٣)

والجدير بالذكر أن الزمخشري نفسه يفسر قوله : " ليقض علينا ربك " بالموت فيقول فى كشافه حـ ٤٢٦/٣ .

"ليقضى علينا ربك" من قضى عليه إذا أماته فوكزه موسى فقضى عليه والمعنى سل ربك أن يقضى علينا "

ثم أن كلام الزمخشري وغيره (لا يخلو من التناقض والتعارض ، والأمثال التى ضربها الزمخشري لا يصح القياس عليها فقول الله " لن ترانى " أى بدون قيد والمثال الذى ضربه الزمخشري "لن أفعل غداً" كلمة مقيدة بالغد (٤) ويصح لمن قال لن افعل غداً - أن يفعل بعد غدا وهذا لا ينطبق على الآية

(١) سورة البقرة ٩٤ - ٩٥

(٢) الزخرف من الآية ٧٧

(٣) انظر كلمات القرآن للشيخ مخلوف ص ٣١٠ ط دار المعارف

(٤) فيض المجيد فى أنواع التوحيد لمصطفى سلامة حـ ٢٢٤/٣ ط دار أم القرى

فالمعنى - والله أعلم - لن ترانى اليوم ولا غداً ولا بعد غد إلى أن تقوم الساعة . وكذلك الآية الأخرى التى استدل بها وهى قوله تعالى :
 "لن يخلقوا ذباباً ولو إجتمعوا له " فإنها مطلقة والمثال "لن أفعل غداً" مقيد بالغد . (١)

فالأصل فى كلمة لن أنها تفيد النفي لا التأييد .

يقول على الصبان - صاحب حاشية الصبان على شرح الأشمونى :
 فأما لن فحرف نفي تختص بالمضارع وتتصبه كما تتصب لا الإسم ولا تفيد تأييد النفي ولا تأكيده خلافاً للزمخشري الأول فى أنموذجه والثانى فى كشافه . ولا دليل على التأييد وإلا لزم التناقض فى ذكر اليوم فى قوله تعالى :
 " فَلَنْ أَكَلَّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ^(٢) والتكرار فى ذكر أبدأً فى قوله تعالى : "وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ
 أبدأً" ^(٣)

ملاحظة وتعليق :

ذكر الصبان وغيره أن مذهب الزمخشري فى "لن" التأكيد والتأييد ، وزعموا أن ذلك مذکور فى كتابيه "الكشاف والإنموذج" وبالبحث والنظر فى الكشاف والإنموذج وجدت أن الزمخشري ذكر التأكيد أما التأييد فلا - ولعل ما ذكره الصبان وغيره يرجع إلى سببين :

(١) المرجع السابق حـ ٢٢٤/٣

(٢) سورة مريم من الآية : ٢٦

(٣) حاشية محمد بن على الصبان على شرح الأشمونى للألفية ابن مالك حـ ٣/ ٢٠٩ :

٢١٠ بتصرف ط المكتبة التجارية الكبرى - والآية من سورة البقرة الآية ٩٥

أولهما : تحريف من النساخ حيث أشار محقق تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد " إلى أن إحدى نسخ التسهيل المخطوطة جاء بلفظ " التأييد بدل التأييد (١)

ثانيهما : أن يكون الصبان وغيره أخذوا التأييد من معتقد الزمخشري ومذهبه فى الرؤية ولم يأخذوه نصاً من كتابيه المشهورين أو ربما فهموه من قول الزمخشري أن لن نفيد تأكيد النفى فى المستقبل ولذلك قال : إن الله لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة بناء على رأيه فى "لن" .

والذى يهمنى فى الموضوع أن "لن" فى قوله "لن ترانى" ليست دليلاً على نفى الرؤية فى الآخرة ولو سلمنا جدلاً أنها تفيد التأييد على إعتقاد المعتزلة فإن هذا النفى يكون فى الدنيا لا فى الآخرة ونظير ذلك قوله تعالى :

" ولن يتمنوه أبداً " (٢) فقد جاء النفى المؤبد الصريح وذلك فى الدنيا أما فى الآخرة فلا نفى بل يتمنون لو يموتون .

قال تعالى : " وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ " (٣) أى ليقض علينا بالموت كما سبق ذكره ..

أما ما زعمه القاضى عبد الجبار أن رؤية الله مستحيلة حيث علق الرؤية باستقرار الجبل .. الخ

فإن فيه نظراً فقول القاضى : " والمعلوم إنه لا يستقر " يعوزه الدليل فمن ذا الذى زعم أن الجبل لا يستقر عندما تجلى الله له ؟

(١) ص ٢٢٩ المحقق محمد كامل بركات ط دار الكتاب العربى

(٢) سورة البقرة من الآية ٩٥

(٣) سورة الزخرف من الآية ٧٧

وكلام القاضى حجة عليه لأن الله سبحانه علق رؤيته باستقرار الجبل ، أى على أمر جائز ، والمعلق على الجائز جائز فيلزم كون الرؤية فى نفسها جائزة . وإذا ثبت هذا وجب ان تكون رؤيته جائزة الوجود فى نفسها ، لأنه لما كان ذلك الشرط - كما يقول الفخر الرازى أمراً جائز الوجود لم يلزم من فرض وقوعه محال ، فبتقدير حصول ذلك الشرط ، إما أن يترتب عليه الجزاء الذى هو حصول الرؤية أو لا يترتب ، فإن تترتب عليها حصول الرؤية لزم القطع يكون الرؤية جائزة الحصول وإن لم يترتب عليها حصول الرؤية قدح هذا فى صحة قوله إنه متى حصل ذلك الشرط حصلت الرؤية وذلك باطل^(١) .

فلو كانت رؤية الله مستحيلة لقرن الله كلامه بما يدل على الإستحالة ، أما وأن الله تعالى قد قرن كلامه بما يجوز وقوعه وهو استقرار الجبل بعد تحركه فيدل هذا على جواز رؤيته تعالى . - يقول ابن القيم :

إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقراً مكانه وليس هذا بجمتمع فى مقدوره بل هو ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت محالاً فى ذاتها لم يعلقها بالممكن فى ذاته ولو كانت الرؤية محالاً لكان ذلك نظير أن يقول إن استقر الجبل فسوف أكل وأشرب وأنام فالأمران عندكم سواء^(٢)

ويقول أبو الحسن الأشعري فى كتابه الإبادة فى توضيح الديانة :

" ومما يدل على جواز رؤية الله تعالى بالأبصار قول الله تعالى لموسى : " فإن استقر مكانه فسوف ترانى "

(١) الفخر الرازى حـ ٢٦٩/١٣

(٢) حادى الأرواح صـ ٢٣٠ ط مكتبة نهضة مصر الطبعة الثانية .

فلما كان الله عز وجل قادراً أن يجعل الجبل مستقراً كان قادراً على الأمر الذي لو فعله لرأه موسى فدل ذلك على أن الله تعالى قادر على أن يرى عباده نفسه وإنه جائز رؤيته فإن قيل فلم ما قلتم أن قول الله تعالى : " فإن استقر مكانه فسوف تراني " تبعيد للرؤية ؟ قيل له . لو أراد الله عز وجل تبعيد الرؤية لقرن الكلام بما يستحيل وقوعه ولم يقرنه بما يجوز وقوعه فلما قرنه باستقرار الجبل وذلك أمر مقدور لله سبحانه وتعالى دل ذلك على أنه جائز أن يرى الله عز وجل ألا ترى أن الخنساء لما أرادت تبعيد صلحها لمن كان حرباً لأخيها قرنت الكلام بمستحيل فقالت :

ولا أصالح قوماً كنت حربهم

حتى تعود بياضاً حلقة القارى

والله عز وجل إنما خاطب العرب ببلغتها . ونحن نرجع إلى ما نجده مفهوماً في كلامها ومعقولاً في خطابها ... (١)

أقول : في القرآن الكريم ما يفيد أن المستحيل يقرب بمستحيل ولا يقرب بجائز ونظير ذلك قوله تعالى :

"إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ" (٢)

فغير محتمل وغير وارد أن يدخل الجمل في سم الخياط بل لا يتبادر هذا إلى الذهن على الإطلاق حيث لا خلاف على استحالة ذلك يكون دخول المكذبين بلقاء الله الجنة مستحيلاً .

(١) ص ١٢ ط دار ابن زيدون

(٢) سورة الإعراف : ٤٠

أما الأوجه الأربعة التي استدلت بها القاضى فلا تحظى بالقبول لدى عاقل ، إذ فيها من فساد الرى ما لا يخفى ، وفيها المنقصة لسيدنا موسى "عليه السلام" لذلك قام علماء أهل السنة والجماعة بالرد على هذه الأقوال واحداً بعد واحد . يقول الفخر الرازى " رحمه الله " فى تفسيره قال أصحابنا .

أما الوجه الأول^(١) فضعيف ويدل عليه وجهان :

الأول إجماع العقلاء على أن موسى عليه السلام "ما كان فى العلم بالله أقل منزلة ومرتبة من أرازل المعتزلة ، فلما كان كلهم عالمين بامتناع الرؤية على الله تعالى وفرضنا أن موسى عليه السلام لم يعرف ذلك ، كانت معرفته أقل درجة من معرفة كل واحد من أرازل المعتزلة ، وذلك كفر بإجماع المسلمين .

الثانى : ان المعتزلة يدعون العلم الضرورى ، بأن كل ما كان مرئياً فإنه يجب ان يكون مقابلاً أو فى حكم المقابل .

فإما أن يقال إن موسى "عليه السلام" حصل له هذا العلم أو لم يحصل له هذا العلم فإن كان الأول كان تجويزه لكونه تعالى مرئياً ، يوجب تجويز كونه تعالى حاصلًا فى الحيز والجهة و تجويز هذا المعنى على الله تعالى يوجب الكفر عند المعتزلة ، فيلزمهم كون موسى "عليه السلام" كافراً وذلك لا يقوله عاقل .

(١) الذى يزعم صاحبه "أن موسى عليه السلام" ما عرف أن الرؤية غير جائزة على الله

وإن كان الثاني فنقول : لما كان العلم بإن كل مرئى يجب أن يكون مقابلاً أو فى حكم المقابل علماً بديهياً ضرورياً ، ثم فرضنا أن هذا العلم ما كان حاصلًا لموسى "عليه السلام" لزم أن يقال أن موسى "عليه السلام" لم يحصل فيه جميع العلوم الضرورية ومن كان كذلك كان مجنوناً وذلك كفر بإجماع الأمة (١)

ثم إن الجاهل بما لا يجوز على الله ويمتنع لا يكون نبياً كليماً بل لا يصلح للنبوة من هذا شأنه لأن الغاية من البعثة توحيد الله التوحيد الخالص ، وعبادته العبادة الصحيحة قال تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢) " والله وصف موسى بأنه رسوله وكليمه ونبيه .

قال تعالى : " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٣) " فلزم ان يكون موسى الكليم النبى الرسول عالماً بما يجوز على الله وبما يستحيل ، ولو كان يستحيل طلب الرؤية ما طلبها موسى النبلى الرسول لأن طلب المستحيل عبث عند العقلاء فضلا عن الأنبياء والرسل عليهم "الصلاة والسلام" .

أما الوجه الثانى : هو زعمُ القاضى أن موسى "عليه السلام" إنما سأل الرؤية لقومه لا لنفسه ، فهو أيضاً فاسد ويدل عليه وجوه :

(١) الفخر الرازى ح ١٣ - ٢٦٦ - ٢٦٧

(٢) سورة الأنبياء : ٢٥

(٣) سورة مريم : ٥١

الأول : إنه لو كان الأمر كذلك لقال موسى أرهم ينظروا إليك ، ولقال الله تعالى : لن يروني ، فلما لم يكن كذلك ، بطل هذا التأويل .

الثاني : إنه لو كان هذا السؤال طلباً للمحال لمنعهم عنه كما أنهم لما قالوا : " اجعل لنا إلهاً كما لهم ألهة " منعهم عنه بقوله " إنكم قوم تجهلون " (١)

الثالث : إنه كان يجب على موسى " عليه السلام " إقامة الدلائل القاطعة على أنه تعالى لا تجوز رؤيته ، وأن يمنع قومه بتلك الدلائل على هذا السؤال فلما أن لا يذكر شيئاً من تلك الدلائل البتة ، مع أن ذكرها كان فرضاً كان هذا نسبة لتترك الواجب إلى موسى - عليه السلام - وإنه لا يجوز .

الرابع : إن أولئك الأقوام الذين طلبوا الرؤية إما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى " عليه السلام - أو ما آمنوا بها .

فإن كان الأول كفاهم في الإمتناع عن ذلك السؤال الباطل مجرد قول موسى " عليه السلام " فلا حاجة إلى هذا السؤال الذي ذكره موسى " عليه السلام " .

وإن كان الثاني لم ينتفعوا بهذا الجواب لأنهم يقولون له لا نسلم أن الله مُنَع من الرؤية ، بل هذا قول افتريته على الله تعالى ، فثبت إن على كلا التقديرين لا فائدة للقوم في قول موسى " عليه السلام "

- كما حكى القرآن الكريم - "أرني انظر إليك " (٢).

(١) قال تعالى في سورة الأعراف آية : ١٣٨ " وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون "

(٢) الفخر الرازي حـ ١٣/٢٦٦ : ٢٦٨ .

ومما يدل على أن موسى "عليه السلام" سال الرؤية لنفسه لا نيابة عن قومه ان القرآن الكريم لم يقص هذه القصة عن أصحاب موسى أو قومه ، لو كان قوم موسى طلبوا ذلك لأنكر عليهم موسى ولقصها القرآن منسوبة إلى قوم موسى كما بين لنا سبحانه وتعالى عن أصحاب عيسى "الحواريين" إذ طلبوا من عيسى أن يسأل الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء .

قال تعالى : " إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ انظُرُوا إِلَهِ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ " (١)

فالحواريون طلبوا من عيسى ان يسأل ربه مائدة من السماء وهناك قراءة " هل تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً " (٢) " اى هل تستطيع أن تسأل ربك " (٣) ففي هذه القصة الوضوح والبيان أن السائلين هم أصحاب عيسى ، كذلك واضح موقف سيدنا عيسى "عليه السلام" من القوم ، وهو الإنكار لهذا السؤال والنصح للقوم " قَالَ انظُرُوا إِلَهِ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ " (٤) ونسب الله جل جلاله القصة إلى الحواريين أصحاب عيسى "عليه السلام" ولم يكن شئ من

(١) سورة المائدة ١١٢

(٢) وهى قراءة للكسائى قال صاحب البحر المحيط وقرأ الكسائى هل تستطيع رَبُّكَ بالتاء من فوق رَبُّكَ بنصب الباء وهى قراءة على ومعاذ وابن عباس وعائشة وابن جبير قالت عائشة : كان الحواريون أعرف بالله أن يقولوا هل يستطيع ربك نزهتهم عن

بشاعة اللفظ وعن مرادهم ظاهره .. . انظر البحر المحيط لأبى حيان حـ ٤/٤٥ ط دار الكتاب الإسلامى الطبعة الثانية سنـ ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

(٣) تفسير القرآن العظيم حـ ٣/١٣٩

(٤) المائدة من الآية : ١١٢

هذا فى سؤال موسى "عليه السلام" ربه سبحانه وتعالى : ان يريه ينظر إليه الوجه الثالث : وهو قول القاضى أن موسى سأل ربه المعرفة الضرورية .. او إظهار الايات الباهرة التى عندها تزول الخواطر والوساوس .. الخ هذا كله بعيد ولا يصح والدليل على بعده :

أولاً : أن الله تعالى أرى سيدنا موسى من الأيات مالا غاية بعدها كالعصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم واطلال الجبل فكيف يمكن بعد هذه الأحوال طلب اية ظاهرة قاهرة؟!!

ثانياً : إنه عليه السلام كان يتكلم مع الله بلا واسطة ففى هذه الحالة كيف يليق به أن يقول اظهر لى اية قاهرة ظاهرة تدل على إنك موجود؟! ومعلوم أن هذا الكلام فى غاية الفساد .

ثالثاً : أنه لو كان المطلوب اية تدل على وجوده ، لأعطاه تلك الأية كما أعطاه سائر الأيات ولكن لا معنى لمنعه عن ذلك ، فثبت أن هذا القول فاسد . الوجه الرابع : هو الذى ذكره القاضى نقلا عن أبى بكر الأصبم وخلصته ان المقصود منه اية سمعية تقوى ما دل العقل عليه ، فهو أيضا بعيد فلو كان المراد ذلك لكان الواجب أن يقول : أريد يا إلهى أن يقوى بامتناع رؤيتك بوجوه زائدة على ما ظهر فى العقل ، وحيث لم يقل ذلك بل طلب رؤيته علمنا أن هذه التاويلات بأسرها فاسده. (١)

هذا ، وهناك إستنباطات كثيرة حول هذه الأية الكريمة لعلماء أهل السنة والجماعة منها ما ذكره ابن قيم الجوزية فى كتابه . " حادى الأرواح إلى بلاد الفراح " يقول رحمه الله :

وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة :

الوجه الأول : إنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم أن يسأل ربه مالا يجوز عليه بل هو من أبطل الباطل وأعظم المحال وهو عند فروخ اليونان والصابئة والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم من موسى بن عمران وبما يستحيل عليه ويجب له وأشد تنزيها له منه !؟

الوجه الثانى : أن الله سبحانه وتعالى لم ينكر عليه سؤاله ولو كان محالاً لأنكره عليه . ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيى الموتى لم ينكر عليه ، ولما سأل عيسى ابن مريم ربه أنزال المائدة من السماء لم ينكر سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاته ابنه أنكر عليه سؤاله وقال : " إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١)

الوجه الثالث : إنه أجابه بقوله لن ترانى ولم يقل لا ترانى ولا إنى لست بمرئى ولا تجوز رؤيتى والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله . وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى يرى ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته فى هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى .

الوجه الرابع : وهو موضح للوجه الثالث - وهو قوله ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى - فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له فى هذه الدار فكيف بالبشر الضعيف الذى خلق من ضعف .

(١) سورة هود ٤٦ : ٤٧

الوجه الخامس : أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقراً مكانه وليس هذا بمرتمع في مقدوره بل هو ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته ولو كانت الرؤية محالاً لكان ذلك نظير أن يقول إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام فالأمران عندكم سواء . كما سبق ذكر ذلك

الوجه السادس : قوله سبحانه وتعالى " فلما تجلى ربه للجبل وجعله دكاً " وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى ، فإنه إذا أجاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب فكيف يمتنع أن يتجلى لأبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه !؟

الوجه السابع : أن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه وخاطبه وناجاه وناداه ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبة كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكلم (١)

وقد جاز على الله التكلم والتكليم قال تعالى :

" وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (٢) .. إِذَا فَالرُّؤْيَا جَائِزَةٌ لِلْعِبَادِ إِلَّا أَنْ الْعِبَادَ لَا يَطِيقُونَهَا كَمَا لَمْ يَطِقْهَا الْجَبَلُ ..

ثم إن عدم رؤية الشيء أو عدم فعله لا يدل على استحالة رؤيته أو استحالة فعله - وعلى سبيل المثال : لو قال الطبيب لمريضٍ ما لا تأكل السمك ولا تشرب اللبن فلا يدل هذا على استحالة أكل السمك أو شرب اللبن إنما هذا وذاك

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٢٢٩ : ٢٣٠

(٢) سورة النساء من الآية ١٦٤

ممکن إلا أن جسد هذا المريض - لضعفه - لم يطق هذا المأكل مع ذلك المشروب .

يقول الإمام الفخر الرازي رحمه الله :

" لو كان الله تعالى مستحيل الرؤية لقال : لا أرى ، بضم الهمزة وفتح الراء . ألا ترى إنه لو كان في يد رجل حجر فقال له إنسان ناولني هذا لآكله ، فإنه يقول له هذا لا يؤكل ولا يقول له لا تأكل . ولو كان في يده بدل الحجر تفاحة ، لقال له : لا تأكلها أي هذا مما يؤكل ، ولكنك لا تأكلها فلما قال تعالى " لن تراني " ولم يقل لا أرى ، علمنا أن هذا يدل على أنه تعالى في ذاته جائز الرؤية (١)

ومما يدل على أن الله يرى قوله تعالى :

" فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً " فالتجلى هو الرؤية والمقصود من الآية أن الإنسان لا يطيق رؤية الله سبحانه وتعالى بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى إنك وتفرقت أجزاءه ، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أنه تعالى جائز الرؤية .

فإذا قيل أن الجبل جماد والجماد يمتنع أن يرى شيئاً - فإنه لا يستحيل على الله أن يخلق في ذات الجماد الحياة والعقل والفهم ، ثم يخلق فيه رؤية متعلقة بذات الله - والدليل على ذلك قوله سبحانه وتعالى :

(١) التفسير الكبير حـ ٢٦٩/١٣

"يَا جِبَالُ أُوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ" (١) فكونه مخاطباً بهذه الخطاب مشروط بحصول الحياة والعقل فيه فكذا ها هنا . (٢)

وكذلك جعل الله فى الجماد حياة من خلالها يرى الله سبحانه ويسبح له ويخاطبه رب العزة جل جلاله . وذلك كله جاء فى القرآن الكريم -

قال تعالى : " تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا " (٣).

" فقد بينت الآية أن كل شئ يسبح بحمد الله تعالى ، الشجرة تسبح ، والأسطوانة تسبح ، والدابة تسبح حتى الثوب كذلك يسبح بحمد الله . (٤)

ويقول جل جلاله : " ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " (٥)

فقد قال أكثر أهل العلم : خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى : (٦)

إذاً قو له تعالى : " فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا" تعد من أقوى الأدلة وأوضح البراهين على جواز رؤية رب العالمين .

فإن الذى جاز عليه أن يتجلى للجبل الذى لا عقل له لا يستحيل عليه أن يتجلى لرسله وانبيائه والصالحين من عباده ويريهم نفسه .

(١) سورة سبأ من الآية : ١٠

(٢) الفخر الرازى حـ ٢٧٠/١٣

(٣) سورة الإسراء ٤٤

(٤) تفسير الطبرى حـ ٩٢/٨ ط دار الغد

(٥) سورة فصلت ١١

(٦) القرطبي حـ ٣٤٤/١٥ ط دار الكتب

وكذلك قول الله تعالى - عن سيدنا موسى :

" رب أرني انظر إليك " يعد من أدلة على جواز رؤيته سبحانه لأن من خصه الله بالنبوة والرسالة وشرف التكليم يستحيل عليه أن يطلب من ربه عز وجل محالاً (١)

(١) من مقال رؤية الله سبحانه وتعالى بين المثبتين والنافين لأستاذنا الدكتور/ محمد عبد الصبور بمجلة كلية أصول الدين والدعوة فرع اسبوط العدد الرابع عشر ١٤١٦ هـ -

شبهات أخرى للمعتزلة فى نفى رؤية الله تعالى

أثار المعتزلة شبهات أخرى زعموا من خلالها أن رؤية الله مستحيلة. الشبهة الأولى : قالوا إن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه خر صعقا ، ولو كانت الرؤية جائزة ، فلمَ خر عند سؤالها صاعقاً؟! الشبهة الثانية : إن موسى "عليه السلام" لما أفاق قال سبحانك ، وهذه الكلمة للتزويه فوجب أن يكون المراد منه تنزيه الله تعالى عن الرؤية فثبت بهذا أن نفى الرؤية تنزيه لله تعالى ، وتنزيه الله إنما يكون عن النقائص والآفات ، فوجب كون الرؤية من النقائص والآفات وذلك على الله محال . فثبت أن الرؤية على الله ممتعه .

الشبهة الثالثة : قول الله تعالى حكاية عن موسى لما أفاق أنه قال (ثبت إليك) ولولا أن طلب الرؤية ذنب لما تاب منه ، ولولا أنه ذنب ينافى صحة الإسلام لما قال (وأنا أول المؤمنين) (١)

(١) تفسير الفخر الرازى حـ ٢٧٢/١٣ ط دار الغد ..

رد هذه الشبهات وبيان بطلانها

الشبهة الأولى: أن موسى - عليه السلام - لم يخز صعقاً نتيجة عذاب أصابه بسبب سؤاله وإنما سأل سؤاله هذا لاشتياقه لرؤية الله بعد أن سمع كلامه .

يقول ابن جرير الطبرى - رحمه الله -

لما تخلف موسى "عليه السلام" بعد الثلاثين حتى سمع كلام الله ، إشتاق إلى النظر إليه فقال : رب أرني انظر إليك قال : لن ترانى وليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليّ . فى الدنيا . من نظر إليّ مات قال : إلهى سمعت منطقتك ، واشتقت إلى النظر إليك ، ولأن انظر إليك ثم أموت ، أحب إلى من أن أعيش ولا أراك ، قال فانظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى (١)

فسيدنا موسى - عليه السلام - لم يخز صعقاً لأنه سأل ربه الرؤية ، وإنما لما رأى الجبل قد دك دكاً ، ولم يجعل الله الجبل دكاً عقاباً لموسى وإنما دليل قطعى على عدم تحمل الإنسان رؤية الله تعالى .

الرد على الشبهة الثانية : إدعاء المعتزلة أن قول موسى - بعد أن أفاق - سبحانك - يدل على تنزيه الله عن الرؤية .. الخ هذا لا يستساغ وليس فيه من الأدلة ما يؤيده حيث إن كلمة سبحان . (اسم علم للتسبيح يقال سبحت الله تسبيحاً وسبحاناً وتفسيره تنزيهه الله عما لا ينبغى ولا يليق (٢) كما أن زعمهم أن الرؤية من النقص والأفات التى يتنزه الله عنها - لا يقبل فإن نفى الرؤية

(١) تفسير الطبرى ح ٦ : ٥٦

(٢) تفسير الفخر الرازى ح ١٩ / ٥

يعد صفة نقص لا كمال لأن الذى لا يرى المعدم والمعدم ليس بشئ وإن الذى يعد كمالاً عدم الإحاطة مع إثبات الرؤية وقد أثبتنا ذلك فى الحديث عن قوله تعالى : "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار" (١)

الرد على الشبه الثالثة :

قولهم : إن موسى لما أفاق قال (تبت إليك) ولولا أن طلب الرؤية ذنب لما تاب منه ولولا أنه ذنب ينافى صحة الإسلام لما قال (وأنا أول المؤمنين)
إذاً فهذه الشبهة تدور حول شيئين :

الاول : قول موسى تبتُ إليك وهذا يقتضى ذنباً على زعم المعتزلة .

الثانية : قوله عن موسى أيضاً " وأنا أول المؤمنين "

أما قوله تبت إليك فلا يشترط الذنب البتة لاسيما فى الأنبياء لأن منصبهم الجليل ينبغى أن يكون منزلها مبرراً من كل ما لا يليق به ، ثم ان رسول الله محمداً "صلى الله عليه وسلم " كان يستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم مائة مرة روى مسلم بسنده فى صحيحة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال إنه ليغان على قلبى وإنى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة (٢) وإنه " صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه (ولم يوجه النداء الى المذنبين فقط) - فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال -

(١) سورة الأنعام من الآية ١٠٣

(٢) مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار . باب استحباب الإستغفار والإستكثار

قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم "بأياها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة" (١)

ولا يدل هذا على أنه "صلى الله عليه وسلم" قد أذنب ، ثم إن إجماع الأمة على عصمة الأنبياء .يقول القرطبي رحمه الله .
أجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية فإن الأنبياء معصومون (٢).

وقيل الرؤية كانت جائزة ، إلا إنه "عليه السلام" سألها بغير الأذن وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فكانت التوبة عن هذا المعنى لا عما ذكره (٣) .
وقيل تبت إليك من قتل القبطي (٤).

وقيل قاله على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات (٥)
أقول هذا هو الأقرب إلى الصواب والذي يليق بأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام وبالمؤمنين كلما رأوا أية إزدادوا خشوعاً وإيماناً مع إيمانهم .. قال تعالى : " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا " (٦)

(١) مسلم حـ ٢٤/١٧ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار . باب استنحباب الإستغفار والإستكثار منه .

(٢) القرطبي حـ ٢٧٩/٧

(٣) الفخر الرازي حـ ٢٧٢/١٣ وانظر القرطبي حـ ٢٧٩/٧

(٤) القرطبي حـ ٢٧٩/٧

(٥) المرجع السابق حـ ٢٧٩/٧

(٦) سورة الأنفال من الآية ٢

هذا ولم يكتف علماء المعتزلة بنفى رؤية الله فى الأخره رغم الأدلة الواضحة ، والأحاديث الواردة ، بل إنهم أمطروا وإبلاً من الشتائم على من خالفهم هذا الرأى من أهل السنة والجماعة فهذا الزمخشري — أحد علمائهم — تسمح له نفسه أن يهجو أهل السنة والجماعة بما يجب أن يتورع عنه المسلم حيث قال فى كشافه :

ثم تعجب من المتسمين بالإسلام ، المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ، ولا يقرنك تسترهم بالبلكفة والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

لجماعة سمو هواهم سنة وجماعة حمر لعمري مؤكفه
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة(١)

ولكن أهل السنة والجماعة لم يتركوا الزمخشري وإنما ردوا عليه قوله.
ورموه بأسوأ القول فهذا ناصر الدين الأسكندري صاحب الإنتصاف يصف الزمخشري بأنه عدو لأصحاب رسول الله "صلى الله عليه وسلم" فيقول :
لولا الإستتار بحسان بن ثابت الأنصارى صاحب رسول الله "صلى الله عليه وسلم" وشاعره و المنافع عنه وروح القدس معه لقلنا لهؤلاء المتلقين بالعدلية سلاماً، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أعداءه فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أعداءهم فنقول :

(١) الكشاف حـ ٩٢/١ والبلكفة أى بلا كيف لأن كيف اسم مبهم غير متمكن ، وهو للأستفهام عن الأحوال وقد يقع للتعجب كقوله تعالى " كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ " البقرة من الآية ٢٨ وإذا ضم إليه ما صح أن يجازى به نقول كيفما تفعل أفعال المختار الصحاح

وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعد الله مالن يخلفه
وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهمو سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا فى لظى فعلى شفاه^(١)
وقال آخر :

هل نحن من أهل الهوى أم أنتمو
ومن الذى منا حمير مؤكفه
اعكس تصب فالوصف فيكم ظاهر
كالشمس فارجع عن مقال الزخرفة
يكفـيك فى ردى عليك بأننا
نحتج بالأيات لا بالسفسطة
وبنفى رؤيته فأنت حرمتها
إن لم تقل بـكلام أهل المعرفة
فنراه فى الأخرى بلا كيفية

وكذلك من غير إرتسام للصفة^(٢)

أقول : ما هكذا ينبغى أن يكون الحوار بين المسلمين وإن اختلفوا فى عظيم الأمر ، فقد
أخطأ الزمخشري خطأ فادحاً إذ عرّض بأهل السنة والجماعة قائلاً "المتسمين بالأسلام"
وكانهم فى نظره غير مسلمين لأنهم قالوا برؤية الله فى الآخرة - وجّه الزمخشري أو
غاب عنه أن الذين قالوا برؤية الله هم خيار الخلق وعلى رأسهم سيد الخلق "صلى الله
عليه وسلم" ، وجميع أصحابه والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين .

(١) الإنصاف على الكشاف ٩٢/٢

(٢) فيض المجيد فى انواع التوحيد ٢٢٦/٣-٢٢٧ مصطفى سلامة ط ام القرى

الطبعة الاولى سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

وكما نعيب على الزمخشري سوء أدبه كذلك لا نسلم بما قاله الإسكندري لا سيما أنه يزعم أنه يستن بحسان بن ثابت فقد كان حسان " رضى الله عنه " يهجو الكافرين وشتان بين من يهجو كافراً يخالفه فى العقيدة وبين من يهجو مسلماً يخالفه فى أمر وإن جل ثم بأى حجة حكم الإسكندري على الزمخشري أنه فى لظى أو شفه - أى شفه منها؟! هل استهوته قافية الشعر فمن أجلها غض الطرف عن الحكم الفقهي!؟

أم إنه لم يطق وصف الزمخشري لأهل السنة فوق فيما وقع فيه الزمخشري وإن لم يشعر!؟

تسأل الله السلامة من الخطأ ، والعصمة من الزلل ، وإن يغفر لنا زالتنا ، ويتجاوز عن هفواتنا . ولقد أحسن أبو حيان صنعاً إذ رد على الزمخشري قوله وهو ممسك زمام نفسه فلم ينطق لسانه بكبير خطأ حيث قال :

شبهت جهلاً صدر أمة أحمد

وذوى البصائر بالحمير المؤكفة

وجب الخسار عليك فانظر منصفاً

فى أية الأعراف (١) فهى المنصفة

أترى الكليم أتى بجهل ما أتى

وأتى شيوخك بما أتوا عن معرفة

إن الوجوه إليه ناظرة بذا

جاء الكتاب فقلتموا هذا سفه

نطق الكتاب وانت تنطق بالهوى

فهوى الهوى بك فى المهاوى المتلفة (٢)

(١) يقصد قوله تعالى " قال رب ارنى انظر إليك " سورة الأعراف من الآية ١٤٣

(٢) البحر المحيط ج٤/٣٨٦ ط مكتبة ومطابع النصر الحديثة ص.ب ٥٢٦ الرياض

تنطع المعتزلة

لم يكتف المعتزلة بالآيات التي يوهم ظاهرها عدم رؤية الله تعالى ، أو يستنبط منها على حد زعمهم كقوله تعالى :

" لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار "

وقوله سبحانه : " قال لن ترانى "

بل إنهم عمدوا إلى الآيات الصريحة، فى دلالتها على رؤية الله تعالى - أو التى تثبت رؤية الله جل جلاله ، نقلاً وعقلاً ، عمدوا إلى تلك الآيات وأولوها تأويلاً يتفق مع أهوائهم زاعمين أن شبيهاً من أهل السنة والجماعة دارت حول هذه الآيات وأن الصحيح ما قالوه وهو أن الله لا يرى فى الدنيا والأخرة .

ولعل هذا تنطع من المعتزلة ، وتشدد مرفوض ، وحتى تتضح لنا الصورة جلية سوف نذكر إن شاء الله - هذه الآيات وما قاله أهل الاعتزال حولها .

١- قول الله :

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ^(١)

فرغم أن حديثاً صحيحاً جاء فى هذه الآية الكريمة يبين أن الزيادة هى رؤية الله تعالى إلا أن المعتزلة - كعادتهم - ردوا الحديث مدعين أنه لم يثبت ، وزعموا (أنا الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله تعالى ممتنعة)^(٢) ومن ثم فإن الزيادة ليست رؤية الله تعالى يقول الزمخشري حول هذه الآية :

"الحسنى : المثوبة الحسنى (وزيادة) وما يزيد على المثوبة وهى النفضل ويدل على ذلك قوله تعالى : "وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ" ^(٣)

(١) سورة بونس من الآية ٢٦

(٢) الفخر الرازى حـ ٣٣٩/٨

(٣) الكشاف حـ ١٨٨/٢ والآية من سورة فاطر : ٣٠

ثم يتناول الزمخشري كعاداته - على علماء أهل السنة والجماعة ويصفهم بصفات لا تليق بهم ويقدم فيما صح من الحديث فيقول :

وزعمت المشبهة والمجبرة (يريد أهل السنة) أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى وجاءت بحديث مرقوع : إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه^(١)

أما القاضي عبد الجبار وهو رأس الاعتزال فقد قال فيمن أثبتوا الرؤية - من خلال هذه الآية - قولاً عظيماً وخطب بين من يعتقد جواز الرؤية ، وبين من يعتقد لمس الله وجواز معانقته فيقول في كتابه متشابه القرآن .

وقوله تعالى : " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " ربما تعلق به من يقول بجواز الرؤية على الله تعالى ، ويرؤى فيه ما يقوى تأويله^(٢) ، وليس للأية ظاهر ، لأنه لم يذكر ما تلك الزيادة ، فمن أين أن المراد به ما قالوه؟!

ولو كان المراد به الرؤية على مذهبهم لكانت الزيادة أعظم من الحسنى ، ويجب أن يكون الله تعالى يلتذ بالنظر إليه ويشتهى ، فيكون ذلك من جملة النعيم واللذات!! وهذا خروج من الدين ، وان كان القول بأنه جسم يقتضيه ، لأنه إذا صح فيه ذلك لم يمتنع أن يشتهى النظر إليه . بل لمسها ومعانقته تعالى الله عن ذلك^(٣)

وتعليل ذلك عندهم : أن النظر إلى وجه الله تعالى يوجب التشبيه ، لأن النظر عبارة عن قلب الحدة إلى وجه المرئى ، وذلك يقتضى كون المرئى فى الجهة ، لان الوجه اسم للعضو المخصوص ، وذلك أيضا يوجب التشبيه ، فنبت أن هذا اللفظ لا يمكن حمله على الرؤية ، فوجب حمله على شئ آخر.^(٤)

(١) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة

(٢) لعله يقصد الأحاديث الواردة فى ذلك

(٣) متشابه القرآن ص ٣٦١ : ٣٦٢

(٤) تفسير الفخر الرازى ح ٣٣٩/١٦

والشئ الآخر الذى يحمل عليه يبينه الجبائى فيقول :

الحسنى عبارة عن الثواب المستحق ، والزيادة ما يزيده الله تعالى على هذا الثواب من التفضيل . قال : والذى يدل على صحته القرآن ، وأقوال المفسرين .

أما القرآن : فقولة تعالى : "ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله" (١)

وأما أقوال المفسرين : فنقل عن على "رضى الله عنه" أنه قال : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة . وعن أبى عباس أن الحسنى هى الحسنه ، والزيادة عشر أمثالها، وعن الحسن ، عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

وعن مجاهد: الزيادة مغفرة الله ورضوانه - وعن يزيد بن سمرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ماتريدون أن أمطركم . فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم (٢)

وقالوا : ان الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله تعالى ليست من جنس نعيم الجنة . (٣)

هذه مزاعم المعتزلة حول هذه الآية الكريمة - التى أثبت العلماء المنصفون من خلالها جواز رؤية الله تعالى ، وهى مزاعم ليس لها ما يقويها من حديث صحيح ، أو رأى سديد ، بل جاء الحديث بعكس ما يزعمون لذلك فإننا نستعين بالله ثم بأقوال علماء أهل السنه والجماعة .

ونبين بطلان تلك المزاعم التى تتلخص فى الأتى :

أولاً : قول المعتزلة أن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله ممتنعة .. هذا مردود عليهم لان العلماء (بينوا فى كتب الأصول أن تلك الدلائل فى غاية الضعف ،

(١) سورة فاطر من الآية : ٣٠

(٢) الفخر الرازى حـ ٣٣٩/١٦ والكشاف حـ ١٨٨/٢

(٣) الفخر الرازى حـ ٣٣٩/ ١٦

ونهاية السخافة ، وإذا لم يوجد فى العقل ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الأخبار الصحيحة بإثبات الرؤية ، وجب إجراؤها على ظواهرها. (١)

ثم إن موسى كليم الله ورسوله طلب رؤية الله تعالى :

" قال رب أرنى انظر إليك " فهذا يعد دليلاً عقلياً ودليلاً نقلياً فى نفس الوقت على جواز رؤية الله سبحانه لأن سيدنا موسى "عليه السلام" يستحيل أن يكون جاهلاً بما ينبغى طلبه ومالا ينبغى ، وما دام قد طلبها فهى ممكنة كما سبق أن بينا ذلك .

ثانياً : إدعاء الزمخشري وإخوانه المعتزلين ، أن الحديث الوارد فى هذا الشأن مرفوع أى غير صحيح هذه دعوة باطلة ويكفى أن الحديث رواه مسلم فى صحيحه .

والترمذى فى تحفة الأحوزى ، وابن ماجه فى سننه ونص الحديث كما جاء فى

صحيح مسلم : عن صهيب عن النبى "صلى الله عليه وسلم" قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل ثم تلا هذه الآية " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " (٢)

لذلك لم يكن غريباً أن يقول أكثر من صحابى من أصحاب رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أن الزيادة فى الآية هى رؤية الله جل جلاله .

فعن أبى بكر الصديق "رضى الله عنه" " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" قال النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى (٣)

(١) الفخر الرازى ج ١٦ / ٣٣٩

(٢) مسلم كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ح ١٧/٢

١٧/٢ وانظر الترمذى ح ٣٠٧/٧ كتاب صفة الجنة باب ما جاء فى رؤية الرب

تبارك وتعالى ط دار إحياء التراث العربى .

(٣) تفسير الطبرى ح ٦١٥/٦

وعن أبي تميمه الهَجِيمِي قال ، سمعت أبا موسى الأشعري يخطب على منبر البصرة يقول : إن الله يبعث ملكاً إلى أهل الجنة فيقول : "يا أهل الجنة هل أنجزكم الله ما وعدكم " فينظرون ، فيرون الحلى والحلل والثمار والأنهار والأزواج المطهرة ، فيقولون : "نعم قد أنجزنا الله ما وعدنا " ثم يقول : "هل أنجزكم الله ما وعدكم " ؟ ثلاث مرات ، فلا يفقدون شيئاً مما وعدوا ، فيقولون : "نعم" فيقول قد بقي لكم شيء أن الله يقول : " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " ألا إن الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله "

وعنه إنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " " إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى أهل الجنة بصوت يُسمع أولهم وآخرهم : " أن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن . (١)
ثالثاً : إدعائهم أن تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله يوجب التشبيه لان النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى وجه المرئي ..

هذه فرية مردودة حيث إن تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى وردت عن النبي "صلى الله عليه وسلم" وكبار الصحابة "رضى الله عنهم" . فإذا قال المعتزلة أن ذلك لا يصح لأنه يوجب التشبيه لزم أن يكون المعتزلة أعلم بكتاب الله من رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ومن كبار الصحابة "رضى الله عنهم" . وهذا ما لا يخفى فساده وبطلانه ..

وإن كان هذا التفسير قد أفاد إثبات الرؤية ، وأفاد إثبات الجسمية ، فقد قام الدليل ، كما يقول الفخر الرازي على إنه ليس بجسم ، ولم يقم الدليل على امتناع رؤيته فوجب ترك العمل بما قام الدليل على فساده فقط (٢)

(١) المرجع السابق حـ ٦١٤/٦

(٢) الفخر الرازي حـ ٣٤٠/١٦

ولا يختلف المعتزلة معنا أن الأدلة العقلية والنقلية أقيمت على أن الله سبحانه وتعالى لا يشبه أحداً من خلقه .

وقال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (١)

وقال جل جلاله : " قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " (٢) وعلى هذا يتقرر " أن الله سبحانه وتعالى يرى ولكن ليس في جهة لأنه لا يشبه أحداً من خلقه وإذا كنا لم نره في الدنيا فإنما لعجز في الرائي لا في المرئي فإذا كنا في الدار الآخرة أكمل الله قوانا حتى نطيق رؤيته عز وجل (٣)

رابعاً : أما قولهم الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله تعالى ليست من جنس نعيم الجنة - فقد أجاب علماءنا بما يفيد أن الزيادة لا تكون من جنس المزيد عليه في كل الحالات وإنما إذا كان المزيد عليه مقدراً بمقدار معين كقول الرجل لغيره : " أعطيتك عشرة أمداد من الحنطة وزيادة ، فيجب هنا ان تكون الزيادة من الحنطة .

أما قوله " أعطيتك الحنطة وزيادة فيجب هنا ان تكون تلك الزيادة غير الحنطة ، والمذكور في هذه لفظ " الحسنى " وهى مطلقة غير مقدره بقدر معين ، فوجب ان تكون تلك الزيادة عليها شيئاً مغايراً لكل ما فى الجنة (٤)

أما قول الله تعالى : " لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ " (٥)

والذى استأنس به المعتزلة كدليل على نفي الرؤية وأن الزيادة فى قوله :

(١) سورة الشورى من الآية ١١

(٢) سورة الأخراس كلها .

(٣) مقال رؤية الله تعالى بين المثبتين والنافين لأستاذنا الدكتور محمد عبد الصبور مجلة

كلية أصول الدين والدعوة فرع اسبوط عدد ١٤ عام ١٤١٦هـ

(٤) الفخر الرازى حـ ١٦/٣٤٠

(٥) سورة فاطر آية ٣٠

" للذين احسنوا الحسنى وزيادة " إنما هي زيادة الأجر . مثل قوله ويزيدهم من فضله" فنقول : لا مانع عند بعض المفسرين أن تكون الزيادة فى قوله : ويزيدهم من فضله" أن يزيدهم النظر إلى وجه الكريم سبحانه . يقول الفخر الرازى رحمه الله "

ليوفيههم أجورهم : أى ما يتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية . ويزيدهم من فضله " أى يعطهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل ، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر اليه فهو غفور عند إعطاء الأجر ، شكور عند إعطاء الزيادة (١)

٢- قول الله جل جلاله :

" وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ" (٢)

فإن المتدبر لهذه الآية الكريمة يجدها كما يقول ابن القيم - منادية نداء صريحاً بأن الله سبحانه وتعالى يرى عياناً بالأبصار يوم القيامة . (٣) ورغم ذلك زعم أهل الاعتزال إنها لا تفيد رؤية الله ، محتجين بتأويلات فاسدة ، ومستشعدين بأبيات شعر هابطة ، منها ما هو موضوع محرف عن الصواب ، ومنها ما لا يصلح للإحتجاج وهذه بعض تأويلاتهم وحججهم حول هذه الآية يقول القاضى عبد الجبار حول هذه الآية :

ربما قيل إنه أقوى دليل على أن الله تعالى يرى فى الآخرة . وجوابنا: أن من تعلق بذلك أن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم ، فإننا لا ننازعه فى أنه يرى . بل فى أنه يصفح ، ويعانق ، ويلمس ، تعالى الله عن ذلك ، وإنما نكلمه فى أنه ليس بجسم ، وإن كان ممن ينفى التشبيه عن الله فلا بد أن يعترف بأن النظر إلى الله تعالى لا يصح ، لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشئ طلباً لرؤيته ، وذلك لا يصح إلا فى الأجسام .

(١) الفخر الرازى حـ ٥١/٢٤

(٢) سورة القيامة ٢٢ : ٢٣

(٣) حادى الأرواح ص ٢٣٦

فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب (١)، كقوله تعالى : " وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ " (٢) فإننا تأولناه على أهل القرية لصحة المسألة منهم ، وتبين ذلك أن الله ذكر ذلك ترغيباً في الثواب كما ذكر قوله " وَوَجَّوهُ يَوْمَئِذٍ بِأَسْرَةٍ تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ " (٣) زجراً عن العقاب (٤)

أما الزمخشري فقد قصر لسانه عند هذه الآية - كما يقول ابن المنير - فقال تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره وهذا تقديم المفعول ألا ترى إلى قوله : " إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ " (٥) " إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ " (٦) " إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ " (٧) " وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (٨) " عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " (٩) كيف دل فيها التقديم على معنى الإختصاص ومعلوم أنهم ينظرون إلى اشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الأمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظور إليه محال فوجب حمله على معنى يصح معه الأختصاص والذي يصح معه ان يكون من قول الناس أنا الى فلان ناظر ما يصنع بي بمعنى التوقع والرجاء ومنه قوله القائل : " وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدنتي علماً

(١) وكانه يريد أن يقول معنى الآية إلى ثواب ربها ناظرة.

(٢) يوسف من الآية : ٨٣

(٣) القيامة ٢٤ : ٢٥

(٤) تنزية القرآن عن المطاعن ص ٤٤٢ ط دار النهضة الحديثة

(٥) القيامة ١٢

(٦) القيامة ٣٠

(٧) الشورى ٥٣

(٨) الزخرف من الآية ٨٥

(٩) هود من الآية ٨٨

والمعنى لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه (١)

فالزمخشرى يزعم بأن المعنى تنتظر الثواب والنعمة والكرامة من الله وحده ، وليس المعنى أنها تنظر إلى الله تعالى ، وكذلك بقية علماء المعتزلة يزعمون أن الناظر بمعنى المنتظر ويقولون أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله قال تعالى : "فَنَاطِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ" (٢)

كما أنهم يزعمون أن النظر المقرون بحرف إلى ليس اسماً للرؤية واستدلوا على ذلك بعدة وجوه منها .

١- قول الله تعالى " وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ " (٣)

وحجتهم فى هذا أن الله أثبت النظر حال عدم الرؤية ، فدل على أن النظر غير الرؤية ، ويقال نظرت إلى الهلال فما رأيته ، ولم أزل انظر إلى الهلال حتى رأيته ، فالنظر الموصول به على محمول على تقليب الحدقة لأنه يوصف بالشدة والشزر والأزورار - العدول عن الشئ - والرضى والتجبر والذل والخشوع وشئ منها لا يصلح للرؤية بل هى أحوال يكون عليها الناظر عند تقلب الحدقة نحو المرئى (٤)

٢- قول الله تعالى :

" وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (٥)

وقول الشاعر: وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

(١) الكشاف ١٦٥/٤

(٢) الطبرى ٣٧٢ / ١٢ والفخر الرازى ٣٦/١٦ - سورة النمل الآية: ٣٥

(٣) الأعراف من الآية ١٩٨

(٤) شرح المواقف ص ٢١٤ : ٢١٥ ، وانظر الفخر الرازى ٣٥/١٦

(٥) سورة آل عمران من الآية: ٧٧

قالوا حول الآية : لو قال لا يراهم كفى، فلما نفى النظر ولم ينف الرؤية دل على المغايرة. (١)

أما قول الشاعر :

فقد أثبت النظر المقرون بحرف إلى مع أن الرؤية ما كانت حاصلة. (٢)

٣- وأخيراً زعم المعتزلة أن "إلى" ليست حرف التعدى بل هو واحد الألاء .
والمعنى : وجوه يومئذ نعمة ربها منتظرة (٣)

هذه تاويلات المعتزلة حول الآية الكريمة، وقد بذلوا قدر الجهد لمحاولة إثبات استحالة رؤية الله تعالى وأنها غير جائزة شرعاً وليس هناك دليل يثبتها إلا أن هذه التاويلات لم يكتب لها القبول لدى الناس وقد ردها عليهم أهل السنة والجماعة ، وأثبتوا بطلانها وإنها خلاف مفسره الصحابة والتابعون "رضى الله عنهم" كما أن فيها المخالفة لقواعد العربية ،

والقرآن الكريم نزل - كما قال ربنا- " بلسان عربى مبين " (٤)

وكذلك بعض أبيات الشعر غير صحيحة ، والأمثال غير ثابتة فى كلام العرب ، ونفصل هذا الإجمال فنقول وبالله التوفيق .

أولاً : زعمُ القاضى عبد الجيار أن النظر إلى وجه الله تعالى يقتضى التشبيه والتجسيم زعم باطل حيث أقيمت الأدلة النقلية والعقلية على ان الله تعالى ليس بجسم ولا يشبه أحداً من خلقه كما سبق ذكر (٥) ذلك وحسبنا قول الله تعالى :

(١) الفخر الرازى ج ١٦ / ٣٦

(٢) المرجع السابق نفس الجزء صفحة ٣٥

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٩ / ١١٠

وانظر الفخر الرازى ج ٣١ / ٣٧

(٤) سورة الشعراء آية : ١٩٥

(٥) انظر ص ١٥٢ من هذا البحث

" لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " (١)

وقول جل جلاله :

" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " (٢).

ثم إن الله سبحانه وتعالى قص علينا نبأ موسى بالحق فقال جل جلاله : " قَالَ رَبِّ آرَأَيْتِ أَنْظَرُ إِلَيْكَ " (٣) فلو كان النظر يقتضى التشبيه والتجسيم كما يزعم القاضى عبد الجيار - وأنه عبارة عن تقليب الحدفة إلى جانب المرئى - لاقتضت الآية أن موسى عليه السلام " أثبت لله تعالى وجهة ومكاناً وذلك محال (٤).

حيث لا يجوز أن يكون موسى - عليه السلام - الذى ألبسه الله تعالى جلباب التبيين وعصمه بما عصم به المرسلين فيسأل ربه ما يستحيل عليه وإذا لم يجز ذلك على موسى عليه السلام - فقد علمنا إنه لم يسأل ربه مستحيلاً ، وأن الرؤية جائزة على ربنا عز وجل ، ولو كانت الرؤية مستحيلة على ربنا - كما زعمت المعتزلة ، ولم يعلم ذلك موسى - عليه السلام - وعلموا هم لكانوا على قولهم أعلم بالله من موسى - عليه السلام - وهذا ما لا يدعيه مسلم (٥).

هذا، وإن كان كل ما يرى يحتاج إلى كيف ومكان فهذا فى الدنيا أما فى الآخرة فإن الحال ليست كذلك ولا يبعد - كما القرطبى - قلب العادة غداً، حتى يخلق الرؤية والنظر فى الوجه وهو كقوله تعالى " أَفَمَنْ يَمْشِى مُكَبِّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِى

(١) سورة الشورى من الآية ١١

(٢) سورة الإخلاص

(٣) سورة الأعراف من الآية ١٤٣

(٤) تفسير الفخر الرازى حـ ٣٨/١٦

(٥) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٤٥

سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ". (١) فقل يا رسول الله كيف يمشون في النار على وجوههم ؟ قال الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ أن يمشيهم على وجوههم". (٢)

ومما يقوى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قلب عادة الرؤية في الدنيا لرسوله "صلى الله عليه وسلم" فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة "رضى الله عنه" قال : قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : " ما يخفى علىَّ خشوعكم ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري "(٣)

وفى رواية للنسائي نزيد الأمر تبيانا فعن أنس رضى الله عنه " أن النبي "صلى الله عليه وسلم" كان يقول : " استنوا استنوا فوالذى نفسى بيدي إني لأراكم من خلفي كما أراكم من بين يدي " سنت النسائي كتاب الإمامة باب كم مرة يقول استنوا - ح ٩١/٢ ط دار الحديث القاهرة سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

وفى صحيح البخارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا عائشة هذا جبريل يقرؤك السلام . قالت وعليه السلام ترى ما لا أرى تريد النبي " صلى الله عليه وسلم " (٤)

(١) سورة الملك : ٢٢

(٢) القرطبي ح ١١٠/١٩ ، وانظر تفسير ابن كثير ح ٦٢٣/٤ والحديث رواه البخارى ونصه " أن رجلاً قال يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على ان يمشيه على وجهه يوم القيامة " انظر صحيح البخارى ح ٣٥٠/٨ ك التفسير ب الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم يوم القيامة حديث رقم ٤٧٦٠ .

(٣) صحيح البخارى ح ٦١٢/١ كتاب الصلاة باب عظة الإمام الناس فى أتمام الصلاة وذكر القبلة حديث رقم ٤١٨ ط الريان .

(٤) الحديث رواه البخارى ح ٣٥٢ /٦ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم حديث رقم ٣٢١٧ .

فالرسول " صلى الله عليه وسلم " لم يكن في مقابلتهم ببصره أثناء الصلاة ، ولكنه يخبر أصحابه أنه يراهم - وهو الصادق المعصوم عن الكذب .

وفي بيت السيدة عائشة لم تر أم المؤمنين جبريل عليه السلام ولكن النبي " صلى الله عليه وسلم " رأه وسمعه وبلغ السيدة عائشة ذلك هو يدل على أن النبي " صلى الله عليه وسلم " : قد اعطاه الله بقدرته المطلقه رؤية مالم يقدر على رؤيته أحد من الناس لذا قالت عائشة " رضى الله عنها " ترى ما لا أرى " حيث رأى جبريل ولم تره هي "رضى الله عنها"

وصدق حسان بن ثابت حيث قال :

نبي يرى ما لم ير الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد (١)

إذا فليس بمحال أن نرى ربنا في الآخرة وإن لم يتسن لنا رؤيته في الدنيا ، ونقوى على رؤية ما لم نقو عليه في الدنيا ، ولعل حديث رسول الله " صلى الله عليه وسلم " الذى رواه الترمذى والإمام أحمد بن حنبل - يثبت لنا أن الصالحين الأنقياء يرون في الآخرة ما لا سبيل إلى رؤيته في الدنيا . فعن على بن ابى طالب رضى الله عنه قال : قال النبي " صلى الله عليه وسلم " : إن فى الجنة غرفاً ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها فقام أعرابى فقال : لمن هى يا رسول؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام وأدام الصيام ، وصلى الله بالليل والناس نيام" ورواه الترمذى حـ ٦ / ١٠٩ كتاب البر والصلة / ٥٣ باب ما جاء فى قول المعروف - وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق .

أما القياس الذى ذهب إليه القاضى عبد الجبار بحمل هذه الآية على قوله تعالى : " وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ " (٢) فإنه قياس بعيد لا يصح لما فيه من قياس المستحيل على الممكن

(١) الطبرى حـ ٦٥٥/١

(٢) سورة يوسف من الآية : ٨٢

فقوله تعالى : " واسأل القرية " يستحيل أن نسأل ذات القرية وإنما نسأل أهلها ، أما قوله تعالى " إلى ربها ناظرة " فليس مستحيلاً وليس هناك ما يمنع أن تنظر إلى ربها حقيقة علاوة على ما جاء من أحداث صحيحة ذكرت في هذا المضمار تؤيد ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وتبطل ما ذهب إليه القاضى عبد الجبار وأقرانه من أهل الإعتزال .

ثم إن القرية لا تكون قرية إلا بأهل يسكنون فيها، فإذا جاء الحديث عنها فالمراد أهلها ، فإن لم يكن فيها أهل فإنها تسمى وادياً. فقد سماها القرآن وادياً عندما كانت خالية من الناس .

قال تعالى عن سيدنا إبراهيم

" رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ " (١) والمراد بهذا الوادى مكة المكرمة فلما عمرت بالناس سماها القرآن قرية فقال سبحانه مخاطباً سيدنا محمداً " صلى الله عليه وسلم "

" وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا " (٢) فأم القرى مكة والمراد أهلها . (٣)

ثانياً : ما زعمه الزمخشري ومن وافقه من المعتزلة بأن معنى قوله تعالى :

" إلى ربها ناظرة " منتظرة الكرامة والثواب ، والزعم بان الناظر بمعنى المنتظر .. الخ .. فهذا فيه خلط بين قواعد اللغة العربية لا يخفى . حيث إن النظر فى اللغة له عدة استعمالات بحسب صلته وتعديه .

فإن عدى بنفسه كان بمعنى التوقف والانتظار فإن العرب إذا أرادت الانتظار قالوا نظرتة كما قال تعالى :

(١) سورة إبراهيم من الآية ٣٧

(٢) سورة الأنعام من الآية ٩٢

(٣) القرطبي حـ ٣٨/٧

"هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً" (١) وقال سبحانه : "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ" (٢) وقال جل جلاله " مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً" (٣) وقال الشاعر :

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جُنْدُب (٤)

فلما أراد الإنتظار قال تنظراني ولم يقل تنظران الى . وقال اخر :

الم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غداً للناظرين قريب (٥)

وكذا قول قراد بن أجدع فى البيت المشهور الذى يضرب به المثل لانتظار الموعد :

وأن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غداً لناظره قريب

وإذا أرادت بالنظر التفكير والتدبر قالوا : نظرت فيه (٦) - ومنه قوله تعالى :

"قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" (٧) اى انظروا نظر استدلال واعتبار ماذا فى السموات والأرض من الآيات الدالة على عظمة الله ، والعبر باختلاف الليل والنهار ، وخروج الزروع والثمار . (٨)

وإذا عدى باللام كان معناه : العطف والرحمة كأن نقول : نظر الأمير للرجل الفقير بعين الرحمة ، أى شفق به وعطف عليه .

(١) سورة محمد من الية ١٨

(٢) الأعراف من الية ٥٣

(٣) يس من الآية ٤٩

(٤) انظر القرطبي حـ ١٠٨/١٩ والشاعر هو امرء القيس وانظر الإبانة عن اصول

الديانة ص ١٤

(٥) إحياء علوم الدين حـ ٣٩٨/٤ .

(٦) القرطبي حـ ١٠٩/١٩

(٧) سورة يونس من الآية ١٠١

(٨) تفسير النسفى حـ ١٣٦/٢ ط إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي

اعتبار. (١)

ولا يجوز أن يكون عنى نظر الإنتظار لما فى الإنتظار من تنغيص للعيش وتكدير للحياة ، وأهل الجنة لا يوصفون بذلك ، ولا ينتظرون دفع نقمة عنهم ، بل إن لهم فى الجنة ما لآعين رأت ولا أذن سمعت من العيش السليم ، والنعيم المقيم ، وإذا كان هذا هكذا لم يجز ان يكون منتظرين لأنهم كلما خطر ببالهم شئ أتوا به مع خطوره ببالهم (٢)

إذا الإنتظار وما فيه من تنغيص وأرق لا يتلائم مع أهل الجنة المكرمين ، ولا يكون صفة مسح والأية تمدح المؤمنين ذوا الوجوه النضرة إذا فالأقسام الثلاثة لا تصح ان تكون مراد الأية وإذا فسدت الأقسام الثلاثة — كما يقول أبو الحسن الأشعري — صح القسم الرابع من أقسام النظر وهو أن معنى قوله "إلى ربها ناظرة" أنها رائية ربها عز وجل ثم إن الله سبحانه وتعالى ذكر النظر مع الوجه والنظر إذا ذكر مع ذكر الوجه كان معناه نظر العينين اللتين فى الوجه. (٣)

والقرآن الكريم كثير ما يعبر عن العين بالوجه.

قال تعالى : "فَأَلْقَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا" (٤) . قال القرطبي : اى على عينيه. (٥) وكذا قوله تعالى : " قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً"

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٣

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي حـ ١١٠/١٩ وانظر الإبانه ص ١٣ للأشعري

(٣) الإبانه عن أصول الديانة ص ١٣ : ١٤ بتصرف وتقديم وتأخير .

(٤) سورة يوسف من الأية ٩٣

(٥) القرطبي حـ ١١٠/١٩

تَرَضَاهَا^(١) فذكر الوجه وإنما أراد تقلب عينيه نحو السماء ينتظر نزول الملك عليه بصرف الله له عن قبلة بيت المقدس إلى الكعبة . (٢)

وقول المعتزلة "تنتظر ثواب ربها" أو إلى ثواب ربها ناظرة فيه تكلف وصرف للأية عن ظاهرها الواضح ، ثم إن ثواب الله شئ والنظر إلى الله جل جلاله شئ آخر ، والله تعالى قال : " إلى ربها ناظرة " ولم يقل إلى غيره ناظرة .

وحمل الآية على الحقيقة وعلى ظاهرها أولى من حملها على المجاز ، لا سيما أن حملها على المجاز لم يرد به نقل ثابت ، بل إن هناك أكثر من حديث يثبت أن الرؤية حقيقية

يقول أبو الحسن الأشعري : والقرآن على ظاهره وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا لحجة وإلا فهو على ظاهره ألا ترى أن الله عز وجل لما قال صلوا لي واعبدوني لم يجز أن يقول قائل أنه أراد غيره ويزيل الكلام عن ظاهره فلذلك لما قال إلى ربها ناظرة لم يجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة . (٣)

ثم يقال لهؤلاء المعتزلة إن جازلكم إن تزعموا أن قول الله عز وجل إلى ربها ناظرة إنما أراد به أنها إلى غيره ناظرة فلم ^ص جاز لغيركم أن يقول أن قوله عز وجل لا تدركه الأبصار أراد بها لا تدرك غيره ولم يرد أنها لا تدركه !؟

(١) سورة البقرة من الآية ١٤٤

(٢) الإبانة ص ١٤٤

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

وهذا ما لا يقدرّون على الفرق فيه (١)

ثالثاً : زعمهم أن "إلى" ليست حرف التعدى وإنما واحد الألاء والمعنى وجوه يومئذ نعمة ربها منتظرة .

وهذا تأويل باطل ، لأن واحد الألاء يكتب بالألف لا بالياء ، ثم الألاء نعمة الدفع ، وهم فى الجنة لا ينتظرون دفع نقمة عنهم . (٢)

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

ومن قال أن المراد بالى مفرد الألاء وهم النعم - فقد أبعد النجعة - وأبطل فيما ذهب إليه ، وأين هو من قوله تعالى : " كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " (٣) قال الشافعى رحمه الله ما حجب الكفار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل . (٤)

وقال الإمام مالك رضى الله تعالى عنه " لما حجب اعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه (٥) .

رابعاً : الآيات والأمثال وأبيات الشعر التى استدلت بها المعتزلة على أن النظر فى الآية غير الرؤية :

١- قول الله تعالى : " وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ " (٦)

(١) المرجع السابق نفس الصفحة

(٢) الجامع لأحكام القرآن حـ ١١٠/١٩

(٣) سورة المطففين آية : ١٥

(٤) تفسير القرآن العظيم حـ ٧٠٥/٤ - ٧٠٦ بتلخص

(٥) شرح البيجورى على الجوهرة صـ ١٣٤ .

(٦) سورة الأعراف من الآية ١٩٨

وحجتهم فى هذا أن الله أثبت النظر فى حال عدم الرؤية فدل على أن النظر غير الرؤية مثل ذلك أن يقال :

نظرت إلى الهلال فما رأيته، ولم أزل انظر إلى الهلال الخ
ولنا على هذا تعليق :

الإستدلال بهذه الآية الكريمة على نفي رؤية الله تعالى أراه بعيداً عن الصواب لأن هذه الآية التى احتج به المعتزلة إنما تتحدث عن الأصنام ، ولا خلاف فى أنها لا تبصر شيئاً ، ولا ترى أحداً ، والخلاف بيننا وبين المعتزلة فى رؤية الله للمؤمنين ، وهل يقصد المعتزلة ان قوله تعالى " إلى ربها ناظرة " أن المؤمنين ينظرون إلى الله ولا يرونه كما أن الأصنام ينظرون إلى الشئ ولا يبصرون !؟

إن كان كذلك فهذا قياس فاسد لما فيه من قياس الإنسان على الجماد : ثم إن وصف نظر الأصنام فى هذه الآية ليس حقيقة ، وإنما عيون مفتوحة ، بجواهر مصنوعة فكأنها تنظر إليك . يقول القرطبي حول هذه الآية :

" وتراهم كالناظرين إليك " وخبر عنهم بالواو وهى جماد لا تبصر ، لأن الخبر جرى على فعل من يعقل ، وقيل كانت لهم أعين من جواهر مصنوعة ولذلك قال : " وتراهم ينظرون إليك " .^(١) أما قولهم : نظرت إلى الهلال فما رأيته ، ولم أزل أنظر إلى الهلال حتى رأيته " فيجاب عليه بأنه لا يصلح دليلاً حيث لم يصح نقله عن العرب ، والصواب أن يقال :

نظرت إلى مطلع الهلال فلم أر الهلال . وإن سلمناه قلنا ربما يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه فيكون النظر مجازاً عن تقليب الحدقة من

(١) القرطبي حـ ٧ ٣٤٤

باب إطلاق اسم المسبب الذي هو الرؤية عن سببها الذي هو التقلب ثم إن
تقليب الحدقة طلباً للرؤية بدون الرؤية لا يكون نعمة بل فيه

نوع عقوبة فلا يكون مراداً في الآية . (١)

قوله تعالى: " وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (٢)
يزعم المعتزلة ان هناك مغايرة بين الرؤية والنظر بدليل أنه تعالى نفى النظر
ولم ينف الرؤية.

والجواب على ذلك أن الآية لا تتحدث عن الرؤية وليس المراد بالنظر
المشاهدة أو الرؤية وإنما المراد بقوله : " لا ينظر إليهم " عدم العطف
عليهم بخير ، وعدم المن عليهم بفضل .

يقول ابن جرير الطبري حول هذه الآية : ولا ينظر إليهم : لا يعطف عليهم
بخير ، مقتناً من الله لهم ، كقول القائل لآخر ، " انظر إليّ نظر الله إليك " بمعنى
تعطف عليّ تعطف الله عليك بخير ورحمة كما يقال للرجل : " لا سمع الله
لك دعاءك " يراد لا استجاب الله لك . والله لا نخفى عليه خافية . وكما قال
الشاعر :

دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول (٣)

أما قول الشاعر الذي زعموا أنه أثبت النظر المقرون بحرف إلى ولم يقصد
به الرؤية وهو :

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

(١) شرح المواقف ص ٢١٤

(٢) سورة آل عمران من الآية : ٧٧

(٣) تفسير الطبري ح ٤٦٣/٣

فهذا الشعر محرّف عن موضعه والرواية الصحيحة هي :
وجوه ناظرات يوم بكر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا
المراد من هذا الرحمن مسيلمة الكذاب ، لأنهم كانوا يسمونه رحمن اليمامة
فأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه التخلص من الأعداء .^(١)

أدلة المعتزلة العقلية

لم يكتف المعتزلة بأدلة النقل على نفى الرؤية بل تمسكوا بأدلة عقلية زعموا أنها تصلح دليلاً على نفى رؤية البارئ سبحانه وتعالى :
من هذه الأدلة :

قولهم لا بد لتحقيق الرؤية في المشاهد من شروط ثمانية هي :

- ١- أن تكون حاسة الأبصار سليمة .
 - ٢- كون الشيء جائز الرؤية .
 - ٣- مقابلة المرئى للرأى ،
 - ٤- عدم غاية الصغر لأن الصغير جداً لا يدركه البصر قطعاً.
 - ٥- عدم غاية الطاقة بأن يكون كثيفاً أى ذا لون فى الجملة ولو كان ضعيفاً.
 - ٦- ألا يكون فى غاية القرب .
 - ٧- ألا يكون المرئى فى غاية البعد.
 - ٨- ألا يكون بين الرأى والمرئى حجاب حائل يمنع من الرؤية^(١)
- هذا ، وللقاضى عبد الجبار سؤال يعجب من إثبات رؤية الله تعالى فيقول:
كيف يراه أهل الجنة دون أهل النار ؟ إما أن يقرب منهم أو يقابلهم فيكون حالهم معه بخلاف أهل النار وهذا يوجب أنه جسم يجوز عليه القرب والبعد والحجاب^(٢)

(١) شرح المواقف ص ٢١٩ / ٢٢٠

(٢) الفخر الرازى ح ٤٩٥ / ١٢

وكان المعتزلة يريدون أن يقولوا أن رؤية الله سبحانه وتعالى لكى تتحقق يلزم أن يكون الله فى جهة من الجهات أو يكون مقابلاً للرأى مما يستلزم التجسيم والتشبيه وهذا مستحيل على الله ومن ثم تكون رؤية الله مستحيلة .

ولكن يجاب على هذه الشروط التى وضعها المعتزلة بأنها قائمة على قياس الغائب على الشاهد وهذا لا يجوز ولا يصلح دليلاً لعدم تطابق المثلية بين الله سبحانه وتعالى وأى شئ آخر نراه .

قال تعالى: " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " (١)

فلا يصح أن نقيس علم الإنسان وقدرته بعلم الله جل جلاله وقدرته. فمن صفات الله تعالى العلم والقدرة ، وأيضا يوصف بهما الإنسان ولكن مع وجود فرق بين علم الله وقدرته وعلم الإنسان وقدرته ، ولا يصح بحال أن نقيس صفات الإنسان على صفات الله تعالى ، وإذا ما قسنا شروط الرؤية بالنسبة لله تعالى على شروط الرؤية بالنسبة للإنسان لزمنا أن نقيس شروط غيرها، وعلى سبيل المثال " صفة العلم " كى يكون الإنسان عالماً فإنه يحتاج شيخاً يعلمه مع المزيد من القراءة والبحث والإجتهد حتى يصير عالماً . فهل يجوز أن نشترط ذلك على الله تعالى حتى نثبت علمه كما اشترط المعتزلة على الله بعض ما ذكر حتى تتحقق وتثبت رؤيته فإن كان هذا لا يصح فكذلك لا تقاس

رؤية الله فى الآخرة على رؤية الإنسان فى الدنيا

لأى شئ ما .

لأن رؤية الله فى الآخرة لا تطبق عليها المعايير التى تطبق على الرؤية البصرية فى الدنيا ..

(١) سورة الشورى من الآية : ١١

فلا يستحيل على الله تعالى أن يعطينا فى الأخرة قدرة عظيمة بها نستطيع رؤيته وذلك دون اشتراط لمعايير إنسانية ، أو قوانين كونية ، وإنما نراه سبحانه غير محدود بجهة ولا مقابلة أو انطباع صورة المرئى فى العين أو غير ذلك من شروط الرؤية فى الحياة الدنيا .

يقول الفخر الرازى رحمه الله :

سلمنا أن الأبصار البتة لا تترك الله تعالى فلم لا يجوز حصول إدراك لله تعالى بحاسة سادسة مغايرة لهذه الحواس كما كان ضرار بن عمرو يقول به ؟ ... وهب أن رؤية الأجسام والأعراض عند حصول سلامة الحاسة وحضور المرئى وحصول سائر الشرائط واجبة ، فلم قلت إنه يلزم منه أن يكون رؤية الله تعالى عند سلامة الحاسة وعند كون المرئى بحيث تصبح رؤيته واجبة ؟ ألم تعلموا أن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات ،

ولا يلزم من ثبوت حكم فى شئ ثبوت مثل ذلك الحكم فيما يخالفه^(١)

أما سؤال القاضى عبد الجبار والذى يعجب من أن أهل الجنة يرون ربهم دون أهل النار وأن هذا يقتضى أن يقرب منهم أو يقابلهم

فيقال له ما المانع أن يتجلى الله ويراه أهل الجنة ولا يراه أهل النار ؟ أليس فى قدرة الله ذلك !؟؟

ثم إن الله جعل رؤية الشئ وعدمه فى آن واحد ومكان واحد فى الدنيا - كما رأى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" جبريل ولم تره السيدة عائشة "رضى الله عنها" كما سبق - وكما جعل الله أم جميل - زوجة أبى لهب ترى أبا بكر ولم تر رسول الله "صلى الله عليه وسلم" رغم أنه كان بجوار أبى بكر

(١) الفخر الرازى حـ ١٢/٤٩٤/٤٩٦

الصدق فإذا كان هذا قد حدث في الدنيا ألا يحدث في الآخرة حيث تتبدل الأشياء ، وتتغير الأوضاع ويرى الناس من العجائب ما لم يروا في الدنيا؟! فلا عجب إذاً أن يرى أهل الجنة ربهم ، وأهل النار لا يرونه لا لأجل القرب أو البعد كما زعم القاضى - بل لأنه يخلق الرؤية - كما يقول الفخر الرازى فى عيون أهل الجنة ، ولا يخلقها فى عيون أهل النار (١)

(١) الفخر الرازى حـ ٤٩٧/١٢

مذهب أهل السنة والجماعة

فى رؤية الله يوم القيامة

يرى أهل السنة والجماعة أن رؤية الله تعالى جائزة فى الدنيا وفى الآخرة ، ولكن لم تقع فى الدنيا إلا لسيدنا محمد " صلى الله عليه وسلم " .

يقول شيخ الإسلام البيجورى :

الرؤية جائزة عقلاً دنيا وأخرى لأن البارى سبحانه موجود وكل موجود يصح أن يرى، فالبارى عز وجل يصح أن يرى لكن لم تقع دنيا لغير نبينا " صلى الله عليه وسلم " وواجبة شرعاً فى الآخرة كما أطبق عليه أهل السنة بالكتاب والسنة والإجماع أما الكتاب فأيات كثيرة منها قوله تعالى :

"وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ"^(١) وقوله سبحانه " لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ"^(٢) فإن الحسنى هى الجنة والزيادة هى النظر لوجهه الكريم كما قال جمهور المفسرين . وقوله جل جلاله : " عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ"^(٣) وأما السنة فأحاديث كثيرة كحديث : " أنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر"^(٤) والتعبير بالسین فى الحديث لأن القيامة قد قربت .. وأما الإجماع

(١) القيامة ٢٢ : ٢٣

(٢) يونس من الآية : ٢٦

(٣) المطففين أية : ٢٣

(٤) الحديث رواه مسلم بألفاظ قريبة من هذا فى كتاب الإيمان باب إثبات رؤية الله فى الآخرة حـ ١٧/٣-١٨ ونصه " هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال فإنكم ترونه كذلك .

فهو أن الصحابة "رضى الله عنهم" كانوا مجمعين على وقوع الرؤية في الأخرى. (١) ويرى الإمام الشافعي "رحمه الله" في قوله تعالى: "كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ" (٢). دليلاً قاطعاً على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة فيقول:

"فلما حجبهم في السخط كان في هذا دليل على أنهم يرونه في الرضا". (٣) واستحسن الإمام ابن كثير أئستشهاد الإمام الشافعي فقال وهذا الذي قاله الشافعي "رحمه الله" غاية في الحسن وهو استدلال بمفهوم هذه الآية. (٤) وإذا كانت الآية بينت ان الكافر محجوب عن رؤية ربه عقاباً له فإن مفهوم المخالفة يقتضى أن يفوز المؤمن برؤية ربه جزاء له ، وإلا فما علة التبكيت للكافرين .. فالآية دليل قوى على رؤية الله يوم القيامة ومن علمائنا من يرى أن حمل الآية على غير الرؤية لا يصح .

قال القرطبي : قال الزجاج : في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون ... فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكافرين محجوبون عنه ، وقال مالك بن أنس في هذه

(١) شرح البيجورى على الجوهرة ص ١٣٣-١٣٤ المطبعة العربية الحديثة.

(٢) سورة المطففين آية : ١٥

(٣) أحكام القرآن للشافعي حـ ١/٤٠ ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان سنة ١٤٠٠ -

١٩٨٠

(٤) تفسير القرآن العظيم حـ ٨/ ١٩٩ .

الآية : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . (١)
ويقول الإسفرايينى :

" ... وأن تعلم أن القديم سبحانه يُرى وتجاوز رؤيته بالأبصار ، لأنه ما لا تصلح رؤيته لم يتقرر وجوده كالمعدوم وكل ما صاح وجوده جازت رؤيته كسائر الموجودات ودلائل هذه المسألة فى كتاب الله كثيرة .

منها قوله تعالى : " تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ " (٢)

واللقاء إذا أُطلق فى اللغة وقع على الرؤية وخصوصاً حيث لا يجوز فيه التلاقى بالذوات والتماس بينهما .

ومنها قوله تعالى :

" لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (٣)

ولا زيادة على نعيم الجنة غير رؤية الرب جل جلاله . (٤)

وإذا كان صاحب شرح الجوهرة ذكر إجماع الصحابة "رضى الله عنهم" على ثبوت رؤية الله تعالى ، فإن ابن القيم ذكر فى كتابه حادى الأرواح إجماع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - فقال : اتفق عليها أى على ثبوت الرؤية - الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون ، وأئمة الإسلام على

(١) الجامع لأحكام القرآن حـ ٢٦١/١٩ .

(٢) سورة الأحزاب من الآية ٤٤

(٣) سورة يونس آية : ٤٦

(٤) انظر التبصير فى الدين لأبى المظفر الإسفرايينى ص ٩٤ ط الأنوار الطبعة

تتابع القرون . وأنكرها أهل البدع المارقون ، والجهمية
المتهوكون ،^(١) والفرعونية المعطلون ، والباطنية الذين هم من جميع الأديان
منسلخون ، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون ومن حبل الله
متقطعون ، وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مطرودون ، أولئك
أحزاب الضلالة وشيعة اللعين .^(٢)

ولما كان أهل الباطل والهوى لا يحتجون بأية أو حديث صحيح على مذهبهم
إلا وفي ذلك ما يدل على نقيض قولهم فإن الأدلة التي تمسك بها المعتزلة
على نفى الرؤية هي أدلة على ثبوتها أقرب وأصوب ، وأوضح وأبين ..
ومن ذلك إحتجاجهم يقوله تعالى :

" لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " ^(٣) وقوله سبحانه :

" قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني " ^(٤)

ففى أية الأنعام المذكورة أنفا يزعم المعتزلة بأن فيها مدحاً لله بأنه لا يرى .
ويرد صاحب المواقف فيقول :

هذا مدعاكم فأين الدليل؟! بل لنا فيه الحجة على صحة الرؤية ، لأنه لو
أمتنعت رؤيته ما صح المدح ، إذ لا مدح للمعدوم بأنه لا يرى حيث لم يكن
له ذلك ، وإنما المدح فيه للممتنع

(٢) المتحيرون الحمقى .

(٣) حادى الأرواح ص ٢٢٨ - ٢٢٩

(٣) الأنعام من الآية : ١٠٣

(٤) الأعراف من الآية ٤٣

المتعزز بحجاب الكبرياء (١).

ورحم الله ابن القيم حيث قال فى قوله تعالى " لا تدركه الأبصار " هى على جواز الرؤية أدل منها على إمتناعها فإن الله سبحانه وتعالى إنما ذكرها فى سياق التمدح ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمن أمراً وجودياً كتمدحه بنفى السنّة والنوم المتضمن كمال القيومية ونفى الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفى اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة ونفى الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وألهيته وقهره ، ونفى الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه ، ونفى الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه ، ونفى الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفى النسيان وعزوب شئ عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفى المثل المتضمن كمال ذاته وصفاته ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتياً فإن المعدوم يشارك الموصوف فى ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فلو كان المراد بقوله " لا تدركه الأبصار " إنه لا يُرى بحال لم يكن فى ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له فى ذلك لأن العدم الصرف لا يُرى ولا تدركه الأبصار والرب جل جلاله يتعالى أن يُمدح بما يشاركه فيه العدم المحض . فإذاً المعنى أنه يُرى ولا يُدرك ولا يحاط به كما كان المعنى فى قوله :

(١) المواقف للقاضى عبد الرحمن الإيجى ص ٣٠٩ مكتبة المتنبى بالقاهرة

" وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة " (١) إنه يعلم كل شئ . وفى قوله :
 " ولا يظلم ربك أحداً " (٢)

إنه كامل العدل وفى قوله : " ولا تأخذه سنة ولا نوم " (٣) أنه كامل القيومية .
 فقوله : " لا تدركه الأبصار " يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شئ
 وأنه لعظمته لا يُدرك بحيث يحاط به فإن الإدراك هو الإحاطة بالشئ ،
 والرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه فالرب سبحانه وتعالى
 يُرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به وهذا الذى فهمه الصحابة والأئمة من
 الآية : إن الله أعظم من أن تدركه الأبصار (٤)

وقوله تعالى : " قال لا ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف
 ترانى " (٥) هى دليل قاطع وبرهان ساطع وحجة دامغة على أن الله جائز أن
 يرى وإن كان المعتزلة اتخذوها دليلاً على استحالة رؤية الله تعالى .
 يقول صاحب المواقف :

(١) سورة بونس من الآية ٦١

(٢) سورة الكهف من الآية ٤٩

(٣) سورة البقرة من الآية ٢٥٥

(٤) حادى الأرواح ص ٢٣٤ : ٢٣٥

(٥) سورة الأعراف من الآية ١٤٣

فليس واجباً علينا معرفة كيفية رؤية الله تعالى يوم القيامة ، وإنما واجب علينا الإيمان بوقوع رؤيته للمؤمنين تفضلاً وتكرماً منه سبحانه وتعالى ..

يقول ابن حجر "رحمه الله "

وتجوز الرؤية في الآخرة لأن أبصار المؤمنين فيها باقية فلا استحالة أن يُرى الباقي بالباقي ، بخلاف حالة الدنيا فإن أبصارهم فيها فانية فلا يُرى الباقي بالفانى ، وتواترت الأخبار النبوية بوقوع هذه الرؤية للمؤمنين في الآخرة ، وبإكرامهم بها في الجنة ، ولا استحالة فيها فوجب الإيمان بها وبالله التوفيق (١)

(١) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى للإمام ابن حجر العسقلانى حـ ١٥٣/٨ ط

رأيتا في الموضوع

والذى نراه صواباً فى هذا الموضوع وندين الله تعالى عليه هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وهو أن رؤية الله تعالى فى الآخرة جائزة وواقعة وأن المؤمنين سوف يرون ربهم كما يرون القمر ليلة البدر .. وأن ذلك ثابت بالكتاب والسنة وأن رؤيته جل جلاله بغير كيفية أو تحديد مكان أما فى الدنيا فإن أحداً لا يتسنى له رؤية الله جل جلاله ولم تثبت لأحد فى الدنيا إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم " يقول صاحب الجوهرة :

لكن بلا كيف ولا انحصار
هذا وللمختار دنيا ثبتت (١)

ومنه أن ينظر بالأبصار
للمؤمنين إذ بجائز علق

وأنها أشرف أنواع النعيم فى الجنة وأعلى درجات الدرجات فيها وأجلها قدراً وأعظمها شأناً بها تقر عيون الخالص من المؤمنين الموحدين ، وجديرة أن يتنافس فيها المتنافسون ، ويتسابق إليها المتسابقون ، ومن أجلها يجب أن يعمل العاملون حتى ينالوها من رب العالمين القائل فى كتابه الكريم : " لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ " (٢)

وإذا كان الناس فى دنيا الناس يسعدون برؤية من يرون ، ويشرفون بشرف من يلقون ، فإن رؤية الله والنظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة لها من الشرف والنتية ما يجعل صاحبه ينسى كل شئ ولو كان فى نعيم الجنة - يقول ابن القيم رحمه الله عن شرف الرؤية وعظمة مكانتها :

(١) تحفة المرید على جوهرة التوحيد ص ١٣٤ - ١٣٨

(٢) سورة بونس من الآية ٢٦

" إذا ناله أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم ، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم " (١)

وهذا الشرف يحظى به كل المؤمنين فقد روى أبو داود عن ابى رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه ؟ قال ابن معاذ :

" مُخْلِياً به يوم القيامة ؟ قال نعم ياأبا رزين . قالوما أية ذلك فى خلقه ؟

قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر . قال ابن معاذ : ليلة البدر مخليا به قلنا بلى . قال : فالله أعظم " قال ابن معاذ : فإنما هو خلق من خلق الله يعنى القمر فالله أجل وأعظم . (٢)

من هذا الحديث نستتبط أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة فى الجنة ، ومعلوم أن الجنة درجات فإن أكرم أهل الجنة الذين يحظون برؤية الله صباحاً ومساءً فقد روى الترمذى عن ابن عمر " رضى الله عنهما" قال : قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " " إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه (٣) " وازواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية " ثم قرأ رسول " صلى الله عليه وسلم " " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " (٤)

(١) حادى الأرواح ص ٢٢٨

(٢) سنن أبى داود ح ٣٣٤/٤ باب الرؤية حديث رقم ٤٧٣١ ط دار الفكر

(٣) جمع "جنة" أى بسائتيه انظر تحفة الأحوذى ح ٣٠٨/٧

(٤) رواه الترمذى ح ٣٠٨/٧-٣٠٩ ك صفة الجنة ب ما جاء فى رؤية الرب وقال ابو

عيسى : قد روى هذا الحديث من غير وجه عن اسرائيل ، عن ثوير عن ابن عمر مرفوعاً

هذا ، وقد ذكر العلماء أصناف الخلق فى رؤية الله سبحانه وتعالى ، فمنهم من يحظى بها كل يوم ، ومنهم من يحظى بها كل جمعة ، ومنهم من يحظى بها دون إنقطاع . يقول شيخ الإسلام إبراهيم البيجورى "رحمه الله" . ومحل الرؤية الجنة بلا خلاف فيراه أهلها فى مثل يوم الجمعة والعيد ، ويراه خواصهم كل يوم بكرة وعشية ، وبعضهم لا يزال مستمراً فى الشهود^(١) . ولكن البيجورى لم يأت بما يثبت ذلك لذا لا نستطيع الجزم بما قاله ، هذا بالنسبة لرؤية الله تعالى فى الآخرة .

أما فى الدنيا فلا خلاف على أنها لم تقع لأحد من الناس غير النبى "صلى الله عليه وسلم" إلا الأشعرى فإن له قولين فى وقوعها للأولياء أرجحهما المنع . (فالحق إنها لم تثبت فى الدنيا إلا للنبى "صلى الله عليه وسلم" ومن ادعاها غيره فى الدنيا يقظه فهو ضال بإطباق المشايخ حتى ذهب بعضهم إلى تكفيره فإن صح عن أحد من المعتبرين وقوع ذلك أمكن تأويله وذلك أن غليات الأحوال تجعل الغائب كالشاهد حتى إذا كثر اشتغال السر بشئ صار كأنه حاضر بين يديه كما هو معلوم بالوجدان لكل أحد)^(٢).

هذا ، والذى يجعلنا نعتقد مذهب اهل السنة والجماعة فى رؤية الله تعالى ونراه صواباً تطمئن إليه النفس ، ويستريح إليه القلب أن أدلتهم صحيحة منقولة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة وما أجمع عليه الصحابة " رضوان الله عليهم " - وأن ما أيده من أدلة عقلية لها وجاهتها ولا يمكن للعقلاء إنكارها .

(١) انظر تحفة المرید على جوهرة التوحيد للبيجورى ص ١٣٦

(٢) المرجع السابق ص ١٣٨

المبحث الثاني : الصفات ليست شيئاً غير الذات

الصفات ليست شيئاً غير الذات

يتعلق بالتوحيد لدى المعتزلة رأيهم في الصفات حيث كان لهم موقف يخالف ما عليه أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون أن الصفات ليست شيئاً زائداً عن الذات والذي دفعهم إلى هذا القول اعتقادهم بأن وجود صفات غير الذات يؤدي إلى التعدد في ذات الله ، ويعتقدون أن هذا من الشرك..

والبحث في هذه الأمور لم يكن محبذاً عند سلفنا الصالح - رضى الله عنهم - فقد كان اهتمامهم قائماً على الإيمان بأن الله موجود ، وأن له الأسماء الحسنی والصفات العليا ، والكمال المطلق ، دون ماخوض في هذه الصفات من حيث إنها عين الذات أو زائدة عن الذات.

يقول الشهرستاني :

إن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة ، والحياة والإرادة ، والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام ، والعزة والعظمة ، ولا يفرقون بين صفات الذات ، وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً ، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين، والوجه ، ولا يؤولون ذلك إلا أنهم يقولون :

هذه الصفات قد وردت في الشرع فنسميها صفات خبرية (١)

وكان القرآن الكريم الورد المورد عندهم يلجأ إليه وإلى السنة كل من يريد معرفة صفات الله تعالى ، وما يجب الإيمان به من عقائد ، لا يصدر عن غيره ، ولا يطمئنون لسواه ، كانوا يفهمون العقائد من آيات الكتاب ، وهي

(١) الملل والنحل للشهرستاني حـ ٩٢/١ ط الحلبي

بينات ، وما اشتبه عليهم حاولوا فهمه بأساليب اللغة وهم بها خبراء ، وإن تعذر عليهم توقفوا وفوضوا الأمور لله غير مبتغين فتنة ، ولا راغبين في زيغ^(١)

ويرى فصيلة الشيخ سيد سابق — رحمه الله — أن البحث في صفات الذات تكلف لا يعود على المسلمين بخير ، وأن من الخير الكف عنه .. فيقول : ونحن نرى مَنْ رأى من العلماء وأئمة الدين ، أن هذا من الدخيل على الإسلام ، ومن البدع الطارئة على العقيدة ومن المنكرات التي يجب على المسلمين أن يتنزهوا عنها ، فإن ذات الله أجل من أن تتناول على هذا النحو ، وهذا نوع من التفكير مما نهينا عنه ، ولم يكلفنا الله به ، لأنه خارج عن نطاق العقل المحدود — وذات الله فوق الإدراك . " لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " ^(٢)

إن كل ما كُلفنا به أن نعلم أن الله موجود ، وأن له الأسماء الحسنی والصفات العليا والكمال المطلق ، وما وراء ذلك يجب الإمساك عنه ، ولا يحل البحث فيه فالعلم به لا ينفع والجهل به لا يضر . ^(٣)

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصحابة الكرام — رضوان الله عليهم — لم يسألوا رسول الله "صلى الله عليه وسلم" — عن شيء بما وصف به الله نفسه ولكن كانوا يسألون عن الصلاة والزكاة والصيام والحج والمحيط ، .. . وغير ذلك مما لله فيه أمر ونهى ، وكانوا يسألوا عن أحوال يوم القيامة وما به

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢٦

(٢) سورة الأنعام آية ١٠٣

(٣) العقائد الإسلامية للشيخ السيد سابق ص ٧٢ ط الفتح للإعلام العربى .

من جنة ونار — أما عن الصفات الإلهية فلم يرد شئ عن ذلك فيما نعلم ولو سألوا لنقل عنهم ذلك كما نقلت الأحاديث الواردة عنه "صلى الله عليه وسلم" فيما يتعلق بأمور الدين التي كُفِّ بها كل المسلمين — يقول المقریزی - "رحمه الله" — ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ، ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم ، عن أحد من الصحابة — رضى الله عنهم — على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم — أنه سأل رسول الله "صلى الله عليه وسلم" عن معنى شئ مما وصف الرب — سبحانه نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد

"صلى الله عليه وسلم" بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذاتٍ أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة ، والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة ، وساقوا الكلام سوقاً واحداً وهكذا أثبتوا — رضى الله عنهم — ما أطلقه الله — سبحانه — على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك ، مع نفى مماثلة المخلوقين ، فأثبتوا — رضى الله عنهم — بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل لم يتعرض — مع ذلك — أحد منهم إلى تأويل شئ من هذا ، ورأوا بأجمعهم اجراء الصفات كما وردت ، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد "صلى الله عليه وسلم" سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ، ولا سائل الفلسفة .^(١)

(١) المواظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية لآبى العباس المقریزی حـ ٣٥٦/٢ ط المكتبة الثقافية الدينية الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧ م .

ومن المسلم به أن معرفة حقيقة الذات الإلهية أمراً ليس فى مقدور العقل الإنسانى أن يصل إليه - لأن لهذا العقل حداً ينتهى إليه كما أن للبصر حداً ينتهى إليه ، وليس ذلك عيباً فى العقل وتقصيراً منه وإنما هى طبيعته البشرية التى منحها الله له ، ومن ثمَّ نهانا رسول الله " صلى الله عليه وسلم " عن محاولة التفكير فى الذات الإلهية (١) لما يعرفه عن عبث تلك المحاولة ، وليس معنى ذلك أننا نجهل إلهاً أو أننا نعبد ما لا نعرفه فإن الله معروف عند عباده بصفاته وأفعاله وإن احتجب عنهم بذاته وحقيقته ، فهو فى احتجابه بارز كما أنه فى بروزه محتجب . (٢)

قال تعالى " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " (٣) فالله تعالى له صفات وصف نفسه بها ، وأسماء سُمى نفسه بها ، وأسلم السبل الإيمان بهذه الأسماء وتلك الصفات بدون تشبيهه ولا تمثيل ولا تعطيل .. وأحسن ما يقال فى ذلك ما قاله الإمام الشافعى " رحمه الله " : (أمنت بكلام الله على مراد الله وكلام رسول الله على مراد رسول الله) . (٤) وقال أبو حنيفة - رحمه الله - لا ينبغى لأحد أن ينطق فى ذات الله بشئ بل يصفه بما وصف به نفسه (٥)

(١) ثبت أن النبى " صلى الله عليه وسلم " قال : " يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته " صحيح مسلم ج ٢ / ١٥٤ ك الإيمان ب بيان الوسوسة فى الإيمان .

(٢) من قضايا علم الكلام د/ عبد الفتاح أحمد الفاوى ص ٨ ط مؤسسة الرسالة .

(٣) سورة الشورى من الآية ١١

(٤) العقائد الإسلامية فضيلة الشيخ / السيد سابق ص ٥٩

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩١

وهذا يدل على أن سلفنا الصالح - رضى الله عنهم - لم يكونوا كثيرى الإهتمام بكيفية الصفات والأسماء التى تتعلق بذات الله سبحانه وتعالى وإنما كانوا يؤمنون : " أن الله وصف نفسه بصفات ، وسمى نفسه بأسماء ، واخبر عن نفسه بأفعال ، وأخبر أنه يحب ويكره ويمقت ويرضى ويغضب ويسخط ، ويجئ ويأتى وينزل إلى سماء الدنيا وأنه استوى على عرشه ، وأن له علماً وحياة وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً ووجهاً ، وأن له يدين ، وأنه فوق عباده وأن الملائكة تعرج إليه وتنزل بالأمر من عنده ، وأنه قريب وانه مع المحسنين والصابرين والمتقين ، وان السموات مطويات بيمينه ووصفه رسوله - صلى الله وعليه وسلم - بأنه يفرح ويضحك ، وأن قلوب العباد بين أصابعه وغير ذلك .^(١) وكل ما ذكره ابن القيم - رحمه الله - من صفات فإنها جاءت فى القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة فقد جاء فى القرآن ما يثبت ان الله سبحانه وتعالى يحب ويكره ، ويرضى ويغضب .

قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ " .^(٢)

وقال سبحانه " كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ " .^(٣)

وقال جل جلاله : " رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَّوْا عَنْهُ " .^(٤)

(١) انظر مختصر الهواعق المرسله على الجهمية والمعطله لابن القيم تحقيق سيد

إبراهيم ص ٣٠ ط دار الحديث

(٢) سورة المائدة من الآية ٥٤

(٣) سورة التوبة من الآية ٤٦

(٤) سورة البينه من الآية ٨

وقال جل شأنه : " وَمَنْ يَفْتُلْ مُؤْمِنًا مَّتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ " (١) وغير ذلك من الآيات التي تثبت الصفات لله تعالى .. وكذلك جاءت الأحاديث عن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" تذكر صفات الله جل جلاله . فعن أبي هريرة "رضى الله عنه" - قال :

قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" " الله أشد فرحاً بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها " (٢)

وثبت عنه "صلى الله عليه وسلم" أنه أخبر أن الناس يأتون آدم يوم القيامة " فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا فيقول آدم ان ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله .. الحديث (٣)

وفى الصحيح " أكثر ما كان النبي "صلى الله عليه وسلم" يحلف لا ومقلب القلوب (٤) . وثبت عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يقول أن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء (٥) .

(١) سورة النساء من الآية ٩٣

(٢) رواه مسلم كتاب التوبة حـ ١٧ / ٦٠

(٣) رواه مسلم جـ ٣ / ٦٧ كتب الايمان باب الشفاعة

(٤) البخارى حـ ٣٨٨ / ١٣ كتاب التوحيد باب مقلب القلوب حديث رقم ٧٣٩١

(٥) مسلم حـ ١٦ / ٢٠٣ : ٢٠٤ كتاب القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء

ومن دعائه " صلى الله عليه وسلم " : اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك " (١).

فالأيات ، وكذلك الأحاديث واضحة ومبينة أن الله تعالى صفات ولكن المعتزلة خالفوا ذلك المنهج ، ولعل كثرة العلوم واتساع الفلسفة جعلهم يحكمون العقل فى كل شئ وجعلوه أساس بحثهم فنفوا بعض الصفات أو عطلوها ومن ثم لقبوا بالمعطلة .. يقول الدكتور - الذهبى رحمه الله

وأما تلقيبهم بالمعطلة فلأنهم يقولون بنفى صفات المعانى . فيقولون الله عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة ، لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الإلوهية . (٢)

والجدير بالذكر أن المعتزلة قالوا - مثل كل المسلمين - بإله واحد .

ولكنهم فلسفوا الوجدانية فقالوا : حقيقته أحدية فردية لا كثرة فيها بوجه من الوجه ، فليست له كثرة مقدارية كالتى للأجسام ولا كثرة معنوية كما لأشخاصنا المركبه من ما هية وتشخص إنما هو واحد تام الأحدية ، ليس ذا أجزاء مقدارية ، ولا أجزاء معنوية .

فلما فسروا التوحيد بهذا المعنى الدقيق ثارت أمامهم مشكلة أو آثارها هم ، وهى مسألة " صفات الله " هل هى عين ذاته ، أو غير ذاته ذلك لأن القرآن صرح بأوصاف الله فى مواضع متفرقة ، وهذه الأوصاف

(١) المرجع السابق

(٢) التفسير والمفسرون حـ ٣٤٩/١ وانظر الملل والنحل للشهر ستانى حـ ٤٤/١ - ٤٥

تتخصر فى سبع : العلم ، والحياة ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

فتساءل المعتزلة بعد تقريرهم التوحيد "على مذهبهم" هل هذه الصفات هى الذات نفسها أم هى زائدة عن الذات ؟ .. فهناك صفات سلبية لفظاً ومعنى لا تثبت شيئاً إيجابياً مثل " ليس كمثله شئ" ^(١) وهناك صفات إيجابية لفظاً سلبية معنى ، وهى كذلك لا تثبت شيئاً إيجابياً كالوحدانية والقدم ، فمعنى الوحدانية عدم الشرك ، ومعنى القدم إنعدام الأولية ، وليست هذه محل نظر المعتزلة ، وهناك صفات إيجابية كالإرادة والقدرة والعلم فهى تثبت شيئاً زائداً عن الذات ؟ وهل الله عالم بعلم زائد عن الذات ، وقادر بقدرة زائدة عن الذات ، وحي بحياة زائدة عن الذات ؟ فلما فسر المعتزلة التوحيد بما فسروه كانوا مضطرين أن يقولوا إن ذات الله وصفاته شئ واحد ، لأنه لو كان الله عالماً بعلم زائد على ذاته وحيّاً بحياة زائدة على ذاته — كما هو الحال فى الإنسان لَزم أن يكون هناك صفة وموصوف ، وحامل ومحمول ، وهذه هى حالة الأجسام والله منزّه على الجسمية ، ولو قلنا إن كل صفة قائمة بنفسها لتعددت القدماء ، وبعبارة أخرى لتعددت الإلهة. ^(٢)

والذى حمل المعتزلة على القول بذلك أن النصارى واجهوهم بالأقانيم الثلاثة التى يفتتحون بها قائلين : " باسم الأب ، والإبن ، والروح القدس إله واحد أمين " . وأنتم أيها المسلمون تقولون بسبعة ألهة ، إذ تقولون بقدم الذات

(١) سورة الشورى من الآية ١١

(٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين حـ ٣ / ٢٨ — ٢٩ ط مكتبة النهضة المصرية الطبعة

ومعها سبع صفات قديمة ، ففكر المعتزلة لمواجهة النصارى وإبطال حجتهم بالعقل فى حجة يردون بها عليهم ، فأنكروا وجود صفات خارجة (زائدة) عن الذات فقالوا : الله جل جلاله عالم بذاته ، بصير بذاته .. الخ .

لا بصفة تسمى صفة العلم ، أو البصر .. الخ . — فكأنهم — لذلك اضطروا إلى القول بما قالوا عقلاً . حرصاً على إبطال حجج النصارى والرد عليهم ، نصراً للإسلام وعدم إظهاره بالضعف فى حججه ومسلماته ، ومقرراته ، واسسه أمام أعدائه .. (١)

ولكن ابن القيم — رحمه الله — يرى أن الضلال هو الذى قادهم إلى التعطيل فيقول :

إن الأصل الذى قادهم إلى التعطيل ، أصل واحد وهو منشأ ضلال بنى آدم ، وهو الفرار من تعدد صفات الواحد وتكثر أسمائه الدالة على صفاته وقيام الأمور المتجددة به ، وهذا لا محذور فيه ، بل هو الحق لا يثبت كونه سبحانه رباً وإلهاً وخالقاً إلا به ، ونفيه جحد للصانع بالكلية ، وهذا القدر اللازم لجميع طوائف أهل الأرض على اختلاف مللهم وعلومهم ، حتى لمن أنكر الصانع بالكلية ، فإنه مضطر إلى الإقرار بذلك وإن قام عنده ألف شبهة أو أكثر على خلافه ، وأما من أقر بالصانع فهو مضطر إلى أن يقر بكونه حياً عالماً قادراً مريداً حكيماً فعالاً ، ومع إقراره بذلك فقد اضطر إلى القول بتعدد صفات الواحد ، وتكثر أسمائه وأفعاله ، فلو تكثر لم يلزم من تكثرها وتعددتها محذور بوجه من الوجوه . (٢)

(١) المعتزلة لإستاذنا الدكتور وردانى عبد الراضى عبد الله ص ١٥٧ ط الأمانة

(٢) الصواعق المرسله ح ١/١٩١ ط دار الحديث

وليس هناك من شك أن المعتزلة — وإن كانوا قد هربوا من القول بتعدد القدماء إلى القول بتعطيل الصفات ، أو تأويلها إلى ما أولوها به ، إلا أنهم وقعوا في خطأ جسيم ، وهو تعريض الذات إلى القول بعدم وجودها وإنكارها بالكلية .. وقد قرر هذا المعنى العلامة ابن القيم — رحمه الله — في رده على المعتزلة المعطلة معنونا كلامه بقوله " اصول المعارضين بالشرع والعقل تنفى وجود الصانع لا صفاته فحسب ، فقال :

إن اصولهم التي عارضوا بها الوحي تنفى وجود الصانع فضلاً عن كونه واجب الوجود ، لأن الصفات التي وصفوه بها صفات معدوم ممتعة في العقل والخارج ، فالعقل لا يتصوره إلا على سبيل الفرض الممتنع كما تفرض المستحيلات ولا يمكن في الخارج وجوده فإن ذاتاً هي وجود مطلق لا ماهية لها سوى الوجود المطلق المجرد عن كل ما هية ولا صفة لها البتة ، ولا فيها معنيين متغايران في المفهوم ولا هي هذا العالم ، ولا صفة من صفاته ولا داخله فيه ولا خارجه عنه ، ولا متصلة به ، ولا منفصلة عنه ، ولا محاذية له ، ولا فوقه ولا تحته ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ، ولا ترى ولا يمكن ان ترى ولا تدرك شيئاً ، ولا تدرك هي بشى من الحواس ولا متحركة ، ولا ساكنة ولا توصف بغير السلوب والإضافات العدمية ، ولا تتعت بشى من الأمور الثبوتية ، هي بامتناع الوجود أحق منها بإمكان الوجود فضلاً عن وجوبه ، وتكليف العقل الإعراف بوجود هذه الذات ووجوبها كتكليفه الجمع بين النقيضين ومعلوم أن مثل هذه الذات لا تصلح لفعل ، ولا ربوبية ولا إلهية ، فإن ذات فرضت في الوجود فهي أكمل منها فالذى جعلوه واجب الوجود هو أعظم إستحالة من كل ما يقدر مستحيلاً ، فلا يكثر بعد هذا عليهم إنكارهم لصفاته : كعلمه وقدرته ، وحياته ، وسمعه ، وبصره ولا إنكارهم لكلامه وتكليمه ، فضلاً عن استوائه على عرشه ونزوله إلى سماء

الدنيا ، ومجيئه ، وإتيانه ، وفرحه ، وحبه ، وغضبه ، ورضاه .. فمن هدم قواعد البيت من أصلها ، كان عليه هدم السقف والجدران أهون .^(١) وكان الأولى بالمعتزلة ان يردوا على أبا طيل ومزاعم النصارى بما هو حق وصواب حتى يحقوا باطلهم قال تعالى :

" بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ " ^(٢)

وقال سبحانه : " وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا " ^(٣) هذا وإن كان ما ذهب إليه النصارى من أقانيم وتثليث باطلاً فإن إنكار صفات المعانى عند المعتزلة أو تعطيلها فاسد مردود . وقد قام علماء أهل السنة والجماعة ببيان فساد الرأى الاعتزالي فيقول شيخ الإسلام إبراهيم البيجورى فى شرحه لقول إبراهيم اللقانى " صاحب الجوهرة :

" وعلمه ولا يقال مكتسب فاتبع سبيل الحق واطرح الريب .

يقول البيجورى — رحمه الله — :

لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يطلق على علمه أنه مكتسب لأنه يلزم منه قيام الحوادث بذاته تعالى ، ويلزم منه أيضاً سبق الجهل فى حقه تعالى وهو محال ، ومما ورد مما يوهم اكتساب علمه تعالى كقوله جل من قائل " ثُمَّ بَعَثْنَاَهُمْ لِنَلْعَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى ^(٤) مؤول على أن المراد — والله أعلم — ليظهر لهم

(١) الصواعق المرسله ص ١٤٧ تحقيق سيد إبراهيم ط دار الحديث

(٢) سورة الأنبياء ١٨

(٣) سورة الإسراء ٨١

(٤) سورة الكهف من الآية ١٢

متعلق علماً ، ولا يقال إنه من باب تنزيل المتكلم منزلة من لم يعلم .. فإن قيل ظاهر الآية التعليل مع أن أفعال الله لا تعطل . أجيب بجعل لأمه للعاقبة والفائدة .

وكما لا يقال علمه مكتسب لا يقال علمه ضروري ولا نظري ولا بديهي أما الضروري فهو وإن كان يطلق على ما لا يتوقف على نظر واستدلال وهو صحيح في حقه تعالى لكن يطلق أيضاً على ما قرنته الضرورة فيمتنع أن يقال : علمه ضروري خوفاً من توهم هذا المعنى ، وأما النظري فهو ما توقف على النظر والاستدلال فهو مرادف للكسبي فيمتنع أن يقال علمه نظري لاستلزامه الحدوث ، وأما البديهي فهو وإن كان يطلق على ما لا يتوقف على نظر واستدلال فيكون مرادفاً للضروري ولكن يطلق أيضاً على العلم الحاصل للنفس بغته يقال : بدء النفس الأمر إذا أتاها بغته فيمتنع أن يقال علمه بديهي لإيهامه هذا المعنى .

وقوله : " فاتبع سبيل الحق " أي إذا علمت وجوب القدرة والإرادة والعلم له تعالى فاتبع طريقاً هو الحق ، ويصح أن يقال فاتبع سبيل أهل الحق أي طريقهم والمراد به معتقد أهل السنة من وجوب صفات المعاني له تعالى . والقصد هنا الرد على المعتزلة النافين لصفات المعاني . لئلا يلزم تعدد القدماء في نظرهم وهذه شبهة فاسدة لأنه لا يضر إلا ذوات القدماء ولا تعدد الصفات مع اتخاذ الذات ، وقولهم قادر بذاته مرید بذاته وهو هذيان إذ لا يعقل قادر بلا قدرة ومرید بلا إرادة .. وهكذا .^(١)

(١) شرح البيجوري على الجوهرية ص ٨٢ — ٨٤ بتصرف ط المطبعة العربية الحديثة

والذى أدى بالمعتزلة إلى هذا الهديان ، وذلك الشطط تلك الطريقة التى اتخذوها فى معرفة العقائد وهى طريقة عقلية خالصة ، وإن كانوا يحاولون إلا يخالفوا نصاً قرآنياً ، وإن بدا خلاف فى ظاهر النصوص بين رأى يقرونه ونص يقرونه ، أولوا النص بما لا يخرج عن معناه ولا يخالف رأيهم . وهذه الطريقة أساسها الثقة بالعقل ، وللعقل نزوات وعرة ومن ثم لم يكن غريباً أن يقعوا فى كثير من الهنات دفعتهم إليها نزعتهم العقلية الخالصة .. وكان من الطبيعى أن يندد كثير من علماء أهل السنة والجماعة بمذهبهم هذا فهذا ابن القيم يخاطبهم قائلاً :

فهذه ثمرة عقولكم ، وحاصل معقولكم ثم أنشد — رحمه الله — قائلاً :

" فعلى عقولكم العفاء فإنكم
 وطلبتم أمراً محالاً وهو إد
 وزعمتم أن العقول كفيلة
 وهو الذى يقضى فينقض حكمه
 وتراه يحزم بالقضاء وبعد ذا
 لا يستقل العقل دون هداية
 كالطرف دون النور ليس بمدرک
 فإذا الظلام تلاطمت أمواجه
 وإذا النبوة لم ينالك ضيؤها
 نور النبوة مثل نور الشمس للـ
 طرق الهدى مسدودة إلا على
 فإذا عادت عن الطريق تعمداً
 ياطالباً درك الهدى بالعقل دو
 كم رام قبلك ذاك من متلدد

عاديتم المعقول والمنقولاً
 راک الهدى لا تتبعون رسولاً
 بالحق أين العقل كان كفيلاً
 عقل ، ترون كليهما معلولاً
 يلقي لديه باطلاً معقولاً
 بالوحى تأصيلاً ولا تفصيلاً
 حتى تراه بكرة وأصيلاً
 وطمعت بالأبصار كنت محيلاً
 فالعقل لا يهديك قط سبيلاً
 عين البصيرة فاتخذة دليلاً
 من أم هذا الوحى والتنزيلاً
 فاعلم بأنك ما اردت وصولاً
 ن النقل ، لن تلقى لذاك دليلاً
 حيران عاش مدى الزمان جهولاً

ما زالت الشبهات تغزو قلبه
فتراه بالكلية والجزئى والـ
فاذا أتاه الوحي لن يأبه له
ويقول تلك أدلة لفظية
وإذا تمر عليه قال لها أذهبي
وإذا أبت إلا النزول عليه كما
فيحل بالإعداء ماتلقاه من
واضرب لهم مثلاً بعميان خلوا
فتصادموا بأكفهم وعصيتهم
حتى إذا ملوا القتال رأيتهم
وتسامح العميان حتى اقبلوا

حتى تشحط بينهن قتيلاً
ذاتى طول زمانه مشغولاً
ويقوم بين يدي عداه مثيلاً
معزولة عن أن تكون دليلاً
نحو المجسم أو خذى التأويلاً
ن لها القرى التحريف والتبديلاً
كيد يكون لحقها تعطيلاً
فى ظلمة لا يهتدون سبيلاً
ضرباً يدير رحي القتال طويلاً
مشجوج أو مبعوج أو مقتولاً
للصلح فازداد الصباح عويلاً^(١)

ثم يواصل ابن القيم — رحمه الله — حديثه فى وصفهم بالمعطلة وما أدى إليه
اعتقادهم الخاطئ الفاسد المخالف للكتاب والسنة فيقول :

" فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التى مضمونها نبذ الكتاب والسنة ،
وأقوال الصحابة والتابعين وراء ظهورهم ، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف
والكذب عليهم ، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف . وسبب ذلك
اعتقادهم أنه ليس فى نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص . فلما
اعتقدوا التعطيل ، وانتفاء الصفات فى نفس الأمر ، ورأوا أنه لا بد للنصوص
من معنى ، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى — وهذا الذى
هو طريق السلف عندهم ، وبين صرف اللفظ عن حقيقته وما وضع له ،

(١) الصواعق المرسله حـ ١/١٤٤ - ١٤٥ ط دار الكتب العربية .

إلى ما لم يوضع له ولا دل عليه ، بأنواع من المجازات وبالتكلفات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان والهدى ، فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والجهل بالسمع ، فلا عقل ولا سمع ، فإن النفي والتعطيل إنما اعتمدا فيهما على شبهات فاسدة ظنوها معقولات ، وحرّفوا لهما النصوص السمعية عن مواضعها .

فلما ابتنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين الذين هم أعلم الأمة بالله وصفاته . (١)

ومما يبطل قول المعتزلة " أن الله قادر بذاته ، عالم بذاته " حتى بذاته لا يعلم ، ولا قدرة ولا حياة ، أن في إثبات أسماء الله تعالى إثبات صفاته لأنه كما يقول - البيهقي إذا ثبت كونه موجوداً ، فوصف بأنه حتى ، فقد وصف بزيادة صفة على الذات هي الحياة .

وإذا وصف بأنه قادر فقد وصف بزيادة صفة هي القدرة .

وإذا وصف بانه عالم فقد وصف بزيادة صفة هي العلم ، كما إذا وصف بأنه خالق فقد وصف بزيادة صفة هي الخلق .. إذ لولا هذه المعاني لاقتصر في أسمائه على ما ينبئ عن وجود الذات فقط .. (٢)

وقد أفرد علماء أهل السنة والجماعة أبواباً لإثبات صفات الله ، التي نفاها أهل الاعتزال أو عطلوها فهذا البيهقي يعنون في كتابه الأسماء و الصفات : " باب ما جاء في إثبات الحياة " وعنواناً آخر :

(١) الصواعق المرسله لابن القيم ج ١/ ١٨ : ١٩ ط دار احياء الكتب العربية

(٢) الاسماء والصفات للبيهقي ص ١٣٧ ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان -

" باب ما جاء فى إثبات صفة العلم " وهكذا بقية الصفات ثم يذكر الآيات والأحاديث التى تثبت ذلك .

فما يثبت صفة الحياة لله قوله تعالى " اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ " (١) وقوله سبحانه : " الْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ " (٢) وقوله جل جلاله : " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ " (٣)

وعن ابن عباس "رضى الله عنهما" قال إن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" كان يقول اللهم لك أسمت وبك امنت و عليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت . اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون " (٤)

وفى حادثة الإفك فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سلول فقال : من يعذرني . (٥) من رجل بلغنى أذاه فى أهل بيتى فالله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً (٦) ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال أنا اعذرک منه يا

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٥٥ .

(٢) سورة آل عمران ١ : ٢

(٣) سورة الفرقان من الآية ٥٨

(٤) انظر الاسماء والصفات للبيهقى ص ١٣٩ والحديث فى الصحيحين وهذه الرواية

لمسلم حـ ١٧ / ٣٨ : ٣٩ كتاب الذكر والدعاء باب الأدعية .

(٥) من يقوم بعذرى إن كافاتته على قبيح فعاله ولا يلومنى ... وقيل معناه من ينصرنى

والعذير الناصر انظر شرح النووى حـ ١٧ / ١٠٩

(٦) هو صفوان بن المعطل - رضى الله عنه -

رسول الله - إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان رجلاً صالحاً ولكن اجتهلته ^(١) الحمية ^(٢) فقال لسعد بن معاذ كذبت - لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن الحضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت - لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل مع المنافقين ^(٣).

وفيه أن سعد بن عبادة وأسيد بن الحضير "رضى الله عنهما" أقسما بحياة الله تعالى وبقائه حيث قالوا لعمر الله بين يدي النبي "صلى الله عليه وسلم" ^(٤) والذي نراه ان تعدد الصفات لا يلتزم منه تعدد الذات فالنفس مثلاً نفس أمارة بالسوء ونفس لوامة ونفس مطمئنة لا يستدعى ذلك أن يكون للإنسان أكثر من نفس ، بل إن النفس الأمارة بالسوء قد تتذهب فتلوم صاحبها على ذنب اقترفه

(١) أى جعلته جاهلاً قال صاحب مختار الصحاح استجهله عده جاهلاً واستخفه ايضاً

المختار الصحاح ص ١١٥ باب " كلمة جواء " والمعنى كما قال النووى استخفته

واغضيته وحملته على الجهل شرح النووى ح ١١٠/١٧

(٢) الحمية : الأنفة والعار المختار الصحاح ص ١٥٨ باب الحاء كلمة " حى "

(٣) الحديث فى الصحيحين وهذه رواية مسلم ح ١٠٩/١٧ - ١١٠ كتاب التوبة باب

حديث الإفك وقبول توبة القاذف . وانظر البخارى ح ٣٤٥/٨ كتاب التفسير باب " إن

الذين يحبون أن تشبع الفاحشة فى الذين امنوا " حديث رقم ٤٧٥٧

(٤) الأسماء والصفات ص ١٤١ - ١٤٢

فتصبح نفساً لوامةً وقد تزداد تهذيباً حتى تصبح نفساً مطمئنة تستحق نداء الله لها يوم القيامة "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً" (١) هذا ، وقد وقعت مناظرات بين المعتزلة و علماء أهل السنة اعتمد فيها المعتزلة على العقل فلم يهتدوا وكانت نهايتهم السكوت أو وصف الله بما لا يليق في حين أن علماء أهل السنة اعتمدوا على النقل فلهتدوا إلى أقوم السبيل من هذه المناظرات :

أن رجلاً وهو أبو الحسن الأشعري سأل الجبائي المعتزالي - هل يجوز أن يسمى الله عاقلاً ؟ فقال الجبائي لا لأن العقل مشتق من العقال ، والعقال بمعنى المانع ، والمانع في حق الله محال . فقال الأشعري للجبائي فعلى قياسك لا يسمى الله تعالى حكيماً ، لأن هذا الإسم مشتق من حكمة اللجام ، وهي الحديد المانعة للدابة عن الخروج ، ويشهد لهذا قول حسان :

فحكمت بالقوا في من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء
بمعنى نمنع بالقوافي من هجانا .

وقال آخر :

أبني حنيفة حكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضباً
أى امنعوا سفهاءكم ، فإذا كان اللفظ مشتقاً من المنع ، والمنع على الله محال ، لزمك أن تمنع إطلاق " حكيماً " عليه تعالى فلم يجد الجبائي جواباً . وسأل الأشعري : ما تقول أنت ؟

قال أجزى حكيماً ، ولا أجزى عاقلاً .. لأن طريقي في مأخذ أسماء الله السماع الشرعي ، لا القياس اللغوي ، فأطلقت حكيماً لأن الشرع أطلقه ، ومنعت

عاقلاً لأن الشرع منعه ولو أطلقه الشرع لأطلقته. ^(١) ومشيئاً وراء النزعات العقلية الخالصة لزم الجبائى القول بان الله تعالى مطيع للعبد إذا أجاب دعاءه ، وكان سبب هذا اللزوم أن ابا الحسن الأشعري سأله قائلاً :

" ما معنى الطاعة عندك ؟ " فقال موافقة الإرادة . وكل من فعل مراد غيره فقد أطاعه . فقال أبو الحسن : يلزمك على هذا الأصل أن يكون الله تعالى مطيعاً لعبده إذا فعل مراده ، ولو جاز على الله أن يكون مطيعاً لعبده لجاز أن يكون خاضعاً له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ^(٢) ..

ونظراً لاعتماد المعتزلة على العقل وتقديسه وتقديمه على الوحي وجد كثيرون من نوى الإلحاد فى المعتزلة عشاً يفرخون فيه بمقاصدهم وأرائهم ، ويلقون فيها دسهم على الإسلام والمسلمين ، حتى إذا ظهرت أغراضهم أقصاهم المعتزلة عنهم ، فابن الراوندى كان يعد منهم وأبو عيسى الوراق واحمد بن حائط وفضل الحدثى كانوا ينتمون إليهم ، وهؤلاء أظهروا آراء هادمة لبعض المقررات الإسلامية ، وكان منهم من اتهم بأنه استوَجِر ليهود لإفساد عقيدة المسلمين . فكان إنتماء هؤلاء فى أول أمرهم — وان فصلوا عنهم عند ظهور شنائعهم — سبباً فى أن ينالهم رشاش مما لطحوا به ، وإن أقسم شيوخ المعتزلة أنهم منهم براء فالأتهام مازال عالقاً ، لأنه أسبق إلى الأذهان من البراءة. ^(٣)

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين حـ ٦٨/٤ — ٦٩ مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة

(٢) الفرق بين الفرق صـ ١٩٤ : ١٩٥ بتصرف ط مكتبة دار التراث

(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد ابو زهرة صـ ١٢٨ — ١٢٩

(٢٠٣)

وأرى أن مذهب المعتزلة أصابه شذوذ في الفكر العقدي ، واخلل في الإتجاه
الفكري ، وجروا على المسلمين متاعب وإن لم يقصدوا ذلك ولكن تلك عاقبة
من يطلق لنفسه العنان ولو في ظلال النصوص ..

المبحث الثالث : خلق القرآن

بداية القول يخلق القرآن

الجانب السياسى : هذه المسألة أخذت الحظ الأوفر من الإهتمام فى العصر العباسى وبالتحديد فى عصر ثلاثة من خلفاء بنى عباس هم : المأمون والمعتمد والواثق — تلك الفترة التى اضطربت فيها النفوس والعقول وأذهقت فيها حرية العقيدة ، وأوذى المتورعون فى ألفاظهم والمتوقفون فى علمهم عند حدود النص إيذاءً شديداً دون ذنب إرتكبوه ، أو جريرة اقترفوها إلا العكوف على كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله " صلى الله عليه وسلم " والسكوت عما سكت عنه السلف خشية أن يضلوا فى نزعات الفكر وزيف العقول^(١)

والجدير بالذكر ان هذه المسألة أسبق فى الوجود من عصر الخلفاء الثلاثة المذكورين انفاً — فقد بذر بذرتها الجعد بن درهم — معلم مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية . يقول ابن كثير — رحمه الله — فى كتابه البداية والنهاية :
 " وهو — أى الجعد بن درهم " أول من قال بخلق القرآن فى أمة محمد " صلى الله عليه وسلم " وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان وأخذ بيان عن طالوت ابن اخت ليبيد بن أعصم " زوج ابنته " وأخذها ليبيد بن أعصم الساحر الذى سحر رسول الله " صلى الله عليه وسلم " عن يهودى باليمن ، وأخذ عن الجعد الجهم ابن صفوان ، وأخذ بشر المريسي عن الجهم ، وأخذ أحمد بن أبى دؤاد عن بشر .^(٢)

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية محمد أبو زهرة ص ١٤١

(٢) البداية والنهاية ٤٠٤/٩ ط دار المعرفة بيروت — لبنان الطبعة الثانية سنة

بداية القول يخلق القرآن

هذه المسألة أخذت الحظ الأوفر من الإهتمام فى العصر العباسى وبالتحديد فى عصر ثلاثة من خلفاء بنى عباس هم : المأمون والمعتصم والواثق — تلك الفترة التى اضطربت فيها النفوس والعقول وأذهقت فيها حرية العقيدة ، وأوذى المتورعون فى ألفاظهم والمتوقفون فى علمهم عند حدود النص إيذاءً شديداً دون ذنب ارتكبه ، أو جريرة اقترفوها إلا العكوف على كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله " صلى الله عليه وسلم " والسكوت عما سكت عنه السلف خشية أن يضلوا فى نزعات الفكر وزيف العقول^(١)

والجدير بالذكر ان هذه المسألة أسبق فى الوجود من عصر الخلفاء الثلاثة المذكورين انفاً — فقد بذر بذرتها الجعد بن درهم — معلم مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية . يقول ابن كثير — رحمه الله — فى كتابه البداية والنهاية : " وهو — أى الجعد بن درهم " أول من قال بخلق القرآن فى أمة محمد " صلى الله عليه وسلم " وقد أخذ الجعد يدعفه عن بيان بن سمعان وأخذ بيان عن طالوت ابن اخت ليبيد بن أعصم " زوج ابنته " وأخذها ليبيد بن أعصم الساحر الذى سحر رسول الله " صلى الله عليه وسلم " عن يهودى باليمن ، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان ، وأخذ بشر المريسي عن الجهم ، وأخذ أحمد بن أبى دؤاد عن بشر .^(٢)

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية محمد أبو زهرة ص ١٤١

(٢) البداية والنهاية ٤٠٤/٩ ط دار المعرفة بيروت — لبنان الطبعة الثانية سنة

١٤١٧هـ — ١٩٩٧م .

وكان وراء كل مصيبة وفتنة تظهر في المجتمع المسلم يهودياً .
وقتل الجعد بن درهم في الكوفة قتلة شنيعة مشينة . وكان ذلك يوم "عيد
الأضحى" حيث خطب في الناس خالد بن عبد الله القسري والى الكوفة ، فقال
في خطبته تلك : أيها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم فإنى مضح بالجعد ابن
درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ،
تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر . (١)
ولعل والى الكوفة خالد القسري استنتج هذا الإستنتاج من قول الجعد: إن
القرآن مخلوق .

ثم جاء الجهم بن صفوان بعد مقتل الجعد بن درهم ليقول المقولة نفسها "
" إن القرآن مخلوق " وجهم هذا من أهل خراسان من الموالى وأقام بالكوفة ،
وكان فصيحاً خطيباً يدعو الناس فيجذبهم إلى قوله وكان كاتباً للحارث ابن
شريح وقد خرج الحارث على بنى أمية في خراسان واتبعه كثير من أهلها
وكان يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله واستعمال أهل الخير والفضل
وقد هزم الحارث وأسر جهم بن صفوان فقتل . (٢)

ولكن بعد قتل كل من الجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان لم يمت المذهب ،
ولم تمح الفكرة من الأذهان ، وإنما بدأ الخوض فيها من جديد في عهد
هارون الرشيد إلا أنها لم تجد قبولاً أو اهتماماً من الناس ، ولم تجد مناخاً تنمو

(١) البداية والنهاية ٤٠٥/٩ ط دار المعرفة بيروت لبنان الطبعة الثانية سنة ١٤١٧

هـ ١٩٩٧م

(٢) فجر الإسلام لأحمد امين حـ ٢٨٦/١ - ٢٨٧ ط مكتبة النهضة المصرية الطبعة

التاسعة سنة ١٩٧٨م .

فيه وتنتشر وذلك لأن هارون الرشيد كان لا يشجع الخوض فى العقائد والجدل ، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين فى العقائد ومنهم المعتزلة ، لذا لم يشجع الكلام فى شان القرآن أهو مخلوق أو غير مخلوق ولما بلغته مقالة بشر (١) المريسي فى القرآن قال لئن أظفرتى الله به لأقتلنه ،

فظل بشر متخفياً طوال خلافة هارون الرشيد حتى مات فى ذى الحجة سنة ثمان عشرة ومائتين — ويقال سنة تسع عشرة ومائتين (٢). ذلك لأن الرشيد كان يرى أن الذى يزعم أن القرآن مخلوق فهو حلال الدم ، بل إن قتله يكون قرابة إلى الله .

يقول ابن كثير . رحمه الله : وقال بعضهم دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسيّاف يمسح سيفه فى قفا الرجل المقتول . فقال الرشيد : قتلته لأنه قال القرآن مخلوق ، فقتله على ذلك قرابة إلى الله عز وجل (٣) بعد هذا السرد نستطيع أن نقول :

إن مسألة خلق القرآن أسبق فى الوجود من عصر الخلفاء الثلاثة من بنى عباس ، حيث ظهرت فى آخر الدولة الأموية فقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان الذى أخذها عن طالوت اليهودى الذى أخذها عن يهودى باليمن وقد أخذ عن الجعد الجهم بن صفوان " كما سبق ذكر ذلك .

(١) هو بشر بن غياث بن أبى كريمة المريسي — يقال ان أباه كان يهودياً صبغاً بالكوفة — انظر البداية والنهاية حـ ٢٨١/١٠ ط السعادة .

(٢) انظر تاريخ الخطيب البغدادي حـ ٦٧/٧ ط دار الكتاب العربى وانظر تاريخ

المذاهب الإسلامية للإمام محمد ابو زهرة صـ ١٤٢

(٣) البداية والنهاية حـ ٢١٥/١٠ .

ورغم ان كلا من الجعد بن درهم والجهم بن صفوان ، قد قتلا لكن الفكرة لم تقتل بل ظلت تنمو ويدور حولها الجدل ، وتتسع فيها المناظرة ، وتؤلف فيها الكتب ولكن أحداً لم يفكر فى أن تأخذ هذه المسألة الصبغة الرسمية وتكون عقيدة دينية يكره الناس على اعتناقها حتى جاء المأمون وفعل ذلك بعد أن اتخذ خطوات مرتبه

المأمون ومسألة خلق القرآن

كان المأمون متقفاً ثقافة واسعة، وشغف من أجل ذلك بالبحث العلمي والأدبي ، فقد قيل عنه :

(لم يل الخلافة من بنى العباس أعلم منه، إذ كان يعد من كبار العلماء حيث سمع الحديث من أبيه ، ومن هشيم ، وعباد بن العوام وغيرهم وبرع في علم الفقه والعربية ولما كبر عني بالفلسفة ومهر فيها فجر ذلك إلى القول بخلق القرآن - ^(١) حيث كان عقله فلسفياً حراً في تفكيره مع التقيد بأصول الدين ^(٢) ولأن المأمون كان يصبو إلى حرية التفكير ، والإعتماد على العقل أصبح مذهب الاعتزال أقرب المذاهب إلى نفسه فقرب المعتزلة منه ، وجعل جل حاشيته منهم وأكرمهم أبلغ الإكرام ، حتى يروى أنه كان إذا دخل عليه أبو هشام الفوطي من المعتزلة تحرك له حتى يكاد يقوم ، ولم يكن يفعل ذلك مع أحد من الناس . ^(٣)

وبذلك أصبحوا ذوى نفوذ في القصر ، وكان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس وأحمد بن أبي داود ^(٤).

وأجس المعتزلة بمنزلتهم في نفسه ، لاسيما عندما اختار خاصته منهم واختص أحمد بن أبي داود ، فزينوا له القول بخلق القرآن حيث كانت

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٠٦ : ٣٠٧ ط السعادة .

(٢) ضحى السلام لأحمد أمين ح ١٦٣/٣ .

(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد ابو زهرة ص ١٤٢

(٤) ضحى الإسلام أحمد أمين ح ١٦٣/٣

الفرصة سانحة لهم أن يقترحوا على المأمون ما يريدون ، وهم واثقون بأنها لا ترد بل ستكون محل نظر واعتبار إن لم تتل القبول والإعجاب لدى المأمون ، يقول ابن خلكان :

ولا نعلم أحداً غلب على سلطانه في زمانه إلا يحيى بن أكتثم ، وأحمد بن أبي داود^(١) . ولكن مع ميل المأمون إلى مذهب الاعتزال كان بجانب ذلك يفكر في مسألة أخرى وهي :

هل يظل الاعتزال مذهباً كغيره من المذاهب ويترك كل إنسان حراً إن يعتنق منها ما يراه صواباً ، ولا دخل للدولة في ذلك لأن المسألة ليست مسألة كفر وإيمان ، إنما هي آراء داخل حدود الإسلام ، فلا سبيل إلى الإقناع فيها إلا الحجة والبرهان ، أو أن الدولة تتخذ شعارها الاعتزال وتحمل الناس عليه ، ويكون المذهب مذهبها الرسمي ، كما أن الإسلام دينها الرسمي ؟^(٢)

وانقسم الناس فريقين في هذا الشأن .

الفريق الأول : يرى أن الدولة لا شأن لها بذلك ، والناس أحرار في اعتقاد ما يرون ، والخليفة لا ينبغي أن يدخل في نصرة مذهب على مذهب .

والفريق الثاني : كان يرى حمل الناس على ما تثبت عندهم صحته ، ويحسن للخليفة حمل الناس على ذلك ، وكان من أظهر هؤلاء ثمامة وابن أبي داود .

أما الفريق الأول فكان على رأسهم يحيى بن أكتثم قاضي المأمون ،

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان حـ ١٤٧/٦ - ١٤٨ ط دار صادر

(٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين حـ ١٦٤/٣ .

ويزيد بن هارون الواسطي ، فيحيى بن أكتثم قال للمأمون عندما هم بلعن معاوية : " والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح في السياسة ، وأحرى في التدبير .
 أما يزيد بن هارون فقد كانت له مكانة عند المأمون لذا كان المامون يحذر مخالفته حتى لا يختلف معه الناس ويضطرب الوضع فمما روى عن المأمون أنه قال :

" لولا مكانة يزيد بن هارون لأظهرت القول بخلق القرآن " فقال له بعض جلسائه . ومن يزيد بن هارون حتى يتقيه أمير المؤمنين؟! فقال إنى أخاف إن أظهرته يرد على فيختلف الناس وتكون فتنة ، وأنا أكره الفتنة .^(١)
 وشاء القدر ان يضعف الحزب الأول فقد مات يزيد بن هارون سنة ست ومائتين من الهجرة ، وعزل يحيى بن أكتثم عن منصب قاضي القضاة سنة سبع عشرة ومائتين وتولى مكانه ابن أبي دؤاد فكان ذلك سبباً في أن تتجح كفة المؤيدين فأعلن المامون أن المذهب الحق هو ان القرآن الكريم مخلوق وأخذ يدعو لذلك في مجلس مناظراته ، وأدلى في ذلك بما يراه حججاً قاطعة في هذا الموضوع . وقد ترك المناقشة حرة ، والناس أحرار فيما يقولون .. ولكن في سنة ثمان عشرة ومائتين بدا له أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى إعتناق هذه الفكرة ..^(٢) ولكنه اتخذ خطوات نحو ذلك أرى من الخير ذكرها .

(١) ضحى الإسلام حـ ١٦٤/٣ بتصرف .

(٢) انظر تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد أبو زهرة صـ ٤٦٢ وانظر ضحى

الإسلام لأحمد أمين حـ ١٦٤/٣ .

سياسة المأمون في حملته الناس على القول بخلق القرآن

اتخذ المأمون خطوات نحو ذلك بدأها بالإنذار لمن لم يقل إن القرآن مخلوق بأن يحرم من مناصب الدولة .. ثم بالوعيد الشديد الذى وصل إلى التعذيب بل إلى ضرب العنق وهو يزعم أنه يبتغى حفظ الدين وإقامته والعمل بالحق فى الرعية لذلك أرسل إلى واليه ببغداد كتاباً بدأه بمقدمة طويلة قال فيها :

أما بعد : فإن من حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الأجتهد فى إقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريت النبوة التى أورثهم ، وأثر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق فى رعيتهم والتشمير لطاعة الله فيهم . والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد والإقساط فيما ولاه من رعيته برحمته ومنته وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والإستضاء بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والأفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ونكوب عن واضحات إعلامه وواجب سبيله وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويفرقوا بينه وبين خلقه لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكير والتذكر وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه وقد قال الله :

" إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا " (١) فكل ما جعله الله فقد خلقه (٢) فاجمع من بحضرتك من القضاة وأقرا عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون . وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم في القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقرّ أنه مخلوق محدّث . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عمك وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد واكتب لأمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله . (٣)

نلاحظ من هذا الكتاب ألا ضرر على من لم يقل بخلق القرآن إلا حرمانه من مناصب الدولة ، وعدم سماع شهادته إن كان شاهداً ، ويبدو أن المأمون لم يرغب على ذهنه أن مناصب الدولة ليست ذات قيمة عند العلماء من الفقهاء والمحدثين ، وإنما من شأن العلماء المخلصين الزهد فيها . فأراد أن يحملهم على الإقرار بخلق القرآن وإن لم يريدوا أن يتولوا عملاً أو يؤدوا شهادة

(١) سورة الزخرف من الآية ٣

(٢) ولا شك أن هذا خطأ حيث إن هناك فرقاً بين كلمتي خلق وجعل كما سنبين ذلك أن شاء الله في الرد على المعتزلة .

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري حـ ١٩٥/٧ - ١٩٧ بتصرف ط الأعلمی

(فكأنه اعتقد أنه - وهو خليفة المسلمين وراعيهم - مسئول عن رعيته
ومن هذا أنه مسئول عن توحيدهم ، والقول بقدم القرآن شبه إشراك ،
فيجب أن يرد الناس عن ذلك كما يرد الكافر عن كفره . (١)
فجاء الكتاب الثانى أضاف إلى ذوى المناصب فى الدولة والمتصلين بها -
المحدثين والفقهاء ، وكل من تصدى للفتوى والتعليم والإرشاد ، فأمر
بامتحانهم وإرسال إجاباتهم عن مسألة خلق القرآن . (٢)
واختار المأمون سبعة من كبار المحدثين أراد أن يرسلوا إليه وهم :
محمد بن سعد الواقدى صاحب الطبقات الكبرى - وأبو مسلم مستمل يزيد
بن هارون ويحى بن معين وزهير بن حرب أبو خثيمة واسماعيل ابن داود
واسماعيل بن أبى مسعود وأحمد بن الدورقى ، (٣)
ويبدو ان هؤلاء كانوا من وجوه المحدثين فى بغداد ، وممن شنعوا على
المأمون بالقول بخلق القرآن ومن رؤس الذين يقولون بقدمه . ولعل المأمون
رأى أنهم إن حضروا أمام الخليفة نفسه كان ذلك أرهب لهم ، وحملتهم الهيبة
والرهبة على متابعة الخليفة فيما يقول ، فينقاد الناس لهم ويتبعون قولهم
فتقطع الفتنة . وقد صدقت فراسته فى الشطر الأول ، وخاب ظنه فى الشطر
الثانى حيث أجاب القوم " نقية " بما يريد الخليفة ، ولكن الفتنة لم تنقطع .
يقول الطبرى رحمه الله : فى كتاب تاريخ الأمم والملوك :

(١) تاريخ الأمم والملوك حـ ١٩٨/٧ بتصرف للطبرى .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد أبو زهرة صـ ١٤٣

(٣) ضحى الإسلام حـ ١٦٩/٣ - ١٧٠

فلما حضروا وامتحنهم المأمون وسألهم جميعاً عن خلق القرآن فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق فأعادهم إلى بغداد وأمر إسحاق بن إبراهيم أن يجمع الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث في داره ، وأن يقول أمامهم هؤلاء السبعة بمثل ما قالوا به أمام المأمون ففعلوا وخطى سبيلهم . (١)

ويلاحظ أن اسم الإمام أحمد بن حنبل — رضى الله عنه — لم يوجد بين هؤلاء السبعة . لعله لم يكن معروفاً إذ ذاك بشدة المعارضة وأن شهرته في هذا أتت بعد هذا التاريخ ، أو كما روى بعضهم ان اسمه كان بين هؤلاء ولكن ابن أبي دؤاد نصح باستبعاده ، لأنه يعرف صلابته ، فلم يكن من مصلحة القضية أن يكون بينهم ، وقد روى أن ابن حنبل حزن لهذا الحادث وقال : " لو كانوا صبروا وقاموا لله لكان انقطع الأمر وحذرهم الرجل

(يعنى المأمون) ولكن لما أجابوا إجتراً على غيرهم " .. وكان ابن حنبل إذا ذكرهم يغتم ويقول : " هم أول من تلموا هذه التلثة " (٢)

جمع إسحاق بن إبراهيم الفقهاء والمشايخ في داره ليتمحنهم — كما أمره المأمون — فالفقهاء يتولون الفتيا والحكام يتولون الحكم والمحدثون يتولون التعليم ، وكلها أمور لا يريد المأمون أن يتولاها إلا من قال بخلق القرآن ، ولكن القوم توقفوا ولم يصرح أحد منهم أن القرآن مخلوق — الأمر الذى أثار المأمون وأغضبه —

(١) تاريخ الطبرى حـ ١٩٧/٧ ،

(٢) انظر أحمد بن حنبل والمحنة للأستاذ walter n, patt on نقلاً من ضحى الإسلام

وهذه بعض نماذج من الأسئلة والأجوبة التي دارت بين إسحاق وبعض العلماء

ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله - في تاريخه المحاورات والمناقشات التي دارت بين إسحاق بن إبراهيم والعلماء من الفقهاء والمحدثين ، تذكر بعضاً منها وهو ما كان بين إسحاق بن إبراهيم ومحدث الفقهاء وفقهيه المحدثين الإمام أحمد بن حنبل - رضوان الله تعالى عليه - .

يقول إسحاق : ما تقول في القرآن ؟ .

الإمام أحمد : هو كلام الله .

إسحاق : أمخلوق هو ؟

الإمام أحمد : هو كلام الله لا أزيد عليها .

إسحاق : ما معنى إنه تعالى سميع بصير ؟ .

الإمام أحمد : هو كما وصف نفسه .

إسحاق : فما معناه ؟ .

الإمام أحمد : لا أدري هو كما وصف نفسه .^(١)

امتحان آخر كان من إسحاق بن إبراهيم إلى رجل من مشاهير العلماء وهو : بشر بن الوليد .

إسحاق بن إبراهيم : ما تقول في القرآن ؟

بشر بن الوليد : القرآن كلام الله .

إسحاق بن إبراهيم : لم أسألك عن هذا . أمخلوق هو ؟

بشر بن الوليد : الله خالق كل شيء .

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري حـ ٢٠١/٧

إسحاق : هل القرآن شئ ؟

بشر : هو شئ .

إسحاق : فمخلوق هو ؟

بشر : ليس بخالق .

إسحاق : لا أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

بشر : ما أحسن غير ما قلت لك .^(١)

وصمم بشر على ذلك ولكن إسحاق بن إبراهيم لم يدعه وإنما قال : أتشهد أن لا إله إلا الله — أحداً فرداً لم يكن قبله شئ ولا بعده شئ ولا يشبهه شئ من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه ؟ قال نعم . فقال للكاتب اكتب ما قال — فكتب ثم امتحنهم رجلاً رجلاً فأكثرهم امتنع من القول بخلق القرآن ، فكان إذا الرجل منهم امتحنه بالرقعة التى وافق عليها بشر بن الوليد من إنه يقال لا يشبهه شئ من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه فيقول : نعم كما قال بشر . ولما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل فقال : أنقول إن القرآن مخلوق ؟ فقال : القرآن كلام الله لا أزيد على هذا . فقال له ما تقول فى هذه الرقعة ؟ فقال : أقول " ليس كمثل شئ وهو السميع البصير "

فقال رجل من المعتزلة : إنه يقول سميع بأذن ، بصير بعين — فقال له إسحاق : ما أردت بقولك سميع بصير ؟ فقال أردت منها ما أراه الله منها وهو كما وصف نفسه ولا أزيد على ذلك^(٢). هكذا كانت أجابة كل من الإمام

(١) المرجع السابق حـ ٢٠١/٧

(٢) البداية والنهاية حـ ٢٧٣/١٠

احمد بن حنبل والعلامة بشر بن الوليد الكندي وكذلك كانت إجابة كثير من العلماء مثل علي بن أبي مقاتل وأبو حسان الزياتي وابن البكاء هؤلاء كانت إجاباتهم لا تختلف كثيراً عن إجابة الإمام أحمد وبشر الكندي . لذلك ترى أن الحاجة غير ماسة لذكر الحوار الذي دار بينهم وبين إسحاق بن إبراهيم والذي ظهر منه مدى تمسك هؤلاء العلماء بالحق وعدم المداهنة للسلطان أو واليه . ولكن فريقاً آخر من الناس (العلماء) خارت نفوسهم ، وضعت عزيمتهم وحرصوا على متاع الدنيا ، كوظيفة لدى السلطان ، أو رزق من بيت المال أو منصب كالإفتاء فقالوا بخلق القرآن وهم يعلمون إنهم يقولون غير ما يعتقدون ، يقول ابن كثير — رحمه الله —

وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرهاً لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه ، وإن كان له رزق على بيت المال قطع ، وإن كان مفتياً منع من الإفتاء ، إن كان شيخ حديث ردع من الإسماع والأداء .. ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله . (١)

حرره إسحاق بن إبراهيم جميع أقوال الممتحنين . وأرسلها إلى المأمون فتارت ثأرته ، وجن جنونه فأرسل كتاباً فيه التعنيف والتقريع والوعيد الشديد الذي وصل إلى ضرب عنق من لم يقل بقوله . فقد جاء في الكتاب : ومن لم يقل إن القرآن مخلوق فابعثه إلى عسكر أمير المؤمنين . مقيداً محتفظاً به حتى يصل إلى أمير المؤمنين فيرى فيه رأيه . ومن رأيه أن يضرب عنق من لم يقل بقوله . فعند ذلك عقد النائب ببغداد مجلساً آخر وأحضر أولئك وفيهم

(١) المرجع السابق والجزء نفسه والصفحة نفسها .

إبراهيم المهدي وكان صاحباً لبشر بن الوليد الكندي ، وقد نص على قتلها
 إن لم يجيبا على الفور ، فلما امتحنهم إسحاق أجابوا كلهم مكرهين متأولين
 قوله تعالى : " إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ " (١) إلا أربعة هم :
 أحمد بن حنبل ، محمد بن نوح ، الحسن بن حماد سجاده وعبيد الله بن عمر
 القواريري .

فقيدهم وأرصدهم لبيعت بهم إلى المأمون ، ثم استدعى بهم في اليوم الثاني
 فامتحنهم فأجاب سجاده إلى القول بذلك فأطلق . ثم امتحنهم في اليوم الثالث
 فأجاب القواريري إلى ذلك فأطلق قيده .

وأخذ أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح لأنهما أصرا على الإمتناع من القول
 بذلك . فأكد قيودهما وجمعهما في الحديد ، وبعث بهما إلى الخليفة وهو
 بطرطوس . وجعل الإمام أحمد يدعو الله عز وجل أن لا يجمع بينهما وبين
 المأمون وإن لا يرياه ولا يراها ..

فأهلكه الله قبل وصولهما إليه ، واستجاب الله سبحانه دعاء عبده ووليه الإمام
 أحمد بن حنبل فلم يريا المأمون ولا رأهما . فلما بلغهم موت المأمون ردوا
 إلى الرقة ثم أذن لهم بالرجوع إلى بغداد . (٢)

مات المأمون وودع الدنيا ، ولكن فتنة خلق القرآن لم تمت ولم تنته بل اتسع
 نطاقها ، وزادت ويلاتها ، وكانت شراً مستطيلاً على المتوقفين من الزهاد
 والعلماء والمتفقيين والمحدثين وأهل الفتيا في الدنيا وذلك لأن المأمون —

(١) سورة النحل من الآية ١٠٦ .

(٢) البداية والنهاية حـ ٢٧٣/١٠ — ٢٧٤ ، لابن كثير وانظر تاريخ الأمم والملوك

للطبري حـ ٢٠٥/٧ ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان .

عفا الله — أوصى أخاه المعتصم بالتمسك بمذهبه فى خلق القرآن ، ودعوة الناس إليه بقوة السلطان ، وكأنه فهم أن تلك الفكرة التى استحوذت عليه دين واجب الإلتباع وفرض لا يبرأ منه حتى يؤديه ويدعو إليه ويحمل الناس عليه قهراً ، وقد جاء فى هذه الوصية : يا أبا إسحاق إبن من ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى خلق القرآن . (١)

لذلك لما سُلمت القيادة للمعتصم امتدت المحنة ، أخذة دوراً أشد وأقصى وكانت وصية المأمون بحمل الناس على القول بخلق القرآن وبقاء بن ابى دؤاد أصل البلاء فى هذا . لاسيما أن المعتصم لم يكن على قدر من الثقافة التى كانت لدى المأمون فإنه كان رجلاً جندياً وكان كما قال الإمام السيوطى — ذا شجاعة وقوة وهمة وكان عرياً من العلم . (٢)

لذا كان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة ، وكانت ثقافته من جنس ثقافة الذين يسمعون أحاديث الناس والعلماء لذلك لم تكن هناك مجالس المناظرة فى قصره كالتى كانت فى عهد المأمون . (٣)

ويبدو أن المعتصم كان يكره العلم منذ الصغر فقد روى الصولى . عن محمد بن سعيد عن إبراهيم بن محمد الهاش قال : كان مع المعتصم غلام فى الكتاب يتعلم معه ، فمات الغلام ، فقال له الرشيد "أبوه" يا محمد مات غلامك

(١) تاريخ الأمم والملوك — ٢٠٩/٧ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤

(٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين — ١٧٧/٣ — ١٧٨

، قال : نعم يا سيدى واستراح من الكتاب . فقال : وإن الكتاب ليبلغ منك هذا ، دعوه لا تعلموه . قال فكان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة (١) وكان لقلة ثقافة المعتصم أثر سيئ فى ولايته حيث كان يرى أنه ملزم بامتحان الناس فى خلق القرآن لا شئ إلا أنه وُكِّلَ بذلك من المأمون . (٢) فلم تصدر عنه منشورات جديدة فيها معان وحجج جديدة وكتب إلى الأمصار بالإستمرار فى امتحان الناس بخلق القرآن وأمر أن يعلموا الصبيان ذلك ، وقاس الناس منه مشقة فى ذلك حيث قتل خلقا وضرب الإمام أحمد بن حنبل — كما سنبين ذلك أن شاء الله .

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٣٤

(٢) يبدو ذلك من قوله للإمام أحمد لولا أنك كنت فى يد من كان قبلى لم اتعرض إليك ، البداية والنهاية ح ٧٨٣/١٠ ط دار المعرفة الطبعة الثانية سنة ١٤١٧هـ — ١٩٩٧

المعتصم يواصل المحنة ويمتحن الناس

لما جاء الخبر بموت المأمون فرح الإمام أحمد ومن معه ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولى الخلافة ، وقد انضم إليه أحمد بن أبي دؤاد وأن الأمر شديد فردوا إلى بغداد في سفينة وفي الطريق مات محمد بن نوح وصلى عليه لإمام أحمد بن حنبل^(١) رضوان الله عليهما ..

وبعد موت محمد بن نوح أصبحت المعارضة محصورة في الإمام أحمد وحده فظل وحده يتحمل العذاب المعنوي من نفاق ابن أبي دؤاد ومن على شاكلته ويسام العذاب والهوان من المعتصم ومن في سلطته ، ولكن لم يضعف ولم يلبس وإنما ظل ثابتاً على عقيدته ، متمسكاً برأيه لا يضره من خذله ولا من خالفه وكان جديراً بأن يكون من الطائفة الذين وصفهم رسول الله "صلى الله عليه وسلم" فقال: " لا تنزل طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى ياتي أمر الله وهم كذلك .. (٢)

(١) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٧٨٢/١٠-٧٨٣ ط دار المعرفة الطبعة الثانية سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) الحديث في الصحيحين وهذه رواية مسلم حـ ٦٥/١٣ كتاب الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم " لا تنزل طائفة من أمتي ظاهرين على الحق . وانظر صحيح البخارى حـ ٣٠٦/١٣ ك الإعتصام بالكتاب والسنة ب لا تنزل طائفة من أمتي ظاهرين على الحق

أحضر المعتصم الإمام أحمد من السجن ، وأجلسه قريباً وكان بجوار المعتصم أحمد بن أبي دؤاد ودار بينهم هذا الحوار الذى رواه ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية — فقال قال الإمام أحمد :

فجلست وقد اتقلنى الحديد (١) فمكثت ساعة ثم قلت : يا أمير المؤمنين إلى ما دعا إليه ابن عمك رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال إلى شهادة أن لا إله إلا الله قلت : فإني أشهد أن لا إله إلا الله .

قال ثم ذكرت له وفد عبد القيس . (٢) ثم قلت فهذا الذى دعا إليه رسول الله "

(١) الحديد الذى كان مكيلا به رضى الله عنه

(٢) حديث عبد القيس فى الصحيحين ورواية مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما — قال قدم وفد عبد القيس على رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : فقالوا يا رسول الله إن هذا الحى من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر فلا نخلص إليك إلا فى شهر الحرام فمرنا بأمر نعمل به وندعو إليه من وراءنا قال أمركم بأربع وإنها كم عن أربع الإيمان بالله ثم فسر لها لهم فقال "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإن تؤدوا خمس ما غنمتم وإنهاكم عن الدُّبَّاء والحنتم والنَّقِير والمقير" مسلم حـ ١٨٠/١ — ١٨٣ — ك الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله "صلى الله عليه وسلم" وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه — وفى الحديث كلمات غريبة من الخير ضبطها ثم شرحها .

الدُّبَّاء: بضم الدال وهو القرع اليابس أى الوعاء منه .

الحنتم : بحاء مهملة مفتوحة ثم نون ساكنة الواحدة حنتمة وأختلف فى معناها وأصح الأقوال وأقواها أنها جرار خضر . قاله الأكثرون أو كثيرون من أهل اللغة وغريب الحديث والمحدثين والفقهاء . والثانى أنها الجرار كلها والثالث أنها جرار يؤتى بها من مصر مقيرات الأجواف . والرابع عن عائشة "رضى الله عنها" جرار حمر أعناقها فى

صلى الله عليه وسلم" قال ثم تكلم ابن ابي داود بكلام لم أفهمه ثم قال المعتصم : لولا أنك كنت فى يد من كان قبلى لم أتعرض إليك . ثم قال يا عبد الرحمن ألم أمرك أن ترفع المحنة ؟ قال أحمد : فقلت الله أكبر هذا فرج للمسلمين، ثم قال : ناظره يا عبد الرحمن — فقال لى عبد الرحمن ما تقول فى القرآن ؟ فلم أجبه ، فقال المعتصم : أجبه فقلت : ما تقول فى العلم ؟ فسكت ، فقلت القرآن من علم الله ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله ، فسكت فقالوا فيما بينهم يا أمير المؤمنين كفرنا وكفرك ، فلم يلتفت إلى ذلك ، فقال عبد الرحمن "كان الله ولا قرآن " فقلت كان الله ولا علم ؟ فسكت . فجعلوا يتكلمون من هنا وهناك ، فقلت : يا أمير المؤمنين اعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به ، فقال ابن ابي داود . وأنت لا تقول

جنوبها يجلب فيها الخمر من مصر ... أما النقيير فإنه جذع ينقر وسطه ، وأما المقير فهو المزفت المطلى بالقار وهو الزفت وقيل الزفت نوع من القار والصحيح الأول فقد صح عن ابن عمر "رضى الله عنهما" أنه قال المزفت هو المقير ومعنى النهى عن هذه الأربعة فهو أنه نهى عن الإنتباز فيها وهو أن يجعل فى الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما .. وإنما خصت هذه بالنهى لأنه يسرع إليه الإسكار فيها فيصير حراماً نجساً فنهى عنه لما فيه من إتلاف المال ..

ثم ان النهى كان فى أول الأمر ثم نسخ بحديث بريدة "رضى الله عنه" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال : " كنت نهيتكم عن الإنتباز إلا فى الأسقية فانتبذوا فى كل وعاء ولا تشربوا مسكراً " .. انظر شرح صحيح مسلم للإمام النووى حـ ١٨٥/١ — وحديث النسخ رواه مسلم فى كتاب الأشربة باب النهى عن الإنتباز فى المزفت والدباء والحنتم والنقيير وبيان أنه منسوخ وأنه اليوم حلال ما لم يصر مسكراً . حـ ١٦٨/١٣ .

إلا بهذا وهذا ؟ فقلت : وهل يقوم الإسلام إلا بهما . وجرت مناظرات طويلة واحتجوا عليه بقوله :

" مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ^(١) " وبقوله " اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ " ^(٢) فأجاب بقول تعالى : " وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ " ^(٣) وأن الذكر هو القرآن ، وتلك ليس فيها الف ولام . وأجاب بقول سبحانه : " تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا " ^(٤) فهل دمرت إلا ما أراد الله ؟ .

فقال بن أبي دؤاد : هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، وهنا قضاتك والفقهاء فسلمهم فقال لهم :

ما تقولون ؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دؤاد ، ثم أحضروه في اليوم الثاني وناظروه أيضاً ، ثم في اليوم الثالث ، وفي ذلك كله يعلو صوته عليهم وتغلب حجته حججهم . وكانوا إذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي دؤاد ، وكان من أجهلهم بالعلم والكلام ، وقد تنوعت بهم المسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل ، فجعلوا ينكرون الآثار ويردون الإحتجاج وسمع منهم الإمام مقالات لم يكن يظن أن أحداً يقولها ، وتكلم أحد الحاضرين بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه ، فقال الإمام أحمد لا أدري ما تقول ، إلا أنى

(١) الأنبياء من الآية : ٢

(٢) الزمر من الآية : ٦٢

(٣) ص من الآية : ١

(٤) الأحقاف من الآية : ٢٥

أعلم أن الله أحد صمد ، ليس كمثلته شئ وفي غبون ذلك كله كان الخليفة يتلطف به ويقول : يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يظاً بساطى .

فيقول الإمام — رضى الله عنه — يا أمير المؤمنين يأتونى بأية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى أجيبهم إليها فلما لم يقيم لهم معه حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة ، فقالوا يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل .

وقال إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين : ليس من تدبير الخلافة أن تخلى سبيله ويغلب خليفتين ، فعند ذلك حمى واشتد غضبه ، وقال للإمام أحمد : لعنك الله ، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني ، ثم قال : خذوه واخلعوه واسحبوه ففعلوا ذلك فقال الإمام أحمد — رحمه الله — :

يا أمير المؤمنين : الله الله ، إن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " قال : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث وذكر الحديث .^(١) وأن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " قال :

(١) الحديث رواه الترمذى وحسنه — ٣٧٣/٦ كتاب الفتن / باب ما جاء لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ونص الحديث أن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " قال لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : زنا بعد إحصان أو ارتداد بعد إسلام أو قتل نفس بغير حق فقتل به " ورواه بن ماجه بنفس المعنى مع اختلاف فى الألفاظ لا يخل بالمعنى انظر سنن بن ماجه — ٨٤٧/٢ كتاب الحدود باب لا يحل دم امرئ مسلم إلا فى ثلاث ط المكتبة العلمية تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي .

" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا من دمائهم وأموالهم " . (١) فيما تستحل دمي ولم آت شيئاً من هذا !؟؟ .

يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك ؟ فكأنه أمسك (٢) ولكن حاشية السوء لم تمسك ، بل ظلوا يزينون القول للمعتصم بأنه ضال مبتدع بل وصفوه بالكفر وكأنه أصبح حلال الدم فلم يزالوا يقولون له :

يا أمير المؤمنين أنه ضال مضل كافر ، فأمر به فأخذ وجئ بالضرايين ومعهم الشياطين ، فأخذوا يضربونه المرة بعد الأخرى ، ولم يترك في كل مرة إلا بعد أن يغمى عليه ، وينخس بالسيف فلا يحس ، وتكرر ذلك واستمر في محبسه مع هذا العذاب نحو من ثمانية وعشرين شهراً فلما استئيسوا منه أطلقوا سراحه ، وأعادوه إلى بيته ، وقد أنخننته الجراح ، وأثقله الضرب المبرح ، والإلقاء في السجن حتى إنه كان من شدة ما نزل به لا يقوى على السير . (٣)

وبالرغم من هذا فقد جعل الإمام — رضى الله عنه — كل من أذاه في حل إلا أهل البدعة ، وكان يتلوا في ذلك قول الله تعالى :

(١) مسلم جـ ١ / ٢٠٦-٢٠٧ ك الايمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا اله الا الله

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ / ٧٨٣ — ٧٨٥ بتصريف دار المعرفة بيروت

لبنان الطبعة الثانية سنة ١٤١٧هـ — ١٩٩٧

(٣) البداية والنهاية جـ ١٠ / ٧٨٥ ط دار المعرفة الطبعة الثانية وانظر تاريخ المذاهب

الإسلامية للإمام أبو زهرة ص ٤٦٤

"وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا" (١) ويقول ماذا ينفعلك أن يعذب أخوك المسلم بسببك ؟
وقد قال الله تعالى: "أَمَّنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" (٢)
وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة "رضى الله عنه" عن رسول الله "صلى
الله عليه وسلم" قال : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا
عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " (٣)

ونرى من خلال محنة الإمام أحمد أن بطانة السوء لها أثر سيئ على الأمير
فهى لا تعينه على خير أراده ، لا تذكره إذا نسيه بل تزين له القول ، لا سيما
إذا كان الأمير لم يؤت حظاً من العلم والفقہ فى الدين . وهذا ما حدث مع
المعتصم حيث كانت بطانته سيئة جاهلة ، وحظرة من العلم قليلا ، وكان شديد
الغضب ضيق الأفق ، لذا فعل بالإمام ما فعل .

والدليل على ذلك إنه قرر رفع المحنة — ولكن لما وسوس إليه من حوله بأن
الإمام أحمد كفره وكفرهم ، وأنه إذا خلى سبيله فسوف يقول الناس غلب
خليفتين ، عند ذلك حمى واشتد غضبه ولعن أحمد بن حنبل وأمر بأخذه
وسحبه وضربه بالسياط ، ثم بعد ذلك ندم على ما فعل .

يقول ابن كثير رحمه الله : " وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى
أحمد ندماً كثيراً " (٤)

(١) سورة النور من الآية ٢٢

(٢) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٧٨٥/١٠ : ٧٨٦ والآية من سورة الشورى رقم ٤٠

(٣) مسلم ك البر والصلة والآداب ب استحباب العفو والتواضع حـ ١٦ / ١٤١

(٤) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٧٨٥/١٠ ط دار المعرفه الطبعة الثانية سنة ١٤١٧ —

وأثناء تعذيب الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - ظهرت بعض أشياء
لعلها من كرامات الإمام .

يقول ابن كثير : ويروى أنه لما أقيم ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشى أن
يسقط سراويله فتكشف عورته فحرك شفثيه فدعا الله فعاد سراويله كما كان
. ويروى أنه كان يقول :

يا غياث المستغثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم أنى قائم لك بحق فلا
تهتك لى عورة . (١)

ويروى أن أحمد بن أبي دؤاد وهو محرك الشر ورأس من رؤس الفتنة فى
ذاك الوقت - حرض المعتصم على قتل الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله
عنه - وقال له :

" يا أمير المؤمنين أن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون ، وسخطت قوله
وإنه غلب خليفتين " . (٢)

لكن المعتصم اكتفى بضربه ثم خلى سبيله ، ولم يقتله كما قتل غيره . فيروى
أنه حتى اليوم الذى عاد فيه ابن حنبل لامتحانه كان قد قتل قبله رجلين . (٣)
ولعل عدم قتله يرجع إلى أسباب منها :

أولاً : أن جمهور الناس التفوا من حول ابن حنبل أكثر من التفاهم حول أى
شخص آخر ، فإذا قتله المعتصم كانت فتنة - قال ميمون بن اصبغ : "

(١) المرجع السابق حـ ٣٣٥/١٠ ط مكتبة المعارف بيروت

(٢) ضحى الاسلام لأحمد أمين جـ ٣ / ١٨٠

(٣) المرجع لاسابق نفس الجزء ونفس الصفحة

أُخْرِجَ أحمد بعد ان اجتمع الناس وضجوا حتى خاف السلطان " ويروون أيضاً أنه قال : " لو لم أفعل ذلك لوقع شر لا أقدر على دفعه . (١) "

ثانياً : لعل المعتصم أعجب بشجاعته وثباته على ما يعتقد أنه الحق فلم يخف ولم يهن، وكان المعتصم شجاعاً يحب الشجعان ، هذا إلى أنه عرف أنه ليس بمنافق يريد التظاهر بالورع ، بل يتكلم عن عقيدة ويصرح بأن الله قديم وليس كمثله شيء ، ولكن لا يقول بخلق القرآن لأن الله تعالى لم يقله ، ورسول " صلى الله عليه وسلم " لم يدع إليه ..

هذا ، وقد مات المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين ، ونزلت الفتنة مشتعلة لم تحسم بعد، والوصية بالإمتحان قائمة لم تلغ بعد ، وخلفه الواثق فماذا صنع في هذه الفتنة الصماء ، والمحنة الشنعاء؟؟..

(١) ضحى الإسلام للإستاذ أحمد أمين حـ ٣ / ١٨٠ : ١٨١

الوائق والمحنة

تولى الواثق الخلافة، والفتنة مازالت قائمة ، وامتحان الناس فيها لم ينقطع بعد وكان الواثق مثقفاً ثقافة واسعة وكان يسمى : المأمون الأصغر لأدبه وفضله ، وكان المأمون يعظمه ويقدمه على ولده ، وكان الواثق أعلم الناس بكل شئ ، وكان شاعراً ، قال الفضل الزيدى : لم يكن فى خلفاء بنى العباس أكثر رواية للشعر من الواثق ، فقيل له : كان أروى من المأمون ؟ فقال نعم كان المأمون قد مزج بعلم العرب علم الأوائل من النجوم والطب والمنطق . وكان الواثق لا يخلط بعلم العرب شيئاً .^(١)

إلا أنه لم يكن أحسن حالاً من عمه المأمون ولا أبيه المعتصم بالنسبة لمسألة خلق القرآن بل إنه كان — كما قال ابن كثير — : من أشد الناس فى القول بخلق القرآن ، يدعو إليه ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون من غير دليل ولا برهان ، ولا حجة ولا بيان ، ولا سنة ولا قرآن " (٢)

فأعاد من جديد المحنة على الإمام أحمد بن حنبل — ولكنه لم يأمر بضربه بالسوط ، كما كان الأمر فى عهد المعتصم ، إذ رأى ذلك زاده منزلة عند الناس ، ومنع فكرة الخليفة من أن تضيع وتنتشر ، وفوق ذلك ما ترتب عليه من سخط العامة ونقمة من سماهم ابن أبى دؤاد حشو الأمة ، وكانت المحنة الجديدة للإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - أن منعه من

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤٢ - ٣٤٣

(٢) البداية والنهاية ح ١٠ / ٧٥٠ ط دار المعرفة

الإجتماع بالناس والتحدث والفتوى وقال له الواثق : " لا تجمعن إليك أحداً ولا تساكني في بلد أنا فيه " . (١)

وإن كان الواثق قد رفع العذاب الحسى عن الإمام أحمد ، فإنه أنزل أشد العذاب على غيره من الذين لم يقولوا بخلق القرآن ، حيث قتل وصلب .. (وأودع الكثير فى السجون وسموا الظلمة ومنعوا أن يزورهم أحد ، وقيدوا بالحديد ، ولم يجر عليهم شئ من الأرزاق التى كانت تجرى على المحبوسين .) (٢) ومن العلماء الأخيار الذين قتلهم الواثق وأتهمهم بالكفر العلامة أحمد بن نصر الهيثم الخزاعى ، (٣) الذى كان من أكابر العلماء العاملين ، القائمين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قتله الواثق بغير ذنب أو جريرة إلا أنه أبى أن يقول إن القرآن مخلوق ، وقال بجواز رؤية الله

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام ابو زهرة ص ٤٦٥ .

(٢) البداية والنهاية حـ ٧٥٢/١٠ ط دار المعرفة

(٣) هو أحمد بن نصر بن مالك الهيثم الخزاعى كان جده مالك بن الهيثم من أكبر الدعاة إلى دولة بنى العباس وكان أبوه نصر بن مالك يغشاه أهل الحديث وكان أحمد بن نصر من أهل العلم والديانة ، والعمل الصالح ، والإجتهاد فى الخير ، وكان من أئمة السنة الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .. سمع الحديث من حماد بن زيد ، وسفيان بن عيينه ، وهاشم بن بشير ، وسمع من الإمام مالك بن أنس أحاديث جيدة - حدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقى ، وأخوه يعقوب بن إبراهيم ويحيى بن معين وذكره يوماً فترحم عليه وقال : قد ختم الله له بالشهادة كان لا يحدث كثيراً ويقول إنى لست أهلاً لذلك أحسن يحيى بن معين الثناء عليه جداً . قال عنه الإمام أحمد : ما كان أسخاه بنفسه ، لقد جاد بنفسه له . البداية والنهاية لابن كثير حـ ٧٥٠/١٠ - ٧٥٢ ط دار المعرفة

يوم القيامة حيث قال له الواصلق : ما تقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله لىس بمخلوق فحمله أن يقول مخلوق فأبى ، وسأله عن رؤية الله يوم القيامة ؟ فقال يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك ، قال الله تعالى :

" وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " . (١)

وقال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " : " إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته " (٢)

فقال الواصلق : ويحك هل يرى كما يرى المحدود المتجسم ويحويه مكان يحصره الناظر ، إنما كفرتُ برب هذه صفته ، ثم قال الواصلق ما تقولون فى هذا الرجل فأكثرُوا القول فيه .. فقال عبد الرحمن بن إسحاق — وكان قاضياً على الجانب الغربى فعزل — يا أمير المؤمنين هذا حلال الدم وقال آخر . اسقنى دمه يا أمير المؤمنين . وقال ابن أبى دؤاد : هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل .

فقال الواصلق : إذا رأيتمونى قمت إليه فلا يقوم أحد معى فإنى أحتسب خطاى ثم نهض ومشى إليه فضرب عنقه ، وأمر به فحمل رأسه إلى بغداد ، فنصب بالجانب الشرقى أياماً ، والجانب الغربى أياماً ، ولما صلب كتب الواصلق ورقة وعلقت فى رأسه نصها :

(١) سورة القيامة ٢٢ : ٢٣

(٢) مسلم حـ ١٧/٣ / ١٨ — ك الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين ولفظة " هل تضارون " فى رؤية القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون فى رؤية الشمس لىس دونها سحب قالوا لا يا رسول الله قال فإنكم ترونه كذلك...

هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي ممن قتل على يدي
عبدالله هارون الواثق بالله أمير المؤمنين بعد ان أقام عليه الحجة في خلق
القرآن ونفى التشبيه . وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى
إلا المعاندة والتصريح والحمد لله الذي عجله إلى ناره ، وأليم عقابه ، بالكفر
فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه ، ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفه
عن القبلة (١)

هذا ، وقد تحدث العلماء عن أشياء حدثت للإمام أحمد بن نصر الخزاعي
لعلها من الكرمات التي أختص الله بها أوليائه الصالحين الذين اتخذوا القرآن
دستوراً ومنهاجاً ، والرسول قدوة وإماماً .

من هذه الأشياء ما رواه ابن كثير " رحمه الله " حيث قال :

وقال جعفر بن محمد الصائغ : بصرت عيناى إلا فقتنا ، وسمعت أذناى وإلا
فصمتا ، أحمد بن نصر الخزاعي حين ضربت عنقه يقول رأسه : لا إله إلا
الله ، وقد سمعه بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ " ألم
أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ " (٢) قال : فاقشعر جلدى
ورأه بعضهم فى النوم فقال له : ما فعل بك ربك ؟ فقال : ما كانت إلا غفوة
حتى لقيت الله عز وجل فضحك إلى .

ورأى بعضهم رسول الله " صلى الله عليه وسلم " فى المنام ومعه أبو بكر
وعمر ، قد مروا على الجذع الذى عليه رأس أحمد بن نصر الخزاعي فلما

(١) البداية والنهاية لابن كثير حـ ١٠/٣٠٤ : ٣٠٥ ط السعادة ، تاريخ الطبرى حـ ٧/

٣٢٨ — ٣٢٩ ، تاريخ الخلفاء للسيوطى صـ ٣٤٠ — ٣٤١ ط السعادة .

(٢) سورة العنكبوت ١ : ٢

جاوزوه أعرض رسول الله " صلى الله عليه وسلم " — بوجهه الكريم عنه فقيل له يا رسول الله : مالك أعرضت عن أحمد بن نصر ؟ فقال : " أعرضت عنه " استحياء منه حين قتله رجل يزعم أنه من أهل بيتي . (١)

رحم الله الإمام أحمد بن نصر الذى تمنى الموت فوهب الله له الحياة ، وكان لسان حاله يقول لئن أموت وأنا على الحق خير لى من أن أعيش وأن على الباطل ..

وكان ممن نكل به بمصر فى أيام الواثق يوسف بن يحيى البويطى صاحب الإمام الشافعى ووارث علمه وشى به حرمة والمزنى وابن الشافعى ولعلمهم نفسوا (٢) عليه علمه — وقيل وشى به ابن أبى الليث الحنفى قاضى مصر ، فكتب ابن أبى داؤاد إلى والى مصر أن يمتحنه فأبى أن يقول بخلق القرآن وقال : " إنما خلق الله الخلق بكن ، فإذا كانت مخلوقة ، فكأن مخلوقاً خلق بمخلوق ، ولئن أدخلت عليه (على الواثق) لأصدقنه ولأموتن فى حديدى هذا حتى يأتى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم ، وكان الوالى حسن الرأى فيه فقال له قل فيما بينى وبينك قال إنه يقتدى بى مائة الف

(١) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٧٥٢/١٠ : ٧٥٣ ط دار المعرفة .

(٢) النفس العين — النافس : العائن — المنفوس — المعيون لسان العرب حـ ٤٥٠/٦

باب النون ط دار المعارف . أى حسدوه

ولا يدرون المعنى .. ثم حمل من مصر إلى بغداد ومات في سجنها وكان متقللاً بالحديد .^(١)

ولم يقتصر الأمر على محاكمة الولاة للناس — بل كانت مجالس الخاصة والعامّة تلوك هذه المسألة ، فإذا جلس عالم مجلساً سأله سائل هل القرآن مخلوق !؟

وإذا خلا الناس بعضهم إلى بعضهم تحدثوا في اخبار خلق القرآن .^(٢) ومن حقد على آخر وأراد أن يدس عليه أتهمه بأنه يقول القرآن غير مخلوق .. فيروى أن البخارى — رضى الله عنه — لما ورد نيسابور واجتمعوا عليه حسده بعض المشايخ فقالوا لأصحاب الحديث إن محمد بن إسماعيل يقول إن اللفظ بالقرآن مخلوق فامتحنوه فلما حضر الناس قام إليه رجل فقال : يا أبا عبد الله ما تقول فى اللفظ بالقرآن مخلوق هو أم غير مخلوق فأعرض عنه ولم يجبه فاعاد السؤال فأعرض عنه ثم أعاد فالتفت إليه البخارى وقال : القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والإمتحان بدعة فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه وقعد البخارى بمنزله .^(٣)

(١) طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب السبكي حـ ٢٧٥/١ : ٢٧٦ ط الحسينية المصرية وانظر البداية والنهاية حـ ٣٣٥/١٠ ط مكتبة المعارف بيروت الطبعة الرابعة سنة ١٤٠١هـ — ١٩٨١م وانظر ضحى الإسلام حـ ١٨٤/٣ : ١٨٥ .
 (٢) ضحى الإسلام حـ ١٨٥/٣
 (٣) طبقات الشافعية حـ ٢٧٦ /١ ط الحسينية المصرية الطبعة الأولى .

وشغل الناس بمسألة خلق القرآن في كل قطر من الأقطار الإسلامية ، فكان الجدل بين العلماء وامتحان الأمراء للعلماء والقضاة والحكام في مصر والشام وفارس وغيرها من البلدان .

يقول العلامة أبو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة :

أن كتاب المأمون وصل إلى مصر في جمادى الآخرة ونصه كمنه (١) . وكان الوالى بمصر يومئذ نصر بن عبد الله الزهرى ، فأجاب بالقول بخلق القرآن ، وامتنح الشهود فمن توقف منهم عن القول بذلك سقطت شهادته وامتنح القضاة وأهل السنة وغيرهم (٢)

واستمرت هذه القتنة الصماء فترة غير يسيرة ، اضمحل فيها صوت الحكمة وسكت صوت الرحمة ، وضل الولاة الطريق فلم يحاولوا إقناع الناس أو تعليمهم بقدر ما حاولوا إجبارهم على القول بخلق القرآن ولو كانوا كارهين أو مكرهين (فهذا يوسف بن يحيى البويطى يقول له الوالى : قل إن القرآن مخلوق فيما بينى وبينك) (٣) .

وعاش العلماء سنين كان التورع عن الخوض في خلق القرآن إثماً كبيراً لا يعذر فيه مؤمن ، لسابق عمل أو صلاح ، أو حسن سيرة أو احترام الناس له قد تفاقم الخطب ، واستمرت البلوى حتى سئم الناس هذه الحال ، بل سئمها القائلون بها ، حتى صارت هزلاً لدى بعض الناس فإنه يروى أن الواثق دخل

(١) أى كمنص الكتاب الذى كتبه اولا

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ / ٢١٨ ط نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب

(٣) طبقات الشافعية جـ ١ / ٢٧٦ ط الحسينية المصرية الطبعة الاولى

عليه مضحك له اسمه عبادة فقال : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن .

فقال الواثق : ويلك القرآن يموت !!؟ قال يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت ، بالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح إذا مات القرآن ؟ فضحك الواثق وقال قاتلك الله . أمسك ! (١)

ويبدو أن الواثق في آخر حياته لم يكن متحمساً للقول بخلق القرآن كما كان من قبل .. وأن شيخا ذكر للواثق ان هذا الأمر لم يكن على عهد رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ولا الخلفاء الراشدين .

يقول السبوطي — رحمه الله — في كتابه تاريخ الخلفاء :

حمل إلى الواثق رجل فيمن حمل مكبل بالحديد من بلاده فلما دخل — وابن ابى دؤاد حاضر قال المقيد : أخبرني عن هذا الأمر الذي دعوتم الناس إليه ، أعلمه رسول الله " صلى الله عليه وسلم " فلم يدع الناس إليه — أم شئ لم يعلمه ؟ قال : ابن أبى دؤاد : بل علمه . قال : فكان يسعه ألا يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم ؟ قال فبهتوا ، وضحك الواثق ، وقام قابضا على فمه ، ودخل بيتا ومدّ رجليه وهو يقول :

وسع النبي — صلى الله عليه وسلم — أن يسكت عنه ولا يسعنا ، فأمر له أن يعطى ثلاثمائة دينار وأن يرد إلى بلاده ولم يمتحن أحداً بعدها ، ومقت ابن أبى دؤاد من يومئذ (٢) .

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام أبو زهرة ص ١٤٥ — ١٤٦

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ للسيوطي

والرجل المذكور هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأذرمي شيخ أبي داود والنسائي ، وقد ناظر بن أبي دؤاد بأكثر من حجة دامغة ، وأفحمه بأدلة عقلية واضحة لم يجد ابن أبي دؤاد سبيلاً للرد عليها وكان ذلك في مجلس الواثق الذي بدا منه أنه أعجب برأى الرجل ومقت ابن أبي دؤاد ولم يمتحن أحداً بعد ذلك بل إنه تاب من هذا القول ورجع عنه فعن المهدي " ابنه " قال :
" إن الواثق مات وقد تاب من القول بخلق القرآن " (١)

وقد ذكر المسعود تلك القصة في كتابه مروج الذهب فقال: أقدم على الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث ، مقيد حسن الهيئة فسلم عليه غير هائب ، ودعا فأوجز فكان الحياء منه في حماليق عين الواثق والرحمة له ، فقال له يا شيخ أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فيما يسألك عنه . فقال : يا أمير المؤمنين أحمد يقل ويضعف عن المناظرة فغضب الواثق حتى صار في مكان الرقة والرحمة له غضباً وقال له : أبو عبد الله يضعف عن المناظرة ؟ فقال له هون عليك يا أمير المؤمنين ، أتأذن في كلامه ؟ فقال له الواثق قد أذنت لك ، فأقبل الشيخ على أحمد فقال له : يا أحمد ماذا دعوت الناس إليه ؟ فقال إلى القول بخلق القرآن . فقال الشيخ مقاتلتك هذه التي دعوت الناس إليها من القول بخلق القرآن داخلة في الدين فلا يكون الدين تاماً إلا بالقول بها ؟ قال نعم قال الشيخ : رسول الله "صلى الله عليه وسلم" دعا الناس إليها أو تركهم ؟ قال : تركهم . قال : علمها رسول الله "صلى الله عليه وسلم" . أو لم يعلمها ؟ قال علمها . قال : فلم دعوت الناس إلى ما لم يدعهم إليه رسول الله "صلى الله عليه وسلم" وتركهم منه ؟ فأمسك أحمد فقال الشيخ :

(١) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٣٠٩/١٠

يا أمير المؤمنين هذه واحدة . ثم قال له بعد ساعة : يا أحمد قال الله فى كتابه العزيز " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا " (١) فقلت أنت لا يكون الدين تاماً إلا بمقاتلكم بخلق القرآن فالله أصدق فى إكماله وإتمامه أو أنت فى نقصانك ؟ فأمسك .

فقال الشيخ يا أمير المؤمنين وهذه ثانية . ثم قال له بعد ساعة : إخبارنى يا أحمد عن قول الله عز وجل فى كتابه " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ " (٢) فمقاتلك هذه التى دعوت الناس إليها مما بلغه الرسول " صلى الله عليه وسلم " للأمة أم لا ؟ فأمسك فقال الشيخ يا أمير المؤمنين وهذه الثالثة . ثم قال بعد ساعة أخبرنى يا أحمد لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقاتلك هذه التى دعوت الناس إليها وإلى القول بها من خلق القرآن أوسعته أن أمسك عنهم أم لا ؟ فقال أحمد :

بل إتسع له ذلك ، فقال : وكذلك لأبى بكر وعمر ؟ وكذلك لعثمان وعلى " رضى الله عنهم " ؟ قال : نعم . فصرف وجهه إلى الواثق وقال يا أمير المؤمنين إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله " صلى الله عليه وسلم " ولأصحابه فلا وسع الله علينا . فقال الواثق : نعم لا وسع الله علينا إن لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله " صلى الله عليه وسلم " وأصحابه . ثم قال الواثق : إقطعوا قيده . فلما فكوا قيده عنه جاذب عليه فقال الواثق : دعوه ثم قال للشيخ : لِمَ جاذبت عليه ؟ قال لأنى عقدت فى نيتى أن أجاذب عليه فإذا أخذته أوصيت أن يجعل بين كفى وبدنى حتى أقول ، يا رب سل عبدك هذا

(١) سورة المائدة من الآية ٣

(٢) سورة المائدة من الآية : ٦٧ .

لم قيدنى ظلماً وأراع في أهلي ، فبكى الواثق وبكى الشيخ وكل من حضر ثم قال له الواثق : يا شيخ اجعلنى فى حل فقال يا أمير المؤمنين ما خرجت من منزلى حتى جعلتك فى حل إعظاماً لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولقرايتك منه ..

قال المهدي "ابن الواثق" فرجعت من ذلك الوقت عن تلك المقالة وأحسب أن الواثق رجع عنها .^(١)

بعد هذه المناظرة العظيمة من هذا الشيخ الكريم ندم الواثق على ما كان منه وبكى ، ومقت ابن أبى دؤاد ولم يمتحن أحداً بعد ذلك حتى مات سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وتولى الخلافة من بعده أخوه جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل على الله ..

لما تولى المتوكل على الله الخلافة كانت مسألة خلق القرآن الكريم قد ضعف شأنها والجميع سأمها " المؤمنون بها وغير المؤمنين بها" وقد سبق أن ذكرنا أنها صارت هزلاً وسخرية وما كان من عبادة المتخنت " مضحك الواثق " إذ قال للواثق . أعظم الله أجرك فى القرآن يا أمير المؤمنين . فقال الواثق ويحك القرآن يموت ؟!

قال : يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت ، بالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح إذا مات القرآن . فضحك الواثق وقال قاتلك الله أمسك ..

ثم كانت مناظرة الشيخ المذكورة أنفاً — والتي بعدها أمسك الواثق عن الحديث فى خلق القرآن ، ولم يمتحن أحداً ، وبذلك كان الوضع مهياً للكف عن الحديث فى تلك المسألة التي أخذت حيزاً كبيراً ، وشغلت عقول الناس

(١) مروج الذهب حـ ٤/١٩١ — ١٩٢ ط دار المعرفة بيروت لبنان

بغير فائدة تعود عليهم فأقدم المتوكل على رفع المحنة ، وعدم امتحان أحد من الناس ، بل أمر بأن لا يتكلم الناس فى علم الكلام ، ومن تكلم فى علم الكلام فالسجن مصيره حتى الموت ولو كان عالماً ، فلا يتكلم أحد إلا بالكتاب والسنة . يقول ابن كثير "رحمه الله" .

كتب المتوكل إلى الأفاق بالمنع من الكلام فى مسألة الكلام والكف عن القول بخلق القرآن ، وأن من تعلم علم الكلام لو تكلم به فالمطبق مأواه إلى أن يموت ، وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير .^(١)
ولعل الذى فعله المتوكل أمر طبعى - حيث سبقه ثلاثة من الخلفاء

" أخوة - أبوه - عمه" أسهبوا فى هذا الموضوع ولم يعودوا بخير ، بل باؤوا بسخط العامة ، وكرهية الخاصة من علماء أهل السنة ولعل ندم المعتصم على ضربه الإمام أحمد وندم الواثق وإمساكه عن الحديث فى خلق القرآن وإمتحان الناس - لعل هذا وذاك كان له أثر فى ألا يقع المتوكل فيما وقع فيه غيره من الخطأ فى هذه المسألة - بل كانت تلك الأشياء بمثابة مقدمات لفشل أو موت هذه المسألة ..

ولم يكتف المتوكل برفع المحنة بل إنه أكرم علماء أهل السنة وبالغ فى إكرامهم أمواتاً وأحياء فإنه : (أمر بإنزال جثة أحمد بن نصر الخزاعى .^(٢) والجمع بين رأسه وجسده وأن يسلم إلى أوليائه ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً

(١) البداية والنهاية حـ ٧٦٤/١٠ ط دار المعرفة الطبعة الثانية سنة ١٤١٧هـ -

١٩٩٧م

(٢) من كبار علماء أهل السنة المخلصين العاملين وقد قتلته الواثق وعزل رأسه عن

جسده لأنه لم يقل أن القرآن مخلوق

وأجتمع فى جنازته خلق كثير .. ثم أظهر إكرام الإمام أحمد بن حنبل واستدعاه من بغداد إليه ، فاجتمع به فأكرمه وأمر له بجائزة سنوية فلم يقبلها . وجعل المتوكل فى كل يوم يرسل إليه من طعامه الخاص ، ويظن أنه يأكل منه ، وكان أحمد لا يأكل لهم طعاماً بل كان صائماً مواصلاً طويلاً تلك الأيام .. وارتفعت السنة جداً فى أيام المتوكل ، عفا الله عنه — وكان لا يولى أحداً إلا بعد مشورة الإمام أحمد . (١)

وبهذا العمل الطيب نال المتوكل ثناء الناس ودعاءهم حتى قارنوه بالخلفاء الصالحين العادلين ، وأنه أحيى السنة وأمات البدعة . يقول السيوطى — رحمه الله — :

وتوفر دعاء الخلق للمتوكل وبالغوا فى الثناء عليه ، والتعظيم له حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة " أبو بكر — رضى الله عنه — فى قتل أهل الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رد المظالم ، والمتوكل فى إحياء السنة وإماتة التجهم . (٢)

وبذلك تكون قد انتهت محنة خلق القرآن ، وكفى الله الناس الخوض فيها ، ومسألة خلق القرآن اتخذت فى هذه الفترة الجانب السياسى أكثر من اتخاذها الجانب العلمى .. وكما كان أمير المؤمنين المتوكل على الله سبباً فى إخمادها فقد كان الأمراء السابقون له سبباً فى ظهورها واستفحالها ومن ورائهم علماء

(١) البداية والنهاية لأبن كثير ج ١٠ / ٧٦٤ ط دار المعرفة الطبعة الثانية ١٤١٧هـ

— ١٩٩٧م

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦

السوء من المعتزلة والمنافقين يشدون أزرهم ويشعلون نار الفتنة كلما أوشكت أن تتطفئ

وفي نظري أن السبب الرئيسي لظهور الفتنة :

- غرور المأمون وعلامة غروره أنه كان يرى ضرب عنق من لم يقل برأيه .
- جهل المعتصم وعلامة جهله أن رأى كأنه ملزم بتنفيذ وصية أخيه وكان رأى أخيه دين لا بد أن يعتقده الناس .

- انقياد الواثق إلى ما كان عليه أبواه بغير تفكير وتدبير للأمر ..

وإن كان لم يحدث تعذيب في عهد المأمون إلا أنه يحمل وزر الذين عذبهم وقتلهم كل من المعتصم والواثق دون أن ينقص من وزرهما شيء لأنه كان يرى هذا ودعا إليه في حياته وأوصى به عند مماته ..

أما علماء المعتزلة الذين كانوا مقربين من الأمراء فإنهم أخطأوا أكثر من خطأ من هذه الأخطاء :

- أنهم خاضوا الحديث وأكثروا من الكلام في خلق القرآن والكلام في خلق القرآن فتنة وبدعة - والسؤال عنه تكلف ليس بواجب كما إنهم وصفوا القرآن باسماء من عندهم وفي هذا الضلال والهلكة ولو كفوا عن هذا ووصفوا القرآن بما وصفه الله سبحانه لكان خيراً لهم وأقوم .. روى صاحب العقد الفريد:

أن بشراً المريسي كتب إلى أبي يحيى منصور بن محمد يسأله : القرآن خالق أم مخلوق فكتب إليه أبو يحيى " عافانا الله وإياك من كل فتنة ، وجعلنا وإياك من أهل السنة ، وممن لا يرغب بنفسه على الجماعة ، فإنه إن يفعل فأعظم بها منه ، وأن لا تفعل فهي الهلكة ، ونحن نقول : إن الكلام في القرآن بدعة يتكلف المجيب ما ليس عليه ، ويتعاطى السائل ما ليس عليه ، وما نعلم خالقاً إلا الله ، وما سوى الله فمخلوق ، والقرآن كلام الله فأنته بنفسك إلى أسمائه

التي سماه الله بها فتكون من المهتدين ، ولا تسمّ القرآن باسم من عندك فتكون من الضالين . جعلنا الله وإياك من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون» (١)

من أخطاء المعتزلة أنهم أرادوا أن يشركوا العامة في مسائل من علم الكلام ، وهذا خطأ شنيع لأن عقول العامة لم تستطع استيعاب هذا العلم لأنهم أبعد الناس عن ذلك . وأنى يتسنى لهم فهم ذلك وعلم الكلام — كما يقول الأستاذ أحمد أمين ، علم دقيق تاهت فيه عقول الخاصة ، فهو للفلاسفة وأمثالهم لا للعامة وأشباههم . (٢)

ولو إنهم اهتموا بتعليم العامة الفقه وأصول الدين لكان خيراً لهم حيث إن هذه المسألة لا تمثل أكثر من فرع من فروع الدين ، والإختلاف في الفرع لا يضر القوم مادام أصل الدين يجمعهم وحول هذا المعنى يقول أبو العتاهية " رحمه الله " : — يخاطب ابن أبي دؤاد —

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشد وكان عزمك عزمياً فيه توفيق
 لكان في الفقه شغل لو قنعت به عن أن تقول كتاب الله مخلوق
 ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ما كان في الفرع لولا الجهل والموق (٣)

(١) حـ ٣٣٥/٢ العقد الفريد لأحمد بن عبدربه الأندلسي ط دار الفكر

(٢) ضحى الإسلام حـ ١٩١/٣

(٣) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٧٦٤/١٠ ط دار المعرفة الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ —
 ١٩٩٧م والموق الجهل .

من أخطاء المعتزلة أنهم أوحوا إلى الأمراء بأن يحملوا الناس على هذا القول مستغلين سلطانهم وسيوفهم وجنودهم فى هذه المسألة فكأنهم أرادوا أن يجعلوا مجالسهم للجدل والمناظرة مجمعاً كجمع القساوسة يقررون فيه ما يشاؤون ثم يرغمون الناس على القول بما يقررون ، بل زادوا عليهم قوة وتعذيباً (!) وهذا جهل عميق بدين الله تعالى ، ومخالفة صريحة للقرآن الكريم الذى بين لنا أن تصحيح العقيدة وتوضيح المفاهيم لا يكون بالإكراه والتعذيب وقوة السلطان فإن العقيدة محلها القلب ولا سلطان على القلب إلا لرب القلب .

ثم إن انتشار العقيدة يكون بالإقناع والبيان والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وحسبنا قول ربنا سبحانه وتعالى : " لَّا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " (٢) وقوله جل جلاله " أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ " (٣) وقوله سبحانه : " فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر " (٤) وقوله : " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (٥).

(١) ضحى الإسلام حـ ١٩١/٣ - ١٩٢

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٥٦ -

(٣) سورة يونس من الآية ٩٩

(٤) سورة العاشية : ٢١ - ٢٢

(٥) النحل آية : ١٢٥

لكن المعتزلة تركوا ذلك كله ، وأوغلوا صدور الأمراء ضد العلماء حتى صارت حرباً شعواء على من لم يقر بخلق القرآن الكريم وكان من الأمر ما كان ...

من أخطاء المعتزلة الشنيعة تشددهم الذميمة وغلوهم المبالغ فيه ، حيث عدوا السكوت عن القول بخلق القرآن إثماً وجريمة بل ربما جعلوه كفرًا حلال دم صاحبه علماً بأن أساس الإسلام " لا إله إلا الله محمد رسول الله " فمن قالها عصم دمه وماله وحسابه على الله كما جاء بذلك الحديث الصحيح المتفق عليه .. (١)

ومما يدعو إلى العجب والغرابة أن يكون مصدر هذا التعذيب وتلك المحنة هم المعتزلة الداعين إلى حرية الفكر والقائلين بسلطة العقل ، فقد كان الظن بهؤلاء التسامح في العقيدة والبعد عن الضغط والتعذيب ، ولكن تزمتمهم وتعسفهم جعلهم — رغم أنهم يؤمنون بسلطان العقل — يرون أن من لا يحكم عقله كما حكموا هم — أنعام أو كالأنعام ويجب أن يحمل من لا يعقل على قول من يعقل . وفاتهم أن العقول متفاوتة وأنماطها مختلفة وأن القول

(١) الحديث أخرجه مسلم حـ ١ / ٢٠٦ - ٢٠٧ كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا " لا إله إلا الله " . وأخرجه البخاري حـ ١ / ٥٩٢ كتاب الصلاة باب فضل استقبال القبلة الحديث رقم ٣٩٢ ونصه : عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا " لا إله إلا الله " فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا . فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله.

(٢٤٨)

بسلطان العقل يقتضى أن يعذر من ضاق عقله ويسمح له أن يسير فى حياته
حسب عقله مالم يضر بمصلحة عامة (١)

(١) ضحى الإسلام حـ ١٩٢/٣ بتلخص

الجانب العلمى العقدى

يرى المعتزلة أن القرآن مخلوقٌ محدث ، لم يكن ثم كان وأنه غير الله عز وجل ، وهو كالكلام الذى يتألف من حروف وأصوات يتضح ذلك من تفسيراتهم لأيات القرآن التى تتعلق بهذه المسألة . ومن هذه الأيات قوله تعالى:

١- وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . (١)

يقول الزمخشري حول هذه الآية - وهو رأس الاعتزال :

... وعن إبراهيم ويحيى بن وثاب أنهما قرآ وكلم الله بالنصب ومن بدع التفاسير أنه من الكلم وأن معناه : وجرح الله موسى بأظفار المحن ، ومخالب الفتن . (٢)

لكن ابن المنير وهو من علماء أهل السنة - يرد هذا التفسير فيقول : وإنما ينقل هذا التفسير عن بعض المعتزلة لإنكارهم الكلام الذى هو صفة الذات ، إذ لا يثبتون . إلا الحروف والأصوات قائمة بالأجسام لا بذات الله ، فيرد عليهم بجحدهم كلام النفس أبطال خصوصية موسى "عليه السلام" فى التكليم ، إذ لا يثبتونه إلا بمعنى سماعه حروفاً وأصواتاً قائمة ببعض الأجرام ، وذلك مشترك بين موسى وكل سامع لهذه الحروف حتى المشرك الذى قال الله فيه " حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ " (٣) فيضطر المعتزلى إلى إبطال الخصوصية

(١) سورة النساء من الآية ١٦٤

(٢) الكشاف حـ ٣١٤/١

(٣) سورة التوبة من الآية : ٦

الموسوية بحمل التكليم على التجريح ، وصدق الزمخشري وأنصف إنه لمن بدع التفاسير التي ينبو عنها الفهم ولا يبين بها إلا الوهم (١).

وعندما يزعم الزمخشري أن قوله تعالى " وكلم الله موسى تكليماً " (٢) يُقرأ ينصب لفظ الجلالة إنما يكون وقع في خطأين :

الخطأ الاول : تحريف لفظ القرآن ومعناه .

الخطأ الثانى : إنكاره تشریف سيدنا موسى "عليه السلام" بمنزلة تكليم الله له ويطيب لنا أن نبين ونفصل هذين الخطأين ، وأنهما بمنأى عن الصواب فتقول بعون الله وتوفيقه .

الخطأ الأول : فيه تحريف لفظ القرآن ومعناه .

وذلك لأن نصب لفظ الجلالة لا يصح لما فيه من مخالفة القراءات الصحيحة قال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي حدثني مسيح بن حاتم ، حدثنا عبد الجبار بن عبد الله قال : جاء رجل إلى أبى بكر بن عياش فقال سمعت رجلاً يقرأ وكلم الله موسى تكليماً " يعنى بفتح الهاء من لفظ الجلالة - فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر قرأت على الأعمش وقرأ الأعمش على ابن وثاب ، وقرأ يحيى بن وثاب على أبى عبد الرحمن السلمى ، وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب وقرأ علي ابن أبي طالب على رسول الله "صلى الله عليه وسلم" وكلم الله موسى تكليماً (٣) أى بالرفع .

(١) الكشاف وهامشه حـ ٣١٤/١

(٢) سورة النساء من الآية : ١٦٤

(٣) تفسير القرآن العظيم حـ ٢٩٥/٢

وقال بعضهم لأبى عمرو بن العلاء - أحد القراء السبعة - أريد أن تقرأ وكلم الله موسى ، بنصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله ! فقال أبو عمرو : هب أنى قرأت هذا كذا - فكيف تصنع بقوله تعالى : " ولما جاء موسى ليفاتنا وكلمه ربه " فبهت المعتزلى لأن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل . (١)

ثم إن نصب لفظ الجلالة مخالف لقواعد اللغة العربية - والقرآن منزل بلسان عربى مبين ، حيث إن تكليماً مصدر معناه التأكيد يدل على بطلان من يقول : خلق لنفسه كلاماً فى شجرة فسمعه موسى ، بل هو الكلام الحقيقى الذى يكون به المتكلم متكلماً . قال النحاس : أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً ، وأنه لا يجوز فى قول الشاعر :

امتلاً الحوض وقال قطنى

أن يقول : قال قولاً ، فكذا لما قال تكليماً وجب أن يكون الكلام على الحقيقة من الكلام الذى يعقل (٢) .

فالتأكيد بالمصدر بين أن الكلام على حقيقة وليس على المجاز . قال ثعلب : لولا التأكيد بالمصدر لجاز أن تقول قد كلمت لك فلاناً بمعنى كتبت إليه

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية حـ ١/١٦٢ وانظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد حـ ٢/

١٢ ط دار الكتاب العربى بيروت - لبنان الطبعة الثالثة ١٤٠٢ - ١٩٨٢

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى حـ ٦/١٨

رقعة وبعثت إليه رسولا فلما قال تكليما لم يكن إلا كلاما مسموعا من الله تعالى . (١)

وقال العلامة أبو السعود وقوله تعالى (تكليما) مصدر مؤكد رافع لإحتمال المجاز قال القراء : العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل مالم يؤكد بالمصدر فإذا أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام . (٢)

الخطأ الثانى : الذى وقع فيه الزمخشري - إنكاره تشریف سيدنا موسى - عليه السلام - بمنزلة تكليم الله له - ولا خلاف بين العلماء أن موسى كليم الله .

يقول شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبرى - رحمه الله - فى تفسير قوله تعالى : " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ " (٣) يقول تعالى ذكره هؤلاء رسلى فضلت بعضهم على بعض فكلمت بعضهم والذى كلمته موسى "صلى الله عليه وسلم" - وعن مجاهد : كلم الله موسى وأرسل محمدا "صلى الله عليه وسلم" إلى الناس كافة . (٤) ويقول ابن كثير " عن كلام الله لموسى " هذا تشریف لموسى "عليه السلام" بهذه الصفة ولهذا يقال له الكليم . (٥)

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان حـ ٣٩٨/٣ ط مكتبة النصر الحديثة الرياض .

(٢) انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبى السعود حـ ٢٥٦/١ ط مكتبة

ومطبعة عبد الرحمن محمد .

(٣) سورة البقرة من الآية ٢٥٣

(٤) تفسير الطبرى جـ ٣ / ٣

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ ٢٩٥/٢

ثم انه لو كان معنى الآية أن موسى هو الذى كلم الله تعالى كما زعم
الزمخشري - لكان كل أحد يكلم ربه أو يناجى ربه مثل موسى
- عليه السلام - ولما سمى موسى بالكليم ، ولما كان المقصود بقوله تعالى :
منهم من كلم الله

يقول الطبرى - رحمه الله - أما قوله : " وكلم الله موسى تكليماً" (١) فإنه يعنى
بذلك جل ثناؤه .

وخاطب الله بكلامه موسى خطاباً ... وسئل نوح ابن أبى مريم (٢) كيف كلم
الله موسى ؟ فقال مشافهة . (٣)

هذا وعندما ننظر الى الآيات التى تضمنت تكليم الله تعالى موسى
- عليه السلام - نجد أن منها عاماً مجملاً وأن الله قد فصل ما أجمله من
آيات .

(١) سورة النساء من الآية ١٦٤

(٢) نوح ابن أبى مريم هو يزيد بن جعونه المروزى أبو عصمة القرشى قاض مرو .
قال العباس بن مصعب : كان أبوه مجوسياً ويعرف بنوح الجامع وسمى الجامع لأنه
أخذ الفقه عن أبى حنيفة وابن أبى ليلى والحديث عن حجاج بن أرطاه والمغازى عن
ابن إسحاق والتفسير عن الكلبى ومقاتل وكان مع ذلك عالماً بأمور الدنيا فسمى الجامع
- أدرك الزهرى وابن المنكدر وكان يدلس عنهما قال الدراقطنى : متروك الحديث وقال
البخارى نوح بن أبى مريم ذاهب الحديث وقال ابن حبان نوح الجامع جمع كل شئ إلا
الصدق . مات سنة ثلاث وسبعين ومائة . انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى
حـ ٤٨٦/١٠ : ٤٨٨ ط دار صادر بيروت سنة ١٣٢٧هـ .

(٣) تفسير الطبرى حـ ٤٠٧/٤ .

يقول إمام الأئمة ابن خزيمة - رحمه الله - قال الله جل وعلا " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مِّمَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ " (١) فأجمل الله تعالى ذكر من كلمه فى هذه الآية فلم يذكره باسم ولا نسب ولا صفة فيعرف المخاطب بهذه الآية التالي لها أو سماعها من غيره أى الرسل الذى كلمه الله من بين الرسل وكذلك أجمل الله أيضا فى هذه الآية الجهات التى كلمه الله عليها من علمه أنه كلمهم من الرسل فبين فى قوله : " وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ " (٢) الجهات التى كلم الله عليها بعض البشر فأعلم انه كلم بعضهم وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء وبين فى قوله : " وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا " (٣) أن موسى " صلى الله عليه وسلم " كلمه تكليما فبين لعباده المؤمنين فى هذه الآية ما كان أجمله فى قوله : (منهم من كلم الله) (فسمى فى هذه الآية) (٤) كليمه وأعلم أنه موسى الذى خصه الله بكلامه ، وكذلك قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) (٥) مفسر للآية الأولى . سمي الله فى هذه الآية كليمه وأعلم أنه موسى الذى خصه الله بالتسمية من بين جميع الرسل صلوات الله عليهم ، وأعلم جل ثناؤه أن ربه الذى كلمه ، وأعلم الله تعالى فى آية أخرى أنه اصطفى موسى برسالته

(١) سورة البقرة من الآية ٢٥٣

(٢) سورة الشورى من الآية ٥١

(٣) سورة النساء من الآية : ١٦٤

(٤) أرى ان الأولى ان يقال " فوصف فى هذه الآية "

(٥) سورة الأعراف من الآية : ١٤٣

وبكلامه ، فقال عز وجل " يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي
وبكلامى فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين " (١) ففي هذه الآية زيادة بيان وهى
إعلام الله فى هذه الآية بعض ما به كلم موسى ألا تسمع قوله : " إني
اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامى فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين "
بين فى آى آخر بعض كلامه ما كلمه الله عز وجل فقال فى سورة طه
" فلما اتاها نودى يا موسى إني أنا ربك فأخلع نعلك إنك بالواد المقدس
طوى " (٢) وقال فى سورة النمل : " إذ قال موسى لأهله أنى آنست نارا
سأتيكم منها بخير أو أتاكم بشهاب قيس لعلكم تصطلون فلما جاءها نودى أن
بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله
العزیز الحكيم " (٣) وقال فى سورة القصص : " فلما اتاها نودى من شاطئ
الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى إني انا الله رب
العالمين " (٤)

فبين الله فى الآى الثلاث بعض ما كلم الله به موسى مما لا يجوز ان
يكون من ألفاظ ملك مقرب ولا ملك غير مقرب غير جائز أن يخاطب ملك
مقرب موسى فيقول : " إني انا الله رب العالمين " أو يقول :

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٤٤

(٢) سورة طه ١٢

(٣) سورة النمل : ٧ : ٩

(٤) سورة القصص : ٣٠

" فَإِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ " قال الله تعالى : " وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا " (١) فأعلم أن في هذه الآية أن له جل علاه كلمة يتكلم بها . (٢)

وفي السنة ما يؤيد ذلك ، فقد روى الشيخان وأبو داود - واللفظ له . عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" - " إن موسى "عليه الصلاة والسلام" قال يا رب أرنا آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة فأراه الله آدم "عليه السلام" فقال أنت أبونا آدم ؟ قال له آدم نعم . قال أنت الذى نفخ الله فىك من روحه وعلمك الأسماء كلها وأمر الملائكة فسجدوا لك ؟ قال نعم . قال فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ قال له آدم ومن أنت ؟ قال أنا موسى . قال أنت نبي بنى إسرائيل الذى كلمه الله من وراء حجاب لم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه ؟ قال نعم قال أفما وجدت أن ذلك كان فى كتاب الله قبل أن أخلق ؟ قال . نعم قال فبم تلومنى فى شئ سبق من الله تعالى فيه القضاء قبلى ؟

قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " عند ذلك فحج آدم موسى " (٣)

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٣٧

(٢) التوحيد واثبات صفات الرب للإمام محمد بن خزيمة ص ١٣٧ - ١٣٨ ط دار الشرق

(٣) أبو داود ح ٢٢٥/٤ - ٢٢٦ كتاب السنة باب القدر حديث رقم ٤٧٠٢ ط الدار المصرية اللبنانية - وانظر صحيح البخارى ح ٥١٣/١١ كتاب القدر باب تحتاج آدم موسى عند الله - وانظر صحيح مسلم ح ١٦ / ٢٠٠ ك القدر باب حجاج آدم وموسى " صلى الله عليهما وسلم "

مما سبق يتضح أن قراءة قوله الله تعالى " وكلم الله نوسى تكليما " بنصب لفظ الجلالة ، وأن إنكار تكليم الله موسى جريمة لغوية ، ومخالفة شرعية ، وفى ذلك إنكار لما شرف الله به نبيه موسى "عليه السلام " من كلامه معه بغير واسطة .

وأخيرا فإن قراءة النصب مرجوحة ومحجوبة بما هو أقوى منها حجة وكفى بورود قراءة الرفع حجة .

هذا وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - كثيرا من الأدلة التى تبين أن كلام الله ليس مخلوقا ورد على شبه المعارضين حيث استدلوا على خلق القرآن بقوله تعالى :

" قُلِ اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (١) " فقال الإمام أحمد - رحمه الله - من الأعلام

والدلالات انه لا يعنى كلامه مع الأشياء المخلوقة قال الله للريح التى ارسلها

على عاد: " تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا

مَسَاكِنُهُمْ " (٢) ومسكنهم شئ ، ولم تدخل فى عموم كل شئ دمرته الريح وذلك

لأن المراد تدمير كل شئ يقبل التدمير بالريح عادة أو ما يستحقه التدمير ..

وقد أنت تلك الريح على أشياء لم تدمرها وقد قال " تدمير كل شئ " فكذلك إذا

قال : خالق كل شئ " لا يعنى نفسه ولا علمه ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة

- وقال عن ملكة سبأ " وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ " (٣) .. وكان ملك سليمان شيئا ولم

(١) سورة الرعد من الآية ١٦

(٢) سورة الأحقاف من الآية ٢٥

(٣) سورة النمل من الآية ٢٣

تؤتته . كذلك إذا قال: خالق كل شيء لا يعنى كلامه عن الأشياء المخلوقة .

وقال الله لموسى "عليه السلام" "وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي" (١)

وقال وَيَحْذِرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ" (٢) وقال «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» (٣) وقال "

تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ" (٤) ثم قال "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

الْمَوْتِ" (٥) فقد عرف من عقل عن الله أنه لا يعنى نفسه مع الأنفس التي

تذوق الموت ، وقد ذكر الله عز وجل نفسه ، فكذلك إن قال : خالق كل شيء

لا يعنى نفسه ولا علمه ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة (٦).

٢- قول الله تعالى " فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ

الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ " (٧)

(١) سورة طه من الآية ٤١

(٢) سورة آل عمران من الآية ٣٠

(٣) سورة الانعام من الآية ٥٤

(٤) سورة المائدة من الآية ١١٦

(٥) سورة ال عمران من الآية ١٨٥

(٦) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٥ وانظر عقائد السلف للأئمة : أحمد بن

حنبل ، والبخارى ، وابن قتيبية : الرسالة الاولى ص ٧٦ - ٧٧ تحقيق الدكتور على

سامى النشار والدكتور عماد الطالبي منشأة المعارف بالاسكندرية

(٧) سورة القصص اية : ٣٠

إحتجت المعتزلة على قولهم ، إن الله تعالى متكلم بكلام يخلقه فى جسم بقوله "من الشجرة " فإن هذا فى رأيهم صريح فى أن موسى "عليه السلام " سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزه أن يكون فى جسم فثبت أنه تعالى إنما يتكلم بخلق القرآن فى جسم وذلك لأن المعتزلة يقولون : إن القرآن مخلوق خلقه الله منفصلا عنه. (١)

أجاب القائلون بقدوم الكلام فقالوا لنا مذهبنا الأول : قول أبى منصور الماتريدى وأئمة ما وراء النهر وهو أن الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع إنما المسموع هو الصوت والحرف وذلك كان مخلوقا فى الشجرة ومسموعا منها ، وعلى هذا التقدير نزال السؤال .

الثانى قول أبى الحسن الأشعري وهو أن الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعا ، كما أن الذات التى ليست بجسم ولاى عرض يمكن أن تكون مرئية ، فعلى هذا القول لا يبعد أنه سمع الحرف والصوت من الشجرة فلا منافاة بين الأمرين .. واحتج أهل السنة بأن قوله:

" إني أنا الله رب العالمين " لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة إني أنا الله . والمعتزلة أجابوا بأن هذا إنما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو أصل المسألة .. اجاب أهل السنة بأن الذراع المسموم قال لا تأكل منى فإنى مسموم ففاعل ذلك الكلام هو الله سبحانه وتعالى فإن كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون الله قال لا تأكل منى فإنى مسموم ، وهذا باطل ،

(١) التفسير الكبير ح ٢٣ / ٢٧٥ ط دار الغد وانظر شرح الطحاوية ح ١٥٩/١

وإن كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن تكون الشجرة قد قالت إني أنا الله وكل ذلك باطل (١).

وكون أن موسى "عليه السلام" سمع كلام الله من عند الشجرة لا يستلزم أن يكون الكلام مخلوق في الشجرة أو مسموعا منها ، وإنما غاية الأمر أن الكلام من الله والمكان الذي سمع فيه موسى هذا الكلام كان من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة . يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية وهو يرد على المعتزلة : وما أفسد استدلالهم بقوله : نودى من شاطئ الواد الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة .. على ان الكلام خلقه الله تعالى في هذه الشجرة فسمعه موسى منها ! وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها ، فان الله تعالى قال :

" فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن " والنداء هو الكلام من بعد ، فسمع موسى عليه السلام — النداء من حافة الوادى ثم قال : فى البقعة المباركة من الشجرة أى أن النداء كان فى البقعة المباركة من عند الشجرة ، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت ، يكون من البيت لابتداء الغاية ، لا أن البيت هو المتكلم ولو كان الكلام مخلوقا فى الشجرة لكانت الشجرة هى القائلة :

" يا موسى إني أنا الله رب العالمين " وهل قال " إني أنا الله رب العالمين " غير رب العالمين ؟! ولو كان هذا الكلام بدء من غير الله لكان قول فرعون " أنا ربكم الأعلى " صدقا ، اذ كلُّ من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله ! وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة : أن ذلك كلام خلقه الله فى الشجرة وهذا كلام خلقه فرعون

(١) التفسير الكبير حـ ٢٣/٢٧٥ ط دار الغد

فحرفوا ويدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله (١) .
ويمكن أن تقول إنما سمعه موسى " عليه السلام " هو كلام الله ، سمعه بلا صوت ولا حرف ولكن الله أودع في موسى " وهو على كل شيء قدير " القوة والقدرة التي استطاع بها موسى ان يتلقى هذا الكلام وما ذلك ببعيد لان خوارق العادات من شأن الله تعالى يجعلها معجزات لرسله وكون موسى " عليه السلام " مُمَيَّر بتكليم الله عز وجل له فلا بد ان يكون التكليم متسما بخرق العادة .

أما قولهم : ان الكلام جاء من الشجرة فهو لان الشجرة جعلها الله آية لموسى حيث اشتعلت فيها النيران وهى خضراء فلم تنطفئ النار لخضرة الشجرة وإنما جعل الله الشجرة لموسى بما أودع فيها من ذلك النور دليلاً يهتدى به إلى المكان الذى أراد الله أن يكلم موسى فيه فلم يكن الكلام من الشجرة كما يقولون وإنما كان فى المكان الذى فيه الشجرة وهذا ما حدى بالمعتزلة أن يقولوا أن الله خلق الكلام فى الشجرة فكلمت موسى .. والله أعلم .
ومما يرد قول المعتزلة أن القرآن مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه .

أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم ان الله قال ونادى وناجى ويقول ولم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه ، بل الذى أفهمهم إياه : أن الله نفسه هو الذى تكلم ، والكلام به لا بغيره ، وأنه هو الذى تكلم به وقاله كما قالت السيدة عائشة - رضى الله عنها - فى حديث الإفك :

(١) شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية لعل بن ابى المعز الحنفى حـ ١٦٨/١ - ١٦٩

"والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيأ يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم " في النوم رؤيا يبروني الله بها " (١)

ولا يعرف في لغة ولا عقل قائل متكلم لا يقوم به القول والكلام وإنما قام الكلام بغيره ، وإن زعموا أنهم فروا من ذلك حذرا من التشبيه ، فلا يثبتوا صفة غيره . فإنهم إذا قالوا : يعلم لا كعلمنا ، قلنا ويتكلم لا كتكلمنا .. وإنما يتكلم كما يليق بجلاله ألا ترى إنه تعالى يقول : " الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ " (٢) فنحن نؤمن أنها تتكلم ولا نعلم كيف تتكلم وكذا قوله تعالى : " وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ " (٣)

وكذلك تسبيح الحصى والطعام ، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف — ثم إن من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم " إذا نزل منزلا " أعود بكلمات الله التامات من شر ما خلق " (٤) فهل يقول عاقل إنه " صلى الله عليه وسلم " : عاذ بمخلوق؟! بل هذا كله كقوله

(١) الحديث رواه الشيخان وهذه رواية البخارى حـ ٣٠٨/٨ كتاب تفسير القرآن سورة النور باب لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين وانظر صحيح مسلم حـ ١١٢/١٧ ك التوبة ب في حديث الإفك وقبول توبة القاذق .

(٢) سورة يس من الآية ٦٥

(٣) سورة فصلت من الآية ٢١

(٤) رواه مسلم حـ ٣١/١٧ ك الذكر والدعاء باب الدعوات والتعوذ .

"صلى الله عليه وسلم" اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافتك من عقوبتك" (١) — وكقوله "صلى الله عليه وسلم" : أعوذ بعزة الله من شر ما أجد وأحاذر " (٢) وكقوله "صلى الله عليه وسلم" وأعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا " (٣)

كل هذه من صفات الله . (٤)

ويجب عليهم إذا زعموا أن كلام الله لموسى خلقه فى شجرة أن يكون من سمع كلام الله من ملك أو نبي أتاه به من عند الله أفضل مرتبة فى سماع الكلام من موسى لأنهم سمعوه من نبي ، ولم يسمعه موسى "عليه السلام" من الله ، وإنما سمعه من شجرة ، وأن يزعموا أن اليهود اذا سمعت كلام الله من موسى نبي الله — أفضل مرتبة فى هذا المعنى من موسى بن عمران

-
- (١) رواه الترمذى حـ ١٣/١٠ ك الدعوات ب فى دعاء الوتر وقال حسن غريب
- (٢) رواه الترمذى ونصه " عن عثمان بن أبى العاص أنه قال : " أتانى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" — وبى وجع قد كاد يهلكنى ، فقال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" امسح بيمينك سبع مرات وقل أعوذ بعزة الله وقدرته وسلطانه من شر ما أجد "قال: ففعلت ، فأذهب الله ما كان بى ، فلم أزل أمر به أهلى وغيرهم " الترمذى حـ ٢٤٥/٢٩ ك الطب وقال حسن صحيح ورواه مالك فى الموطأ حـ ٧٣٨/٢ ك العين ب التعوذ والرقية فى الرضا حديث رقم : ٩ ط دار إحياء الكتب العربية .. ورواه أبو داود كتاب الطب باب كيف الرقى حديث رقم ٣٨٩١ ... وابن ماجه كتاب الطب باب ماعوذ به النبي " صلى الله عليه وسلم" حديث رقم ٣٥٢٢ .
- (٣) رواه النسائى حـ ٦٧٧/٨ ك الإستعاذة ب الإستعاذة من الخسف حديث رقم ٥٥٤٤ ونصه " اللهم انى أعوذ بك ان اغتال من تحتى "
- (٤) شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية حـ ١٦١/١ : ١٦٢ — بتصريف وتقديم وتأخير

" صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم — لان اليهود سمعته من نبي من الأنبياء ، وموسى "صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم سمعه مخلوقا فى شجرة ، ولو كان مخلوقا فى شجرة لم يكن الله عز وجل مكلما موسى من وراء حجاب . ولأن كلام الله عز وجل لموسى "عليه السلام" لو كان مخلوقا فى شجرة كما زعموا لزمهم أن تكون الشجرة بذلك الكلام متكلمة ووجب عليهم أن مخلوقا من المخلوقين كلم موسى وقال له " إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني " وهذا ظاهر الفساد . (١)

وفساده أن ليس أحد قال " إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني " (٢) إلا رب العالمين الذى قال لموسى " إني أنا الله رب العالمين . (٣) ولأن الله مخبر عن المشركين أنهم قالوا ، إن هذا إقوال البشر (٤) . يعنون القرآن الكريم فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد جعله قولا للبشر ، وهذا ما أنكره الله على المشركين ، ولأن الله تعالى قال : " قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي " (٥) فلو كانت البحار مدادا يكتب به لنفدت البحار وتكسرت الأقلام ولم يلحق الفناء كلمات الله عز وجل

(١) الإعتقاد على مذهب اهل السنة والجماعة للحافظ البيهقي ص ٣٣ صححه ونشره

أول مرة أحمد محمد موسى ١٣٨٠هـ — ١٩٦١ م

(٢) سورة طه من الآية ١٤

(٣) سورة القصص من الآية ٣٠

(٤) قال تعالى : " فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إقوال البشر سأصليه سقر "

سورة المدثر الآيات من ٢٤ : ٢٦

(٥) سورة الكهف من الآية : ١٠٩

كما لا يلحق الفناء علم الله لأن من فنى كلامه . لحقته الأفات وجرى عليه السكوت ، فلم لم يجر ذلك على ربنا عز وجل صح أنه لم يزل متكلماً ولا يزال متكلماً ، وقد نفى النفاذ عن كلامه كما نفى الهلاك عن وجهه . (١)

فكأن الذى يقول بخلق القرآن ينسب القرآن إلى غير الله كما زعم المشركون أنه قول البشر ولعل هذا الذى جعل الإمام الشافعى - رضى الله عنه - يصرح بكفر من يقول أن القرآن مخلوق . قال ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية :

قال الشافعى : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر ..
وانه - أى الشافعى - كان يمر بأيات الصفات وأحاديثها من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف على طريقة السلف (٢)

٣- قول الله تعالى :

" وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ لَجَلُودِنَا لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (٣)

إحتج المعتزلة بهذه الآية على خلق القرآن . يقول الزمخشري : فإن قلت :

(١) انظر الاعتقاد على مذاهب أهل السنة والجماعة ص ٣٤

(٢) البداية والنهاية ٢٥٤/٩ ط دار الفكر العربى الطبعة الأولى سنة ١٣٥١هـ -

١٩٣٣

(٣) سورة فصلت ١٩ : ٢١

كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تتطرق ؟ قلت : الله عز وجل ينطقها كما انطق الشجرة بأن يخلق فيه كلاماً . (١)

أقول : وقع الزمخشري في خطأ واضح حيث شبه كلام الأعضاء يوم القيامة بالكلام الذي سمعه موسى "عليه السلام" وهو بالواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وأن كلاهما مخلوق ، الأول مخلوق في الأعضاء والثاني مخلوق في الشجرة ، وفاته أن الكلام الذي سمعه موسى كلام الله ، أما كلام الأعضاء يوم القيامة وشهادتها فإنه ليس كلام الله وإنما كلام الأعضاء وشهادة الأعضاء بدليل قول الله بعد ذلك " وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا " أى أن الجلود هى التى شهدت وهى التى نطقت والله تعالى هو الذى أنطقها .
يقول الفخر الرازى : ردا على المعتزلة : فى هذه الآية :

فإنهم يقولون إن الله تعالى خلق الكلام فى الشجرة وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة . فما هنا لو قلنا إن الله خلق الأصوات والحروف فى تلك الأعضاء لزم أن يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك الأعضاء ولزم أن يكون المتكلم بذلك الكلام هو الله لا تلك الأعضاء ، وظاهر القرآن يدل على أن تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الأعضاء لا من الله تعالى لأنه تعالى قال : " شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم " وأيضا أنهم قالوا : لتلك الأعضاء " لم شهدتم علينا " فقالت الأعضاء " أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ " وكل هذه الآيات دالة على ان المتكلم بتلك الكلمات هى تلك الأعضاء وأن تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى : (٢)

(١) الكشاف حـ ٣٨٩/٣

(٢) تفسير الفخر الرازى حـ ٦٢٤/٢٦

وهذه المسألة لا إشكال فيها ، ونطق الأعضاء يوم القيامة ليس بالعجيب ولا الغريب ، فقد أنطق الله الجماد فى الدنيا وما تسيح الحصى ونطق الشاة المسمومة لرسول الله "صلى الله عليه وسلم" عنا ببعيد ، وكذلك حنين الجذع وقد حدث هذا فى الدنيا وفى الآخرة من باب أولى . يقول الفخر الرازى - رحمه الله - :

أما على مذهب أصحابنا فهذا الإشكال غير لازم ، لأن عندنا البنية ليست شرطاً للحياة ولا للعلم ولا للقدرة ، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، وعلى هذا التقدير فالإشكال زائل وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان أن البنية ليست شرطاً للحياة ولا شئ للصفات المشروط بالحياة (١)

وما نطق الأعضاء وعدمه إلا كخلق بنى الإنسان الذى ركب الحياة فيه ، وقد كان نطفاء، فمن قدر على ذلك فلا استحالة أن ينطق الجلود وغيرها . يقول القرطبى - رحمه الله - حول هذه الآية :

لما خاطبت وخوطبت أجريت مجرى من يعقل " وهو خلقكم أول مرة " أى ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفاء، فمن قدر عليه قدر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء . (٢)

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله " صلى الله عليه وسلم " فضحك فقال : هل تدرون ممّ أضحك " قلنا الله ورسوله أعلم . قال :

(١) المرجع السابق جـ ٢٦ / ٦٢٤

(٢) الجامع لأيات الأحكام جـ ١٥ / ٣٥٠

" من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإنني لا أجز على نفسي إلا شاهدا مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه إنطقي فتتلق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام قال فيقول بعدا لكن وسحقا فعنك كنت أناضل " (١) وفي حديث أبي هريرة " ثم يقال له الآن نبعت شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد على فيختم على فيه ويقال لخذ له ولحمه وعظمه انطقي فتتلق فخذ له ولحمه وعظمه بعمله (٢) ..

وبالجملة فأهل السنة كلهم ، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن كلام الله غير مخلوق ، وأنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء وكيف شاء ، وأن نوع كلامه قديم . وكذلك ظاهر كلام الإمام أبو حنيفة — رضى الله عنه — فى الفقه الأكبر — فإنه قال : والقرآن فى المصاحف مكتوب ، وفى القلوب محفوظ وعلى الألسن مقروء ، وعلى النبى صلى " الله عليه وسلم " منزل ولفظنا بالقرآن مخلوق ، والقرآن غير مخلوق وما ذكر الله فى القرآن عن موسى " عليه السلام " وغيره وعن فرعون وإبليس — فإن ذلك كلام الله إخبارا عنهم وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق والقرآن كلام الله لا كلامهم ، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذى هو من صفاته لم يزل . وصفاته كلها خلاف صفات

(١) فتتلق بأعماله لا بكلام يخلقه الله كما يزعم المعتزلة

(٢) مسلم حـ ١٨/١٠٤ : ١٠٥ كتاب الزهد

المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا ويتكلم لا ككلامنا (١)

وأن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً ، وهذا المأثور على أئمة الحديث والسنة .. والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال ، وضده من أوصاف النقص قال الله تعالى : " وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلِيهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا " (٢)

فكان عباد العجل - مع كفرهم ، أعرف بالله من المعتزلة فإنهم لم يقولوا لموسى " وربك لا يتكلم أيضاً " وقال تعالى عن العجل أيضاً " أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا " (٣) فعلم أن نفي رجوع القول ونفي الكلام نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل . (٤)

ولعل الذى أدى بالمعتزلة إلى هذا الضلال الظاهر من زعمهم أن وصف الله بأنه متكلم يقتضى التشبيه والتجسيم له سبحانه الذى أدى بهم إلى ذلك اعتمادهم على العقل دون النقل من كتاب الله أو سنة رسوله "صلى الله عليه وسلم" وعدم تلقى العلم عن أهله - وهذه طريقة أهل الأهواء والبدع .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٨ - ١٢٩ باختصار ط مكتبة الدعوة الإسلامية

حققها وراجعها جماعة من العلماء . خرج أحاديثها محمد ناصر الألبانى

(٢) سورة الأعراف من الآية ١٤٧

(٣) سورة طه من الآية ٨٩

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٠-١٢١ - بتصرف-

يقول أبو المعز الحنفى :

ولا شك أن مشايخ المعتزلة - وغيرهم من أهل البدع - معترفون بأن اعتقادهم فى التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة ولا عن أئمة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وإنما يزعمون أنهم تلقوا من الأئمة الشرائع (١) .

٤- إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (٢)

قال الزمخشري : جعلناه بمعنى خلقناه (٣) . وقال غيره من أهل الاعتزال : أن الآية تدل على أن القرآن مجعول ، والمجعول هو المصنوع المخلوق (٤) . وهذا الإستدلال فيه نظر حيث إنهم لم يفرقوا فيه بين " جعل " التى تتعدى الى مفعول واحد وتكون بمعنى " خلق " وبين جعل التى تتعدى الى مفعولين فلا تكون بمعنى خلق لذلك أنكر صاحب شرح الطحاوية هذا الإستدلال فقال : .. واما استدلالهم بقوله تعالى : " إنا جعلناه قرآنا عربيا " فما أفسده من استدلال ! فان " جعل " إذا كان بمعنى خلق يتعدى الى مفعول واحد " كقوله تعالى " وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ " (٥) وقوله تعالى : وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ (٦)

(١) شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية لأبى المعز الحنفى حـ ١ / ١٧١ : ١٧٢

(٢) سورة الزخرف اية : ٣

(٣) الكشاف حـ ٣ / ٤١١

(٤) تفسير الفخر الرازى حـ ٢٧ / ٧٢

(٥) سورة الأنبياء من الآية ٣٠

(٦) سورة الانعام من الاية ١

وقوله سبحانه : وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَؤُوسًا أَنْ تَمِيذَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا
سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ " (١)

وقوله " وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا " (٢)

وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق : قال الله تعالى :

" وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا " (٣)

وقال سبحانه : " وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ " (٤)

وقال جل ثناؤه : " الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ " (٥)

وقال جل جلاله : " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ " (٦)

وقال سبحانه : " وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِاثًا " (٧)

ونظائر كثيرة — فكذا قوله تعالى : " إنا جعلناه قرآنا عربيا " (٨)

(١) سورة الأنبياء ٣١

(٢) سورة الأنبياء من الآية ٣٢

(٣) سورة النحل من الآية ٩١

(٤) سورة البقرة من الآية ٢٢٤

(٥) سورة الحجر من الآية: ٩١

(٦) سورة الإسراء من الآية ٢٩

(٧) سورة الزخرف من الآية ١٩

(٨) انظر شرح الطحاوية في العقيدة السلفية حـ ١٦٧/١ : ١٦٨ ط لعلی بن المعز

الحنفي تحقيق د / عبد الرحمن عميرة ط مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠٢هـ —

وبعد : فإن كل مسألة لا يبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعا : (١)

وأرى ان مسألة خلق القرآن من المسائل التي لا يبنى عليها عمل فمن ثمَّ كان ينبغي الإمساك عنها ، ولم يكن واجبا الخوض فيها ، ولعلها من الأشياء التي سكت عنها ربنا رحمة بنا من غير نسيان ، فيجب ألا نبحث عنها فهذا هو الجدير بالسنة وما سواه من البدع التي نهينا عنها .

فقد رُوِيَ عن النبي "صلى الله عليه وسلم" قوله : "إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها ، وحد لكم حدودا فلا تعتدوها ، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان لا تكلفوها رحمة من ربكم فاقبلوها ." (٢)

(١) من أقوال الأستاذ حسن البنا "رحمه الله" في كتابه رسالة التعاليم ج٧ ط رمسيس
 (٢) سنن الدراقطني ج٣/١٩٩ - ك الأشريية وغيرها ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان . هذا الحديث اختلف فيه قال ابن رجب الحنبلي :
 إنه اختلف في رفعه ووقفه عن ابن ثعلبه ورواه بعضهم عن مكحول لكن الدراقطني قال الا شبه بالصواب المرفوع ، وهو أشهر . وقد حسن الشيخ "رحمه الله" (يعنى النووي) هذا الحديث ، وكذلك حسنه قبله الحافظ أبو بكر السمعاني في أماليه - انظر جامع العلوم والحكم ص٣٣٦ ط دار الحديث الطبعة الخامسة سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

قلت روى معنى هذا الحديث مرفوعا من طرق أخرى منها مارواه الترمذى : وابن ماجه واللفظ للترمذى ، ان رسول الله "صلى الله عليه وسلم" سئل على السمن والجبن والفراء فقال : الحلال ما أحل الله فى كتابه ، والحرام ما حرم الله فى كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه الترمذى ج٥/٣٩٦ كتاب الباس /٦- باب ما جاء فى =

وفى الإختلاف مع استحداث المسائل الهلكة والضياع فقد جاء فى الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة "رضى الله عنه" عن النبى "صلى الله عليه وسلم" قال : " دعونى ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبياءهم ، فإذا نهينكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم . (١)

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - " بعث الله نبىه "صلى الله عليه وسلم" وأنزل كتابه وأحل حلاله ، وحرّم حرامه فما أحل فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو، ثم تلا قوله تعالى : " قُلْ لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . (٢)

فلو ترك المعتزلة قضية خلق القرآن واكتفوا بالإيمان بأن القرآن كلام الله ، أوحى الله به لرسوله "صلى الله عليه وسلم" فبلغه لكان خيراً لهم وأقوم .. ولو أنهم تقربوا إلى الله وتعالى بقرائته وتدبر معانيه لكان أحب إلى الله من التقرب إليه سبحانه بقتل العلماء وحبس الأبرياء وتعذيب كل منهما كما زعم الواثق أنه يحتسب خطاه عند الله وهو يقتل أحد العلماء !! ولبئس ما صنع ..

= ليس الفراء قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وانظر سنن ابن ماجه . حـ ١١١٧/٢ - (٢٩) ك الأطمعه ب أكل الجبن والسمن حديث رقم ٣٣٦٧.

(١) البخارى حـ ٢٦٤/١٣ كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب الإفتداء بسنن رسول

الله "صلى الله عليه وسلم" حديث رقم ٧٢٨٨

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى صـ ٣٣٧ والأية من سورة الأنعام ١٤٥

وليسألن يوم القيامة عما قتل ومثّل .

ولو أنهم استعانوا بهؤلاء العلماء للإلمام بعلوم القرآن ، كل على قدر جهده وعلمه ، والإهتداء بهدى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" الذى هو أحسن^(١) الهدى والتخلق بأخلاقه فإنه "صلى الله عليه وسلم" كان خلقه القرآن .^(٢) لو فعلوا ذلك ما قتل عالم من علماء المسلمين وكيف يقتل والله يقول : "وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا " ^(٣)

ولكن الغرور والجهل ، والإستبداد بالرأى مع وجود بطانة سيئة ومنافقة ، أدى ذلك إلى خراب البلاد ، وشقاء العباد ، وصدق رسول الله "صلى الله عليه وسلم" فيما رواه أبو داود عن عائشة "رضى الله عنها " قالت : قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه ، وإن أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه " ^(٤)

(١) روى البخارى عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : "إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد "صلى الله عليه وسلم" — ٢٦٣/١٣ ك الإعتصام بالكتاب والسنة ب الإفتداء بسنن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" حديث رقم ٧٢٧٧ .

(٢) أخرجه مسلم — ٢٦/٦ كتاب صلاة المسافرين باب صلاة الليل .

(٣) سورة النساء اية ٩٣

(٤) سنن ابى داود — ١٣١/٣ كتاب الخراج والإمارة والفئ باب فى اتخاذ الوزير

حديث رقم ٢٩٣٢ ط الدار المصرية اللبنانية .

وفى صحيح البخارى : ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه — والمعصوم من عصم الله تعالى . (١)

إن واجبنا نحو القرآن الكريم :

ان نتقرب إلى الله تعالى بقراءته وتدبر معانيه ، كما علينا تنفيذ أحكامه والإمام بعلومه ومعارفه ، والإهتمام بهديه والتخلق بأخلاقه (٢) ..

وليس بواجب علينا ان نبحث إذا ما كان مخلوقا أو غير مخلوق فإن هذا من التكلف الذى نهينا عنه .. وإنه من الأشياء التى لا ينفع العلم بها ولا يضر الجهل بها ..

(١) رواه البخارى حـ ٢٠١/١٣ ك الأحكام ب بطانة الإمام وأهل مشورته حديث رقم

. ٩١٩٨

(٢) العقيدة الواسطية لابن تيمية ص ٤٧ ط مؤسسة الطباعة والصحافة .

الفصل الثالث

العَدَل

ويتكون من ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : العبد خالق لأفعال نفسه

المبحث الثاني : الله لا يريد الشر والقبائح

المبحث الثالث : وجوب فعل الصلاح على الله لعباده

العبد خالق لأفعال نفسه

هذه المسألة من المسائل التي دان المعتزلة بها أنفسهم وتعد من اصل العدل حيث إنهم يزعمون ان الله لم يخلق افعال العباد لاختيرا ولا شرا أى أن إرادة الانسان حرة ، والإنسان خالق أفعاله ومن أجل هذا كان مثابا على الخير معاقبا على الشر وقد وجدوا فى ظاهر بعض الايات ما يعينهم على ما يعتقدون . فهذا امامهم الزمخشري قد وجد فى ظاهر قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) (١) ما يعينه على تقدير رأى المعتزلة فى حرية الإرادة الإنسانية . . . فيقول فى كشفه : (يعنى لاضطرهم ان يكونوا أهل أمة واحدة أى ملة واحدة وهى ملة الإسلام كقوله ^١ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً " (٢) وهذا يتضمن نفى اضطرار وانه لم يضطرهم إلى الإنفاق على دين الحق ولكنه مكنهم من الإختيار الذى هو اساس التكليف فاختر بعضهم الحق وبعضهم الباطل (٣)

فالزمخشري يزعم أن الله يقدر أن ينقذهم من الهلاك والكفر فى حال الإضطرار أما فى حالة الإختيار فلا - وهذا ما يخالف مذهب أهل السنة الجماعة ، وفى التنزيل ما ينقض كلام الزمخشري . يقول الله تعالى : "اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ " (٤) يقول العلامة ابو منصور الماتريدى فى كتابه تاويلات أهل السنة : وقوله " ويمدهم فى طغيانهم يعمهون " فى قوم علم الله انهم لا يؤمنون كقوله

(١) سورة هود من الآية ١١٨ .

(٢) سورة الأنبياء من الآية ٩٢ .

(٣) الكشف حـ ٢٣٩/٢ ط المكتبة التجارية الكبرى الطبعة الاولى سنة ١٣٥٤

(٤) سورة البقرة الآية : ١٥

العدل

العدل هو الأصل الثانى من أصول المعتزلة الخمسة والجدير بالذكر أن المسلمين جميعا يعتقدون ويؤمنون بالعدل ولكن المعتزلة لهم وجهة نظر خاصة فى العدل من حيث تعريفه ، كما أنهم بنوا على هذا التعريف بعض المسائل والقواعد التى اتفقوا عليها ... أما تعريفه عندهم فقد ذكره المسعودى فى كتابه مروج الذهب فقال :

وأما القول بالعدل - وهو الأصل الثانى - فهو أن الله لا يجب الفساد، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه ولى كل حسنة أمر بها ، وبرئ من كل سيئة نهى عنها ولم يكفهم مالا يطيقونه ، ولا أراد منهم مالا يقدرون عليه ، وأن أحدا لا يقدر على قبض ولا بسط الا بقدرة الله التى أعطاهم إياها ، وهو المالك لها دونهم يفتنيها اذا شاء ، ويبقيها إذا شاء ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم إضطرأياً عن معصيته ، وكان على ذلك قادراً غير أنه لا يفعل ، إذ كان فى ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى^(١)

وقد بين الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل الأشياء التى اتفق عليها المعتزلة وسموها عدلاً فقال :

واتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله ، خيرها وشرها مستحق على ما يفعلته ثواباً وعقاباً فى الدار الآخرة والرب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر أو معصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق

(١) مروج الذهب - ٣ / ٢٠٥ ط دار الكتاب اللبنانى الطبعة الاولى ١٤٠٢ / ١٩٨٢

العدل كان عادلا ، واتفقوا على أن الحكيم لايفعل إلا الصلاح ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد ، وأما الأصلح واللفظ ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلا . (١)

نستنبط مما ذكر ان المعتزلة رتبوا على أصل العدل المسائل الآتية . .

- ١- العبد خالق لأفعال نفسه بقدره خلقها الله فيه .
 - ٢- الله لا يريد الشر والقبائح لأن إرادة الشر شر كما أن إرادة القبح قبيح والله منزّه عن ذلك .
 - ٣- وجوب فعل الصلاح على الله لعباده لاتصافه بالحكمة اذ لو فعل بهم غير ذلك لم يكن حكيما ، اما فعل الأصلح فلم تجتمع كلمتهم فيه فمنهم من قال بوجوبه ومنهم من لم ير وجوبه .
- ويجدر بنا ان نناقش كل مسألة من هذه المسائل على حده

(١) الملل والنحل ج١/٦٧ ط محمد علي صبيح

أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .^(١) غير أن هذه في المنافقين والأولى في الكفرة وهي تنقض على المعتزلة قولهم ، لانهم يقولون ان الله لا يقدر ان يستنقذهم في حالة الإختيار وأما يقدر الإستنقاذ في حالة الإضطراب فأخبر عز وجل أنه يستنقذهم على فعل الطغيان .

وقوله : ويمدهم أى يخلق فعل الطغيان فيهم ويحتمل أن يخذلهم ويتركهم كما اختاروا من الطغيان الى آخر عمرهم . ويحتمل أنه لم يهدم ولم يوفقهم .

في هذا إضافة المد إلى الله وإضافة مد على الطغيان لا يضاف اليه إلا للمدح وفي هذا أنه اذا كان هو يمدهم في الطغيان قدر على ضده من فعل الإيمان . فدل أن الله تعالى خالق فعل العباد ، إذ من قولهم أن القدرة التامة هي التي إذا قدر على شئ قدر على ضده . والعمة الحيرة في اللغة .^(٢) أى تركهم في حيرة من أمرهم لأن العمة كما قال الفخر الرازى مثل العمى إلا ان العمى عام في البصر والرأى والعمة في الرأى خاصة وهو التردد والتحير لا يدرى أين يتوجه .^(٣)

هذا ، وقد احتج المعتزلة بحجج عقلية على أن الإنسان خالق أفعال نفسه .. من تلك الحجج :

^(٥) سورة البقرة الاية ١٦

^(٢) تاويلات اهل السنه ص ٤٩ : ٥٠ لابي منصور الماتريدى السمرقندى

الحنفى ط الارشاد بغداد سنه ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣

^(٣) الفخر الرازى ح ١٢ / ٤٥ ط دار الغد

١- قو لهم : أن فى أفعال العباد ما هو ظلم وجور ، فلو كان الله سبحانه وتعالى خالقاً لها لوجب أن يكون ظالماً جائراً . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ..

٢- وقالوا كيف يستقيم الحكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم .

فأين العدل فى تعذيبهم على ما هو خالقهم وفاعله فيهم!؟

فتعين أن الإنسان هو الخالق لأفعاله كلها خيرها وشرها . وقد أفضى بهم ذلك إلى إنكار القدر ، وقالوا إن الإنسان هو القادر على أن يفعل الخير أو يتركه ، وعلى أن يفعل الشر أو يتركه ، وأنه لا دخل لقدرة الله فى ذلك . (١)

هذا ، وقد قصد المعتزلة من نظريتهم هذه أن ينزهوا الله عن الظلم فارتفعوا بالإرادة الإنسانية وجعلوها مسؤولة عن عملها .

وقصد المعتزلة هذا قصد فاسد ، إذ لا مغايرة بين أن الله يخلق المكروه والمذموم والفاقد وتنزيهه سبحانه عن الظلم .. "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا" (٢)

وإذا زعم المعتزلة أن خلق الظلم والجور دلالة على ظلم خالقه فمن ذا الذى خلق إبليس وليس هناك من هو أفسد منه ؟ وهل يكره الله سبحانه وتعالى

(١) انظر شرح الاصول الخمسة ص ٣٤٥ بتصرف ط مكتبه وهبه - وانظر شرح

العقيدة الطحاوية ص ٢١٧ بتصرف ط مكتبه الدعوة الاسلامية

(٢) سورة النساء من الآية : ٤٠

احدا ككراهيته إبليس اللعين ؟ ومع ذلك فإن الله خلقه وتركه حياً إلى يوم القيامة وهو يفعل ما يكرهه الله ولو شاء الله ما فعله ...

وكذلك في الكون مخلوقات عديدة كريهة ذميمة فيها الضرر الجسيم لابن آدم - أحب الخلق إلى الخالق - مثل : الحية والعقرب والفأرة والكلب العقور - اللاتى أحل الله قتلهن في الحرم ^(١) فمن الذى خلقهن ؟!

ان في خلق المكروه والمحبوب لكمال القدرة لله ، وليس نقصا في حق الإله كما يزعم المعتزلة. يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية :

هو سبحانه يكره الشئ ، ولا ينافى ذلك إرادته لأجل غيره ، و كونه سببا إلى أمر هو احب اليه من فوقه ^(٢) من ذلك : انه خلق إبليس ، الذى هو مادة لفساد الأديان والأعمال والإعتقادات والإرادات ، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد ، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه وتعالى ، وهو الساعى فى وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه ، ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، ووجودها أحب اليه من عدمه ، منها : انه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذا الذات التى هى أخبث الذوات وشرها ، وهى سبب كل شر ، فى مقابلة جبرائيل ،

(١) روى البخارى بسنده عن عائشة " رضى الله عنها " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمس من الدواب كلهن فاسق يقتلن فى الحرم : الغراب والحداة والعقرب والفأرة والكلب العقور " حـ ٤ / ٤٢ ك جزاء الصيد . ب ما يقتل فى الحرم حديث ١٨٢٩ . وجاء ذكر قتل الحية فى الحديث رقم ١٨٣٠ من صحيح البخارى فى نفس الباب .

(٢) لعل الصواب من فوته اى تركه

التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها ، وهي مادة كل خير ،
فتبارك خالق هذا وهذا . كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار ،
والدواء والداء والحياة والموت ، والحسن والقبيح ، والخير والشر ، وذلك
من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه ، فإنه خلق هذه
المتضادات ، وقابلها بعضها ببعض ، وجعلها محالاً تصرفه وتدييره فخلو
الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدييرملكه .^(١)
ومما لا شك فيه أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً فهو سبحانه منزّه عن ذلك وما
نراه نحن البشر شراً في نظرنا إنما هو قد خلق لحكمة يعلمها الله سبحانه
وتعالى وقد لا تصل عقول البشر إلى إدراك تلك الحكم وعلى هذا فدليل
العبودية الكاملة لله تعالى أن نسلم بأن ما أوجده خير كله باعتبار الغاية التي
وجدمن أجلها وأن الإعتراض على شئ من ذلك دليل نقص الإيمان .
ورأى المعتزلة في إرداة الله لم يجد القبول عند كثير من العقلاء سواء
كانوا مؤمنين أو كافرين ...

فقد كان جماعة في سفينة فيها قدرى ومجوسى فقال القدرى للمجوسى : أسلم
- قال المجوسى حتى يريد الله . فقال القدرى ^(٢) : ان الله يريد ولكن
الشیطان لا يريد ! قال المجوسى : أراد الله وأراد الشيطان فكان ما
أراد الشيطان ! هذا شيطان قوى ! وفى رواية إنه قال : فأنا مع أقواهما !
- ووقف أعرابى - مسلم - على حلقة فيها

(١) اشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢١ ط مكتبة الدعوة الإسلامية

(٢) القدرية والمعتزلة يرون أن الله يريد الإيمان والكافر يريد الكفر .

عمرو بن عبيد - معتزلى - فقال : يا هؤلاء ان ناقتى سرقت فاجعلوا الله ان يردّها علىّ ، فقال عمرو بن عبيد : اللهم انك لم ترد ان تسرق ناقته فسرقت ، فارددها عليه . فقال الأعرابى : لاجابة لى فى دعائك ! قال : ولمّ ؟ قال : أخاف - كما أراد أن لا تسرق فسرقت - أن يريد ردها فلا ترد (١)

فالمعتزلة كما ذكرنا ارتفعوا بإرادة الإنسان وجعلوها مسئولة عن عملها ، وغفلوا أنهم أساوا الأدب مع الله حيث جعلوا مشيئة العبد تكون ومشيئة الله لا تكون - لذلك يرى الأشاعرة أن فى هذا تضيقا من قدرة الله ، ولذلك قالوا بنظرية الكسب ، وملخصها أنه لافاعل للأفعال إلا الله ، وأنه قدّر كل شئ قبل خلقه ويقترن خلق الله لأفعال الإنسان بكسبه ، فا لأفعال مخلوقة من الله مكسوبة من العبد (٢)

اقول: ومن العدل الإلهى أن جعل الله الثواب والعقاب حسب ما يكسب الإنسان أويكتسب ، قال تعالى :

"لَا يَكْفِيُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَالِيهَا مَا كَتَسَبَتْ" (٣)

وقال سبحانه : " كل نفس بما كسب رهينة " (٤) ثم كانت " رحمة الله " الواسعة بعباده أن الحسنات مضاعفة والسيئة بسئة مثلها فقال جل جلاله :

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٨

(٢) هامش شرح الاصول الخمسة ص ١٣١ ط مكتبه وهبه

(٣) سورة البقرة من الايه : ٢٨٦

(٤) سورة المدثر أيه : ٣٨

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١)

ويرى علماء أهل السنة والجماعة أن أفعال العباد خلق من الله واكتساب من العبد لان الله تعالى يقول :

" وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَاتَعَمَلُونَ " (٢) يقول القرطبي :

والأفضل ان تكون " ما " مع الفعل مصدرا ، والتقدير والله خلقكم وعملكم ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة : أن الأفعال خلق من الله عز وجل واكتساب للعباد ، وفي هذا ابطال مذاهب القدرية والجبرية (٣)

ويقول جل جلاله : " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ " (٤)

يقول الفخر الرازي - رحمه الله - :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خالق الخير والشر لأن قوله تعالى : " جعلنا لكل بنى عدوا " يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولاشك أن

تلك العداوة كفر . (٥)

ويقول الله سبحانه وتعالى : " يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا

الْفَاسِقِينَ " (٦)

(١) سورة الانعام آية : ١٦٠

(٢) سورة الصافات اية : ٩٦

(٣) الجامع لاحكام القرآن حـ ١ / ٩٦

(٤) سورة الفرقان من الآية : ٣١

(٥) التفسير الكبير حـ ٢٣ / ٤٠ ط دار الغد

(٦) سورة البقرة من الاية ٢٦

يقول صاحب لباب التنزيل :

الإضلال خلق فعل الضلال في العبد ، والهداية خلق فعل الإهتداء هذا هو الحقيقة عند أهل السنة (١) .

هذا، وهناك آيات كثيرة احتج بها أهل السنة ، هذه الآيات واضحة الدلالة على بطلان اعتقاد المعتزلة في خلق الأفعال من هذه الآيات ما ذكره البيهقي في كتابه "الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة" حيث قال رحمه الله :
- قال الله عز وجل : «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» (٢) فدخل فيه الأعيان والأفعال من الخير والشر . وقال سبحانه : «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» (٣) فنفى أن يكون خالق غيره ونفى أن يكون شئ سواه غير مخلوق ، فلو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله سبحانه خالق بعض الأشياء دون جميعها وهذا خلاف الآية . . .

ومعلوم أن الأفعال أكثر من الأعيان ، فلو كان الله خالق الأعيان ، والناس خالقى الأفعال لكان خلق الناس أكثر من خلقه ، ولكانوا أتم قوة منه وأولى بصفة المدح من ربهم سبحانه، ولأن الله تعالى قال : " وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ " (٤) فأخبر أن أعمالهم مخلوقة لله عز وجل عن فتادة في قوله "

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن حـ ١ / ٣٧ ط الاستقامة الطبعه

الاولى سنة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م

(٢) سورة غافر من الآية : ٦٢

(٣) سورة الرعد من الآية : ١٦

(٤) سورة الصافات اية : ٩٦

اتعبدون ماتحتون " (١) قال الأصنام . والله خلقكم وما تعلمون ، قال خلقكم
 وخلق ما تعملون بأيديكم ، ولان الله تعالى قال : " وخلق كل شئ وهو بكل
 شئ عليم " (٢) فامتدح بالقولين جميعا فكما لا يخرج شئ من علمه لا يخرج
 غيره من خلقه ، ولأنه قال : " وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات
 الصدور ألا يعلم من خلق " (٣) فأخبر أن قولهم وسرهم وجهرهم خلقه
 وهو بجميع ذلك عليم وقال : " وأنه هو أضحك وأبكى " (٤) كما قال :
 " وأنه هو أمات وأحيا " (٥) فكما كان مميتا محييا بأن خلق الموت والحياة
 كان مضحكا ومبكيا بأن خلق الضحك والبكاء ، وقد يضحك الكافر مسرورا
 بقتل المسلمين وهو منه كفر ، وقد يبكي حزنا بظهور المسلمين وهو منه كفر ،
 فثبت أن الأفعال كلها خيرها وشرها صادرة عن خلقه واحداثه اياها ولأنه قال
 : " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى " (٦) وقال
 " أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون " (٧)

(١) سورة الصافات آية : ٩٥

(٢) سورة الانعام من الآية : ١٠١

(٣) سورة الملك آيتان ١٣ : ١٤

(٤) سورة النجم آية : ٤٣

(٥) سورة النجم آية : ٤٤

(٦) سورة الأنفال من الآية : ١٧

(٧) سورة الواقعة آية : ٦٤

فسلب عنهم فعل القتل والرمى والزرع مع مباشرتهم اياه ، واثبت فعلها لنفسه ، ليدل بذلك على أن المعنى المؤثر فى وجودها بعد عدمها هو ايجاده وخلقه ، وإنما وجدت من عباده مباشرة تلك الأفعال بقدرة حادثة أحدثها خالقنا عز وجل على ما أراد فهى من الله سبحانه خلق على معنى أنه هو الذى اخترعها بقدرته القديمة وهى من عباده كسب على معنى تعلق قدرة حادثة بمباشرتهم التى هى أكسابهم ووقوع هذه الأفعال أو بعضها على وجوه تخالف قصد مكتسبها يدل على موقع أوقعها على ما أراد غير مكتسبها ، وهو الله ربنا خلقنا وخلق افعالنا ، لا شريك له فى شئ من خلقه ، تبارك الله رب العالمين

وكان الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان ^(١) يعبر عن هذا بعبارة حسنة فيقول: فعل القادر القديم خلق ، وفعل القادر المحدث

^(١) هو العلامة : سهل بن محمد بن سليمان بن العجلى الحنفى ، ثم الصُّغلوكى النيسابورى الفقيه الشافعى ، شيخ الشافعية بخرسان - تفقه على والده وسمع من أبى العباسى الأصم وأبى على الرِّفَاء وطائفة ، ودرّس وتخرج به أئمة . قال الحاكم : هو انظر من رأينا ، تخرج به جماعة ، وحدث وأملى . قال : وبلغنى أنه كان فى مجلسه أكثر من خمس مائة محبره وكان فقيها أديبا ، جمع رئاسة الدين والدین واخذ عنه فقهاء نيسابور .

وكان أبوه يجله ويقول سهل والد ، حدث عنه الحاكم وهو أكبر منه ، وأبو بكر البيهقى وآخرون ، له الفاظ بديعه ، منها : من تصدّر قبل أوانه ، فقد تصدى لهوانه . وقال : إذا كان رضى الخلق معسورا لا يدرك ، كان رضى الله ميسورا لا يترك ، إنا نحتاج الى اخوان العشرة لوقت العسرة وكان بعض العلماء يعد أبا الطيب المجدد للأمة دينها على رأس الأربعمائه توفى الإمام ابو الطيب فى رجب سنة أربع وأربعمائه " رحمه الله //

كسب ، فتعالى القديم عن الكسب وجل . وصغر المحدث عن الخلق وذل، وقد

اثبت سبحانه كسب العباد . وخلقه كسبهم

بما ذكرنا من الآيات فى هذا الموضوع (١)

هذا . وفى السنة أحاديث كثيرة تؤيد وتبين ان الله سبحانه وتعالى هو الخالق

للأفعال كلها وفاعلها .

فعن حذيفة بن اليمان ان رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال: خلق الله كل

صانع وصنعتة (٢) فهو الخالق وهو الصانع سبحانه .

وعن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" والذى

نفس محمد بيده إن المعروف والمنكر خليقتان ينصبان للناس يوم القيامة فأما

المعروف فيبشر أصحابه ويوعدهم الخير وأما المنكر فيقول إليكم إليكم وما

يستطيعون له إلا لزوما (٣)

//تعالى . انظر سير اعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبى حـ ١٧ / ٢٠٧ : ٢٠٩ ط

مؤسسة الرسالة الطبعة الحادية عشرة ١٤١٧ / ١٩٩٦ م .

(١) انظر الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة للبيهقى ص ٥٩ : ٦١ بدون

طبعه .

(٢) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبد الله أبو الحسن الكردى وهو

ثقة انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لأبى بكر الهيثمى حـ ٧ / ٢٠٠ ط مؤسسه

المارف ببيروت .

(٣) المسند حـ ٤ / ٣٩١ ط المكتب الإسلامى . بيروت . قال السخاوى رواه أحمد

والبزار ورجالهما رجال الصحيح - انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لأبى بكر

الهيثمى حـ ٧ / ٢٦٢ ط طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

وفى سنن أبي داود أن عمر بن الخطاب "رضى الله عنه" سئل عن هذه الآية "وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ" ^(١) "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم" سئل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون" فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار" ^(٢)

بهذا الحديث الذى بيّن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله سبحانه وتعالى خلق فريقا من ذرية آدم للجنة ، وأنهم يعملون بعمل أهل الجنة ، وأنه سبحانه خلق فريقا للنار ، وأنهم يعملون بعمل أهل النار يعملون وغير ذلك مما جاء فى نص الحديث لم يعد للمعتزلة حجة قوية فى زعمهم أن الله لم يخلق أفعال العباد لا خيرها ولا شرها بل أصبحت كل حججهم مرجوحة محجوجة بما هو أقوى منها حجة وبرهانا ويكفى هذا الحديث حجة ...

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٧٢

(٢) سنن ابى داود حـ ٤ / ٢٢٦ كتاب السنه باب القدر حديث رقم ٤٧٠٣ ط الدار

المصرية اللبنايه .

وقد يتبادر الى الذهن أن في حديث دعاء الإستفتاح ما يتعارض مع هذا وهو قوله صلى الله عليه وسلم " : "والخير كله في يديك والشر ليس إليك" (١)

فهذا لا يحمل على ظاهره وإنما معنى الحديث كما قال البيهقي "رحمه الله" الأرشاد الى استعمال الادب والثناء على الله عز وجل والمدح له بأن يضاف اليه محاسن الأمور ، دون مساوئها ، ولم يقصد به إدخال شئ في قدرته ، ونفى ضده عنه ، فقد قال في حديث آخر : " والمعصوم من عصم الله " (٢) وعن يحيى بن معين أنه قال : قال النضر بن شميل والشر ليس إليك تفسيره والشر لا يتقرب به إليك (٣)

أقول لعل نظير ذلك قول الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبتيا أفضل الصلاة وأتم التسليم .
 "وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ" (٤)

وقوله له سبحانه على لسان الجن في سورة الجن : "وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ
 بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا" (٥)

(١) رواه سلم حـ ٦ / ٥٩ (ك) صلاة المسافرين وقصرها (ب) صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه بالليل

(٢) البخارى حـ ١٣ / ٢١٠ كتاب الاحكام باب بطانه الامام واهل مشورته حديث رقم

٩١٩٨

(٣) الاعتقاد ص ٦٢ وانظر شرح صحيح مسلم للنووى حـ ٦ / ٥٩ .

(٤) سورة الشعراء ايه ٨٠

(٥) سورة الجن ايه ١٠

فقد أحسن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - الثناء على الله حيث نسب إليه الشفاء ونسب المرض إلى نفسه فهذا يدل على علو الأدب مع الله لكن لا يمنع أن الشفاء والمرض من الله تعالى وحده - وكذلك الجن فإنهم :

"أحسنوا الادب في ذكر إردادة الشر محذوفة الفاعل والمراد بالمريد هو الله عز وجل وإبرازهم لإسمه عند إردادة الخير والرشد فجمعوا بين العقيدة الصحيحة والأداب المليحة (١)

وهذا لا يمنع ان الرشده والضلال بإرادة الله ومن الله تعالى القائل :

" قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ " (٢)

وكذلك سيدنا الخضر - أضاف خرق السفينة إلى نفسه ، وأضاف قصة استخراج كنز الغلامين الى الله تعالى كما قال سبحانه :

" أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا " (٣)

وقال جل جلاله : " وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ " (٤)

(١) هامش الكشاف لابن المنير حـ ٤ / ١٤٧

(٢) سورة النساء من الايه : ٧٨

(٣) سورة الكهف ايه ٧٩

(٤) سورة الكهف من الايه ٨٢

ذلك لأن استخراج الكنز لما كان خيراً كله أضافه الى الله تعالى ، وأضاف عيب السفينة الى نفسه رعاية للأدب ، لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه .. فلا يضاف إلى الله سبحانه وتعالى إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح وهذا كما قال تعالى :

"بِيَدِكَ الْخَيْرُ" (١) واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه ، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع ، إذ هو على كل شيء قدير ، وهو بكل شيء خبير والله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء ، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة ، والأفعال الشريفة - جل وتعالى عن النقائص والأفات علوا كبيرا (٢)

وفى دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وأهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت . (٣)

وقوله عليه الصلاة والسلام : " ... والمعصوم من عصم الله " (٤)

(١) سورة ال عمران من الايه ٣٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي حـ ٣٩/١١ : ٤٠

(٣) رواه مسلم حـ ٦ / ٥٨ ك صلاة المسافرين وقصرها - ب - صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه بالليل

(٤) البخارى حـ ١٣ / ٢٠١ ك الاحكام - ب - بطانه الإمام وأهل مشورته حديث رقم

فهذا يدل على ان الله هو الذى يهدى لأحسن الأخلاق ويصرف سيئها وانه قد
يصرفها عن قوم دون قوم - كما أنه يهدى قوما دون قوم ويعصم قوما دون
قوم ، ومن لم يهده و من لم يعصمه فقد خذله ومن خذله لم يرد به خيرا -
قال الله تعالى : "أُولَئِكَ الَّذِينَ لِيُرِيَنَّ اللَّهُ أَن يَطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ " . (١)

(١) سورة المائدة من الآية ٤١

المبحث الثاني : الله لا يريد الشر والقبائح

الله لا يريد الشر والقبائح

يرى المعتزلة أن الله لا ينسب إليه شيء من الشر مثل الكفر والمعصية ، وكل ما هو قبيح ،
فإنه - في زعمهم - يريد من العباد الإيمان والطاعة ولكن العباد يفعلون غير ذلك بارادتهم هم
وزعم المعتزلة أن ارادة الشر شر كما أن ارادة القبح قبيح والله منزه عن ذلك
حول هذا المعنى يدور تفسير الزمخشري لقول تعالى "
" وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار
إنه لا يفلح الظالمون " (١)
حيث يقول :

عاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى " أولئك لهم عقبى
الدار جنات عدن " (٢)

وقوله : " وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار " (٣)

المراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها ان يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى
الملائكة بالبشرى عند الموت (فان قلت) العاقبة المحمودة والمذمومة
كلاهما يصح ان تسمى عاقبة الدار لان الدينا إما أن تكون خاتمتها بخير
أو شر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر (قلت)

(١) سورة القصص ايه ٣٧

(٢) سورة الرعد من الايتين ٢٢ / ٢٣

(٣) الرعد من الايه ٤٢

قد وضع الله سبحانه الدينا مجازا الى الآخرة وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير وَمَا خَلَقَهُمْ إِلَّا لِأَجَلِهِ كَمَا قَالَ : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " (١) لِيَتَلَقُوا خَاتِمَةَ الْخَيْرِ وَعَاقِبَةَ الصَّدَقِ وَمَنْ عَمِلَ فِيهَا خِلَافَ مَا وَضَعَهَا اللَّهُ فَقَدْ حَرَفَ فَإِذَا عَاقَبْتَهَا الْأَصْلِيَّةُ هِيَ عَاقِبَةُ الْخَيْرِ وَأَمَّا عَاقِبَةُ السُّوءِ لَا اعْتِدَادَ بِهَا لِأَنَّهَا مِنْ نَتَائِجِ تَحْرِيفِ الْفَجَارِ . (٢)

ويرد ابن المنير على الزمخشري فيقول :

إن استدلاله - أي الزمخشري - على أن عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هي المرادة له لا سواها لقوله تعالى : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " معارض بأمثاله في أدلة أهل السنة والجماعة على عقائد مثل قوله :

" وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " (٣) . والمراد - والله اعلم - ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقا كثيرا

من الثقلين ومن ذلك ما يروى عن الفاروق "رضى الله عنه" أنه قال : وإنكم آل المغيرة ذرأ النار أي خلقها فلئن دلت أية الذاريات ظاهرا على أن الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثوابا على عبادتهم له فقد دلت أية الأعراف على أنه خلق كثيرا من الثقلين لتكون عاقبتهم جهنم جزاء على كفرهم وحينئذ يتعين الجمع بين الأيتين وحمل عموم أية الذاريات على خصوص الآية الأخرى وأن المراد ما خلفت السعداء من الثقلين الا لعبادتي

(١) سورة الذاريات آية : ٥٦

(٢) الكشاف حـ ٣ / ١٦٧ ط الكتبه التجاربه

(٣) سورة الاعراف آية : ١٧٩

جمعا بين الادلة فقد ثبت أن العاقبتين كليهما مرادة الله تعالى هذا بعد تظاهر البراهين العقلية على ذلك فوجه مجئ العاقبة المطلقة كثيرا وإرادة الخير بها أن الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ما ورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الاليم وركب فيهم عقولا ترشدهم الى عاقبة الخير ومكنهم منها وأزاح عنهم ووفر دعاويهم فكان من حقهم ألا يعدلوا عن عاقبة الخير ولا يسلكوا غير طريقها وأن يتخذوها نصب أعينهم فاطلقت العاقبة والمرد بها الخير تفريعا على ذلك والله اعلم . (١)

وفي القرآن الكريم ما يثبت أن الهدى والضلال بإرادة الله تعالى فالله تعالى يضل من ثبت في علمه انهم يختارون الضلال ، ويهدى من ثبت في علمه أنهم يختارون الهدى، يقول الماتريدي في تفسير قول الله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّابْعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِكثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ " (٢) أراد أن يضل بهذا المثل كثيرا - وأراد أن يهدى به كثيرا ، أضل به من علم أنه يختار الضلالة ويهدى به من علم أنه يختار الهدى . . . وهذا يبطل كلام المعتزلة " أراد أن يهدى به الكل ولكنهم لم يهتدوا . . . " (٣)

(١) هامش الكشف حـ ١٦٧/٣ - ١٦٨

(٢) سورة البقرة : ٢٧

(٣) تاويلات اهل السنة ص ٧٨

ويقول صاحب تفسير روح البيان:

كان القرآن لقوم شفاء ورحمة ولقوم شقاء ونقمة لأنه كلامه وصفته شاملة اللطف والقهر فبلطفه هدى الصادقين وبقهره أضل الفاسقين لقوله : وما يضل به الا الفاسقين الخارجين من إصابة رشاش النور في بدء الخليقة ... (١)

قلت : جاء في السنة ما يؤيد هذا القول: فقد روى الترمذى عن عبد الله بن الديلمى (٢) قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول - سمعت رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يقول : إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جَفَّ القلم على علم الله (٣)

ويقول الله تعالى على لسان سيدنا نوح "عليه السلام" يخاطب قومه :

"وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (٤)

فهذه الآية تبين أن الله تعالى إذا أراد أن يغوى قوما فإن نصح الناصحين لا ينفعهم البتة ولو كان الناصح رسولا نبيا...

(١) تفسير روح البيان الشيخ محمد حقى البرسوى - ٩٨/١ ط دار الفكر .

(٢) هو عبد الله بن فيروز الديلمى ، أخو الضحاك ، ثقة من كبار التابعين منهم من ذكره

في الصحابة انظر تحفة الاحوذى للإمام الحافظ ابى العلاء المباركفورى - ٤٣٧ / ٧

(٣) رواه الترمذى - ٤٣٧ / ٧ كتاب الايمان - باب ماجاء فى افتراق هذه الامة حديث

رقم ٢٦٤٢ - وقال حديث حسن

(٤) سورة هود آية ٣٤

وفى الآية ما يدل على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد ، وأنه إذا أراد منه ذلك فإنه يمتنع صدور الإيمان منه ، قالوا : إن نوحا عليه " السلام " قال " لا ينفعمكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم " والتقدير لا ينفعمكم نصحى إن كان الله

يريد أن يغويكم ويضلكم ، وهذا صريح فى مذهبنا .^(١)

وذكر القرطبي رحمه الله إن معنى قوله تعالى : " إن كان الله يريد أن يغويكم " أى يضلكم ... ثم قال وهذا مما يدل على يطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن وافقهما ، إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يعصى العاصى ، ولا يكفر الكافر ، ولا يغوى الغاوى ، وأنه يفعل ذلك والله لا يريد ذلك فرد الله عليهم بقوله : " إن كان يريد أن يغويكم " ... ولا محيص لهم عن قول نوح " عليه السلام " ^(٢) فأضاف إغواءهم الى الله سبحانه وتعالى ، إذ هو الهادى والمضل سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علواً كبيراً ... وقوله " هو ربكم " فإليه الإغواء وإليه الهداية .^(٣)

ومما يرد به على المعتزلة فى زعمهم أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله واعتقادهم أن الإنسان خالق لأفعاله وهو غير محتاج فى صدورها عنه إلى ربه - مما يرد به عليهم فى هذا قوله تعالى : " إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ " ^(٤)

(١) مفاتيح الغيب ح ١٦ / ٥١٧

(٢) أى قوله الذى قصه الله علينا (إن كان الله يريد أن يغويكم)

(٣) الجامع لاحكام القرآن ح ٩ / ٢٨

(٤) سورة الفاتحة ٦ : ٧

يقول القرطبي - راداً على المعتزلة :

قد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سألوه الهداية الى الصراط المستقيم ، فلو كان الأمر اليهم والإختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية . ولا كرروا السؤال في كل صلاة ، وكذلك تضرعهم اليه في دفع المكروه ، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . . فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألا يضلهم ، وكذلك يدعون فيقولون : " ربنا لاترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا " (١)

فالضالون ثبت في علم الله أنهم ضالون ، وكذا المهتدون ثبت في علم الله أنهم مهتدون . . .

ولا يتبادر الى الذهن أن ما دام ثبت في علم الله أنهم عصاة ضالون فلا ذنب عليهم ولا لوم ، فهذا نوع من العبث لأن علم الله لا يحملهم على المعصية .. فقد قيل لعبد الله بن عمر بن الخطاب "رضى الله عنهما" يا أبا عبد الرحمن إن أقواما يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون: كان في علم الله ولم نجد بداً منه ، فغضب ثم قال : " سبحان الله العظيم ، قد كان ذلك في علمه أنهم يفعلونها ، ولم يحملهم علم الله على فعلها(٢) .

وفي رواية أنه قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أن برئى منهم وأنهم براء منى والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ثم قال حدثني أبي عمر بن الخطاب قال بينما نحن عند رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ذات يوماً إذا طلع علينا رجل شديد

(١) الجامع لاحكام القرآن حـ ١ / ١٤٩ - والاية من سورة ال عمران رقم ٨

(٢) المنية والأمل صـ ١٩ ط دار المعرفة الجامعية .

بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبي " صلى الله عليه وسلم " فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن أمارتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطالون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي يا عمر أتدرى من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . (١)

ثم قال ابن عمر " رضى الله عنهما " : لعبد يعمل المعصية ثم يقر بذنب على نفسه أحب إليّ من عبد يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويقول : إن الله تعالى يفعل الخطيئة فيه . (٢)

ومن قبل قد وضح هذا الأمر وأزال منه اللبس الإمام على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فى قصة الشيخ الذى سأله فإن الإمام علياً " رضى الله عنه " — عندما انصرف من صفين قام إليه شيخ فقال :

(١) مسلم — ١ / ١٥٦ : ١٦٠ كتاب الإيمان باب كفر من نفى القدر .

(٢) المنية والأمل ص ١٩

" أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر " ؟ فقال : "والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ، ما هبطنا واديا ولا علونا قلعة إلا بقضاء وقدر " فقال الشيخ . " عند الله احتسب عنائي ، مالى من الأجر شئ " .

فقال : " بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا فى شئ من حالاتكم مكرهين ، ولا إليها مضطرين "

فقال الشيخ : وكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا ، وعنهما كان مسيرنا ؟ " فقال على - رضى الله عنه - " لعلك تظن قضاء واجبا ، وقدر حتم (١) ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تاتى من الله لائمة لمذنب ولا محمداً لمحسن ، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسئ ، ولا المسئ بعقوبة الذنب أولى من المحسن - تلك مقالة إخوان الشياطين ، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن ، وشهود الزور ، أهل العمى عن الصواب فى الأمور ، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله تعالى أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ولم يكلف مجبراً ، ولا بعث الأنبياء عبثاً " ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ " (٢)

فقال الشيخ : وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ؟ " فقال : " أمر الله بذلك وإرادته " ثم تلا " وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا " (٣) فنهض الشيخ مسروراً بما سمع ، وأنشأ يقول :

(١) لعلها : حتماً .

(٢) سورة ص من الآية ٢٧

(٣) سورة الإسراء من الآية ٢٣

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضوانا
 أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا جزاك ربك بالإحسانى إحساناً^(١)
 ولكن الزمخشري يرى أن إسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى
 السبب لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم
 وهداهم ثم يستشهد على ذلك بقصة وردت عن مالك بن دينار رحمه الله
 — أنه دخل على محبوس أخذَ بمال عليه وقيد فقال يا أبا يحيى أما ترى ما
 نحن فيه من القيود فرفع مالك رأسه فرأى سلة فقال لمن هذه السلة فقال لى
 فأمر بها تنزل فإذا دجاج وأخبصة^(٢) فقال مالك هذه وضعت القيود على
 رجلك^(٣)

ويستكر ابن المنير ذلك بقوة ويرد على الزمخشري مندداً به أنه (جرى على
 سنة السببية فى اعتقاد الإشراف بالله ، وأن الإضلال من جملة المخلوقات
 الخارجة عن عدد مخلوقاته عز وجل بل من مخلوقات العبد نفسه على زعم
 هذه الطائفة تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وما أشنع تصريحه بأن
 الله سبب الإضلال لا خالقه كما أن السلة سبب فى وضع القيود فى رجل

(١) المنية والأمل تأليف القاضى عبد الجبار تحقيق د/ عصام الدين محمد ص ١٧ --

١٨ ط دار المعرفة الجامعية سنة ١٩٨٥م

(٢) الأخبصة : الشىء المخلوط

(٣) الكشاف ج ١ / ٥٨

المحبوس وإسناد الفعل لله عز وجل مجاز لا حقيقة ياله فى تمثيل صار مثله
وتتظير صار به حائداً عن النظر الصحيح مردود على التفصيل والجملة . (١)
والله تعالى موصوف بالإرادة على الحقيقة عند أهل السنة فإذا قيل أراد الله كذا
فإن كان فعله فمعناه أنه فعل وهو غير ساه ولا مكره عليه ، وإن كان فعل
غيره فمعناه أنه أمر به . (٢)

٢- ويقول الزمخشري فى قوله تعالى :

" سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا " (٣) أى جاؤا بالتكذيب المطلق

لأن الله عز وجل ركب فى العقول وأنزل فى الكتاب ما دل على غناه وبرائته
من مشيئة القبائح وإرادتها والرسل أخبروا بذلك فمن علق وجود القبائح من
الكفر والمعاصى بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله وهو تكذيب الله
وكتبه ورسله ، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره . (٤)

هذا خلط واضح بين زعم المشركين واعتقادهم انهم مسلوبون القدرة
والإختيار ، وبين أن كل شئ يقع بإرادة الله سواء كان حسناً أو سوءاً

(١) هامش الكشاف ج ١ / ٥٨

(٢) الخازن ج ١ / ٣٧ ط الإستقامة الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥

(٣) سورة الأنعام من الآية ١٤٨

(٤) الكشاف ج ٢ / ٤٦

فالأول باطل والثاني حق لا ريب فيه قال تعالى: " قُلْ كُلُّ مَنِّ عِنْدِ اللَّهِ " (١)
ثم إن الرد على المشركين إنما كان لإعتقادهم انهم مسلبون إختيارهم وقدرتهم
وأن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الإضطرار وزعموا أنهم يقيمون
الحجة على الله ورسوله بذلك فرد الله قولهم وكذبهم في دعواهم عدم الإختيار
لأنفسهم وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل وأشرك بالله
واعتمد على أنه يفعل ذلك كله بمشيئة الله .. ثم بين الله تعالى أنهم لا حجة
لهم في ذلك وأن الحجة البالغة له لا لهم بقوله : قل فله الحجة البالغة " ثم
أوضح تعالى أن كل واقع بمشيئته وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم وأنه لو
شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون بقوله: " فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ " (٢) والأية رد
صراح على طائفة الإعتزال القائلين أن الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين
فلم تقع من أكثرهم فوجه الرد أن "لو" اذا دخلت على فعل مثبت نفته فيقتضى
ذلك أن الله تعالى لما قال فلو شاء لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم ولو شاءها
لوقعت فهذا تصريح ببطلان زعمهم .. والأية جامعة لعقيدة أهل السنة منطبقه
عليها فان أولها يثبت للعبد اختياراً وقدرة على وجه يقطع حجتة وعذره في
المخالفة والعصيان وأخرها يثبت نفوذ مشيئة الله في العبد وأن جميع أفعاله
على وفق المشيئة الإلهية خيراً أو غيره . وذلك عين عقيدتهم فإنهم

(١) سورة النساء من الآية ٧٨

(٢) سورة الأنعام من الآية ١٤٩

(أى اهل السنة) كما يثبتون للعبد مشيئة وقدرة يسلبون تأثيرها ويعتقدون أن ثبوتها قاطع لحجته، ملزم له بالطاعة على وفق اختياره ويثبتون نفوذ مشيئة الله فهم تبع للكتاب العزيز يثبتون ما أثبت وينفون ما نفى مؤيدون بالعقل والنقل (١) ثم إن هذه الآية التي استدل بها المعتزلة إنما تبين أن المشركين زعموا ان الله رضى لهم كفرهم وشركهم والله لا يرضى لعباده الكفر .
يقول القاسمى - رحمه الله - فى تفسير هذه الآية :

" والقصد الإعتذار عن كل ما يقدمون عليه من الإشراف وتحريم الحلال - أى ولكنه لم يشأ الترك وشاء الفعل ففعلنا طوع مشيئته ، وهو لا يشاء إلا الحق ، لانه قادر ، فلو لم يكن حقاً يرضاه لمنعنا منه ، وهو لم يمنعنا منه فهو حق ، وفى حكاية هذه المناظرة والمجادلة بيان لنوع من كفرهم شنيع جداً ..
ثم ينبه القاسمى على تكرير هذه الآية فى القرآن ويوصى بالتدبر لها حتى يتبين الحق المراد - ويتسنى الرد على المعتزلة وغيرهم فيقول : هذه الآية تكرر نظيرها فى التنزيل الكريم فى عدة سور وهى من الآيات الجديرة بالتدبر لتمحيص الحق فى المراد منها فقد زعم المعتزلة أن فيها دلالة واضحة لمذهبهم من أن الله لا يشاء المعاصى والكفر ، كما تبجح بذلك منهم

(١) هامش الكشاف حـ ٤٦/٢ : ٤٧ .

الطبرسى الشيعى فى تفسيره وقال : إن فيها تكذيبا ظاهرا لمن أضاف مشيئة ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، وكذا الزمخشرى فى تفسيره (١)

هذا ، وقد اتخذ المشركون هذه الآية الكريمة حجة على إقامتهم على شركهم ، والحجة عليهم فى هذا فإنهم - كما يقول الزجاج - إذا اعتقدوا أن كل من كان على شئ - والأشياء تجرى بمشيئة الله فهو على صواب فلا معنى إذن - على قولهم - للرسالة والأنبياء فيقال لهم : فالذين على دين يخالفكم ،

أليس هو على ما شاء الله ؟ فينبغى ألا تقولوا إنهم ضالون ، وهو عز وجل يفعل ما يشاء ، وهو قادر على أن يهدى الخلق أجمعين ، وليس للعباد على الله أن يفعل بهم كل ما يقدر عليه . (٢)

وعلى من زعم : أن إذا كان الكل بمشيئة الله وتقديره كان التكليف عيئا ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة ، ونبوتهم ورسالتهم باطلة أيضا يرد الفخر الرازى - رحمه الله - فيقول :

إن الله تعالى بين أن التمسك بهذا الطريق فى إبطال النبوة باطل ، وذلك لانه إليه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض عليه لأحد فى فعله فهو

(١) محاسن التأويل للقاسمى حـ ٦ / ٢٥٤١ - ٢٥٤٢ ط دار الكتب العربية الطبعة

الأولى سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨

(٢) معانى القرآن وإعرابه للزجاج حـ ٢ / ٣٠٢ - ٣٠٣ ط دار الحديث الطبعة الأولى

سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

تعالى يشاء الكفر من الكافر ، ومع هذا فبيعت اليه الأنبياء وأمره بالإيمان ، وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع .. فالحاصل أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في إبطال نبوة الأنبياء ثم إنه تعالى بين أن هذا الإستدلال باطل ، فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله في كل الأمور دفع دعوة الأنبياء وعلى هذا الطريق فقط سقط هذا الإستدلال بالكلية ، وجميع الوجوه التي ذكرتموها في التقييح والتهجين عائد إلى تمسككم بثبوت المشيئة لله على دفع دعوة الأنبياء ، فيكون الحاصل : إن هذا الإستدلال باطل ، وليس فيه البتة ما يدل على أن القول بالمشيئة باطل (١) .

وأخيراً : فإن هذه الآية ليست دليلاً على ما يزعمه المعتزلة بأن الله أراد هداية الجميع ولكن البعض كفر بالله وعصى الله بغير مشيئته وإرادته ، ولعل قول الله في الآية التي بعدها مباشرة " قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ " (٢) تعد أقوى دليل على أن الكفر والإيمان لا يكونان إلا بمشيئة الله جل جلاله ، بل ليس من حركة ولا سكون في السموات والأرض إلا بمشيئة الله وإرادته ..

يقول الإمام الطبري في تأويل قوله تعالى :-

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ح ١٢ - ٦٢٢ . وانظر القاسمي ح ٦ ص ٢٥٤٦ :

٢٥٤٧ ط دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى سنة ١٣٧٧ هـ - سنة ١٩٥٨ م

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٤٩

" فلو شاء لهداكم أجمعين " فلو شاء ربكم لوفقكم أجمعين للإجماع على إفراده بالعبادة والبراءة من الأنداد والألهة والدينونة — بتحريم ما حرم الله ، وتحليل ما حلله ، وترك اتباع خطوات الشيطان ، وغير ذلك من طاعاته ، ولكنه لم يشأ ذلك فخالف بين خلقه فيما شاء فمنهم كافر ، ومنهم مؤمن ، وعن الربيع ابن أنس قال : لا حجة لأحد عصى الله ، ولكن لله الحجة البالغة على عباده (١) وإن إعتقاد المعتزلة وزعمهم أن الله لا يريد الشر والقبائح ، ولا يخلق الكفر والظلم لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان عادلاً — بعيد عن الصواب ، وعن العقيدة الصحيحة ، وإنه لشبيهه بكلام أهل الشرك من التثوية والماجوس الذين جعلوا الشريك لله تعالى حيث قالوا :

(رأينا في العالم خيراً وشرّاً ولذةً وألماً وحياةً وموتاً وصحةً وسقماً وغمياً وفقراً ، وفاعل الخير خير ، وفاعل الشر شرير ، ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيراً وشريراً معاً ، فلا بد من فاعلين ليكونا أحدهما فاعلاً للخير ، والأخر فاعلاً للشر ، ولو كان مدبر العالم واحداً لما خصى هذا بالحياة والصحة والغمى وخصى ذلك بالموت والألم والفقرة (٢)

ولما كان كلامهم يشبه كلام أهل الكفر فقد أدى ببعضهم إلى ما قد يكون يشبه الكفر والعياذ بالله . حيث زعم بعضهم ان الكافرين ليسوا من خلق الله ...

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ج ٥ - ٤٣٤ ط دار الغد .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢١ / ١٠٢ - ١٠٣

يقول ابن حزم " رحمه الله " .

وقد ادى هذا القول الفاحش الملعون رجلا من كبار المعتزلة وهو عياد بن

سليمان تلميذ هشام بن عمرو الفوطى الى أن قال :

إن الله تعالى لم يخلق الكفار لأنهم ناس وكفر معاً لكن خلق أجسامهم دون

كفرهم . (١)

(١) الملل والنحل لابن حزم حـ ٥٤/٣ ط دار المعرفة سنة ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م

شبهة المعتزلة حول المشيئة

للمعتزلة شبهة حول هذه الآية الكريمة فإنهم يزعمون أن مذهب أهل السنة والجماعة في مشيئة الله يشبه مذهب المشركين حيث إن المشركين أسندوا كفرهم وعصيانهم إلى إرادة الله ومشيئته وأهل السنة يقولون كل شيء بإرادة الله ومشيئته ونص شبهتهم أنهم قالوا :

إن الله تعالى حكى على المشركين أنهم قالوا : أشركنا بإرادة الله تعالى . ولو أراد عدم إشراكنا لما أشركنا ، ولما صدر عنا تحريم المحلات فقد أسندوا كفرهم وعصيانهم إلى إرادته تعالى كما تزعمون أنتم . ثم إنه تعالى رد عليهم مقالتهم وبين بطلانها وذمهم عليها وأوعدهم عليها وعيدا شديدا . فلو كان يجوز إضافة المشيئة الى الله تعالى في ذلك على ما تضيفون أنتم ، لم يكن يرد ذلك عليهم ويتوعدهم! (١)

رد الشبهة

المعتزلة في شبهتهم هذه لم يفرقوا بين قول المشركين اذا ما كانوا قد قالوا ذلك عنادا واستهزاء أو قالوه إجلالا واعترافا ، فلو قالوا ما قالوا إعترافا بقدر الله و تعظيما لمشيئته لم يكن يضر ، ولكن القوم قالوا ذلك على سبيل الإستهزاء والسخرية . وظنوا أن الله راضٍ عنهم رغم شركهم ،

(١) تفسير القاسمي حـ ٢٥٤٣/١ ط دار احياء الكتب العربية الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ

واتخذوا من مشيئة الله حجة على بطلان إرسال الرسل والأنبياء عليهم-
 الصلاة والسلام - وبذلك كان العتاب من الله لهم .
 هذا ، وقد بين علماء أهل السنة والجماعة ان اللوم قد وقع عليهم لا لمجرد
 القول ولكن لاستهزائهم به ، وادعائهم أنهم مجبرون على فعل المعصية فربما
 قال الإنسان كلمة حق ولكن استهزاء وسخرية فيحمل الوزر ويقع عليه اللوم
 يقول القرطبي - رحمه الله - حول هذه الآية :

وقد لبست المعتزلة بقوله " ولو شاء الله ما أشركنا " فقالوا قد ذم الله هؤلاء
 الذين جعلوا شركهم عن مشيئته - وتعلقهم بذلك باطل لان الله تعالى إنما
 ذمهم على ترك اجتهادهم في طلب الحق ، وإنما قالوا ذلك على جهة الهزاء
 واللعب ، نظيره " وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ " (١) ولو قالوا على جهة
 التعظيم والإجلال والمعرفة به لما عابهم لأن الله يقول : " لو شاء الله ما
 اشركوا " (٢) فالمشركون قالوا ذلك على سبيل الإستهزاء والسخرية دفعاً
 لدعوته - صلى الله عليه وسلم - وتعللاً لعدم إجابته وإنقياده ، لا تفويضا
 للكائنات الى مشيئة الله تعالى فما صدر عنهم كلمة حق أريد بها باطل ،
 ولذلك ذمهم الله بالتكذيب لأنهم قصدوا به تكذيب النبي " صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الزخرف من الآية ٢٠

(٢) الجامع لاحكام القرآن ح-٧ / ١٢٩ ط دار الكتب المصرية الطبعة الثانية ١٣٧٣

" فى وجوب اتباعه والمتابعة . فقال كذلك كذب " بالتشديد ولم يذمهم بالكذب فى قولهم ذلك وإلا لقال " كذلك كذب " بالتخفيف اشارة الى ان ذلك الكلام فى نفسه حق وصدق .. فأشار الله إلى صدق مقالتهم وفساد غرضهم ، فالعتاب الذى لحقهم والوعيد الذى أوعدهم إنما كان لاستهزائهم كما ذكر فى قوله تعالى :

" وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا " (١) هى كلمة حق ولكن قالها استهزاء فلحقه الذم . (٢)

وقيل أرادوا أن مشيئته ملزمة ومجبرة فهم غير مختارين فى ذلك . (٣)

والمشيئة فى الآية تخرج على وجوه :

منها الأمر والدعاء فكأنهم يزعمون أن الله أمرهم بالشرك أو دعاهم الى فعل المعاصى . يقول القاسمى - رحمه الله -

إن المشيئة فى الآية بمعنى الأمر والدعاء الى ذلك أى يقولون إن الله أمرهم بذلك ودعاهم إليه ، كما أخبر عنهم فى سورة الأعراف بقوله " وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا " (٤) فرد الله تعالى عليهم

(١) سورة مريم اية : ٦٦

(٢) محاسن التأويل للقاسمى - ٦/٢٥٤٤ : ٢٥٤٥

(٣) انظر المنار الأستاذ محمد رشيد رضا - ٨/١٧٦ ط دار المعرفة الطبعة الثانية

(٤) سورة الأعراف من الآية : ٢٨

بقوله : " قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ " (١)

والمشيئة بمعنى الرضا . والمشركون اعتقدوا أن شركهم حق مرضى عند الله تعالى . يقول صاحب روح البيان :

أرادوا به أن ما فعلوه حق مرضى عند الله تعالى . كذلك كهذا التكذيب وهو قولهم إنما أشركنا وحرمنا لكون ذلك مشروعاً ومرضياً عند الله تعالى وأنت كاذب فيما قلت من إن الله تعالى منع الشرك ولم يحرم ما حرمتموه . (٢)

فمرادهم أن الله رضى بفعلنا وصنيعنا — حيث فعل أبأؤنا مثل ما فعلنا — فلم يحل الله بينهم وبين ذلك ، ولا أخذ على أيديهم ولا منعهم عن ذلك ، فلو لم يرض بذلك عنهم لكان يمنعهم عنه — (٣)

ويقول الإمام أبو منصور الماتريدي :

وإنما استدلوا بالرضا من الله والإذن فيما كانوا فيه ، أنهم كانوا يُخوفون بالهلاك والعذاب على صنيعهم ، ثم رأوا أباؤهم ماتوا على ذلك ولم ياتهم العذاب ، فاستدلوا بتأخير نزول العذاب عليهم على أن الله رضى بذلك . (٤)

(١) سورة الأعراف من الآية : ٢٨

(٢) انظر تفسير روح البيان للشيخ اسماعيل حقي البرسوى م ١١٦ / ٣

(٣) محاسن التأويل ح ٦ / ٢٥٤٣

(٤) محاسن التأويل ح ٦ / ٢٥٤٣ للقاسمي نقلاً عن تأويلات أهل السنة .

هذا ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك فرقاً بين ما أمر الله به ، وبين ما شاءه الله وأراده ، فأمر الله في قضية ما واضح بين يعلمه الأنبياء ويستتبطه العلماء ، ولكن ما شاءه الله في الأزل لا سبيل الى معرفته ومن ثم لا يجوز للإنسان ان يعلق عذره في الكفر أو المعصية عليه . ثم ان مشيئة الله تكون في الشئ ونقيضة كل يتم بمشيئة الله بخلاف ما أمر به فإنه سبحانه لا يأمر إلا بالخير ، ولا ينهى إلا عن الشر . قال تعالى : " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى " (١)

يقول القاسمى — رحمه الله — :

إن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته — فإن الله تعالى مرید لجميع الكائنات غير أمر بجميع ما يريد ، فعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته ، فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد عليه في فعله ، فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ، ومع هذا فيبعث الرسل الى العبد ويأمره بالإيمان ، وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع ، فالحاصل أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في شركهم وكفرهم فأخبر الله تعالى أن هذا التمسك فاسد باطل (٢)

(١) سورة النحل من الآية : ٩٠

(٢) تفسير القاسمى حـ ٦/٢٥٤٦ — ٢٥٤٧

ولعل تمسكهم كان فاسداً لأنه ليس عن علم وبرهان ، وإنما عن عناد وعتو ، لا سيما بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات . يقول القاسمى :

وهذا القول من المشركين عناد بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات ، وإخبار الرسل بأنه يشاء الشئ ويعاقب عليه لان ملكه تام ، لا يسأل عما يفعل .

وقال الإمام القاشانى فى قوله تعالى : " كذلك كذب الذين من قبلهم أى : كذب المنكرون الرسل من قبلهم بتعليق كفرهم بمشيئة الله ، عنادا وعتو فعذبوا بكفرهم . ثم قال فى قوله : " قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا " أى إن كان لكم علم بذلك وحجة فيبينوا ، وإنما قال ذلك ، إشارة الى قولهم " لو شاء الله ما أشركنا " لأنهم لو قالوا ذلك عن علم ، لعلموا أن إيمان الموحدين وكل شئ لا يقع إلا بإرادة الله ، فلم يعادوهم ولم ينكروهم ، بل وآلؤهم ، ولم يبق بينهم وبين المؤمنين خلاف ، ولعمري إنهم لو قالوا ذلك عن علم لما كانوا مشركين بل كانوا موحدين ، ولكنهم اتبعوا الظن فى ذلك ، وبنوا على التقدير والتخمين لغرض التكذيب والعدا ، وعلى ما سمعوا من الرسل إلزاما لهم وإثباتا لعدم إمتناعهم عن الرسل ، لأنهم محجوبون فى مقام النفس وإنى لهم اليقين ؟ ومن أين لهم الإطلاع على مشيئة الله ؟ وقوله تعالى :

" قل فله الحجة البالغة " أى : إن كان ظنكم صدقا فى تعليق شرككم بمشيئة الله ، فليس لكم حجة على المؤمنين وعلى غيركم من أهل دين ، لكون كل دين حينئذ بمشيئة الله ، فيجب ان توافقوهم وتصدقوهم بل لله الحجة عليكم فى وجوب تصديقهم وإقراركم بأنكم أشركتم بمن لا يقع أمر إلا بإرادته ، فأنتم أشقياء فى الأزل مستحقون للبعد والعقاب . وقوله تعالى : " فلو شاء لهداكم

أجمعين " أى : بلى صدقتم ولكن كما شاء كفركم لو شاء لهداكم كلكم ، فبأى شئ علمتم أنه لم يشأ هدايتكم حتى أصررتم ؟ وهذا تهيج لمن عسى أن يكون له استعداد منهم فيفمع ويهتدى فيرجع عن الشرك ويؤمن (١)

وأخيراً أقول : إن قول الله تعالى : " سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ " (٢) ليس فيه حجة أو دليل على صحة ما ذهب إليه المعتزلة من أن الكفر والمعاصي تقع على غير مشيئة الله وإرادته - بل إن هذه الآية كما قال القاسمي - عند من له أذن واعية تصيح على المعتزلة بالويل والثبور . ولكن في أذانهم وقرء ومن لم يهده الله فلا هادي له . (٣)

والذي نراه صواباً وندين الله عليه هو عقيدة أهل السنة والجماعة " الفرقة الناجية " والتي تنص على :

الأيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن شراً كان أو خيراً . وأنه : ما فى السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون فى ملكه الا ما يريد فكل شئ يجرى بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره

(١) تفسير القاسمي ج ٦/٢٥٤٥ : ٢٥٤٦

(٢) سورة الأنعام آية ١٤٩

(٣) محاسن التأويل للقاسمي ج ٦/٢٥٤٤

غلبت مشيئة المشيئات كلها . وغلب قضاؤه الحيل كلها يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً . (١)

وان علم الله وإرادته وكلامه غيب لا يطلع عليه العبد ، إلا من ارتضى من رسول ، ويكفى فى التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به لأمكنه (٢)

ومما يعتقد أهل الاعتزال بالنسبة لمشيئة الله وإرادته : أن الله تعالى يريد شيئاً والعبد يريد خلافه وقد يقع مراد العبد ولا يقع مراد الرب ، يقرر هذا المعنى الزمخشري وهو يفسر قول الله تعالى : " وَمَا تُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (٣) لعلمهم يرجعون - إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان فان (قلت) لو أراد رجوعهم لكان (قلت) إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاداه فان كان ذلك على سبيل القسر وجد ، وإلا دار بين أن يوجد وبين ألا يوجد على حسب اختيار المكلف وانما لم يكن الرجوع لأن الإرادة لم تكن قسراً ولم يختاروه . (٤)

(١) المرجع السابق حـ ٦ / ٢٥٤٣ وانظر هامش الكشاف للشيخ عليان المرزوقى حـ ٢

٣٢٨ / - وانظر العقيدة الطحاوية صـ ٩٣

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٧ / ١٢٨ : ١٢٩

(٣) سورة الزخرف آية : ٤٨

(٤) الكشاف حـ ٣ / ٤٢٢

ويلاحظ على الزمخشري أنه حمل كلمه " لعل " على الإرادة ليثبت إعتقاده أن الله يريد شيئاً ويريد العبد خلافه فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الرب والمعروف كما يقول : ابن المنير أن "لعل" حيثما وردت فى سياق كلام الله تعالى فالمراد صرف الرجاء الى المخلوقين أى ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك. هذا هو الحق وعليه تأول سيبويه ما ورد (١).

ثم إن الإرادة غير الأمر كما سبق ان ذكرنا ذلك .

يقول الشيخ عليان المرزوقى : مذهب أهل السنة أن إرادة الله غير الأمر سواء كانت لفعل نفسه أو لفعل غيره ولا يلزم تأويل الآية بالإرادة لجواز أن يكون معناها ليكون حالهم عند الأخذ بالعذاب حال من يرجى رجوعهم (٢).

هذا ، وأن ما ذهب اليه المعتزلة من أن الله اراد الإسلام من الخلق أجمعين ولكن أراد بعض منهم الكفر فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه حيث قال سبحانه : " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا " (٣)

فقد ذكر الألوسى - رحمه الله - أن الآية : " بيان لتبعية إيمان النفوس التى علم الله تعالى إيمانها لمشيئته تعالى وجودا وعدما ، بعد بيان الدوران الكلى

(١) الكشاف حـ ٤٢٢/٣

(٢) هامش الكشاف حـ ٤٢٢/٣ لابن المنير .

(٣) هامش الكشاف حـ ٤٢٢/٣ للمرزوقى .

(٤) سورة يونس من الآية : ٩٩

عليها كذلك .. وهو أن خلاف المشيئة مستحيل أى ما صح وما استقام لنفس
من النفوس التى علم الله تعالى أنها تؤمن (أن تؤمن إلا بإذن الله) أى
بمشيئته وإرادته سبحانه . (١)

فالنفس مختارة فى دائرة الأسباب والمسببات ، ولكنها غير مستقلة فى
إختيارها استقلالاً تاماً ، بل مقيدة بنظام السنن والأقدار الألهية . (٢)

ويذكر ابن حزم قول الله تعالى : "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ
جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ " (٣) ثم يقول :

الآية كلها موصولة بعضها ببعض فنص تعالى على أنه لو شاء لأمن الناس
والجن وهم أهل الأرض كلهم ولو فى لغة العرب - التى بها خاطبنا الله عز
وجل ليفهمنا - حرف يدل على امتناع الشئ لا امتناع غيره فصح يقينا أن
الله تعالى لم يشأ أن يؤمن كل من فى الأرض وإذ لا شك فى ذلك فباليقين
ندرى أنه شاء منهم خلاف الإيمان وهو الكفر والفسق لآبد ولو كان الله تعالى
أذن للكافرين فى الإيمان على قول المعتزلة لكان كل من فى الأرض قد آمن

(١) روح المعانى حـ ٩٤/١١ ط دار احياء التراث العربى بيروت

(٢) تفسير المراغى للشيخ احمد مصطفى المراغى حـ ١٠ / ١٥٨ ط الحلبي الطبعة

الخامسة سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

(٣) سورة يونس ٩٩ : ١٠٠

لأنه تعالى قد نص على أنه لا يؤمن أحد إلا بإذنه وهذا أمر من المعتزلة يكذبه العيان فصح أن المعتزلة كذبت وأن الله تعالى صدق وأنه لم يأذن قط لمن مات كافراً في الإيمان وإن من عمى عن هذه لأعمى القلب وكيف لا يكون أعمى القلب من أعمى الله قلبه عن الهدى وبالضرورة ندرى أن قول الله تعالى " وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله " حق وإن من لم يأذن الله تعالى له في الإيمان فإنه تعالى لم يشأ أن يؤمن وإذا لم يشأ أن يؤمن فبلاشك أنه تعالى شاء أن يكفر هذا مالا انفكاك منه (١)

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٣ / ١٤٥ : ١٤٦ . ط دار المعرفة بيروت -

المبحث الثالث : وجوب فعل الصلح على الله لعباده

وجوب فعل الصلح على الله لعباده

يعتقد المعتزلة أن الله يسير بالخلق الى غاية حميدة ، وأنه يريد خير ما يكون لخلقه ومن ثم أوجبوا على الله فعل الصلح لعباده ، بل يجب رعاية ما هو أصلح ، ومن هنا تفرعت نظريتان عندهم مشهورتان وهما :

الصلح والاصحح - الحسن والقبیح .

١- نظرية الصلح والأصلح :

مجمل رأى المعتزلة فى هذه القضية : (ان الله لما كانت أعماله معللة ويقصد منها الى غاية وهى نفع العباد فالله يقصد فى أفعاله إلى صلح العباد ومن المعتزلة من قال بأنه يجب على الله أن يعمل ما فيه صلح لعباده ومنهم من لم يكتف بذلك بل قال يجب رعاية ما هو الأصلح وجمهورهم على أنه يرعى ما هو الأصلح)^(١) ونرى الزمخشري - وهو إمامهم - مهتما بتعليل أفعال الله ، وتقرير أنها كلها حكمة ومصلحة فيقول فى تفسير قوله تعالى :

" لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ " (٢)

إذا كانت عادة الملوك والجبابة أن لا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعمما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيئاً وإجلالاً مع جواز الخطأ

(١) ضحى الاسلام جـ ٣ / ٤٥ للأستاذ أحمد أمين

(٢) سورة الأنبياء آية : ٢٣

والزلل وانواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم
اولى بان لا يسئل عن افعاله مع ما علم واستقر فى العقول من ان ما يفعله
كله مفعول بدواعى الحكمة ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح (١).

ويلاحظ من كلام الزمخشري قوله " أن ما يفعله كله مفعول بدواعى
الحكمة ... الخ أنه يرى أن أفعال الله معللة وأن الله واجب عليه مصالح
العباد وهذا ما يعتقد أهله الاعتزال فإن الله لا يسئل عما يفعل لا لأنه العظيم
المتعال ولكن لأنه - فى زعمهم - يفعل الشئ لأجل علة واجبة وهى منفعة
العباد ومراعاة مصالحهم .

والجدير بالذكر أن القول بتعليل أفعال الله يترتب عليه ما لا يتناسب مع ذات
الله تعالى ، فإن الذى يفعل شيئاً ما لغرض ما إنما يكون ناقصاً ويستكمل بهذا
الغرض

والمستكمل بغيره ناقص فى ذاته . وهذا محال على الله تعالى - لذلك يجوز
تعليل أفعالنا نحن البشر وتبطل أفعالنا بزوال العلة وتغيير وتبديل ولكن لا
يجوز ذلك على الله لأنه كامل بذاته وليس من صفاته النقص - تعالى الله عن
ذلك علواً كبيراً ..

هذا ، وحول هذه الآية الكريمة ذكر علماء أهل السنة أوجهها عديدة كثيرة
تبطل القول بتعليل أفعال الله تعالى :

إحداها : أنه لو كان كل شئ معللا بعلة لكانت عليه تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل فلا بد من قطع التسلسل من الإنتهاء الى ما يكون غنيا عن العلة وأولى الأشياء بذلك ذات الله وصفاته وكما أن ذاته منزهة ، عن الإفتقار إلى المؤثر والعلة ، وصفاته مبرأة عن الإفتقار إلى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب أن تكون مقدسة عن الإستناد إلى الموجب والمؤثر .

ثانيها : أن فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة ، إما أن تكون واجبة أو ممكنة فإن كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلا ، وحينئذ يكون موجبا بالذات لا فاعلاً بالإختيار ، وإن كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلا ، من الله تعالى أيضا فتفتقر فاعليته لتلك العلة الى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال .

ثالثها : إن من فعل فعلا لغرض ، فإما أن يكون متمكنا من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الوساطة أو لا يكون متمكنا منه ، فإن كان متمكنا منه كان توسط تلك الوساطة عبثا وإن لم يكن متمكنا منه كان عاجزاً والعجز على الله محال ، أما العجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت أفعالنا معللة بالأغراض ، وكل ذلك في حق الله تعالى محال .

رابعها : أنه لو كان فعله معللا بغرض لكان ذلك الغرض إما أن يكون عائدا إلى الله أو إلى العباد والأول محال لأنه منزّه عن النفع والضرر ، وإذا بطل ذلك تعين أن الغرض لا بد وأن يكون عائدا إلى العباد ، ولا غرض للعباد إلا حصول الذات وعدم حصول الألام ، والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء

من غير شئ من الوسائط ، واذا كان كذلك استحال أن يفعل شيئاً من أجل شئ .

خامسها : أنه لو فعل فعلاً لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه إما أن يكون على السواء أو لا يكون ، فإن كان على السواء استحال أن يكون غرضاً ، وأن لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصاً بذاته كاملاً بغيره وذلك محال .^(١) بهذه الوجوه ثبت أن الله لا يجوز أن يقال له في أفعاله لم فعلت هذا الفعل ؟

فإن كل شئ صنعته ولا علة لصنعه والجدير بالذكر (أن المعتزلة سلّموا أنه لا يجوز أن يقال لله لم فعلت هذا الفعل ولكنهم بنوا ذلك على أصل آخر وهو أن ما يفعله الله تعالى كله إنما هو مفعولاً بدواعي الحكمة ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح لانه تعالى عالم بقبح القبائح ، وعالم بكونه غنيا عنها ، ومن كان كذلك فإنه يستحيل أن يفعل القبيح)^(٢) ولعل هذا هو لب الإختلاف بينهم وبين أهل السنة .

هذا وقول الزمخشري " فعله مفعول بدواعي الحكمة ... الخ ليس بمستساغ ولا يليق أن نصف به ربنا سبحانه وتعالى وقد أحسن ابن المنير إذ استنكر هذا القول وأدان صاحبه حيث قال : سحقا لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع الله

(١) الفخر الرازي حـ ١٠٣/٢١ : ١٠٤

(٢) الزمخشري حـ ٨/٣ — وانظر الفخر الرازي حـ ٢١ / ١٠٤ : ١٠٥

تعالى فإن الدواعى والصوارف إنما تستعمل فى المحدثين كقولك هو مما توفر دواعى الناس إليه أو صوارفهم عنه وقوله - أى قول الزمخشري - لا يجوز عليه فعل القبائح ... إنه فى الذيل أتقول أن هناك أحدا شريك الله فى ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التى تسميها قبائح فتفتيها عن قدرة الله تعالى وإرادته (١)

ويقول الطبرى فى قوله : " لا يسأل عما يفعل "

لا سائل يسأل رب العرش عن الذى يفعل بخلقه من تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال وغير ذلك من حكمه فيهم .. وهدى وإضلال ، وإسعاد وإشقاء لأنهم خلقه وعبيده وجميعهم فى ملكه وسلطانه ولأنه الرب مالك الأعيان ، الحكم حكمه ، والقضاء قضاؤه ، لا شئ فوقه يسأله عما يفعل ، فيقول له لِمَ فعلت ؟ ولمَ لم تفعل ؟ .. وجميع من السموات والأرض من عباده مسئولون عن أفعالهم ، ومحاسبون على أعمالهم ، وهو الذى يسألهم عن ذلك سؤال توبيخ يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم .. قال ابن جريج لا يسأل الخالق عن قضائه فى خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم . (٢)

ومجمل القول أن كل ما يفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب وإذا كان كذلك فلا يجوز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا وأن أفعاله غير معللة بعلة ندرتها

(١) هامش الكشاف ج ٨/٣

(٢) الطبرى ج ١٦/٩ ط دار الغد العربى وانظر لباب التاويل للخازن ج ٢٥٨/٣ ط الإستقامة الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥ م .

وإن كانت كلها لحكمة قد تغيب عن الخلق لقصر عقولهم وجهلهم بمراد الله تعالى ، وأنه تعالى يفعل ما يشاء ، ويخلق ما يشاء قال تعالى :

" وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ " (١)

وكما أن عقولنا لا تستطيع أن تدرك كل حكمة من تشريعات الله فأيضاً لا يحق لها أن توجب على الله شيئاً أو تشتترط عليه شرطاً .
بقول ابن حزم - رحمه الله - :

وقد أحكمنا بحول الله وقوته أن الله تعالى لا شرط عليه ولا علة موجبة عليه ان يفعل شيئاً ولا ألا يفعله وأنه تعالى لو أهمل الناس لكان حقا وحسناً لو خلقهم كما خلق سائر الحيوان الذي لم يلزمه شريعة ولا حظر عليه شئ . وأنه تعالى لو واطر الرسل والندارة أبداً لكان حقا وحسناً كما فعل بالملائكة الذين هم حملة وحيه ورسله أبداً ، وأنه تعالى لو خلق الخلق كفاراً كلهم لكان ذلك منه حقا وحسناً أو لو خلقهم مؤمنين كلهم لكان حقا وحسناً كما أن الذي فعل - تعالى - من كل ذلك حق وحسن . وأنه لا يقبح شئ إلا من مأمور منهى قد تقدمت الأوامر وجوده ، وسبقت الحدود المرتبة للأشياء كونه ، وأما من سبق كل ذلك فله أن يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء لا معقب لحكمه (٢) ..
وكلام ابن حزم كلام طيب يتفق مع الفطرة السليمة ، ولا يسع المسلم إلا قبو له والإطمئنان له لاسيما أن النبي " صلى الله عليه وسلم " أخبرنا أن الله تعالى أن يفعل بكل عباده ما يشاء من حيث الرحمة أو العذاب . إن رحمهم فبفضله وكرمه ، وإن عذبهم فالأمر إليه من قبل ومن بعد ..

(١) سورة القصص من الآية ٦٨

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ / ٦١ ط محمد على صبيح

أخرج أبو داود واللفظ له وابن ماجه عن زيد بن ثابت أن النبي "صلى الله عليه وسلم "

قال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم . (١)

هذا ، وإن كان إثابة أهل الطاعة ، وتعذيب أهل المعاصي أمراً يروق لنا فإن هذا في حياتنا الدنيا وبيننا نحن البشر ، أما أحكام الدين ، والحكم بين الناس يوم أن يقوموا لرب العالمين فلا يكون ذلك عقلاً.

يقول النووي رحمه الله : اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما من أنواع التكليف ، ولا تثبت

(١) الحديث رواه ابو داود ونصه " ... عن ابن الديلمي قال أتيت أبي بن كعب فقلت له وقع في نفسى شئ من القدر فحدّثني بشئ لعل الله يذهبه فقال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم - ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار . قال : ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك ، قال ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي " صلى الله عليه وسلم " مثل ذلك "

أبو داود حـ ٢٢٤/٤ : ٢٢٥ ك القدر حديث رقم : ٤٦٩٩ ط الدار المصرية اللبنانية سنة ١٤٠٨هـ -

١٩٨٨ م - وانظر ايضاً سنن ابن ماجه حـ ٣٠/١ المقدمة (١٠) ب في القدر حديث رقم ٧٧ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

هذه كلها ولا غيرها إلا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضاً أن الله تعالى لا يجب عليه شيء ..

بل العالم ملكه والذنيا والآخرة فى سلطانه يفعل فيهما ما يشاء .(١)
فالمعتزلة أخطأوا فى مفهوم العدل ، وربما كانت نقطة الخطأ عندهم أنهم :
" تصوروا عدل الله كما يتصورون عدل الحاكم من البشر كخليفة أو سلطان ،
فطبقوا عدل هؤلاء على عدل الله تعالى ، وفاتهم أن العدل تختلف معانيه ،
حتى باختلاف الناس أنفسهم فالعدل فى نظر الإنسان الراقى غير العدل فى
نظر البدائى ، وقد كان أرسطو يرى الرق عدلاً ونحن اليوم نراه ظلماً
صارخاً ، فما بالناس نحاول أن ندرك عدل الله وعقولنا لا تستطيع ، وإن نظرنا
للعدل يتصل ببيئتنا ، والعدل عند النظر إلى البيئة غير العدل عند النظر إلى
الذنيا كلها ، والله تعالى يحكم العالم كله ، وهو فى عدله ينظر إلى العالم كله،
وليست الأرض وسكانها إلا هنةً من هنات العالم ، فنحن بالنسبة إلى الله
ننظر كما تنظر النملة من محيطها الصغير ، فكيف نحكم على عدل الله ونحن
لا ندرك شئون هذا الكون ومخلوقاته ، فضلاً عن أننا لا ندرك منه عدل الله
وسائر صفاته (٢)

ولعل الذى أوقع المعتزلة فى هذا الخطأ ، وجعلهم يسلكون هذا المسلك كثرة
الفساد فى ذلك الوقت ، وارتكاب الكبائر ، وزعم أصحاب هذه الآثام أنها

(١) شرح النووى ج١٧/١٥٩ : ١٦٠

(٢) ظهر الإسلام ج٤ / ٨٠ لأحمد أمين ط مكتبة النهضة المصرية الطبعة الخامسة

وقعت قضاءً وقدرًا ، وأنهم سيدخلون الجنة لأنهم ينطقون بالشهادتين فوقف المعتزلة منهم هذا الموقف .

يقول أستاذنا الدكتور وردانى عبد الراضى :

يقول المحللون لمذهب المعتزلة فى علة هذا التوجه الإعتزالى : إنهم وجدوا بعض أمراء بنى أمية يفعل الكبائر ويحاول التملص من مسؤوليته عنها ، محتجاً بالقضاء والقدر - سلباً وإيجاباً ، جزاءً وعقاباً . ، كما أن بعض هؤلاء الأمراء وصلت إليه الإمارة اغتصاباً : (أى بطريق غير ما كان عليه السلف الصالح فى تولى وتولية الإمارات لمن يستحقها) ممن توفرت فيهم الأهلية لها ، ثم يعلل هؤلاء الأمراء اغتصابهم للإمارة بالقضاء والقدر ، فوقف المعتزلة منهم هذا الموقف العقلى لرد جماعهم وإيقاف معاصيهم . وليتهم لجأوا إلى الشرع وأحكامه حسب ما تمليه نصوصه ، قبل اللجوء إلى العقل حالة كونه بعيداً عن الشرع ، وما هذا منهم إلا استعجال لثمرة النصيحة ، أو محاولة فرضها وتنفيذها بسياط أقوى من سياط نصوص الشرع ، ظنوها كائنة فى سياط العقل وحده وما مثلهم فى ذلك إلا كالدب : الذى طرد الذبابة عن وجه صاحبه النائم بأن ضربها بحجر لتطير بعيداً عنه .

فليت هؤلاء ما فعلوا فعلتهم هذه إذ وقعوا - وأوقعوا متبعيهم - فيما هو أخطر وأدهى مما حاولوا إصلاحه ، وهم بذلك مجدوا العقل وقدموه على الشرع^(١) . ومن ثمَّ كان الفساد والإفساد ، والغلو والضلال ، وإنها لإحدى الكبر أن يقدم العقل على النقل ..

يقول ابن القيم - رحمه الله - فى كتابه أعلام الموقعين :-

(١) إتجاه المعتزلة ومنهجهم فى التفسير ص ١٦٩ ط الأمانة

" فساد الدنيا والدين من تقديم المتشابه على المحكم ، وتقديم الرأى على الشرع ، والهوى على الهدى " (١) .

ولا يظنُّ أحد أن المعتزلة رفعوا من شأن العقل ، بل أضروا به إذ حمّله فوق طاقته ، والعقل لا يُعول عليه فى كل الأمور بل إن هناك من الأمور ما يعجز عن إدراك حقيقتها لأنه عقل أى معقول ومحسوس عن أشياء ليس فى إمكانه الخوض فيها . قال ابن الأنبارى :

(رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ عن عقّلتُ البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل العاقل : الذى يحبس نفسه ويردّها عن هواها ، أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حبس ومُنِع عن الكلام . وعقلَ الدواء بطنه : أمسكه وقيل أمسكه بعد استطلاقه (٢) .

فليت المعتزلة أمسكوا عقلم عند أحكام الدين ، وقالوا له هذا ما لا شأن لك به ، ونظروا فيما جاء من الوحي فهو الحق والحق أحق أن يتبع " وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل " (٣) .

وليتهم نظروا فيما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - الذى عصمه ربه أن يقول غير الحق " وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى " (٤) . ونشروا دعوتهم من خلال هذين النورين " الكتاب والسنة " فلا شك أن هذا خير وأفضل من الخوض فيما خاضوا فيه كوجوب شىء على الله واستحالة

(١) أعلام الموقعين جـ ٢ / ٢٣٠ ط دار الحديث

(٢) لسان العرب جـ ٣ / ٤٠٤٦ ط دار المعارف

(٣) سورة الإسراء من الآية ١٠٥

(٤) سورة النجم ٣ : ٤

(٣٣٠)

شئء عليه سبحانه . وغير ذلك مما لم نقرأه فى قرآن محفوظ ، ولم يقله
رسول معصوم ، ولم يرد عن أصحاب خير القرون رضوان الله عليهم
أجمعين ..

الفصل الرابع

الوعد والوعيد

الوعد والوعيد

وهو الأصل الثالث من أصول المعتزلة والمراد عندهم بكلمة الوعد الثواب للمحسنين ، والوعيد العقاب للعصاة المذنبين .

ويرى المعتزلة ان كلا من ثواب المحسنين وعقاب العاصين واجب على الله لا يجوز تركه .

يقول الشهرستاني :

وانفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض ، والتفضل معنى آخر وراء الثواب . وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط وعداً ووعيداً^(١) .

ويفصل القاضي عبد الجبار هذا الأصل في كتابه شرح الأصول الخمسة فيقول :-

أما الوعد فهو كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير ، أو دفع ضرر عنه في المستقبل ، ولا فرق بين أن يكون حسناً مستحقاً وبين أن لا يكون كذلك . ألا ترى أنه كما يقال إنه تعالى وعد المطيعين بالثواب ، فقد يقال وعدهم بالتفضل مع أنه غير مستحق .

وكذلك يقال : فلان وعد فلاناً بضيافة في وقت يتضيق عليه الصلاة مع أنه يكون قبيحاً ، وهكذا يقال إن أحدنا وعد غيره بتمليكه جميع ما يملكه حتى إنه

(١) الملل والنحل ج ١ / ٦٧ ط محمد على صبيح

يفقر نفسه مع أنه يكون قبيحاً لقوله تعالى : -" وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ " (١)

أما الوعيد : فهو كل خير يتضمن إيصال ضرر إلى الغير ، أو تفويت نفع عنه في المستقبل ، ولا فرق بين أن يكون حسناً مستحقاً ، وبين أن لا يكون كذلك ، ألا ترى أنه كما يقال : إن الله تعالى توعد العصاة بالعقاب ، قد يقول توعد السلطان الغير بإتلاف نفسه وهتك حرمة ، ونهب أمواله مع أنه لا يستحق ولا يحسن ..

ثم يقول القاضى .. وأما علوم الوعد والوعيد ، فهو أنه يعلم أن الله تعالى وعد المطيعين بالثواب ، وتوعد العصاة بالعقاب ، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة ، ولا يجوز عليه الخلف والكذب (٢) .

وكان المعتزلة أوجبوا على الله تعالى تعذيب العاصي ، وإثابة المطيع وأن المطيع يدخل الجنة بعمله لا برحمة الله تعالى وفضله ، يتجلى لنا هذا عندما نعرف رأى المعتزلة فى قوله تعالى :

" وَتُؤَدُّوْا أَنْ تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوْهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ " (٣)

قال النيسابورى : قالت المعتزلة قوله (بما كنتم تعملون) يدل على أن الموجب للجزاء هو العمل لا التفضل (٤) .

(١) سورة الإسراء من الآية : ٢٩

(٢) شرح الأصول الخمسة تحقيق د / عبد الكريم عثمان ص ١٣٤ : ١٣٦ بتصرف ط

الإستقلال الكبرى الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤ هـ - سنة ١٩٦٠ م

(٣) سورة الأعراف من الآية : ٤٣

(٤) غرائب القرآن ح ٨ / ١١٥ ط الحلبي

ويقول شيخ المعتزلة الزمخشري في كشافه :

" أن تلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " أى بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطله (١). ويقصد بالمبطله أهل السنة .

ويقول القاضى عبد الجبار : قوله تعالى :

" ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون "

خطاب عام فى حق جميع المؤمنين ، وذلك يدل على أن كل من دخل الجنة فإنما يدخلها بعمله ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع قول من يقول : إن الفاسق يدخلون الجنة تفضلا من الله تعالى .

إذا ثبت هذا فنقول : وجب ألا يخرج الفاسق من النار لأنه لو خرج لكان إما أن يدخل الجنة أو لا يدخلها والثانى باطل بالإجماع ، والأول لا يخلو إما أن يدخل الجنة على سبيل التفضل أو على سبيل الإستحقاق - والأول باطل ، لأننا بيّنا أن هذه الآية تدل على أن أحدا لا يدخل الجنة بالتفضل ، والثانى أيضا باطل لأنه لما دخل النار وجب أن يقال : إنه كان مستحقا للعقاب فلو أدخل الجنة على سبيل الإستحقاق لزم كونه مستحقا للثواب ، وحينئذ يلزم حصول الجميع بين استحقاق الثواب واستحقاق العقاب وهو محال لأن الثواب منفعة دائمة خالصة عن شوائب الضرر ، والعقاب مضرة دائمة خالصة عن ثواب المنفعة . والجمع بينهما محال . وإذا كان كذلك كان الجمع بين حصول استحقاقهما محالا . (٢)

(١) الكشاف ج ٢ / ٦٣

(٢) انظر الفخر الراوى ح ١٣ / ٧٦

وقول كل من الزمخشري والقاضى لا يصح حيث إنهما أوجبا على الله الجزاء وهذا يتعارض مع نصوص القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة .
فالتقرآن بيّن لنا أن الله مطلق الأمر فيما يفعل ويترك قال تعالى : " أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ " (١)

فالله هو الذى خلق وهو الذى يأمر بدخول عباده الجنة أو دخولهم النار ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره . ومن ذا الذى يستطيع أن يوجب على الله شيئا مثل إثابة الطائع أو عقاب العاصى !؟

ثم ان إلواجب يكون من الأعلى على الأدنى فالله يحق له أن يوجب على عباده ما يشاء ، وليس للعباد أن يوجبوا على الله شيئا ، بل ليس لأحد أن يتوجه إلى الله بالسؤال عما يفعله وكل ما عداه سبحانه يسئل قال تعالى :
" لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ " (٢)

فالذى يليق بجلال الله أنه تعالى لا يجب عليه أن يثيب الطائع ولو كان يقوم الليل كله ، ويصوم الدهو كله ، فمهما كثرت طاعته فإنها لا تفى شكر نعمة واحدة من نعم الله المسخرة له والتي هى أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تخفى فطاعته لله فى الدنيا استجابة لأمره سبحانه بذلك ودخوله الجنة تفضل من الله عليه .

يقول الفخر الرازى - رحمه الله - إن نعم الله على العباد لانهاية لها ، فإذا أتى العبد بشى من الطاعات وقعت هذه الطاعات فى مقابلة تلك النعم

(١) سورة الأعراف من الآية : ٥٤

(٢) سورة الأنبياء اية : ٢٣

السالفة (١). فيمتنع أن تصير موجبة للثواب المتأخر (٢).

فكيف يقول الزمخشري وغيره من أهل الاعتزال : إن الله يجب عليه أن يثيب الطائع كما أنه يجب عليه أن يعاقب العاصي !!

وقد أحسن ابن المنير صنعا عندما بيّن بطلان كلام الزمخشري وإدعائه أن العبد يدخل الجنة بعمله لا برحمة الله ، وأثبت أن كلام الزمخشري يتعارض مع الحديث الصحيح فقال - رحمه الله - :

يعنى - اى الزمخشري - بالمبطله قوماً سمعوا قوله "عليه الصلاة والسلام" (لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله ورحمته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة) (٣) فقالوا صدق رسول الله " صلى الله عليه وسلم " - وهؤلاء هم أهل السنة قيل لهم فما معنى قوله تعالى :

”وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُرْتِمْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ“ (٤) قالوا الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل فضلاً منه ورحمة لا أن ذلك مستحق عليه وواجب للعبادة

(١) المعروف أن نعم الله تعالى على العبد فى الدنيا لا يستطيع العبد مهما عمل أن يوفى شكرها فالأولى ان يقال إن طاعة الله فى الدنيا استجابة لأمره عز وجل وعلى هذا تكون نعمه فى الدنيا تفضلاً ودخوله الجنة تفضلاً كذلك وفصل الله ما له من نفاذ .

(٢) انظر الفخر الرازى حـ ٧٥/١٣ - ٧٦

(٣) الحديث رواه مسلم ولفظه " لن يُدخِلَ احداً منكم عملهُ الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة " مسلم حـ ١٧/١٦٠ كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب " لن يدخل احد الجنة بعمله " ط المطبعة المصرية ومكتبتها .

(٤) الزخرف الآية ٧٢

وجوب الديون التي لا اختيار في ادائها . جمعاً بين الدليلين على وجه يطابق دليل العقل الدال على أن الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء فانظر أيها المنصف هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطلّة وحاكم نفسك إليها ثم إذا وضح لك أنهم براء في هذا البر فاعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على الله تعالى حقاً بأعمالهم التي لا ينتفع بوجودها ولا يتضرر بتركها تعالى وتقدس عن ذلك ويطلقون القول بلسان الجراءة أن الجنة ونعيمها أقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى لا تفضل له عليهم فيه ، بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من

مديانه وانظر أي الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطلّة .^(١)

ولما كان الله سبحانه هو الموفق للعمل الصالح كان دخول الجنة بفضلته تعالى وجعل العمل أمانة على ذلك . وأن قوله جل جلاله " أورتتموها بما كنتم تعملون " دليل على أنها هبة وفضل منه سبحانه .

قال صاحب التحرير والتوير :

" ... فالإيراث دل على أنها عطية بدون قصد تعاوض ولا تعاقد ، وأنها فضل محض من الله تعالى ، لأن إيمان العبد بربه وطاعته إياه لا يوجب عقلاً ولا عدلاً إلا نجاته من العقاب الذي من شأنه أن يترتب على الكفران والعصيان ، وإلا حصول رضى ربه عنه ، ولا يوجب جزاء ولا عطاء ، لأن شكر المنعم واجب ، فهذا الجزاء وعظمته مجرد فضل من الرب على عبده شكراً لإيمانه به وطاعته ، ولكن كان سبب هذا الشكر عند الرب

الشاكِر هو عمل عبده بما أمر به ، وقد تفضل الله به فوعد به من قبل
حصوله (١)

وفى السنة ما يؤيد ذلك :

ففى صحيح مسلم : لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديًا أو
نصرانيا (٢)

ويعلق القرطبي على هذا الحديث فيقول : فهذا أيضا ميراث نعم بفضله من
شاء ، وعذب بعدله من شاء وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تتال إلا برحمته ،
فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته ، ودخلوها برحمته ، إذ أعمالهم
رحمة منه لهم وتفضل عليهم . (٣)

ويرى الإمام المازرى - رحمه الله - أن ما ذهب إليه أهل الاعتزال فى هذه
المسألة ليس على الصواب ، لأنه لم يثبت بطريق صحيح ، بل ثبت تعارضه
مع الأحاديث الصحيحة وآيات التنزيل. فقال : ذهب أهل السنة إلى أن إثابة
الله تعالى من أطاعه بفضله منه ، وكذلك إنقامه ممن عصاه بعدل منه ، ولا
يثبت واحد منهما إلا بالسمع وله سبحانه وتعالى أن يعذب الطائع وينعم
العاصى ولكنه أخبر أنه لا يفعل ذلك وخبره صدق لا خلف فيه وهذا الحديث

(١) التحرير والتنوير - ٨/١٣٤ - ١٣٥ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ط

الدار التونسية

(٢) صحيح مسلم - ١٧/٨٥-٨٦ كتاب الرقاق باب سعة رحمة الله تعالى على المؤمنين

(٣) القرطبي - ٧/٢٠٩ طبعة دار الكتب

(١) يقوى مقالتهم ويرد على المعتزلة حيث أثبتوا بعقولهم أعواض أعمالهم ،
ولهم فى ذلك خبط كثير ، وتفصيل طويل . (٢)

كذلك نقول لهم أن قولكم بوجوب تعذيب العاصى وتخليده فى النار - إن لم
يثبت - قول باطل يبطله قول الله عز وجل :

" إِنْ لَّيْسَ لِلَّهِ لَآ يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ
فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا " (٣)

أما كلام القاضى عبد الجبار المذكور آنفا فإن فيه مخالفات صريحة للأحاديث
الصحيحة . ومن كان كذلك فلا مرية فى رده ، ولا سبيل لقبوله .
ولا بأس من ذكر رأى القاضى جملة ثم ذكر الأحاديث التى تبطل ما ذهب
اليه .

يقول القاضى عبد الجبار :

إن كل من دخل الجنة فإنما يدخلها بعمله

أقول : أخطأ القاضى فيما قال . وصدق رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .
فيما ثبت عنه فى الصحيحين - واللفظ لمسلم أنه قال : لن يدخل أحداً منكم

(١) لعله حديث لن ينجى أحداً منكم عمله البخارى حـ ٣٠٠/١١ ك الرقاق ب القصد

والمداومة حديث : ٦٤٦٣

(٢) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ ٣٠٢/١١ ط الريان للتراث الطبعة

الثالثة ١٤٠٧ هـ

(٣) سورة النساء آية : ٤٨ .

عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتخمدنى الله منه
بفضل ورحمة . (١)

فإذا كان رسول الله " صلى الله عليه وسلم " يدخل الجنة بفضل الله ورحمته
فمن باب أولى لا يدخلها بقية الخلائق - لا سيما الذين أذنبوا - إلا بفضل الله
العظيم ورحمته التي وسعت كل شئ وليس بأعمالهم كما زعم القاضى عبد
الجبار- غفر الله له .-

قوله : امتنع قول من يقول : إن الفاسق يدخلون الجنة تفضلا من الله . وقوله
.. الفاسق لا يخرج من النار لأنه لو خرج لكان إما أن يدخل الجنة أو لا
يدخلها والثانى باطل بالإجماع ...

أقول تثبت عن المعصوم " صلى الله عليه وسلم " بما يفيد أن الذين فسقوا
بارتكابهم جريمة السرقة والزنى يدخلون الجنة إن ماتوا موحدين لا يشركون
بالله شيئا .

فعن المعرور بن سويد قال سمعت أبا ذر يحدث عن النبى " صلى الله عليه
وسلم " أنه قال أتانى جبريل عليه السلام - فبشرنى أنه من مات من أمتك
لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن
سرق وفى رواية : ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل
الجنة قلت وإن زنى وإن سرق ؟ ! قال وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن

(١) صحيح مسلم للنووى حـ ١٧ / ١٦٠ كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب لن يدخل
أحد الجنة بعمله - ط المطبعة المصرية ومكتبتها . وصحيح البخارى حـ ٣٠٠ / ١١ ك
الرقاق . ب القصد والمداومة على العمل .

زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق ثلاثاً ثم قال فى الرابعة على رغم

أنف أبى ذر - فخرج أبو ذر وهو يقول وإن رغم أنف أبى ذر (١)

ولا شك أن من سرق أو زنى ثم دخل الجنة إنما يدخلها بمحض فضل الله ومن ثم يبطل كلام القاضى وزعمه أن الفاسق لا يدخلون الجنة تفضلاً من الله قول القاضى : وجب ألا يخرج الفاسق من النار لأنه لو خرج لكان إما ان يدخل الجنة أو لا يدخلها والثانى باطل بالإجماع !.

أقول : صح عن النبى " صلى الله عليه وسلم " أن الفاسق يخرج من النار ويدخل الجنة بفضل الله ورحمته وينعم فيها .

روى أبو هريرة - رضى الله عنه - حديثاً مطولاً عن النبى " صلى الله عليه

وسلم " جاء فى هذا الحديث أن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " . قال :

(.. حتى إذا فرغ من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد

من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد

الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار يعرفونهم بأثر

السجود تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر

السجود فيخرجون من النار وقد امتحشوا (٢) فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون

منه كما تتبت الحبة فى حميل السيل ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد

ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار وهو آخر أهل الجنة دخولا الجنة فيقول

(١) رواه مسلم فى صحيحه حـ ٩٣ / ٢ : ٩٤ - كتاب الإيمان باب الدليل على أن من

مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة - ط المطبعة المصرية ومكتبتها .

(٢) أحرقت النار جلودهم يقول ابن منظور : امتحش الخبز احترق لسان العرب حـ ٦ /

أى رب اصرف وجهى عن النار فإنه قد قشبنى (١) ريحها وأحرقنى ذكاؤها
فيدعو الله ما شاء الله أن يدعوه ثم يقول الله تبارك وتعالى هل عسيت إن
فعلت ذلك بك أن تسأل غيره فيقول لا أسألك غيره ويعطى ربه من عهود
ومواثيق ما شاء الله فيصرف الله وجهه عن النار فإذا أقبل على الجنة ورأها
سكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول أى رب قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فيقول الله
له أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألنى غير الذى أعطيتك ويالك يا
ابن آدم ما أغدرك فيقول أى رب ويدعو الله حتى يقول له فهل عسيت إن
أعطيتك ذلك ان تسأل غيره فيقول لا وعزتك فيعطى ربه ما شاء الله من
عهود ومواثيق فيقدمه إلى باب الجنة فإذا قام على باب الجنة إنفهمت (٢) له
الجنة فرأى ما فيها من الخير والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول
أى رب أدخلنى الجنة فيقول الله تبارك وتعالى له أليس قد أعطيت عهودك
ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت ويالك يا ابن آدم ما أغدرك فيقول أى
رب لا أكون أشقى خلقك فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى
منه فإذا ضحك الله منه قال ادخل الجنة فإذا دخلها قال الله له تمنه فيسأل ربه
ويتمنى حتى إن الله ليذكره من كذا وكذا حتى إذا انقطعت به الأمانى قال الله
تعالى ذلك لك ومثله معه . قال أبو سعيد الخدرى وعشرة أمثاله معه يا أبا
هريرة قال : أبو هريرة ما حفظت إلا قوله ذلك لك ومثله معه . قال أبو سعيد
أشهد أنى حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله ذلك لك
وعشرة أمثاله

(١) قشبنى ريحها أى أذانى - لسان العرب حـ / ٥ / ٣٦٣٤ .

(٢) إتسعت - لسان العرب حـ / ٥ / ٣٤٨٠

قال أبو هريرة وذلك الرجل أخر أهل الجنة دخولاً الجنة .^(١)
 فهذا الحديث فيه الدليل القاطع على أن الفاسق - الذين ماتوا لا يشركون بالله شيئاً يخرجون من النار برحمة الله تعالى بدليل قول الرسول " صلى الله عليه وسلم " عن ربه " وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة ... الخ الحديث وإذا أراد الله فلا راد لأمره ، وإذا أمر الملائكة أن يخرجوا من لا يشرك بالله شيئاً فإن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وفى هذا أبلغ الرد على كلام القاضى وزعمه أن الفاسق يجب ألا يخرج من النار . بل ليخرجن من النار ، وليدخلن الجنة رغم أنف القاضى عبد الجبار ..

وأما قوله عن الفاسق إذا خرج من النار - لا يدخل الجنة بالإجماع . فلعله أراد إجماع المعتزلة فقط أما بقية المسلمين فإن إجماعهم على ما حكم به رسول الله " صلى الله عليه وسلم " وحكم رسول الله " صلى الله عليه وسلم " - أن للمشرك النار أما من لم يشرك فله الجنة .
 "عن جابر قال : أتى النبى " صلى الله عليه وسلم " رجل فقال يا رسول الله

(١) صحيح مسلم حـ ٢٢/٣-٢٥ ك الإيمان ب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى . إما الإختلاف بين رواية ابى هريرة ورواية أبى سعيد الخدرى فإن " وجه الجمع بينهما أن النبى " صلى الله عليه وسلم " أعلم أولاً بما فى حديث أبى هريرة ثم تكرم الله تعالى فزاد ما فى رواية ابى سعيد فاخبر به النبى صلى الله عليه وسلم " ولم يسمعه ابو هريرة . إنظر شرح صحيح مسلم للإمام النووى حـ ٢٤/٣ : ٢٦ . ط المطبعة المصرية ومكتبتها .

ما الموجبتان فقال من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار " (١)

وقال الإمام النووي : وأما حكمه " صلى الله عليه وسلم " على من مات يشرك بدخول النار ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة فقد أجمع عليه المسلمون .

فأما دخول المشرك النار فهو على عمومته فيدخلها ويخلد فيها ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة فإن عفى عنه دخل أولاً وإلا عذب ثم أخرج من النار وخلد في الجنة والله أعلم . (٢)

هذا ، ومما يبطل إدعاء المعتزلة وزعمهم وجوب تعذيب العصاة وتخليدهم في النار وعدم العفو عنهم قوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " (٣)

فالأية الكريمة تبين أن الله تعالى أن يغفر لمن يشاء من عباده الذين ارتكبو الكبائر ولم يتوبوا ولم يشركوا بالله وأنها - كما يقول الفخر الرازي -

(١) مسلم حـ ٩٣/٢ ك الإيمان ب الدليل على أن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة

(٢) شرح النووي حـ ٩٧/٢

(٣) سورة النساء من الآية : ٤٨

من أقوى الدلائل لنا على العفو عن أصحاب الكبائر وأن الإستدلال من وجوه منها :

- أنه تعالى قسم المنهيات على قسمين :

الشرك وما سوى الشرك ، ثم إن ما سوى الشرك يدخل فيه الكبيرة قبل التوبة ،

ثم حكم على الشرك بأنه غير مغفور قطعاً وعلى ما سواه بأنه مغفور قطعاً لكن في حق من يشاء ، فصار تقدير الآية أنه تعالى يغفر كل ما سوى الشرك لكن في حق من يشاء . ولما دلت الآية على أن كل ما سوى الشرك مغفور ، وجب أن تكون الكبيرة قبل التوبة أيضاً مغفورة .

- إنه تعالى قال " لمن يشاء " - فعلق هذا الغفران بالمشيئة ، وغفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة مقطوع به ، وغير معلق على المشيئة ، فوجب أن يكون

- الغفران المذكور في هذه الآية هو غفران الكبيرة قبل التوبة .^(١)

والآية دليل واضح ، وبرهان ساطع على بطلان ما ذهب إليه أهل الاعتزال ولعلها أبلغ الرد على من يرى وجوب الوعيد على الله - لأن سياق الآية يدل على أن الله تعالى أن يغفر لمن يشاء من عباده الذين ارتكبوا الكبائر وغيرها من الذنوب ، شريطة ألا يكون من بين تلك الكبائر الإشراف بالله الذي هو محبط للعمل ، مخرج من الملة .

قال تعالى : " لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ولتكوننَّ من الخاسرين " ^(٢)

(١) الفخر الرازي حـ ٢٤٢/٩

(٢) سورة الزمر من الآية : ٦٥

وقال سبحانه : " وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (١)

كما أن الآية بينت الحكم للذين ارتابوا في أمر المشركين هل سيغفر الله لهم عندما نزل قول الله تعالى :

" قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا " (٢)

قال ابن جرير : هذه الآية نزلت في أقوام ارتابوا في أمر المشركين حين نزلت " يا عبادى الذين أسرفوا إلى قوله إن الله يغفر الذنوب جميعاً " قال لما نزلت قام رجل فقال : والشرك يا نبي الله فكره ذلك النبي "صلى الله عليه وسلم "

فنزل قوله : " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " (٣) كما أن الآية بينت الحكم لبعض الصحابة " رضوان الله عليهم " الذين ظنوا أن قاتل النفس وشاهد الزور وقاطع الرحم لا ينجوا لما نزل من وعيد شديد في آيات أخر في حق مرتكب تلك الذنوب أو بعضها ..

قال ابن جرير : عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال كنا معشر أصحاب النبي "صلى الله عليه وسلم " لا نشك (٤) في قاتل النفس ، و آكل

(١) الأنعام من الآية : ٨٨ .

(٢) سورة الزمر من الآية : ٥٣ .

(٣) جامع البيان في تاويل أى القرآن لابن جرير حـ ٤/١٤٠ ط دار الغد وانظر تفسير

القرطبي حـ ٥/٢٤٥

(٤) أى لا نشك في نجاته من العذاب .

مال اليتيم ، وشاهد الزور وقاطع الرحم ، حتى نزلت هذه الآية " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " فأمسكنا عن الشهادة
ثم يقول ابن جرير :

وقد أبانت هذه الآية ان كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله . (١)

لأن حكمة الله فى التشريع اقتضت أن يكون هناك فرق بين من مات مشركاً ومن مات مسلماً عاصياً .

فالمشرك لا يغفر ذنبه ، ولا تفتح له أبواب الجنة لأنها عليه محرمة قال تعالى : " إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ " (٢)

أما المسلم العاصى فأمره إلى الله إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه على ما اقترفت يده من ذنوب ثم يغفر له ويدخله الجنة بفضلته ورحمته التى وسعت كل شئ .

يقول الشيخ إسماعيل حقى :

قوله تعالى : " إن الله لا يغفر أن يشرك به " أى لا يغفر الكفر ممن اتصف به بلا توبة وإيمان لأن الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر ، وجواز مغفرته بلا إيمان مما يؤدي إلى فتحه ، ولأن ظلمات الكفر والمعاصى إنما يسترها نور الإيمان فمن لم يكن له إيمان لم يغفر له شئ من الكفر والمعاصى .

(١) جامع البيان لابن جرير الطبرى ج٤ / ٤٠

(٢) سورة المائدة من الآية : ٧٢

" ويغفر ما دون ذلك " ويغفر ما دون الشرك فى القبح من المعاصى صغيرة كانت أو كبيرة تفضلاً من لدنه وإحساناً من غير توبة منها لكن لا لكل أحد بل (لمن يشاء) (١)

وقال بعضهم إن الله بين ذلك بقوله " إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا " (٢)

فأعلم أنه يشاء أن يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر ويدخلهم الجنة ولهذا قال : وندخلكم مدخلاً كريماً " (٣)

ولعل نظير ذلك قوله تعالى :

"وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ" (٤)

فكبائر الإثم هو الشرك لأنه أكبر الأثام ، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى (كبير) على التوحيد وفسره ابن عباس بالشرك . (٥)
فهذه الآيات تبين أن من مات ولم يشرك بالله فهو فى مشيئة الله فقد يعفو الله عنه برحمته أو يعاقبه بعدله وفى كلتا الحالتين لا يسئل عما يفعل .

(١) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى البرسوى حـ ٢١٨/١ ط دار الفكر وانظر محاسن التأويل للقاسمى حـ ١٢٨٧/٥ ط دار إحياء الكتب العربية .

(٢) سورة النساء آية : ٣١

(٣) القرطبي حـ ٩٥١ / ٥ وانظر ابن كثير حـ ٤٦١ / ٢

(٤) سورة النجم ٣١ : ٣٢

(٥) الجامع لأيات الأحكام للقرطبي حـ ٧١ / ٠٧

وروى الترمذى عن على بن أبى طالب " رضى الله عنه " أنه قال : ما فى القرآن أية أحب إلى من هذه الآية : " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " . (١)

والمعتزلة لم يفرقوا بين من ارتكب كبيرة وبين من أشرك مع الله إلهاً آخر أو كفر به . يتجلى لنا ذلك عندما ننظر إلى قول الزمخشري فى تفسيره قوله تعالى : " بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (٢) فنراه يقول :

بلى تمسكم أبداً بدليل قوله هم فيها خالدون (من كسب سيئة) من السيئات يعنى كبيرة من الكبائر (وأحاطت به خطيئته) تلك واستولت عليه كما يحيط العدو . ولم يتقص (٣) عنها بالتوبة وقيل فى الإحاطة كان ذنبه أغلب من طاعته . (٤)

فالزمخشري فسر السيئة بالكبيرة لتتطبق الآية على مذهبه ، وهو بذلك يكون قد خالف ما أجمع عليه المفسرون - ققوله تعالى : بلى من كسب سيئة (يعنى شركاً وهذا ما عليه إجماع المفسرين كما قال الواحدى) (٥)

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٣٩٢/٨ : ٣٩٣ ك تفسير القرآن عن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" - ٥ ب ومن سورة النساء وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) سورة البقرة آية : ٨١ .

(٣) أى يتخلص منها .

(٤) الكشاف حـ ١/ ٨٧ .

(٥) انظر الفتوحات الإلهية للجمل حـ ١/ ٧١ ط دار الفكر بيروت

ويبين ابن عباس - رضى الله عنهما - أن المراد بالسيئة أن يشرك بالله ويموت على الشرك الذى يسد أبواب الجنة أمام صاحبه ، ويحبط ثواب طاعته . يقول صاحب لباب التنزيل فى تفسير هذه الآية :

من كسب سيئة : قال ابن عباس هى الشرك يموت عليه صاحبه وقيل أحاطت به أى أهلكته خطيئته وأحبطت ثواب طاعته فعلى مذهب أهل السنة يتعين تفسير السيئة والخطيئة فى هذه الآية بالكفر والشرك لقوله تعالى (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فإن الخلود فى النار هو للكفار والمشركين . (١)

وقال القرطبى : السيئة الشرك قال ابن جريج قلت لعطاء : " من كسب سيئة ؟

قال : الشرك وتلا " وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَّتْ وَجْوهُهُمْ فِي النَّارِ " (٢) وكذلك

قال الحسن وقتادة ، قالا والخطيئة الكبيرة . (٣)

وقال ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

هو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار . (٤)

ومن كلام القرطبى وابن كثير ومن قبل تفسير ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما - يتبين لنا أن معنى قوله تعالى " بلى من كسب سيئة

(١) لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن - ١/٦١ ط الإستقامة بالقاهرة الطبعة

الأولى سنة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥

(٢) سورة النمل من الآية : ٩٠

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى - ٢/٢١ ط دار الكتب المصرية

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير - ١/٧١

وأحاطت به خطيئته " أى من أشرك بالله ومات على الشرك وقد فعل الكبيرة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات ، وليس الذى كان ذنبه أغلب من طاعته كما زعم الزمخشري . فإن الذى اختلط ذنبه بطاعته إنما أمره إلى ربه وهو إلى عفو الله أقرب لأن الله غفور رحيم .

قال تعالى : " وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (١)

ثم إن الذى ذنبه أغلب من طاعته لا يوصف بأنه أحاطت به خطيئته وإنما الذى أحاطت به خطيئته يقتضى أن يكون ظاهره وباطنه موصوفاً بالمعصية فهذا ما يتناسب مع الإحاطة .

يقول الفخر الرازى :

إننا لا نفسر إحاطة الخطيئة بكونها كبيرة بل نفسرها بأن يكون ظاهره وباطنه موصوفاً بالمعصية وذلك إنما يتحقق فى حق الكافر الذى يكون عاصياً لله بقلبه ولسانه وجوارحه ، فأما المسلم الذى يكون مطيعاً لله بقلبه ولسانه ويكون عاصياً لله ببعض أعضائه دون البعض فهذا لا يتحقق إحاطة الخطيئة بالعبد ، ولا شك أن تفسير الإحاطة بما ذكرناه أولى لأن الجسم إذا مس بعض أجزاء جسم آخر دون بعض لا يقال أنه محيط به ، وعند هذا لا يتحقق إحاطة الخطيئة بالعبد إلا إذا كان كافراً .. وقوله : " فأولئك أصحاب النار " يقتضى أن أصحاب النار ليسوا إلا هم (أى الكفرة) ثم يذكر الفخر الرازى - رحمه الله - قاعدة فقهيه وهى : أن الشرطها هنا أمران : أحدهما - اكتساب السيئة .

(١) سورة التوبة الآية : ١٠٢

الثانى : إحاطة تلك السيئة بالعبد . والجزاء المعلق على وجود الشرطين لا يوجد عند حصول أحدهما وهذا يدل على أن من عقد اليمين على شرطين فى طلاق أو إعتاق أنه لا يحنت بوجود أحدهما . (١)

والذى ذنبه أكبر من طاعته لا يكون قد أحاطت به خطيئة كما يزعم الزمخشري لأن الإحاطة هى الإستيلاء على جميع الجوانب كما يحيط العدو - يقول الشيخ إسماعيل حقى فى قوله : " وأحاطت به خطيئة " أحاطت به واستولت عليه من جميع جوانبه من قلبه ولسانه ويده كما يحيط العدو وهذا إنما يتحقق فى الكافر . ولذلك فسر السلف السيئة بالكفر . وقوله " فأولئك " أى الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات وإحاطة خطاياهم بهم اشير إليهم بعنوان الجمعية مراعاة لجانب المعنى فى كلمة من بعد مراعاة جانب اللفظ فى الضمائر الثلاثة - أصحاب النار - أى ملازموها فى الآخرة حسب ملازمتهم فى الدنيا لما يستوجبها من الأسباب التى من جملتها ما هم عليه من تكذيب آيات الله وتحريف كلامه والإفتراء عليه ولا حجة فى الآية على خلود صاحب الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر . (٢)

ومن ثم أرى تفسير الزمخشري لقوله : " من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته " بأن يكون ذنبه أغلب من طاعته قول مرجوح ومحجوح بما هو أقوى منه حجة وبيانا . وكفى بالإجماع وقول ابن عباس حجة وبيانا . ويرى إمام الحرميين - أن مذهب أهل السنة فى هذه المسألة هو الصواب والحق .

(١) الفخر الرازى حـ ٢٢٣/٣

(٢) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى البرسوى حـ ١/ ١٧٠ ط دار الفكر .

وأنه لا واجب على الله تعالى .. ثم يرد على المعتزلة بأدلة عقلية تبطل ما ذهبوا إليه - وهذا نص حديثه - رحمه الله - :

الثواب عند أهل الحق ليس بحق محتوم ، ولا جزاء مجزوم ، وإنما هو فضل من الله تعالى ، والعقاب أيضاً ، والواقع منه هو عدل من الله . وما وعد الله تعالى من الثواب أو توعد به من العقاب ، فقوله الحق ووعد الصديق ، ولا واجب على الله تعالى ... ثم يقول - رحمه الله - :

وذهبت المعتزلة إلى أن الثواب حتم على الله تعالى ، والعقاب واجب على مقترف الكبيرة إذا لم يتب عنها ... والمعنى بكونه مستحقاً عندهم أن يحسن لوقوعه مستحقاً ، ولو لم يكن كذلك لما حسن العقاب على التأبيد ، فهذا حقيقة أصلهم ..

ثم يرد عليهم قائلاً : فإن ساعدناهم على التقييح والتحسين عقلاً ، ألزمتناهم على موجب أصلهم أمثلة لا قبل لهم بها ، منها :

أن السيد إذا كان يقوم بمؤن عبده وإزاحة عله ، والعبد يخدمه غير مستقرغ جهده ، بل كان مودعاً معظم أفعاله فلا يستحق العبد على سيده شيئاً على مقابل الخدمة المستحقة عليه - وكذلك المعظم في عشيرته ، إذا كان يكرم ولده ويقيم أوده ، والولد يكرمه ، ويرعاه ويطلب مرضاته ويتوخاها ، فلا يستوجب بإزاء خدمته مزيداً على ما يناله من الإحسان الدارّ عليه ،

فإذا كان هذا سبيل من يخدم مثله ، فالعبد الذي لو قوبلت عبادته بنعماء الله تعالى عليه في لحظة لأبرت نعماء الله وأربت على جميع قرباته .

والرب تعالى يستحق لأن يُعبد ، والنعم منه على العباد تنرى ، ولو حاول العبد عدّها لم يحصها ، فكيف يستوجب العبد بالنزر اليسير من أعماله - وهو الخريق في أنعم الله تعالى - مزيد ثواب لولا فضله العظيم . ثم عبادة العبد شكر للنعم ، وليس من حكم العقل في مستقر العوائد استيجاب عوض

على بذل واجب هو عوض ، ولو استحق العبد بشكره عوضاً ، لاستحق الرب تعالى على ما يوليه من الثواب عوضاً ولا محيص عن ذلك . (١)

أما الإمام النيسابورى فإنه يستحسن مذهب أهل السنة فى تلك المسألة لأنهم تحلوا بالأدب الجم مع الله تعالى ، حيث عظموا قدره ، وفوضوا أمر من عصاه من المؤمنين إلى مشيئته سبحانه ، ولكنه وهو يستحسن هذا المذهب لم يفته أن يمتدح مذهب المعتزلة لما فيه من الإحتياط ، وحشو قلب المؤمن بما يجعله فى خوف دائم من عقاب ربه ، ويجعله فى حذر من الوقوع فى المعاصى .

فيقول فى كتابه - غرائب القرآن - ما نصه :

واعلم أن مذهب الأصحاب إلى الأدب أقرب من حيث إنهم يصفونه بصفات الجمال كالعفو والمغفرة ، وبصفات الجلال كالقهر والإنتقام ولكن لا يوجبون عليه ثواباً ولا عقاباً لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ومن حيث إنهم لا يعينون البعض المستحق للثواب ولا البعض المستحق للعقاب من المسلمين لأن فعله مبرراً عن التعلل بلواحق الغايات وسوابق البواعث، ومذهب المعتزلة إلى الإحتياط أقرب فإن من خوفك حتى تبلغ الأمن خير من الذى أمنك حتى تبلغ الخوف . (٢)

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الإعتقاد لإمام الحرمين أبى المعالى الجوينى

ص ١٨١ : ١٨٣ بتصرف - ط السعاده بمصر سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠ م

(٢) انظر غرائب القرآن وרגائب الفرقان للنيسابورى ح ١ / ٣٥٥ - ٣٥٦ ط الحلبي

الطبعة الأولى سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م

أقول ربما الذى بالغ فى تخويفك يجعلك تبلغ اليأس لا الأمن ولا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون .

ومن الآيات التى استدل بها المعتزلة على وجوب الثواب على الله تعالى لعباده المطيعين قوله سبحانه :

" وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا " (١)

يقول الزمخشري فى تفسير هذه الآية :

" فقد وقع أجره على الله " فقد وجب ثوابه عليه وحقيقة الوجوب الوقوع والسقوط ، قال تعالى : " فإذا وجبت جنوبها " (٢) ووجبت الشمس سقط قرصها والمعنى فقد علم الله كيف يثيبه وذلك واجب عليه . (٣)

وزعم المعتزلة أن فى الآية ثلاثة أوجه تدل على أن العمل يوجب الثواب على الله :

أحدها : أنه ذكر لفظ الوقوع وحقيقة الوجوب هى الوقوع والسقوط .

قال تعالى : " فإذا وجبت جنوبها " (٤) أى وقعت وسقطت .

ثانيها : أنه ذكر بلفظ الأجر . والأجر عبارة عن المنفعة المستحقة ، فأما الذى لا يكون مستحقاً فذاك لا يسمى أجراً بل هبة .

ثالثها : قوله على الله وكلمة على للوجوب قال تعالى :

(١) سورة النساء من الآية : ١٠٠

(٢) سورة الحج من الآية : ٣٦

(٣) الكشاف حـ ١/٤٩٢

(٤) سورة الحج من الآية : ٣٦

(وَبِاللَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) . (١)

وقد أجاب علماء أهل السنة بألا تنازع في الوجوب لكن بحكم الوعد والعلم ،
والفضل والكرم لا بحكم الإستحقاق والتحتم الذي لو لم يفعل لخرج عن
الأهلية . (٢)

أقول : إذا كان الثواب واجباً على الله وجوباً حتمياً فمن الذي أوجبه على الله
، ومعلوم أن الواجب يكون من الأعلى على الأدنى ، ولا أحد أعلى من الله
ومن ثم فلا أحد يوجب عليه شيئاً جل في علاه .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : والله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء ،
وليس لغيره أن يوجب عليه شيئاً إذ لا سلطان فوق سلطانه . (٣)

هذا ، ومن الخطأ الذي وقع فيه المعتزلة أنهم قطعوا بعمومات وردت في
وعيد الفساق كقوله تعالى :

"إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا" (٤) وقوله سبحانه : " وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا " (٥) قالوا هذا يوجب

(١) سورة آل عمران من الآية : ٩٧

(٢) الفخر الرازي حـ ١٠ / ٤١١ وانظر عجائب القرآن للنيسابوري حـ ٥ / ١٢٦

ولباب التأويل للخازن حـ ١ / ٣٨٨

(٣) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار حـ ٥ / ٣٥٩ ط دار المعرفة الطبعة

الثانية سنة ١٣٩٣هـ - ١٣٧٣ م

(٤) سورة النساء الآية : ١٠

(٥) سورة طه من الآية : ١١١

أن يكون الظالم من أهل الصلاة داخلاً تحت الوعيد . (١)

ومن الأحاديث ما روى عن أبي بكرة " رضى الله عنه " قال: قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " : " ومن قتل نفساً معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشم ريحها " . (٢)

قالوا : إذا كان قتل الكفار هكذا فما ظنك بقتل أولاد رسول الله " صلى الله عليه وسلم " (٣)

وأجيب بالمنع من أن هذه الصيغ للعموم ، بدليل صحة إدخال الكل والبعض عليها نحو كل من دخل دارى فله كذا أو بعض من دخل ، ولا يلزم منه تكرير ولا تناقض ، ولأن الأكثر قد يطلق عليه لفظ الكل ، ولاحتمال المخصصات وأما أصحابنا الذين قطعوا بالعفو فى حق البعض والتوقف فى حق البعض فقد تمسكوا بنحو قوله عز من قائل : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " (٤) وبأن عمومات الوعد والوعيد لما تعارضتا فلا بد من الترجيح لجانب الوعد بصرف التأويل إليه لأن العفو عن الوعيد مستحسن فى العرف، وأهمال الوعد بالضد ، والقرآن مملوء من

(١) الفخر الرازى حـ ٣ / ٢٠١

(٢) رواه النسائى حـ ٨ / ٣٩٣ ك القسامه ب (١٤ ، ١٥) تعظيم قتل المعاهد حديث رقم

. ٤٧٦٢

(٣) الفخر الرازى حـ ٣ / ٢٠٨

(٤) سورة النساء من الآية : ٤٨

قوله: " عفوا غفوراً • رحيماً كريماً " وكذا الاخبار في هذا المعنى تكاد تبلغ حد التواتر (١)

وليس في القرآن ما يدل على انه تعالى بعيد عن الرحمة والكرم والعفو وكل ذلك يوجب رجحان جانب الوعد على جانب الوعيد (٢)

والآيات الدالة على كونه سبحانه عفوا غفورا قوله سبحانه " فَتَتِمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا " (٣)

وقوله جل جلاله : " وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ " (٤)

وقوله عز وجل : " وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ " (٥) ثم إن الأمة أجمعت على أن الله يعفو عن عباده وأجمعوا على أن من جملة اسمائه الغفور (٦)

فالعفو يكون - كما يقول الإمام الفخر الرازي - عبارة عن إسقاط العقاب عن يحسن عقابه أو عن لا يحسن عقابه والقسم الثاني باطل ، لأن عقاب مالا يحسن عقابه قبيح ، ومن ترك مثل هذا الفعل لا يقال إنه عفا ، ألا ترى أن الإنسان اذا لم يظلم أحدا لا يقال أنه عفا عنه ، وإنما يقال له عفا إذا كان له

(١) غرائب القرآن ط/٣٥٥ ط الحلبى - الطبعة الاولى سنة ١٣٨١ / ١٩٦٢

(٢) الفخر الرازي ح-٣ / ٢٢٠

(٣) سورة النساء من الايه ٤٣

(٤) سورة الشورى الاية: ٢٥

(٥) / سورة الشورى الاية : ٣٠

(٦) الفخر الرازي ح-٣ / ٢١٤

ان يعذبه فتركه ولهذا قال (وأن تعفوا أقرب للتقوى) (١) ولانه تعالى قال (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) (٢) فلو كان العفو عبارة عن إسقاط العقاب عن التائب لكان ذلك تكريراً من غير فائدة ، فعلمنا أن العفو عبارة عن إسقاط العقاب عن يحسن عقابه ... وكذلك المغفرة ليست عبارة عن إسقاط العقاب عن لا يحسن عقابه وإنما عبارة عن إسقاط العقاب عن يحسن عقابه لأن الله تعالى يذكر صفة المغفرة فى معرض الإمتنان على العباد ولو حطمانه على الأول لم يبق هذا المعنى لأن ترك القبيح لا يكون منة على العبد بل كأنه أحسن إلى نفسه فإنه لو فعله لاستحق الذم واللوم والخروج عن حد الإلهية فهو بترك القبائح لا يستحق الثناء من العبد ولما بطل ذلك تعين حمله على الوجه الثانى وهو المطلوب . (٣)

ولعل شبهة تتبادر إلى الذهن بأن المراد بالعفو و المغفرة إنما هو تأخير العقاب من الدنيا إلى الآخرة . والجواب على ذلك أن العفو أصله من عفا أثره أى أزاله - وإذا كان كذلك وجب أن يكون المسمى من العفو الإزالة لهذا قال الله تعالى : " فمن عفى له من أخيه شيئاً " (٤) . وليس المراد منه التأخير بل الإزالة وكذا قوله سبحانه : " وأن تعفوا أقرب للتقوى " (٥) وليس المراد منه التأخير إلى وقت معلوم بل الإسقاط المطلق ، ومما يدل على أن

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٣٧

(٢) سورة الشورى من الآية : ٢٥

(٣) الفخر الرازى حـ ٣ / ٢١٥ بتصرف

(٤) سورة البقرة من الآية : ١٧٨

(٥) سورة البقرة من الآية : ٢٣٧

العفو لا يتناول التأخير أن الغريم إذا أصر المطالبة لا يقال أنه عفا عنه ولو

أسقطه يقال أنه عفا عنه فنثبت أن العفو لا يمكن تفسيره بالتأخير . (١)

وترجيح جانب الوعد كان أولى من ترجيح جانب الوعيد لعدة وجوه منها :-

- ان الوفاء بالوعد أدخل في الكرم من الوفاء بالوعيد - وانه قد اشتهر في الأخبار أن رحمة الله سابقة على غضبه وغالبه عليه فكان ترجيح عمومات الوعد أولى .

- أن الوعيد حق الله تعالى والوعد حق العبد وحق العبد أولى بالتحصيل من حق الله تعالى . . . وهذه العمومات نزلت في حق الكفار فلا تكون قاطعة في العمومات . . . ثم إن عمومات الوعد أكثر والترجيح بكثرة الأدلة امر معتبر في الشرع .

- قول الله تعالى : " مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ

فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا " (٢) ثم إنه تعالى زاد على العشرة فقال سبحانه :

" كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ " (٣) ثم زاد عليه

فقال : " وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ " (٤) وأما في جانب السئية فقال :

"ومن جاء بالسئية فلا يجزى إلا مثلها " وهذا في غاية الدلالة على أن

جانب الحسنه راجح عند الله تعالى على جانب السئية .

(١) الفخر الرازي ح ٣ / ٢١٥

(٢) سورة الانعام من الاية : ١٦٠

(٣) سورة البقرة من الاية : ٢٦١

(٤) سورة البقرة من الاية : ٢٦١

- قول الله تعالى فى آية الوعد سورة النساء : " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا " (١)

فقوله وعد الله حقا إنما ذكره للتأكيد ولم يقل فى شئ من المواضع وعيد الله حقا.

- قول الله تعالى : " وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا " (٢) والإستغفار طلب المغفرة وهو غير التوبة فصرح ها هنا بأنه سواء تاب أو لم يتب فاذا استغفر غفر الله له ولم يقل ومن يكسب إثما فإنه يجد الله معذبا معاقبا بل قال • " فإنما يكسبه على نفسه " فدل هذا على أن جانب الحسنه راجح • ونظيره قوله تعالى : " إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا " (٣) ولم يقل وإن أسأتم أسأتم لها فكأنه تعالى أظهر إحسانه بان أعاده مرتين وستر عليه إساءته بأن لم يذكرها إلا مرة واحدة وكل ذلك يدل على أن جانب الحسنه راجح .

- قول الله تعالى : " إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " (٤) أعاد الله تعالى هذه الآية فى السورة الواحدة مرتين والإعادة لاتحسن إلا للتأكيد ولم يذكر شيئا من آيات الوعيد على وجه الإعادة

(١) سورة النساء الآية : ١٢٢

(٢) سورة النساء الآية : ١١٠-١١١

(٣) سورة الاسراء من الآية : ٧

(٤) سورة النساء من الآية : ٤٨ ومن الآية : ١١٦

بلفظ واحد لا فى سورة واحدة ولا فى سورتين فدل على أن عناية الله بجانب الوعد على الحسنات والعفو عن السيئات أتم . . . ثم إن هذا الإنسان أتى بأفضل الخيرات وهو الإيمان ولم يأت بما هو أقبح القبائح وهو الكفر بل أتى بالشر الذى هو فى طبقة القبائح وليس فى الغاية ، والسيد الذى له عبد ثم أتى عبده بأعظم الطاعات وأتى بمعصية متوسطة فلو رجع المولى (١) تلك المعصية المتوسطة على الطاعة العظيمة لعد هذا السيد لئيماً مؤذياً فكذا ها هنا . فلما لم يجر ذلك على الله ثبت أن الرجحان بجانب الوعد . (٢)

قال يحيى بن معاذ الرازى . إلهى إذا كان توحيد ساعة يهدم كفر خمسين سنة فتوحيد خمسين سنة كيف لايهدم معصية ساعة (٣)

لعل أفة المعتزلة فى قضية الوعد والوعيد ووجوب الثواب والعقاب على الله تعالى يرجع سببها إلى اعتمادهم على الرأى وتعظيم العقل ، حتى إنهم ليقدمونه على النقل ، وهذا خطأ جسيم ، فإنما تضل الأمم عندما تقدم العقل على النقل وذلك لأن العقل ليس جديراً بأن يثبت ثواباً أو عقاباً ، وليس أهلاً لمعرفة ما يليق بجلال الله وبما أوجبه الله على العباد وأعدده لهم ومن ثم كانت نعمة إرسال الرسل ليبينوا للناس ما اختلفوا فيه . . . يقول الإمام النووى " رحمه الله " : اعلم أن مذهب أهل السنة والجماعة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم وغيرهما من أنواع التكليف . ولا تثبت هذه

(١) أى مولى هذا العبد وهو السيد

(٢) الفخر الرازى حـ ٣ / ٢١٩ : ٢٢٠ باختصار وتقديم وتأخير

(٣) المرجع السابق حـ ٣ / ٢٢٠

كلها ولا غيرها إلا بالشرع . . . وأن الله تعالى لا يجب عليه شئ تعالى الله بل العالم ملكه والدنيا والأخرة فى سلطانه يفعل فيهما مايشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان عدلا منه وإذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك ولكنه أخبر وخبره صدق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب المنافقين (١) ويخلصهم فى النار عدلا منه (٢)

وقد يتبادر إلى الذهن أن ثمة تعارض بين الأحاديث التى تنص على أن أحداً لا يستحق الجنة والثواب بطاعته كقوله " صلى الله عليه وسلم " : " لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة . . الخ الحديث وبين الآيات الدالة على أن الأعمال يُدخل بها الجنة كقوله : " ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " (٣) . وقوله سبحانه : " وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " (٤)

والحقيقة أن لا تعارض وإنما الأحاديث حجة لأهل السنة على ألا يستحق أحد الجنة بعمله بل يفضل الله ورحمته وهى لاتعارض الآيات حيث إن معنى الآيات - كما يقول النووى - أن دخول الجنة بسبب الأعمال ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه

(١) اى المنافقين فى العقيدة

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى حـ ١٧ / ١٦٠

(٣) سورة النحل من الآية : ٣٢

(٤) سورة الزخرف : ٧٢

لم يدخل بمجرد والعمل وهو مراد الأحاديث ويصح أنه دخل بالأعمال أى بسببها وهى من الرحمة (١)

وبعد . . . فإن عذاب الله على الكافرين وبعض العصاة واقع لامحالة قال تعالى : " إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّأَلَهُ مِنْ دَافِعٍ " (٢) . . . ولكن لانقول أنه واجب على الله ولا يحق لنا ذلك ، فليس لأحد أن يوجب على الله شيئاً .

وأرى أن قول المعتزلة بوجوب الوعيد على الله تهكم ، وأنه قول ينقصه الدليل حيث إن نصوص القرآن الكريم تفيد جواز تخلف الوعيد الله تعالى ، وأنه يختص بعض عبادته برحمته ويغفر لمن يشاء منهم والآيات فى هذا المضمار كثيرة كلها تبشر وتبين أن مغفرة الله قد تصيب لفيها من العباد وذلك مثل قوله سبحانه: "يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (٣) وقوله له جل جلاله : " لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (٤)

وقوله عز وجل : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " (٥) وقوله جل شأنه : " وَأَنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ "

(١) شرح صحيح مسلم ح ١٧ / ١٦٠ - ١٦١

(٢) سورة الطور الأيتان ٧ : ٨

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٠٥

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٨٤

(٥) سورة النساء الآية : ٤٨

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (١) وأيات غير ذلك كثيرة . .
 وفي السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية - أحاديث
 صحيحة تفيد نفس المعنى مثل حديث أبي ذر الذي رواه الشيخان واللفظ
 لمسلم حيث يقول فيه رسول الله "صلى الله عليه وسلم . أتانى جبريل - عليه
 السلام - فبشرنى أنه من مات من أمتك لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة قلت
 وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق " (٢)

هذا ، وأنا لنجد فى الآيات التى تتحدث عن مشيئة الله فى تعذيب عباده أو
 المغفرة لهم قد تخدم بمغفرة الله ورحمته كقوله تعالى :

"وَلِلَّهِ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (٣)

وقوله جل جلاله: " وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن
 يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا " (٤) ولعل فى هذا ما يبين أن العبد العاصى
 إنما هو إلى مغفرة الله أقرب من عذابه حيث إن رحمة الله سبقت غضبه
 وليس تعذيبه على الله بواجب كما زعم المعتزلة

(١) سورة يونس الآية : ١٠٧

(٢) مسلم حـ ٩٢ / ٢ كتاب الإيمان باب من مات لايشرك بالله دخل الجنة .

(٣) سورة ال عمران الآية : ١٢٩

(٤) سورة الفتح الآية : ١٤

الفصل الخامس

المنزلة بين المنزلتين

تمهيد :-

هذا الأصل شبيهه بالأصل السابق " الوعد والوعيد " .

وإن كان المعتزلة يرون في أصل الوعد والوعيد أن الثواب واجب على الله للمطيعين - وأن العقاب أيضاً واجب على الله للكافرين والعصاة من المسلمين فإنهم في هذا الأصل : " المنزلة بين المنزلتين " يرون أن صاحب الكبيرة مخلد في النار لا يخرج منها أبداً ، ولا يموت فيها ولا يحيى ، مثله كمثل الكافر ، إلا أن عذابه دون عذاب الكافر ، وأنه لا يسمى مؤمناً وكذلك لا يسمى كافراً ، وإنما يسمى فاسقاً ..

والمعتزلة - غفر الله لهم - أخطأوا في كلا الأصلين . أما بيان خطائهم في الوعد والوعيد ووجوبهم على الله تعذيب عبيده العصاة والكفرة فقد سبق ذكره . وأما خطأؤهم في حكم مرتكب الكبيرة فهذا ما سأبينه في هذا الفصل بمشيئة الله .

ومن الله نستمد العون والتيسير ، وندعوه أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

أمين ،

المنزلة بين المنزلتين

إن المنزلة بين المنزلتين تعد من أهم أصول المعتزلة ولعلها كانت بداية تأسيس مذهبهم .. وبهذا الأصل سمي المعتزلة بهذا الاسم .
يبين ابن حزم سبب القول بالمنزلة بين المنزلتين فيقول في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل :

السبب فيه أنه دخل واحد على الحسن البصرى فقال يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً؟! فتفكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب قال واصل ابن عطاء أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق^(١) ولا كافر مطلق^(٢) بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ثم قام واعتزل إلى إسطوانة من إسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة ووجه تقريره أنه قال إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً وهو اسم مدح والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً وليس هو بكافر مطلق أيضاً لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة

(٢٠١) لعل الصحيح مطلقاً

فيه لا وجه لإنكارها لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو في النار خالدًا فيها إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان فريق في الجنة وفريق في السعير^(١) لكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد بعد أن كان موافقاً له في القدر وإنكار الصفات^(٢)

ويرى المعتزلة أن المعاصي قسمان : كبائر وصغائر واختلفوا في تعريف كل منهما ، وإن كان أكثرهم على أن الكبيرة ما أتى فيها وعيد ، والصغيرة ما لم يأت فيها وعيد ، وقالوا إن بعض الكبائر تصل إلى حد الكفر ، فمن شبه الله بخلقه أو نسب إليه ظلم أو كذب في خبر فقد كفر وهناك كبائر أقل منها منزلة ، يسمى مرتكبها فاسقاً ، والفسق منزلة بين الكفر والإيمان ، ولهذا فإن الفاسق ليس مؤمناً ولا كافراً ، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين^(٣) ..

والقول بأن صاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين لا خلاف فيه عند أهل الاعتزال بل هو : (اتفاقهم على دعواهم في الفاسق من أمة الإسلام بالمنزلة بين المنزلتين وهي أنه فاسق لا مؤمن ولا كافر^(٤) ..) بل إنهم ليزعمون أن واصل بن عطاء لم يخرج عن إجماع الأمة في قوله بالمنزلة بين المنزلتين . فيقول أبو الحسين الخياط المعتزلي في كتابه الإنتصار :

(١) دليله في ذلك قوله تعالى : " وتندّر يوم الجمع لا ريب فيه فريق الجنة وفريق في

السعير " ا لشورى من الآية ٧

(٢) الملل والنحل للشهرستاني حـ ١ / ٦٠ - ٦١ ط دار المعرفة بيروت - سنة ١٤٠٣ هـ

هـ ، سنة ١٩٨٣ م

(٣) الملل والنحل للشهرستاني حـ ١ / ٥٢

(٤) المنية والأمل للقاضي عبد الجبار ص ١٤

إن واصل بن عطاء "رحمه الله" لم يحدث قولاً لم تكن الأمة تقول به فيكون قد خرج من الإجماع ، ولكنه وجد الأمة مجمعة على تسمية أهل الكبائر بالفسق والفجور ، مختلفة فيما سوى ذلك من أسمائهم ، فأخذ بما أجمعوا عليه وأمسك عما اختلفوا فيه وتفسير ذلك أن الخوارج وأصحاب الحسن كلهم مجمعون والمرجئة على أن صاحب الكبيرة فاسق فاجر . ثم تفردت الخوارج وحدها فقالت : هو مع فسقه وفجوره كافر . وقالت المرجئة وحدها : هو مع فسقه وفجوره مؤمن . وقال الحسن ومن تابعه هو مع فسقه وفجوره منافق . فقال لهم واصل : قد أجمعتم أن سميتم صاحب الكبيرة بالفسق والفجور ، فهو إسم له صحيح بإجماعكم وقد نطق القرآن به في آية القاذف (١) وغيرها من القرآن فوجب تسميته به . وما تفرد به كل فريق منكم من الأسماء فدعوى لا تقبل منه إلا ببينة من كتاب الله أو من سنة نبيه "صلى الله عليه وسلم" . ثم قال واصل للخوارج : وجدت أحكام الكفار المجمع عليها المنصوصة في القرآن كلها زائلة عن صاحب الكبيرة ، فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه ، لأن الحكم يتبع الإسم كما أن الإسم يتبع الفعل ، وأحكام الكفر المجمع عليها المنصوصة في القرآن على ضربين ، قال الله عز وجل : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (٢) . فهذا حكم الله في أهل الكتاب وهو زائل

(١) لعله يقصد قول الله تعالى : " وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

فَاجْرِبُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " النور آية ٤

(٢) سورة التوبة آية ٢٩

عن صاحب الكبيرة ، وقال : (فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثَخَتْهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَاِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) (١) . فهذا حكم الله فى مشركى العرب وفى كل كافر سوى أهل الكتاب وهو زائل عن صاحب الكبيرة . ثم قد جاءت السنة المجتمع عليها أن أهل الكفر لا يوارثون (٢) ولا يدفنون فى مقابر أهل القبلة ، وليس يفعل ذلك بصاحب الكبيرة . وحكم الله فى المنافق أنه إن ستر نفاقه فلم يُعلم به وكان ظاهره الإسلام فهو عندنا مسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . وإن أظهر كفره استتيب فإن تاب وإلا قتل . وهذا الحكم زائل عن مرتكب الكبيرة . وحكم الله فى المؤمن الولاية والمحبة والوعد بالجنة . قال الله جل ذكره " اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا " (٣) . وقال : " وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا " (٤) وقال : " وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ " (٥) . وحكم الله فى صاحب الكبيرة فى كتابه أن لعنه وبرىء منه وأعد له عذاباً عظيماً فقال " أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ " (٦) . وقال " وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ " (٧) وما أشبه ذلك من

(١) سورة محمد من الآية ٥

(٢) لعنه يقصد قول النبى "صلى الله عليه وسلم" : (لا يرث المؤمن الكافر ولا الكافر المؤمن) رواه البخارى حـ ٦٠٦ / ٧ حديث رقم ٤٢٨٣ - ك المعازى ب أين ركز النبى "صلى الله عليه وسلم" الراية يوم الفتح ؟

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٥٧

(٤) سورة الأحزاب آية ٤٧

(٥) سورة التوبة من الآية ٧٢

(٦) سورة هود من الآية ١٨

(٧) سورة الإنفطار آية ١٤

القرآن ، فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بزوال أحكام المؤمن عنه في كتاب الله ووجب إنه ليس بكافر بزوال أحكام الكفار عنه ووجب أنه ليس بمنافق في زوال أحكام المنافقين عنه في سنة رسول الله " صلى الله عليه وسلم" . ووجب أنه فاسق فاجر لإجماع الأمة على تسميته بذلك وبتسمية الله له به في كتابه (١) .

هذا قول أبي الحسين الخياط - أحد علماء المعتزلة - وفي كلامه كثير من المغالطات والملاحظات - فزعمه أن المرجئة وحدها التي تقول إن مرتكب الكبيرة مؤمن غير صحيح وواضح الخطأ حيث إن أهل السنة لم ينفوا الإيمان عنه كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى .. وقد أنصف واصل عندما قال وجدت أحكام الكفار المجمع عليها المنصوصة في القرآن كلها زائلة عن صاحب الكبيرة فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه .. وإضافة إلى قول واصل نقول : وإن نصوص القرآن أضفت اسم الإيمان على مرتكب الكبيرة ولم تتف عنه صفة الإيمان مثل قوله تعالى :

" وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا " (٢) فقد بقى الله على الطائفتين المتقاتلتين صفة الإيمان مع إن قتل النفس كبيرة من البكائر .. ومثل قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ

(١) الإنتصار ص ١٥٢ - ١٥٣ أبو الحسين عبد الرحيم الخياط

(٢) سورة الحجرات من الآية ٩

وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (١)
 فقد أبقى الله صفة الإيمان على القاتل والإخوة بينه وبين أهل القتل ...
 وسوف يأتي الحديث عن هاتين الآيتين بشيء من التفصيل في حينه إن شاء
 الله تعالى ...

ويرى أهل السنة : أن الكبيرة ما نهى الله عنه في كتابه العزيز وما نهى عنه
 رسول الله - "صلى الله عليه وسلم" في حديثه الشريف . مع ذكر الوعيد في
 الآخرة أو عقوبة في الدنيا .

قال ابن حجر - رحمه الله - : (إن كل ما توعد عليه باللعن أو العذاب أو
 شرع فيه حد فهو كبيرة . وهو المعتمد) (٢)

وقد بين الله في كتابه أن الله يغفر الذنوب جميعاً - صغيرها وكبيرها -
 شريطة ألا يكون قد وقع صاحبها في كبيرة الشرك بالله - قال تعالى : " إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيُغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " (٣)

وكذلك ضمن الله لمن يجتنب الكبائر أن يكفر عنه الصغائر من السيئات قال
 تعالى : " إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تَهَوَّنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا
 كَرِيمًا " (٤) .. وقد اختلف في الكبائر من حيث العدد فالحديث ينص على أنها
 سبع .. عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم

(١) سورة البقرة الآية ١٧٨

(٢) فتح البارى فى صحيح البخارى ج ١٢ / ١٨٨

(٣) سورة النساء من الآية ١١٦

(٤) سورة النساء آية ٣١

سبع .. عن أبي هريرة- رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : اجتنبوا السبع الموبقات .

قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات " (١) .

ولكن بعض الأحاديث ذكرت كبائر غير الكبائر المذكورة في هذا الحديث منه ما رواه مسلم بسنده عن أبي بكرة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً - الإشراف بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قول الزور " (٢) .

فإذا ما أضفنا شهادة الزور ، وعقوق الوالدين إلى السبع المذكورات آنفاً في الحديث يكون مجموع الكبائر تسعاً وليس سبعة . ثم إن هناك كبائر آخر مثل التسبب في شتم الوالدين أو سبهما ..

فعن عبد الله بن عمرو بن العاصي أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم : قال : من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه قال نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه" (٣) . وجاءت أحاديث تبين أن من الكبائر " النميمة وعدم الإستبراء" (٤)

(١) البخارى جـ ١٢ / ١٨٨ كتاب الحدود باب رمى المحصنات حديث رقم ٦٨٥٧

(٢) مسلم حـ ٢ / ٨١ - ٨٣ - كتاب الإيمان باب أكبر الكبائر

(٣) المسلم حـ ٢ / ٨١ - ٨٣ - كتاب الإيمان باب أكبر الكبائر

(٤) عدم التستر أو الإستبراء حيث جاءت رواية (لا يستبرئ) فتح البارى حـ ١ / ٣٨٠

من البول (١) . وغير ذلك وهذا يدل على أن الكبائر ليست محصورة في عدد معين ... قال النووى - رحمه الله - : قال العلماء - رحمهم الله - ولا انحصار للكبائر في عدد مذكور ، وقد جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن سئل عن الكبائر أسبع هي فقال هي إلى سبعين ويروى إلى سبعمائة أقرب (٢) ..

وقال الذهبى - بعد ذكره كلام ابن عباس : وصدق والله ابن عباس ..
وأما الحديث فما فيه حصر الكبائر ، والذي يتجه ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب شيئاً من هذه العظائم مما فيه حد في الدنيا كالقتل والزنا والسرقه أو جاء فيه وعيد في الآخرة من عذاب أو غضب أو تهديد أو لعن فاعله على لسان نبينا - صلى الله عليه وسلم - فإنه كبيرة ولا بد من تسليم أن بعض الكبائر أكبر من بعض ، ألا ترى أنه - صلى الله عليه وسلم - عد الشرك بالله من الكبائر مع أن مرتكبه مخلد في النار ولا يغفر له أبداً قال تعالى " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " (٣)

(١) حديث رواه البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : مر النبي - صلى الله عليه وسلم - بحائط من حيطان المدينة - أو مكة - فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - يعذبان وما يعذبان في كبير - ثم قال - يلى - كان أحدهما لا يستتر من يوله . وكان الآخر يمشى بالنميمة " البخارى ج ١ / ٣٧٩ كتاب الوضوء باب من الكبائر أن لا يستتر من يوله .

(٢) شرح صحيح مسلم ج ٢ / ٨٤

(٣) انظر الكبائر للذهبى ص ٥٦، ط الإرشاد والآية من سورة النساء ١١٦

والذى نراه . أن الكبائر : هي ما فيها حد فى الدنيا ، أو عيى فى الآخرة ، أو لعن صاحبها على لسان نبينا " صلى الله عليه وسلم " ..

ووقع الإقتصار على هذه السبع لكونها من أفحش الكبائر مع كثرة وقوعها لاسيما فيما كانت عليه الجاهلية (١)

وبذلك يكون المعنى - والله أعلم - إن من أكبر الكبائر سبعاً - بدليل أن الروايات جاءت مختلفة وما ذكر فى بعضها لم يذكر فى البعض الآخر ...

أما حكم مرتكب الكبيرة فلا خلاف عند أهل السنة على أنه مسلم ليس بكافر ولا بخالد فى النار خلود تأييد ولو مات بغير توبة .

يقول أبو جعفر الطحاوى :

وأهل الكبائر من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فى النار لا يخلدون ، إذا ماتوا وهم موحدون ، وإن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين وهم فى مشيئته وحكمه ، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضلته كما ذكر عز وجل

فى كتابه (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) (٢) وإن شاء عذبهم فى النار بعدله " (٣)

ويقول الإيجى - صاحب المواقف : إن مرتكب الكبيرة من أهل الصلاة مؤمن (٤)

واستدل المعتزلة على أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ببعض آيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى :-

(١) شرح النووى ج ٢ / ٨٤

(٢) سورة النساء من الآية ٤٨

(٣) العقيدة الطحاوية ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ط مكتبة الدعوة الإسلامية

(٤) المواقف ٣٨٩

" الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون " (١)

يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية : " فإن قلت " ما الإيمان الصحيح ؟ " قلت " أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله ، فمن أخل بالإعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ومن أخل بالشهادة فهو كافر ومن أخل بالعمل فهو فاسق (٢) .

فالزمخشري جعل التصديق من حظ العمل فمن اعتقد بقلبه ، وأعرب بلسانه ولكن أخل ببعض الواجبات أو وقع في كبيرة من الكبائر فهذا لا يوصف بالمؤمن عند المعتزلة لأنهم يقررون :-

(أن الإيمان إجتماع التصديق والإعتقاد القلبي وأداء الواجبات فمن صدق بأن الله واحد وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) رسوله ولم يقم بالفرائض لم يكن مؤمناً لأنه لم يستكمل خصال الخير (٣) .

هكذا يصرح المعتزلة بأن من لم يستكمل خصال الخير لا يوصف بالمؤمن وكذلك إذا ارتكب كبيرة من الكبائر .. ولا يخفى خطأ من اعتقد ذلك . حيث لا مغايرة بين ارتكاب الكبائر وا لصف بالإيمان .

قال تعالى : " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ

(١) سورة البقرة ٣

(٢) الكشف حـ ١ / ٢٢

(٣) الملل والنحل للشهرستاني حـ ١ / ٥٢ ط دار الفكر

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ" (١)

فإن قتل المؤمن من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذي نفسى بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا (٢) ورغم ذلك فإن الله لم ينزع عن أصحاب هذا الجرم صفة الإيمان . يقول ابن كثير عند تفسيره هذه الآية :-

(١) سورة الحجرات الآيتان ٩-١٠

(٢) رواه النسائي حـ ٧ / ٩٥ كتاب تحريم الدم باب تعظيم الدم حديث رقم ٣٩٩٧ وفي سنده إبراهيم بن مهاجر قال عنه النسائي ليس بالقوى ... قلت جاء من طرق اخرى متعددة على نفس المعنى ليس فيها إبراهيم بن مهاجر منها ما رواه الترمذى قال حدثنا ابو سلمة يحيى بن خلف ، ومحمد بن عبد الله بن بزيع ، قالوا حدثنا ابن أبى عدى عن شعبه ، عن يعلى بن عطاء عن ابيه عن عبد الله بن عمرو ان النبى " صلى الله عليه وسلم " قال : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم " قال أبو عيسى : حديث عبد الله بن عمرو ، هكذا رواه ابن ابى عدى عن شعبه ، عن يعلى بن عطاء عن ابيه عبد الله بن عمرو عن النبى " صلى الله عليه وسلم " انظر الترمذى حـ ٤ / ٧٤٧ : ٧٤٨ ك الديات / ٧ ب : ماجاء فى تشديد قتل المؤمن . وجاء فى سنن النسائى ايضا :

أخبرنا محمد بن بشار قال : حدثنا محمد عن شعبه عن يعلى عن ابيه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا " سنن النسائى حـ ٧ / ٩٥ - ك تحريم الدم ب تعظيم الدم حديث رقم ٣٩٩٩ ط دار المعرفة الطبعة الخامسة .

فسماهم مؤمنين مع الإقتتال وبهذا استدل البخارى وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم^(١) ..

والآيتان بدأتا بصفة الإيمان وختمتا بصفة الأخوة ، وهذا دليل قوى على أن المعصية لا تزيل صفة الإيمان وإن عظمت .

لذلك قال العلماء : (فى هاتين الآيتين^(٢) دليل على أن البغى لا يزيل اسم الإيمان لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين ويدل عليه ما روى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وهو القدوة فى قتال أهل البغى وقد سئل عن أهل الجمل وصفين أمشركون هم ؟ قال : لا ، من الشرك فروا . فقيل : أمنافقون هم ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرهم الله إلا قليلا . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا^(٣) ..

ومن الأدلة التى تبطل مزاعم المعتزلة وادعاءهم بأن مرتكب الكبيرة لا يسمى مؤمناً قول الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٤)

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ ٧ / ٢٤٢

(٢) الآيتان ٩، ١٠ من سورة الحجرات

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي حـ ١٦ / ٣٢٣ - ٣٢٤ وانظر تفسير الخازن

حـ ٤ / ١٦٨ ط الاستقامة الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ - سنة ١٩٥٥ م

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٨

بينت الآية أن صفة الإيمان فى القاتل والمقتول ، وكذلك صفة الإخوة " فمن عفى له من أخيه شيء " .

يقول ابن حزم رحمه الله :-

إبتدأ الله عز وجل بخطاب أهل الإيمان من كان فيهم من قاتل ومقتول ونص تعالى على أن القاتل عمداً وولى المقتول إخوان وقد قال تعالى " إنما المؤمنون أخوة " (١) فصح أن القاتل عمداً مؤمن بنص القرآن وحكم له بأخوة الإيمان ولا يكون للكافر مع المؤمن بتلك الإخوة ... ثم يبرهن ابن حزم على ما يقول مستشهداً بالآية التى ذكرنا آنفاً وهى قوله تعالى " وإن طائفتان من المؤمنين إقتتلوا فأصلحوا بينهما " . فيقول هذه الآية رافعة للشك جملة فى قوله تعالى إن الطائفة الباغية على الطائفة الأخرى من المؤمنين المأمور سائر المؤمنين بقتالها حتى تفىء إلى أمر الله تعالى إخوة للمؤمنين المقاتلين وهذا أمر لا يضل عنه إلا ضال والآيتان حجة قاطعة على المعتزلة المسقطه اسم الإيمان عن القاتل وعلى من أسقط عن صاحب الكبيرة اسم الإيمان (٢) ويقول الماتريدى :- وقوله " ذلك تخفيف من ربكم ورحمة " فيه دلالة أن لا يقطع صاحب الكبيرة عن رحمة الله لأنه أخبر أن التخفيف رحمة فى الدنيا . فإذا لم يواسيهم فى الدنيا عن رحمة فلا يواسيهم فى الآخرة عنها ... وفى قوله " فمن عفى له من أخيه شيء " دلالة أن لا يزول اسم الإيمان بارتكابه الكبيرة لأنه سماه أخاً من غير إخوة نسب دل إنه أخوة فى الدين وكذلك قوله تعالى : " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا "

(١) سورة الحجرات من الآية ١٠

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل حـ ٣ / ٢٣٥ - ٢٣٦ ط دار المعرفة

أبقى لهم اسم الإيمان بعد البغى والقتل دل أن ارتكاب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان (١) .

ومما يستدل به على أن المعصية لا تسقط اسم الإيمان وإن عظمت - ما لم تكن شركاً - أنه لا يخلد في النار إلا كافر ، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن من سرق أو زنى فإنه يدخل الجنة كما جاء في حديث أبي ذر (٢) - رضى الله عنه - فصح أن كلا من هذا الزانى والسارق يحمل صفة الإيمان وإلا ما دخل أحدهما الجنة أو كلاهما . لأن الجنة محرمة على الكافرين قال تعالى :-

" إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ " (٣) وقال سبحانه :-

" وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مَارِزِقُوا اللَّهَ قَالُوا إِنْ اللَّهُ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ " (٤)

وقال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : " من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار وقلت أنا ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة " (٥) ..

(١) انظر تأويلات أهل السنة لأبى منصور الماتريدى ص ٣٤٥ ط الإرشاد - بغداد سنة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م

(٢) انظر ص ٣٣٩ - من فصل الوعد والوعيد

(٣) سورة المائدة من الآية ٧٢

(٤) سورة الأعراف الآية ٥٠

(٥) رواه مسلم ح ٢ / ٩٢ كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة

أما قول الزمخشري :- " من أخل بالعمل فهو فاسق " فإنه عند أهل السنة كذلك فاسق ولكن الفسق لا يخرج عن الإيمان^(١) ولا يخلده في النار حيث ما زال يحمل صفة المؤمنين .

فإن كان رأى الزمخشري كذلك فلا خلاف . وإن كان يقصد - وأظنه كذلك^(٢) - بالفاسق أنه ليس بمؤمن ولا كافر كما هو مذهب المعتزلة فهذه أسماء سماها القدرية وهي - كما يقول ابن المنير - ما أنزل الله بها من سلطان ومعتقد أهل السنة أن الموحّد الله الذى لا خلل فى عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر وهذا الصحيح لغة وشرعاً أما لغة فإن الإيمان هو التصديق وهو مصدق وأما شرعاً فأقرب شاهد عليه هذه الآية^(٣) فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكراراً^(٤)

قول الله تعالى : " أفجعل المسلمين كالمجرمين " ^(٥) استدل المعتزلة بهذه الآية على ان مرتكب الكبيرة لا يعد مسلماً ولا مؤمناً ، ومن ثمّ فلا يكون من أهل الجنة البتة فزعم القاضى عبد الجبار أن هذه الآية : " دليل واضح على أن وصف الإنسان بأنه مسلم ومجرم كالمتنافى فالفاسق لما كان مجرمًا وجب ألا يكون مسلماً ويقول الجبائى : دلت الآية على أن المجرم لا يكون البتة فى الجنة ، لأنه تعالى

(١) الكشاف جـ ١ / ٥٨ حاشية الشيخ محمد المرزوقى

(٢) لأنه يقول فى موطن آخر :- والفاسق فى الشريعة الخارج عن أمر الله بإرتكاب الكبيرة وهو النازل بين المنزلتين منزلة المؤمن والكافر . الكشاف جـ ١ / ٥٨

(٣) الآية هى قوله تعالى :- " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون " سورة البقرة الآية ٣ .

(٤) هامش الكشاف جـ ١ / ٢٢ .

(٥) القلم الآية : ٣٥

أنكر حصول التسوية بينهما في الثواب ، بل لعله يكون ثواب المجرم أزيد من ثواب المسلم إن كان المجرم أطول عمراً من المسلم ، وكانت طاعته غير محبطة (١) .

ورداً على هذا الزعم نقول : في هذا التأويل نظر ، فإنه لا يرقى إلى القبول ، ولا أظنه مراد الآية التي تبين أن الإجرام معناه الكفر والمراد بالمجرمين هنا كفار مكة الذين نزلت فيهم الآية يقول صاحب لباب التأويل - رحمه الله - :
 أخبر الله بما أعده للمتقين فقال تعالى :- " إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم " (٢) أي عند ربهم في الآخرة ولما نزلت هذه الآية قال المشركون إنا نعطي في الآخرة أفضل مما تعطون فقال الله تعالى تكذيباً للمشركين (أفجعل المسلمين كالمجرمين) يعنى أن التسوية بين المسلم والمجرم غير جائزة فكيف يكون أفضل منه (٣)

ولما قال تعالى ذلك على سبيل الإستبعاد والإنكار قرر هذا الإستبعاد بأن قال لهم على طريق الإلتفات " ما لكم كيف تحكمون " يعنى هذا الحكم المعوج (٤) .
 ولا خلاف بين المفسرين أن الآية نزلت في الكافرين والمراد بالمجرمين كفار مكة كما قال ابن عباس ومقاتل وغيرهما (٥) وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة وحرمان المشركين منه ،

(١) الفخر الرازى حـ ٣٠ / ٦٦٧

(٢) سورة القلم : ٣٤

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن حـ ٤ ، ٢٩٧ - ٢٩٨ ط الإستقامة

(٤) انظر الفخر الرازى حـ ٣٠ / ٦٦٨ وانظر المرجع السابق نفس الجزء والصفحة

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي حـ ١٨ / ٢٤٦

لأن نفي التساوى وارد فى معنى التضاد فى الخير والشر فى القرآن الكريم وكلام العرب قال تعالى : " أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوِي " (١) وقال : " لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ " (٢) وقال : " أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ " (٣) وقال الحارثى :

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ فى جزاء الخير انتفى ما قالوه من أنهم أفضل حظاً فى الآخرة من المسلمين كما هو حالهم فى الدنيا بطريق فحوى الخطاب وقوله أفجعل المسلمين كالمجرمين كلام موجه إلى المشركين وهم المقصود بـ " المجرمين " عبر عنهم بطريق الإظهار دون ضمير الخطاب لما فى وصف المجرمين من المقابلة ليكون فى الوصفين إيماء إلى سبب نفي المماثلة بين الفريقين (٤) ..

ويقول صاحب الفتوحات الإلهية :-

الهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنحيف فى الحكم فنجعل المسلمين كالمجرمين ... والإستفهام للتقريع والتوبيخ للكفار على هذا القول الذى قالوه وقد وبخوا وقرعوا بإستفهامات سبعة الأول هذا والثانى ما

(١) سورة السجدة الآية : ١٨

(٢) سورة الحشر من الآية : ٢٠

(٣) سورة ص الآية : ٢٨

(٤) انظر تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٩ / ٩٢ ط الدار التونسية

لكم والثالث كيف تحكمون والرابع أم لكم كتاب والخامس أم لكم أيمان والسادس أيهم بذلك زعيم والسابع أم لهم شركاء ...

ثم قال : ليس فى الآية إلا نفى المساواة ، والكفار ادعوا الأفضلية ... وإذا إنتفت المساواة إنتفت الأفضلية بالأولى (١) .

إذا المراد بالمجرمين الذين ذكرتهم الآية الكفار الذين لم يؤمنوا باليوم الآخر وقالوا على سبيل الإستبعاد إن كان هناك بعث وجزاء فإن الله سوف يعطينا أفضل منهم ..

يقول ابن حزم رحمه الله :-

قد علمنا أنه لا دار إلا الجنة أو النار ، وأن الجنة لا يدخلها إلا المؤمنون المسلمون فقط ، ونص الله على أن النار لا يدخلها إلا المكذب المتولى (٢) . قال تعالى :- " فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى " (٣) والمتولى المكذب كافر بلا خلاف فلا يدخل فى النار إلا كافر فقط وإذا ذلك كذلك فهؤلاء الذين سماهم الله عز وجل مجرمين وفاسقين وأخرجهم عن المؤمنين فهم كفار مشركون لا يجوز غير ذلك (٤) . وبذلك يصبح إدعاء

(١) الجمل - ٤ / ٣٨٨

(٢) لعل مراد ابن حزم ألا يدخلها خالداً خلود تأييد لأن المسلم العاصى قد يدخلها ثم يخرج منها برحمة الله إلى الجنة ..

(٣) سورة الليل ١٤ - ١٦

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل حـ ٣ / ٢٣٢ ط دار المعرفة بيروت - لبنان

سنة ١٤٠٣ هـ ، سنة ١٩٨٣ م

المعتزلة باطلاً ، وحثهم داحضة ، واستشهادهم بالآية في غير محله ،
والقول بأن مرتكب الكبيرة مخذ في النار مردود ..

أم قول الجبائي : دلت الآية على أن المجرم لا يكون البتة في الجنة لأنه
تعالى أنكر حصول التسوية بينهما في الثواب ، بل لعله يكون ثواب المجرم
أزيد من ثواب المسلم إن كان المجرم أطول عمراً من المسلم وكانت طاعته
غير محبطة .

أقول : إن كان كذلك ولكن ذلك لم يكن حيث إن طاعته محبطة بنص القرآن
الكريم قال تعالى : " لئن أشركت ليحبطن عملك " (١)

وقد سبق أن المراد بالمجرمين مشركوا مكة كما قال ابن عباس وغيره .

هذا ، وفي القرآن الكريم كثير من الآيات التي سمت الكافرين مجرمين من
ذلك قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ
السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاجِ الْجِمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ " (٢) وقوله جل جلاله :-

" إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ
وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ " (٣)

وفي القرآن الكريم أيضاً آيات كثيرة ذكر الله تعالى فيها المجرم في مقابلة
المؤمن مثل قوله تعالى :- " إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ
فِيهَا وَلَا يَحْيَى . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ

(١) سورة الزمر من الآية : ٦٥

(٢) سورة الأعراف الآية : ٤٠

(٣) سورة الصافات الآية : ٣٤ - ٣٦

الْعُلَى جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى" (١) أى تطهر من أدناس الذنوب وعن ابن عباس: قال لا إله إلا الله . (٢) وهذا يدل على أن المجرم الذى لم يقلها . فإنه أنسب لقوله " لا يموت فيها ولا يحيى " . أما الذى نطق بكلمة التوحيد (فلا يليق به أن يقال فى صفته أن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ولو ارتكب الكبيرة) (٣) . يقول الطبرى : -إنه من يأت ربه من خلقه مجرماً مكتسباً الكفر به فإن له جهنم مأوى ومسكناً جزاء له على كفره . ومن يأتته مؤمناً موحداً لا يشرك به قد عمل ما أمره به ربه ، وانتهى عما نهاه عنه فأولئك لهم درجات الجنة العُلَى (٤) . .وقوله له تعالى : "يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ" (٥) أى بعلامات تظهر عليهم قال الحسن وقتادة . يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون ثم يضيف ابن كثير فيقول : قلت : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من اثار الضوء . (٦) ويقول سبحانه : " إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ " (٧) ويقول جل جلاله : " فاما الذين امنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم فى رحمته ذلك الفوز المبين وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ " (٨)

(١) سورة طه : ٧٤ - ٧٦

(٢) الكشاف حـ ٢ / ٤٤١

(٣) الفخر الرازى حـ ٢٠ / ٦٦١

(٤) تفسير الطبرى حـ ٨ / ٤٨٤ - ٤٨٥

(٥) سورة الرحمن من الايه : ٤١

(٦) تفسير القران العظيم حـ ٧ / ٣١٧

(٧) سورة المطففين : ٢٩

(٨) سورة الجاثية : ٣٠ / ٣١

كل هذا يؤكد أن كلمة المجرم والمجرمين إنما يراد بها أهل الكفر حيث جاء في مقابلها أهل الايمان ... وليس المراد صاحب الذنوب والكبائر كما يزعم المعتزلة ... حيث إن صفة الإجرام تطلق على أعتى أنواع الكفر قال تعالى: " فَهَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ " (١) وهى نزلت فى مسليمة الكذاب (٢) وكذلك وصف الله فرعون وملاءه بأنهم مجرمون وهم أشد الناس كفراً وعتواً فقال سبحانه: " ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ " (٣)

هذا • وقد وصف القران الكريم الامم الغابرة - بسبب كفرهم - بوصف الإجرام وسماهم بالمجرمين مما يدل على أن كلمة المجرمين فى القران تعود على الكافرين لا المسلمين وذلك مثل قوله تعالى : عن قوم لوط :

" قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ " (٤)

وقوله سبحانه عن قوم عاد :

" فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ " (٥)

(١) سورة يونس آية : ١٧

(٢) تفسير القران العظيم حـ٤ / ٩٣

(٣) سورة يونس آية : ٧٥

(٤) سورة الذاريات ٣١ - ٣٢

(٥) سورة الاحقاف من الآية : ٢٥

وقوله جل جلال : "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ " . (١) فالله تعالى أهلكتهم لأنهم كانوا مجرمين كما ذكرت الآيات، ومعلوم ان عذاب الله بالهلاك انما ينزل على العباد لكفرهم وعنادهم لا لاقترافهم المعاصي وهم على التوحيد قال تعالى: " إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى " . (٢) وقال سبحانه: " وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ " . (٣) وقال جل جلاله : " وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ " . (٤) وقال جل شاناه : " وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ " . (٥)

* * *

ومن الآيات التي استدل بها المعتزلة على خلود صاحب الكبيرة في النار - قوله تعالى : " إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ " . (٦) حيث يقول القاضي عبد الجبار : يدل على الوعيد والخلود لأنه لم يخص مجرماً من مجرم وبيّن أنهم خالدون في النار والخلود هو الدوام الذي لا انقطاع له . (٧)

(١) سورة يونس اية : ١٣

(٢) سورة طه اية : ٤٨

(٣) سورة هود اية : ١١٧

(٤) سورة القصص من الاية : ٥٩

(٥) سورة الانفال من الاية : ٣٣

(٦) سورة الزخرف الاية : ٧٤

(٧) متشايه القران حـ ٢ / ٦٠٩ ط مكتبه دار التراث

وقبل أن نبدأ فى الرد عليهم فى هذه الآية ننبه أن الآية السابقة التى قمنا بدحض شبهاتهم فيها كانت عن المجرمين أيضا فما قيل فى الآية السابقة ردا عليهم يقال فى هذه الآية... وزيادة على ذلك تقول فى هذه الآية بخصوصها لاختلاف بين علماء أهل السنة على أن المراد بالمجرمين فى هذه الآية أهل الكفر والشرك الجاحدون توحيد الله وعبادته .

يقول الخازن : إن المجرمين يعنى المشركين . (١)

ويقول الطبرى فى تفسيره لهذه الآية يقول تعالى ذكره " ان المجرمين " اجتمروا فى الدنيا الكفر بالله فاجتمروا به فى الآخرة " فى عذاب جهنم خالدون " هم فيه ماكثون وماظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم ما اخبرناكم ولكن كانوا هم الظالمين بعبادتهم فى الدنيا غير من كان عليهم عبادته، وكفرهم بالله وجحودهم توحيده . (٢)

ثم إن ما قبل هذه الآية وما بعدها يؤكد أن المراد بالمجرمين الكفرة الجاحدون لاعصاة المسلمين . يقول الفخر الرازى - رحمه الله - :

إن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على أن المراد من لفظ المجرمين ها هنا الكفار ، أما ما قبل هذه الآية فلائنه قال : " يَا عِبَادِ لَأَخَوْفُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ " . (٣) فهذا يدل على أن كل من آمن بآيات الله وكانوا مسلمين فإنهم يدخلون تحت قوله : " يا عباد لا خوف عليكم

(١) لباب التأويل حـ ٤ / ١١٠ ط الاستقامة الطبعة الاولى سنة ١٩٧٤ - ١٩٥٥ .

(٢) تفسير الطبرى حـ ١١ / ٢٢٨ - وانظر القاسمى حـ ١٤ / ٥٢٨٦

(٣) الزخرف ٦٨ : ٦٩ .

اليوم ولأنتم تحزنون الذين آمنوا بأياتنا وكانوا مسلمين . "والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله تعالى وبآياته وأسلم فوجب أن يكون داخلاً تحت الوعد . ووجب أن يكون خارجاً عن هذا الوعد . وأما ما بعد هذه فهو قوله - لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون والمراد بالحق هنا إما الإسلام وإما القرآن ، و الرجل المسلم لا يكره الإسلام ولا القرآن فنثبت أن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على أن المراد من المجرمين الكفار . (١)

ومن المعلوم أن القرآن يفسر بعضه بعضاً وأن النظر إلى ما قبل الآية وما بعدها أمر ضروري لمعرفة مراد الآية وهو لازم للمفسر . يقول الفخر الرازي : ليس الرجل من يرى وجه الاستدلال فيذكره ، إنما الرجل الذي ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده . (٢) وهذا قول حسن فإن كثيراً من الآيات يبينها ما بعدها مثل قوله تعالى : " إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً " (٣)

فقوله سبحانه : " هَلُوعاً " يفسر بالجزع في الشر والمنع والشح في الخير - فعن ابن عباس " رضي الله عنهما " قال : تفسيره ما بعده (إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلبياً عن الهلع فقال فسره الله تعالى ولا يكون تفسيراً أبين من تفسيره إذا ناله شر

(١) الفخر الرازي حـ ٢٧ / ١١٩ : ١٢٠

(٢) المرجع السابق حـ ٢٧ : ١٢١

(٣) سورة المعارج ١٩ : ٢١

أظهر شدة الجزع وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس . (١)

قول الله تعالى " وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا " (٢)

استدل المعتزلة بهذه الآية على أن فساق أهل الملة من مرتكبي الكبيرة مخلدون في النار دون ماخروج منها . . . وقد وجد المعتزلة بغيتهم في هذه الآية واستغلوا لفظ (أبدا) فرصة ليردوا على من يحمل الخلود على المكث الطويل وحيث جاء لفظ الأبد صريحا فمن ثمَّ ظنوا أن دليلهم قوى !!

يقول الفخر الرازي : استدل جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن فساق أهل الصلاة مخلدون في النار وأن هذا العموم يشملهم كشموله الكفار ، قالوا وهذا العموم أقوى في الدلالة على هذا المطلوب من سائر العمومات لأن سائر العمومات ما جاء فيها قوله (أبدا) فالمخالف يحمل الخلود على المكث الطويل اما هنا فقد جاء لفظ الأبد فيكون ذلك صريحا في إسقاط الإحتمال الذي ذكره المخالف (٣) ويرى القاضي عبد الجبار - أن لا فرق بين الكافر والفساق وإنما الجميع خالد في نار جهنم فيقول : بعد ذكره هذه الآية - يدل على ما يقوله المعتزلة في الوعيد لأنه تعالى أوجب لمن هذا وصفه الخلود في النار ولم يخص الكافر من الفاسق . (٤)

(١) انظر تفسير النسفي حـ ٤ / ٢٩١ - ٢٩٢ ط دار احياء الكتب العربية وانظر

تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ ٨ / ١٢٤ .

(٢) سورة الجن من الاية : ٢٣

(٣) الفخر الرازي حـ ٣٠ / ٧٨٣

(٤) متشايه القرآن حـ ٢ / ٦٦٨

وليس المراد بمعصية الله ورسول عند علماء أهل السنة والجماعة مجرد الوقوع فى الكبيرة مع توحيد الله والإيمان برسله . ولكن الآية تحمل على الجحود والتكذيب وهذا من صفات الكافرين لا المسلمين يقول الطبرى فى تفسيره هذه الآية :

ومن يعص الله فيما أمره ونهاه . ويكذب به ورسوله . فجد رسالاته ، فإن له نار جهنم يصلها خالدى فيها أبدا ما كثر فيها أبدا الى غير نهاية (١) . وما استشهد به المعتزلة وظنوه دليلا قويا على خلود صاحب الكبيرة فى جهنم وهو لفظ (ابدا) كان دليلا عند غيرهم على أن الآية تتحدث عن المشركين لاعصاة المسلمين . يقول القرطبى رحمه الله :

قوله أبدا دليل على أن العصيان هنا هو الشرك . لأن الذين خرجوا من الدين على الإيمان يلحقهم العفولامحالة (٢) .

ومن الأشياء التى يستعان بها فى التفسير أسباب التزول وذكر الواقعة التى من أجلها ورد الحكم، فان تخصيص العموم - كما يقول الفخر الرازى - بالواقعة التى لأجلها ورد ذلك العموم عرف مشهور . فإن المرأة إذا أرادت أن تخرج من الدار ساعة فقال الزوج إن خرجت فأنت طالق يقيد ذلك اليمين بتلك الساعة المعينة حتى أنها لو خرجت فى يوم آخر لم تطلق فيها هنا أجرى الحديث فى التبليغ عن الله تعالى ، ثم قال : (ومن يعص الله ورسوله) يعنى جبريل أى ومن يعص الله فى تبليغ رسالته وأداء وحيه فان له نار جهنم ، وإذا كان ما ذكرناه محتملا سقط وجه الإستدلال . وقوله ومن يعص الله

(١) تفسير الطبرى حـ ١٢ / ٢٩٨

(٢) الجامع لاحكام القرآن حـ ١٩ / ٢٧

ورسوله) إنما يتناول من عصى الله ورسوله بجميع أنواع المعاصى وذلك هو الكافر ونحن نقول بأن الكافر يبقى فى النار مؤيداً ، وإنما قلنا أن قوله ومن يعص الله ورسوله إنما يتناول من عصى الله بجميع أنواع المعاصى لأن قوله (ومن يعص الله) يصح استثناء جميع أنواع المعاصى عنه مثل أن يقال ومن يعص الله إلا فى الكفر وإلا فى الزنا وإلا فى شرب الخمر . ومن مذهب القائلين بالوعيد أن حكم الإستثناء إخراج ما لولاه لكان داخلاً تحت اللفظ وإذا كان كذلك وجب أن يكون قوله (ومن يعص الله) متناولاً لمن أتى بكل المعاصى - والذى يكون كذلك هو الكافر ، فالآية مختصة بالكافر على هذا التقدير (١) .

هذا ، وإلى جانب ما استدل به المعتزلة على مذهبهم من القرآن الكريم كانت لهم أدلة عقلية أوردوها من أجل الإنتصار لهذا المذهب حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة لا يكون مؤمناً إذ يستحيل أن يكون المرء مذنباً ومؤمناً فى ان واحد ، لأن الإيمان شئ محمود ، والذنب شئ سيئ مذموم فقالوا :

" المؤمن محمود محسن ، ولى الله عزوجل ، والمذنب مذموم سيئ عدو لله ومن المحال أن يكون إنسان واحد محموداً مذموماً محسناً سيئاً عدواً لله ولياً له معا " (٢)

ويرد ابن حزم على هذه الشبهة فيقول :

(١) تفسير الفخر الرازى ح - ٧٨٥/٣٠

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ح - ٢٣٢/٣ ط دار المعرفة بيروت لبنان سنه

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

وهذا الذى أنكره لا نكرة فيه بل هو أمر موجود مشاهد فمن أحسن من وجه وأساء من وجه آخر كمن صلى ثم زنى فهو محسن محمود ولى الله فيما أحسن فيه من صلاة ، وهو مسئ مذموم عدو لله فيما أساء فيه من الزنا - قال الله عز وجل :

(وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وأخر سئيا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم) (١) .

فبا لضرورة ندرى أن العمل الذى شهد الله عز وجل أنه سئ فإن عامله فيه مذموم مسئ عاصي لله تعالى (٢) وفى السنة ما يؤيد كلام ابن حزم - رحمه الله - فقد ثبت أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" مدح أبا ذر فقال : ماأظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من أبى ذر (٣) .

وفى رواية : ماأظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق ولا أوفى من أبى ذر : شبه عيسى ابن مريم -عليه السلام -

فقال عمر بن الخطاب كالحاسد : يارسول الله افتعرف ذلك له ؟ قال نعم فاعرفوه له (٤) ثم أخطأ أبو ذر يوما فى حق رجل وعابره

(١) سورة التوبة أية : ١٠٢

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل حـ ٣ / ٢٣٢

(٣) رواه الترمذى حـ ١٠ / ٢٨٢ كتاب المناقب / ٣٦ - باب مناقب ابى ذر "رضى الله عنه" وقال : حديث حسن .

(٤) الترمذى حـ ١٠ / ٢٨٣ ك المناقب ٣٦ - ب مناقب ابى ذر -رضى الله عنه -

قال حديث حسن غريب من هذا الوجه .

بأمه (١) فقال له رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : أعيرته بأمه ؟ قال نعم يا رسول الله - قال عليه الصلاة والسلام : (إنك امرء فيك جاهلية) (٢) والصحابة - رضوان الله عليهم - خرجوا للجهاد فى غزوة أحد فكانوا محسنين يستحقون بهذا العمل المدح والثناء ... فلما خالفوا أمر رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ونزلوا من فوق الجبل ومنهم من فر لم يكونوا كذلك لذلك عاتبهم الله فقال سبحانه : "أَوَلَمْآ أَصَابْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِمَّنِّيهَا فَلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ" (٣) وقال سبحانه : "إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ" (٤) ثم يقال لأهل الإعتزال :

ما تقولون إن عارضتكم المرجئة بكلامكم نفسه فقالوا من المحال أن يكون إنسان واحد محموداً مذموماً محسناً سيئاً عدواً لله ولياً له معاً ثم أرادوا تغليب الحمد والإحسان والولاية وإسقاط الذم والإساءة والعداوة كما أردتم أنتم بهذه القضية نفسها تغليب الذم والإساءة والعداوة وإسقاط الحمد والإحسان والولاية

(١) الرجل هو بلال بن رباح - رضى الله عنه - قال له أبو ذر يا ابن السوء - انظر فتح البارى حـ ١ / ١٠٨ .

(٢) رواه البخارى ونصه " قال أبو ذر سابيت رجلا فعيرته بأمه فقال لى النبى "صلى الله عليه وسلم" يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرء فيك جاهلية " حـ ١ / ١٠٦ ك الايمان

ب المعاصى من أمر الجاهلية - حديث رقم : ٣٠

(٣) سورة آل عمران من الآية : ٦٥

(٤) سورة ال عمران أية : ١٥٥

بما ينفصلون عنهم ... فإن قال المعتزلة أن الشرط في حمده وإحسانه
 وولايته أن تجتنب الكبائر قلنا لهم فإن عارضتكم المرجئة فقالت إن الشرط
 في ذمه وإساءته ولعنه وعداوته ترك شهادة التوحيد ، فان قالت المعتزلة أن
 الله قد ذم المعاصي وتوعد عليها • قيل لهم فان المرجئة تقول لكم إن الله
 تعالى قد حمد الحسنات ووعد عليها وأراد بذلك تغليب الحمد كما أردتم تغليب
 الذم فان ذكرتم آيات الوعيد ذكروا آيات الرحمة... • وهذا مالا مخلص
 للمعتزلة منه ولا للمرجئة ايضاً . فوضح بهذا أن كلتا الطائفتين مخطئة وأن
 الحق هو جمع كل ما تعلقت به كلتا الطائفتين من النصوص التي في القرآن
 والسنن ويكفي من هذا كله قول الله عز وجل : " إِنِّي لَأَظِيْعُ عَمَلٍ عَامِلٍ
 مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى " (١) •

وقوله تعالى : " الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ " (٢)

وقوله سبحانه : " فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
 يَرَهُ " (٣) وقوله جل جلاله : " مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا " (٤)

وقوله : " وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
 مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ " (٥)

(١) سورة ال عمران من الآية : ١٩٥

(٢) سورة غافر من الآية : ١٧

(٣) سورة الزلزلة الأيتان : ٧ : ٨

(٤) سورة الأنعام من الآية : ١٦٠

(٥) سورة الأنبياء الآية : ٤٧

فصح بهذا كله أنه لا يخرج عن إسم الإيمان إلا الكفر ولا يخرج عن إسم الكفر إلا الإيمان وأن الأعمال حسناتها حسن إيمان (١) وقبيحتها قبيح ليس إيماناً والموازنة تقضى على ذلك ولا يحبط الأعمال إلا الشرك بالله قال تعالى : " لئن أشركت ليحبطنَّ عمَّاكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ " (٢) ومما يبطل كلام المعتزلة وزعمهم أن صاحب الكبيرة مخذ في النار قوله الله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرًا بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » (٣) فان الله ذكر القتل - وهو كبيرة - وذكر أن الفتنة أكبر منه والمراد بالفتنة في الآية الشرك أو الكفر بالله أى الشرك بالله أكبر من القتل . وقال مجاهد وغيره : الفتنة هنا الكفر ، أى كفركم أكبر من قتلنا أولئك . (٤) قال الماتريدى : لو أوجب القتل التخليد لكان التساوى بين الكفر والقتل ولا يكون الكفر أكبر من القتل (٥) وبما أن المشرك خالد في النار خلود تأبيد حابط عمله فإن صاحب الكبيرة لا يخلد في النار خلود تأبيد كما يخلد المشرك والكافر ، ولا يحبط عمله كما يحبط عمل المشرك . والمؤمن إذا وقع منه فسق - كبيرة أو غيرها فمن المحال أن يبطل

(١) لعلها : إيماناً

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم حـ ٣ / ٢٣٢ - ٢٣٣ ط دار المعرفة

بيروت لبيداء الآية رقم ٦٥ من سورة الزمر .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢١٧

(٤) انظر تفسير الطبرى حـ ٢ / ٥١١ - وانظر الكشاف للزمخشري حـ ١ / ١٣١ -

وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي حـ ٣ / ٤٦ .

(٥) انظر تاويلات أهل السنة ص ٤٤٧ : ٤٤٨ .

هذا الفسق سائر أعماله الصالحة من صلاة وجهاد وغير ذلك والسنة النبوية الصحيحة تذكر لنا بعض الذين اقترفوا بعض الكبائر - ولم تبطل تلك الكبائر عملهم الصالح بل كان عملهم الصالح كفارة لذنوبهم وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يثنى عليهم خيرا - مثال ذلك :

ماحدث من حاطب بن أبي بلعته "رضى الله عنه" وقد شهد بدرًا :

فقد روى البخارى ومسلم - واللفظ للبخارى - عن عبيد الله بن أبي رافع قال سمعت عليا رضى الله عنه يقول : يعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا والزبير والمقداد بن الأسود وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة ^(١) ومعها كتاب فخدوه منها - فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، حتى اتتهينا إلى الروضة ، فإذا نحن بالظعينة . فقلنا أخرجى الكتاب فقالت ما معى كتاب . فقلنا لتخرجن الكتاب ، أو لنلقين الثياب ، فاخرجته من عقاصها ^(٢) فأتينا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاذا فيه :

من حاطب بن أبي بلعته إلى أناس من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا حاطب ما هذا ؟ قال يا رسول الله لاتعجل علىّ إني كنت امرءاً ملصقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فاحببت إذ فاتتى ذلك من النسب فيهم أن

(١) الظعينة - بالطاء المعجمة المرآة - فتح البارى حـ ٦ / ١٦٧

(٢) عقاصها - بكسر العين جمع عقبيصة وهو الشعر المصفور شرح صحيح مسلم

أَتَّخَذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي ، وَمَا فَعَلْتَ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا
بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ "صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" قَدْ صَدَقْتُمْ .
فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ . قَالَ : إِنَّهُ قَدْ
شَهِدَ بَدْرًا . وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ :
اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ (١)

فَالَّذِي فَعَلَهُ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - شَيْءٌ لَيْسَ بِالْهَيْنِ بَلْ هُوَ
ذَنْبٌ كَبِيرٌ - قَالَ النَّوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَهَذَا الْجِنْسُ كَبِيرَةٌ قَطْعًا لِأَنَّهُ يَتَّصِفُ بِإِذَاءِ
النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ كَبِيرَةٌ بِلَاشِكٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : «إِنَّ الَّذِينَ
يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا» (٢) لِذَلِكَ
أَرَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَهُ لَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَزَالَ تَهْمَةَ النِّقَاقِ عَنْ حَاطِبٍ وَأَبْقَى عَلَيْهِ صِفَةَ
الْإِيمَانِ وَقَطَعَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّهُ نَاجٍ مِنَ النَّارِ وَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا . رَوَى مُسْلِمٌ
بِسُنْدِهِ - (أَنْ عَبْدِ اللَّهِ حَاطِبٌ جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَشْكُو
حَاطِبًا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِيَدْخُلَنَّ حَاطِبُ النَّارَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ " صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ " كَذَبْتَ لَا يَدْخُلُهَا فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحَدِيثُ (٣)

(١) البخاري حـ ١ / ١٦٦-١٦٧ كتاب الجهاد والسير باب الجاسوس حديث رقم

٣٠٠٧

(٢) شرح صحيح مسلم حـ ١٦ / ٥٥ والآية رقم ٥٧ من سورة الأحزاب .

(٣) مسلم حـ ١٦ / ٥٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضائل حاطب بن ابي بلتعته واهل

بدر " رضى الله عنهم " .

وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن لا تسقط عنه صفة الإيمان كما يزعم المعتزلة . فإن قيل إن حاطباً - رضى الله عنه - شهد بدرًا ومن ثم فهو مؤمن وإن ارتكب كبيرة قلنا إن من الصحابة من ارتكب كبيرة ولم يكن من أهل بدر وشهد له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأعلى درجات الإيمان وهى محبة الله ورسوله - فقد روى البخارى بسنده - " عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رجلا كان على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - كان اسمه عبد الله وكان يُلقب حمارا وكان يُضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد جلده فى الشراب ، فأوتى به يوما فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ، ما اكثر ما يؤتى به ! فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لا تلعنوه ، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله . (١)

(١) البخارى حـ ١٢ / ٧٧ كتاب الحدود باب ما يكره من لعن شارب الخمر ، وأنه ليس بخارج من الملة - حديث رقم ٦٧٨٠ - وقوله فوالله ما علمت انه يحب الله ورسوله : اختلف فى تأويله فقال بعضهم :

الرواية بفتح الهمزة " فى أنه " على ان "ما" نافية يحيل المعنى الى ضده وقيل ما موصولة وإنه بكسر الهمزة مبتدا وقيل بفتحها وهو مفعول علمت - فعلى هذا علمت بمعنى عرفت وإنه خبر الموصول وقيل ما زائدة أى فوالله علمت أنه والهمزة على هذا مفتوحة وقيل يحتمل أن يكون المفعول محذوقا أى ما علمت عليه أو فيه سوء ، ثم استأنف فقال : إنه يحب الله ورسوله ... وقال الطيبى : وجعل ما نافية أظهر لاقتضاء القسم ان يلتقى بحرف النفى وبيان وباللام خلاف الموصولة ، ولان الجملة القسمية جئ بها مؤكدة لمعنى النفى مقررة للإنكار ، ويؤيده أنه وقع فى شرح السنه - فوالله ما علمت إلا انه - فمعنى الحصر فى هذه الرواية بمنزلة تاء الخطاب فى //

وشهادة الرسول له بمحبة الله ورسوله دليل على أنه مؤمن . قال تعالى :
 "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ
 مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
 وَيُحِبُّونَهُ" (١) بخلاف الكافر فإنه لانصيب له في محبة الله ورسوله . قال
 تعالى - : "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ" (٢)

ويلزم المعتزلة إن لم يصرحوا بإيمان مرتكب الكبيرة ، وأنه من أهل الجنة
 أن يصرحوا بكفره ، كما صرحوا بخلوده في النار ، وبناء عليه يكون كل
 العصاة كفرة ، لأن الله قال : " وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْكَافِرُونَ" (٣) فان كل عامل بالمعصية سواء عفا عن ظالم أو حكم على برئ
 فإنه لم يحكم بما أنزل الله .. ولكن الصواب خلاف ذلك فإنه وإن كان كل من
 لم يحكم بما أنزل الله عاملاً بالمعصية ، ولكن ليس كل عامل بالمعصية
 كافراً أو منزوعة منه صفة الإيمان ، ويؤيد هذا أن الله جمع الكفر والظلم
 والفسق في قضية واحدة فقال : " وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْكَافِرُونَ" (٤) وقال : " وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (٥)
 وقال : " وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (٦)

الرؤية الأخرى لإرادة مزيد الإنكار على الخاطب - انظر فتح الباري لابن حجر حـ

٧٩/١٢

(١) سورة المائدة من الآية : ٥٤

(٢) سورة ال عمران من الآية : ٣٢

(٣) سورة المائدة من الآية : ٤٤

(٤) سورة المائدة من الآية ٤٥

(٥) سورة المائدة من الآية ٤٧

فمن الآيات يتضح أن ليس كل من لم يحكم بما أنزل الله كافراً .. بل منهم من يحمل صفة الإيمان وإن كان به فسق أو ظلم ... وأن هذا الظلم قد تشمله مغفرة الله قال تعالى :- " وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ " (١) فبعض الظلم مغفور بنص القرآن . يقول ابن حزم - رحمه الله .
 وأما نحن فنقول كل من كفر فهو فاسق ظالم عاصٍ ، وليس كل فاسق ظالم عاصٍ كافراً بل قد يكون مؤمناً . (٢)

وفى التترييل مايؤيد كلام ابن حزم . قال تعالى : " وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (٣) وقال سبحانه : " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (٤) فكل كافر ظالم ، وكذلك كل مشرك وليس كل ظالم كافراً ... وقد روى عن عطاء بن دينار أنه قال الحمد لله الذى قال والكافرون هم الظالمون ولم يقل والظالمون هم الكافرون .. (٥)

(١) سورة الرعد من الآية : ٦

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل - ٣ / ٢٣٤ ط دار المعرفه بيروت سنه ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٥٤

(٤) سورة لقمان من الآية : ٥٣

(٥) تفسير الطيرى - ٣ / ٨ وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير - ١ / ٣٨٣ - وانظر

الجامع لاحكام القرآن للقرطبي - ٣ / ٢٦٨

وإلا ما استحق مغفرة الله وقد نص القرآن الكريم على غفران ذنوب بعض الذين ظلموا كما ذكرنا منذ قليل والحمد لله رب العالمين .
 واستدل المعتزلة على خلود صاحب الكبيرة فى النار - بقوله تعالى :
 " وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ " (١)

فقالوا : صاحب الكبيرة فاجر ، والفجار كلهم فى الجحيم ، لأن لفظ الجحيم إذا دخل عليه الألف واللام أفاد الإستغراق . . ولما كان اسم الفاجر يتناول الكافر والمسلم صاحب الكبيرة ثبت بقاء أصحاب الكبائر أبدا فى النار ، وثبت أن الشفاعة للمطيعين لا لأهل الكبائر . (٢)

ويرد الفخر الرازى على مزاعمهم فيقول :

إن دلالة ألفاظ العموم على الإستغراق دلالة ظنية ضعيفة والمسألة قطعية .
 والتمسك بالدليل الظنى فى المطلوب القطعى غير جائز... فيحتمل أن يكون اللفظ ههنا عائدا الى الكافرين الذين تقدم ذكرهم من المكذبين بيوم الدين . (٣)
 ولو سلمنا ان العموم يفيد القطع ، فإننا لانسلم أن صاحب الكبيرة فاجر لان الله جعل ذلك فى حق الكفار . فقال سبحانه : **أُولَٰئِكَ هُم**

(١) سورة الانفطار اية : ١٤

(٢) مفاتيح الغيب ح ٣١ / ٢٦١ : ٢٦٢ - والقول " بأن الشفاعة للمطيعين لا لأهل الكبائر "

خطأ من أخطاء المعتزلة الشنيعة والتي سوف نرد عليه فى حينه بعون الله ومشيتته

(٣) المرجع السابق ح ٣١ / ٢٦٢ .

الْكَفَرَةَ الْفَجْرَةَ" (١)

لذلك حمل أهل السنة المعنى فى الآية على الكافرين لاغيرهم .
يقول الطبرى :

وإن الفجار الذين كفروا بربهم نفى حجيم ... ويقول فى قوله : " وماهم عنها بغائبين " وما هؤلاء الفجار من الحجيم بخارجين أبداً فغائبين عنها ولكنهم فيها مخلدون ماكتون ، وكذلك الأبرار فى النعيم ، وذلك نحو قوله " وماهم منها بمخرجين " . (٢)

ويقول ابن كثير : " وماهم عنها بغائبين " أى لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ولا يخفف عنهم من عذابها ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يوماً واحداً . (٣)

وكلام ابن كثير يدل على أن الفجار أهل الكفر لأصحاب الكبائر فالذين لا يخفف عنهم من عذابها الكافرون لاعصاة المسلمين - قال تعالى :
" وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ " . (٤)

(١) سورة عبس اية : ٤٢

(٢) تفسير الطبرى حـ ١٢ / ٥١٨ - والآية رقم : ٤٨ من سورة الحجر .

(٣) تفسير القران العظيم لابن كثير حـ ٨ / ١٩٥ .

(٤) سورة فاطر اية : ٣٦

وكذلك الذين لا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة إنما هم أهل الكفر الذين قال الله فيهم : " وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ مَكِينُونَ " (١) ولو سلمنا أن لفظ الفجار يطلق على الكفار وعصاة المسلمين فإن هذه الآية لا تشمل إلا الكافرين لقوله تعالى : " وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ " (٢) فإن هذا للكافر لا للمسلم العاصي لان : (مجموع الفجار لا يكونون غائبين ، ونحن نقول بموجبه ، فإن أحد توعى الفجار وهم الكفار لا يغيبون " (٣) ولو سلمنا بأن هذه الآية فيها تهديد عظيم للعصاة من المسلمين - ويستأنس في هذا بما روى بين سليمان بن عبد الملك وأبى حازم الذى قال له اعرض عمالك على كتاب الله قال فى أى مكان من كتاب الله - قال : " إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي حميم (٤)

(١) سورة الزخرف آية : ٧٧

(٢) سورة الأنفطار آية : ١٦

(٣) مفاتيح الغيب حـ ٣١ / ٢٦٣

(٤) روى أن سليمان بن عبد الملك (احد أمراء بنى أمية) مر بالمدينة وهو يريد مكة فقال لابي حازم كيف القدوم على الله غدا ؟ قال أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله وأما المسئ فكالأبق يقدم على مولاه ، فبكى (اى سليمان) ثم قال : ليت شعرى مالنا عند الله فقال أبو حازم أعرض عمالك على كتاب الله ، قال فى أى مكان من كتاب الله ؟ قال : " ان الأبرار لفي نعيم وأن الفجار لفي حميم " الفخر الرازى

نقول لو كانت فى عصاة المسلمين فإن غاية الأمر أنها تثبت استحقاق الوعيد والتعذيب للعصاة ، ولكن ثبوت الإستحقاق لاينا فى عفو الله ومغفرته ، ولايجب أن تحمل على كل العصاة ... ثم إنه إذا حملت آيات الوعيد - كالأية التى معنا وغيرها - على عمومها وحكم بموجب ذلك على داخلى جهنم من عصاة المسلمين بالخلود الأبدى ، والعذاب السرمدى فأين شفاعة رسول الله " صلى الله عليه وسلم " للعصاة من أمته !!؟؟

هذه الشفاعة التى بها يخرج العصاة من عذاب النار ويدخلون الجنة ، وهل يُسعف بالشفاعة التائبون عن معاصيهم فقط أم من تاب ومن لم يتب ؟
وقول المعتزلة : أن الشفاعة للمطيعين فقط لا لأهل الكبائر قول باطل مردود لأنه يخالف أحاديث كثيرة صحيحة وردت فى إثبات الشفاعة صراحة لمرتكبي الكبيرة .

فعن أنس بن مالك "رضى الله عنه" قال : قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" . " شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى " (١) قال الطيبي - رحمه الله -
أى شفاعتى التى تتجى الهالكين مختصة بأهل الكبائر (٢) . .

(٢) الترمذى - ١٧ / ٧ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع / ١١ باب ماجاء فى

الشفاعة - وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(١) تحفة الأحوذى - ١٧ / ٧ لإمام عبد الرحمن المياركفورى

وقال ابن تيمية رحمه الله :

وأما دعاؤة وشفاعة في الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة ، وأما الشفاعة يوم القيامة فمذهب أهل السنة والجماعة وهم الصحابة والتابعون لهم بأحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم ، أن له شفاعات يوم القيامة خاصة وعمامة وأنه يشفع فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر ، ولا ينفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون ، دون أهل الشرك ، ولو كان المشرك محبا له معظماً له لم تتقذه شفاعته من النار - وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به ولهذا لما كان أبوطالب وغيره يحبونه ولم يقرأوا بالتوحيد الذي جاء به لم يكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها .^(١)

هذا وقد وردت أحاديث كثيرة تثبت خروج المذنبين من النار ودخولهم الجنة بفضل شفاعة رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ، نذكر منها الآتي :-

روى البخارى بسنده عن قتادة عن أنس "رضى الله عنه" أن النبي "صلى الله عليه وسلم" - قال : يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهوما بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا ، فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنة وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ ، لتشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، قال فيقول لست هناكم قال ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة وقد نهى عنها ولكن اتتوا نوحا

(١) مجموع الفتاوى ج ١ / ١٥٣ - ١٥٤ بغير طبعة

أول نبي بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض - فيأتون نوحا . فيقول لست هناكم .
ويذكر خطيئته التي أصاب سؤاله ربه بغير علم ، ولكن اتنوا إبراهيم
خليل الرحمن . قال فيأتون إبراهيم - فيقول : إني لست هناكم . ويذكر
ثلاث كذبات كذبهن ولكن اتنوا موسى عبدا أتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا ،
قال فيأتون موسى فيقول : إني لست هناكم . ويذكر خطيئته التي أصاب قتله
النفس . ولكن ، اتنوا عيسى عبد الله ورسوله ، وروح الله وكلمته . قال :
فيأتون عيسى فيقول لست هناكم . ولكن اتنوا محمدا - صلى الله عليه وسلم
- عبدا غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر . فيأتوني فأستأذن على ربي في
دار ، فيؤذن لي عليه - فإذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ماشاء الله أن يدعني
فيقول : ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع ، وسل تعط . قال فأرفع
رأسي فأثنى على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه . فيجد لي حدا فأخرج
فأدخلهم الجنة

قال : فتادة وسمعته أيضا يقول : فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة
ثم أعود فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه . فإذا رأيته وقعت ساجدا
فيدعني ماشاء الله أن يدعني ثم يقول : ارفع محمد ، وقل يسمع ،
واشفع تشفع وسل تعط قال فأرفع رأسي ، فأثنى على ربي بثناء وتحميد
يعلمنيه - قال : ثم اشفع فيجد لي حدا فأخرج فأدخلهم الجنة ، قال : فتادة
وسمعته يقول فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة -
فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني
ماشاء الله أن يدعني ، ثم يقول : ارفع محمد وقل يسمع ، واشفع تشفع وسل

تعط . قال : فأرفع رأسي - فأنتى على ربي بتناء وتحميد يعلمتيه ، قال : ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم ، فأدخلهم الجنة - قال قنادة : وقد سمعته يقول فأخرج فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن . أى وجب عليه الخلود ثم تلا الآية :

"عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا" (١) قال: وهذا المقام الذى وَعَدَهُ نبيكم "صلى الله عليه وسلم" . (٢)

فهذا الحديث يعد دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً وحجة قوية على أن من المسلمين من يخرج من النار بشفاعة الرسول "صلى الله عليه وسلم" . ولا مجال للإجتihad فى هذا حيث جاء النص صريحاً "فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة" وليس كما يزعم المعتزلة أن من يدخل النار لا يخرج منها بل الصحيح والثابت أنه يخرج بشفاعة الرسول الله "صلى الله عليه وسلم" - ودعوته المستجابة التى أرجأها "صلى الله عليه وسلم" الى يوم القيامة لتكون نجاة للمذنبين وإن اقتزفوا الكبائر ماداموا ماتوا على التوحيد .

ففى الصحيحين والترمذى واللفظ لمسلم - عن أبى هريرة "رضى الله عنه" قال : قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل

(١) سورة الأسراء من الآية : ٧٩

(٢) البخارى حـ ١٣ / ٤٣٢ ك التوحيد ب قوله تعالى: "وجوه يؤمنذ ناضرة الى ربها

ناظرة" حديث رقم ٧٤٤٠

كل نبي دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً^(١) . وعن عوف بن مالك الأشجعي^(٢) قال : قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم " أتانى أت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً^(٣) .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال قيل " ^(٤) : يارسول الله • من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : رسول الله " صلى الله عليه وسلم " . لقد ظننت • ياأبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما

(١) مسلم حـ ٣ / ٧٤ ك الإيمان ب الشفاعة - وانظر صحيح البخارى حـ ١١ / ٩٩ كتاب الدعوات باب لكل نبي دعوة مستجابة حديث رقم ٦٣٠٤ ، ٦٣٠٥ وانظر سنن الترمذى حـ ١٠ / ٦٤٠٦٣ كتاب الدعوات باب فضل لاحول ولا قوة الا بالله حديث ٣٦٠٢

(٢) صحابى مشهور • من مسلمة الفتح سكن دمشق ومات سنة ثلاث وسبعين - تحفة الأحوذى حـ ٧ / ١٧٦

(٣) الترمذى حـ ٧ / ١٧٦ كتاب صفه القيامة والرقائق والورع باب ما جاء فى الشفاعة حديث رقم ٤٢٤١ - سكت عنه الترمذى وذكر أنه جاء من طرق أخرى .

(٤) قوله قيل يارسول الله - قال ابن حجر لعلها كانت قلت فتصحفت ، فقد أخرجه

المصنف فى الرقاق كذلك • فتح البارى حـ ١ / ٢٣٣ •

(٤١٠)

رأيت من حرصك على الحديث ، اسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال
لااله الااله الله خالصا من قلبه ، أو نفسه. (١)

قال ابن حجر - رحمه الله - . :

(... فإنه - صلى الله عليه وسلم - يشفع في الخلق لإراحتهم من هول
الموقف ، ويشفع في بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها ، وفي
بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخولها ، وفي بعضهم بدخول الجنة
بغير حساب ، وفي بعضهم برفع الدرجات فيها) (٢)

فبعد ثبوت هذه الأحاديث الصحيحة التي تنص صراحة على وجود شفاعته
الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الآخرة وأنها لأصحاب الكبائر وأنهم
ليسوا مخلدين في النار لم يكن هناك خلاف بين الأمة على جواز الشفاعة يوم
القيامة ، وأن بهذه الشفاعة يخرج فريق من مذنبى الأمة من النار ، وبها
أيضا ينقذ فريق من دخول النار وقد وجبت له .. قال القاضى عياض "
رحمه الله " : مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلا ووجوبها سمعا يصريح
قوله تعالى : "يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا" (٣)

(١) صحيح البخارى جـ ١ / ٢٣٣ كتاب العلم - باب الحرص على الحديث - حديث

رقم ٩٩

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١ / ٢٣٤

(٣) سورة طه آية: ١٠٩

وقو له : " وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى " (١) وأمثالهما وبخبر الصادق " صلى الله وعليه وسلم " وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها حد التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبى المؤمنين وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها والشفاعة خمسة أقسام :

أولها : مختصة بنبينا " صلى الله وعليه وسلم " • وهى الأراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب .

الثانية : فى إدخال قوم الجنة بغير حساب وهذه وردت أيضا لنبينا - صلى الله عليه وسلم

الثالثة : الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبينا " صلى الله عليه وسلم " ومن شاء الله تعالى .

الرابعة : فيمن دخل النار من المذنبين فقد جاءت هذه الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا محمد " صلى الله عليه وسلم " والملائكة وإخوانهم من المؤمنين ثم يُخرج الله تعالى كل من قال لا إله إلا الله كما فى الحديث " لايبقى فيها إلا الكافرون • "

الخامسة : فى زيادة الدرجات فى الجنة لاهلها (٢)

وهذه التى يكتفى بها المعتزلة ولاينكرونها ، ولكن ينكرون غيرها

(١) الانبياء من الايه ٢٨

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى حـ ٣ / ٣٥ - ٣٦

يقول القاضى عبد الجبار : " إن الذى عندنا أن هذه الشفاعة تثبت للمؤمنين دون الفاسقين... ، وليس صحيحا مايقوله: الجاهلون^(١) من خروج المعذبين من العذاب المهين إلى دار المتقين ومحل المؤمنين^(٢) .

ونقول إذا كان المؤمن عند المعتزلة هو الذى يعمل الصالحات مع إيمانه بالله ومن ثمَّ وجب على الله أن يدخله الجنة بعمله لابرحة الله وفضله فما أثر الشفاعة وما حاجته الى أن يشفع فيه احد؟! وقد أصبح دخوله الجنة واجبا

(١) يقصد بالجاهلين أهل السنة والجماعة - وهذا خطأ فادح من القاضى عبد الجبار -
 غفر الله له - لان خروج المعذبين من النار ودخولهم الجنة ثابت بأصح الاحاديث - كما سبق ذكره فى هذا الفصل . واضافه الى ما ذكر نذكر ما رواه الشيخان والترمذى وغيرهم واللفظ للبخارى ان رسول الله " صلى الله عليه وسلم" قال : " يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن بُرَّة من خير . ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير " البخارى حـ ١ / ١٢٧ ك الإيمان ب زيادة الإيمان ونقصانه حديث رقم ٤٤ وانظر صحيح مسلم حـ ٣ / ٣٩ ك الإيمان بأهل النار خروجاً وانظر الترمذى حـ ٧ / ٣٥٧ - ٣٥٨ ك صفة جهنم ب ماجاء أن للنار نفسين وذكر من يخرج من النار .

(٢) المحيط بالتكليف السفر التاسع والعشرون اللوحة (- ٦ ب) من المصورة بدار الكتب المصرية نقلا من كتاب المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية صـ ٦٠ للدكتور محمد عمارة .

على الله على حد زعمهم الخاطيء .. هذا ، وما أنكره المعتزلة من شفاعة
النبي - صلى الله عليه وسلم - للمذنبين حق ثابت بأحاديث صحيحة لا يصح
حملها إلا على المذنبين من أهل الملة وإلا فعلى أى يحمل الحديث المذكور أنفا
" شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى " ؟

فإن قيل المراد بأصحاب الكبائر المشركون لأن الشرك أكبر الكبائر قلنا إن
أهل الشرك ليسوا من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وأن قالوا المراد بأصحاب الكبائر الذين تابوا من كبيرتهم قبل الموت قلنا إن
التائبين قبل الموت يتوب الله عليهم ويدخلهم الجنة قال تعالى :

"الَّذِينَ تَابُوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا" (١)

بل إن سيئاتهم يبدلها حسنات كما قال سبحانه :

"الَّذِينَ تَابُوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" (٢)

ثم إن صاحب الكبيرة الذى تاب من كبيرته لا يسمى صاحب كبيرة ، وإنما
يعد من الطائعين التائبين وقد يجوز أن يقال عنه أنه كان صاحب كبيرة -
كالذى يكون كافرا ثم يدخل فى دين الله فيسمى مسلماً ويقال عنه إنه كان
كافرا ثم أسلم - ولو أن إنسانا عاش مائة سنة كافرا وقبل موته بسنة واحدة

(١) مريم الآية : ٦٠

(٢) الفرقان الآية : ٧٠

أسلم وصلح عمله يكون من المسلمين ولايخذل في نار جهنم - فكيف لو عاش
 عمره كله مسلماً ولكنه أذنب ذنباً وهو على عقيدة التوحيد
 أيليق برحمة الله التي وسعت كل شيء أن يكون في جهنم خالداً فيها أبداً؟!
 وفي السنة النبوية ما يثبت أن المسلم العاصي أمره مفوض إلى الله إن شاء
 غفر الله له برحمته . وإن شاء عذبه بعدله ..

فعن عبادة بن الصامت - رضی الله عنه - قال : سمعت رسول الله -
 صلى الله عليه وسلم - يقول : خمس صلوات افترضهن الله على عباده .
 فمن جاء بهن لم ينتقص منهن شيئاً استخفافاً بحقهن فإن الله جاعل له يوم
 القيامة عهداً أن يدخله الجنة ، ومن جاء بهن قد انتقص منهن شيئاً استخفافاً
 بحقهن لم يكن له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء غفر له " . (١)
 وفي رواية ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء
 أدخله الجنة . (٢) فأداء المسلم لصلواته المفروضة يدخله الجنة ولو أتمر، وتركه

(١) رواه ابن ماجه حـ ١ / ٤٤٩ ك اقامة الصلاة (١٩٤) باب حديث رقم ١٤٠١

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي

(٢) سنن النسائي حـ ١ / ٢٤٩ ك الصلاة ب فضل الصلوات الخمس حديث رقم ٤٦٠

ط دار المعرفة بيروت لبنان

لايحتتم تعذيبه بالنار فضلا عن خلوده فيها (١) - مالم ينكر مشروعاتها فيكون حينئذ كافراً لأنه أنكر معلوماً من الدين بالضرورة .

وبناءً على ما ذكر أقول : إن مذهب المعتزلة في مرتكب الكبيرة لا يصح ولا يتسنى لنا أن نقبله لأن القرآن الكريم يبطله ، والسنة الصحيحة تردده ، والعقل السليم لا يقبله ولا يستسيغه .

والأدلة العقلية التي احتجوا بها غير مسلم بها حيث إنهم حملوا آيات الوعيد على عمومها مثل قوله تعالى :

" وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ " (٢) وقوله سبحانه : " إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا " (٣) وهذا لا يصح .

يقول أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - حول هاتين الآيتين وأمثالهما من آيات الوعيد في القرآن الكريم :

لا يقضى بهذه الآيات على بعض ولا على كلٍ إذ كان يقع ذلك تارة على الكل وتارة على البعض ولو جاز لزاعم أن يزعم أن الصورة إنما هي للكل حتى تأتي دلالة البعض لم يكن هذا الزاعم بزعمه أولى ممن قال : صورة هذا

(١) أفعال العباد في القرآن الكريم عبد العزيز المجذوب ص ٤٧٣ - ٤٧٤ ط الدار

العربية للكتاب .

(٢) سورة الانفطار اية : ١٤

(٣) سورة النساء اية : ١٠

القول توجب القضاء على البعض إلى أن تقوم دلالة على الكل . فلما تكافأ
القائلان وجب أن يكون القولان جميعاً ملغيين (١)
ومعنى هذا أن الأمر يعود إلى علمه تعالى ومشيبته لا إلى أحكامنا العقلية
النسبية . ومنه قول الشاعر:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويويطأ بمنسم
وقوله :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم
فليس كل من لم يصانع كذلك ، ولا كل مسالم لا يظلم الناس يلحقه ظلم
الناس حتماً وقد يقول الواحد منا جاعني من أحببت وإنما يعنى واحداً . (٢)
هذا وإن قول المعتزلة في مرتكب الكبيرة لهو أغرب من قول الخوارج
الذين قالوا بكفره وخروجه عن ملة الإسلام ومن ثمّ فهو عندهم حلال الدم
مخلد في النار... وإن قول المعتزلة في مرتكب الكبيرة ليس أقل خطأ من
قول المرجئة الذين قالوا لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر
طاعة ومن ثمّ فلا عقاب لمسلم وأن فجر وفسق!

(١) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع أبو الحسن الأشعري ص ١٢٧ - ١٢٨ نقلا

من أفعال العباد في القرآن ص ٤٧٤

(٢) أفعال العباد في القرآن عبد العزيز المجذوب ص ٤٧٤ ط الدار العربية للكتاب .

والشاعر زهير بن أبي سلمى .

ومن دواعى الإستغراب فى مذهب المعتزلة إنهم يرون أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا يدخل الجنة ولكن يدخل النار ويخلد فيها أبداً ورغم ذلك يقولون إنه ليس بكافر ! فكيف يكون هذا ؟
 وإنه لمن بدع القول ألا يكون مؤمناً ولا كافراً ويخلد فى النار ولا يدخل الجنة .
 فإذا كان نفى الإيمان حجه عن الجنة .. فلماذا لم يحجبه نفى الكفر عن دخوله النار أو خلوده فيها !؟

وإن كان كما يزعمون أنه لا يستحق صفة الإيمان لما ارتكب من فواحش ولا يوصف بالكفر لأنه ينطلق بالشهادتين وفيه بعض صفات الخير والعقل يحتم بأنه لا يستحق دخول الجنة لما بدر منه من ذنوب فكذلك لا يستحق الخلود الأبدى فى النار لما ثبت منه من توحيد الله والإيمان برسالة سيدنا محمد " صلى الله عليه وسلم "

ويقولون ليس فى الآخرة إلا فريق فى الجنة وفريق فى السعير وهذا حق .
 ولكن إذا كان مرتكب الكبيرة لا يكون مع فريق أهل الجنة لأنه فعل كذا وكذا من الذنوب فلماذا يكون مع فريق الجحيم وهو الذى ينطلق بالشهادتين ويفعل كثيراً من الخير !؟

والجدير بالذكر ان المعتزلة يقدسون الفضل ويقدمونه على النقل فلماذا غاب عقلهم فى هذه القضية وهى واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار . علاوة على أن الآيات القرآنية مبينة أن الخالدين فى جهنم أبداً هم أهل الكفر وأن الأحاديث النبوية الصحيحة ظاهرة وناقطة بأن أهل الملة خالدين فى الجنة

(٤١٨)

ولو اقتترفوا جل الفواحش ، وأكبر الكبائر شريطة ألا يقعوا في الشرك الذى هو محبط للعمل .

ولكن أهل الإعتزال عن هذا وذاك غافلون . . فنعوذ بالله من كل غفلة وكبوة ، وهفوة وزلة ..

ونسأله أن يهديننا الصراط المستقيم صراط الله الذى له مافى السموات والأرض .

الفصل السادس

الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تمهيد :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من القضايا التي احتلت حيزاً كبيراً في الرسالات السماوية بصفة عامة وفي رسالة سيدنا محمد " صلى الله عليه وسلم " بصفة خاصة حيث جعل الله من مهامه " صلى الله عليه وسلم " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال تعالى :

"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ .. " (١)

وفي التنزيل ما يشير إلى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الأمة الإسلامية قال تعالى : "وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (٢)

وفي حديث هرقل ما يفيد أن النبي " صلى الله عليه وسلم " كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقد سأل هرقل أبا سفيان - وكان أبو سفيان كافراً يومئذ ماذا يأمركم؟؟

(١) سورة الأعراف من الآية : ٥٧

(٢) سورة ال عمران آية : ١٠٤

قال أبوسفيان : قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول أبأؤكم . ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .^(١)

ومن ثمَّ يعد من يقوم بهذه المهمة العظيمة مقتدياً برسول الله " صلى الله عليه وسلم " يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه : إحياء علوم الدين :

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين . وهو الذي ابتعث الله به النبيين أجمعين ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد .^(٢)

والمعتزلة لا يخالفون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ مقرر في الدين ، وواجب على المسلمين لنشر الدعوة ، والضرب على يد الخارجين عن منهج الدين . ولكنهم خالفوا أهل السنة والجماعة في كيفية التغيير حيث جعلوا تغيير المنكر بالقلب أولاً فإن لم يكف فباللسان وإن لم يكف فباليد ثم بالسيف إن لم تكف اليد ... وهم في ذلك لا يفرقون بين صاحب السلطان وغيره .

وهذا ما سنناقشه بمشيئة الله تعالى ..

(١) صحيح البخارى حـ ٤٢/١ ك بدء الوحي ب كيف كان بدء الوحي حديث رقم (٧)

(٢) إحياء علوم الدين حـ ٣٠٦/٢ ط دار الحديث

التعريف الأصطلاحي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

معناها لغة : -

المعروف : اسم لكل فعل يُعرفُ بالعقل أو الشرع حسنةً
والمُنكر : كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه ، أو تتوقف في استقباحه
واستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشريعة وإلى ذلك قصد (الأمرون بالمعروفِ
وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (١)

والإنكار : وهو الجحود وهو ضد العرفان يقال أنكرت كذا ونكرتُ وأصله أن
يرد على القلب ما لا يتصوره قال تعالى : " فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ
نَكَرَهُمْ " (٢)

وقد يستعمل ذلك فيما ينكر باللسان وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار بالقلب . (٣)
معناها في الأصطلاح : هناك كثير من الأصطلاحات في تحديد ماهية كل
من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نذكر بعضها
منها ولا نذكر كل الأصطلاحات مراعاة للتخفيف .

(١) سورة التوبة من الآية : ١١٢

(٢) سورة هود من الآية : ٧٠

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ص ٣١٧ ط دار الكتب
العلمية بيروت لبنان - وانظر المختار الصحاح ص ٦٧٩ باب النون كلمة "نكد" حرف:

يقول العلامة أبو بكر الجصاصي : المعروف ما أمر الله به ، والمنكر ما نهى الله عنه . (١)

ويقول الإمام ابن جرير الطبري : وأصل المعروف ما كان معروفاً فعله ، جميلاً مستحسناً ، غير مستقبح في أهل الإيمان بالله ، وإنما سميت طاعة الله معروفاً ، لأنه مما يعرفه أهل الإيمان ولا يستتكرون فعله وأصل المنكر ما أنكره الله ، ورأوه قبيحاً فعله ، ولذلك سميت معصية الله منكراً لأن أهل الإيمان بالله يستتكرون فعلها ، ويستعظمون رُكوبها . (٢)

ويقول العلامة الصاوي : المراد بالمعروف ما طلبه الشرع إما على سبيل الوجوب كالصلوات الخمس ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، أو الندب كالنوافل وصدقات التطوع . والمنكر المراد به ما نهى عنه الشرع إما على سبيل الحرمة كالزنا والسرقه أو على سبيل الكراهية . (٣)

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية - تعريفاً قريباً من هذا التعريف ولكنه أوجز في ألفاظه فقال - رحمه الله - المراد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : هو الأمر بواجبات الشرع ، والنهي عن محرماته (٤)

(١) أحكام القرآن ج ٢ / ٣٥ ط دار الكتب

(٢) تفسير الطبري ج ٣ / ٥٤٥

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ج ١ / ٥٢ المطبعة الأزهرية بمصر

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٩

ونلاحظ في تعريف ابن تيمية جانباً من القصور خالف به تعريف الصاوي المتقدم حيث قصر ابن تيمية المعروف على الواجب فعله وأهمل المندوب ، وقصر المنكر على المحرم فعله وأهمل المكروه .
وفي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقاب للعباد ، وخراب للبلاد ، ورد للدعاء لأن الله لا يتقبل دعاء أهل اللهو والعبث الغافلين عن ذكره التاركين منهجه .

ولكن يتقبل من أهل التقوى والصلاح قال تعالى :

" إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ " (١) وعن حذيفة بن اليمان "رضى الله عنه "

عن النبي " صلى الله عليه وسلم " قال : " والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتتهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم " (٢)

وذلك لأن من سنن الله في خلقه أن يرسل إليهم الرسل والأنبياء فيبينوا لهم سبيل الهدى والرشاد فيقتدون بهم ، ثم يأتي بعدهم خلوف يغيرون ويبدلون ويفسدون في الأرض ، فيجب على أهل الإيمان أن يجاهدوا هؤلاء ويأمرهم

(١) المائدة من الآية : ٢٧

(٢) رواه الترمذي ٣٩١/٦ كتاب الفتن / ٩ باب ما جاء ف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حديث رقم : ٢١٦٩ وقال أبو عيسى : حديث حسن

بالمعروف وينهونهم عن المنكر بالوسائل المشروعة وهى اليد أو اللسان أو القلب ..

فعن عبد الله بن مسعود _ رضى الله عنه - أن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " قال : ما من نبي بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدكم بیده فهو مؤمن ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل (١)

ومن ثم لم يكن خلاف بين الأمة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال القرطبي _ رحمه الله - :-

أجمع المسلمون أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه ، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذى لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا يجب أن يمنع من تغييره ، فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك . وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطيع سوى ذلك .. والأحاديث عن النبی " صلى الله عليه وسلم " فى تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً ولكنها مقيدة بالإستطاعة ...

(١) رواه مسلم حـ ٢٧/٢ ك الإيمان ب بيان كون النهی عن المنكر من الإيمان ...

قال الحسن : إنما يُكَلِّمُ مؤمن يرجى أو جاهل يعلم ، فأما من وضع سيفه أو سوطه فقال : إتقنى إتقنى فما لك وله ..

وقال ابن مسعود - رضى الله عنه - بحسب المرء إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره أن يُعلم الله من قلبه أنه له كاره (١)

وكلام ابن مسعود موافق لحديث رسول " صلى الله عليه وسلم " ومن رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان فإنه يرى أن التغيير بالقلب أن يكرهه ويشهد الله على ذلك .

والآن نذكر رأى المعتزلة فى قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

يرى أهل الاعتزال أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ويشترطون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يكون عالماً حكيماً ذا خبره فى ترتيب الأمر والنهى . فيقول صاحب الكشاف فى قوله تعالى : " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " (٢)

من للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وربما

(١) الجامع لأحكام القرآن حـ ٤٨/٤

(٢) سورة آل عمران آية : ١٠٤

عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر وقد يغلظ فى موضع اللين ويلين فى موضع الغلظة وينكر على من لا يزيدہ إنكاره إلا تماديا أو على من الإنكار عليه عبث كالإنكار على أصحاب الماصر والجلادين وأضرا بهم (١) "

وهذا رأى نرى له من جانبنا التأييد والقبول وأن الزمخشري قد أصاب حيث جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لذوى العلم والخبرة حتى لا تكون فتنة منبثقة من التعصب لرأى ما وجهل ببقية الآراء ومن ثم تتعم الفوضى ، ويكثر الهرج والمرج ، ويسود الرعب ويلتبس على العوام الأمر بعد أن إنخبط الحابل بالنابل .

وقد أحسن القاضى عبد الجبار - رحمه الله - إذ جعل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرائط يجب بوجودها ، ويسقط بزوالها من هذه الشروط : أن يعلم أن المأمور به معروف ، وأن المنهى عنه منكر ، لأنه لو لم يعلم ذلك لا يأمن أن يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ...

أن يعلم أن ذلك لا يؤدي إلى مضرة أعظم منه فإنه لو علم أو غلب فى ظنه أن نهيه عن شرب الخمر يؤدي إلى قتل جماعة من المسلمين أو إحراق محله لم يجب ؛ وكما لا يجب لا يحسن .. (٢)

(١) الكشاف - ٢٠٨/١

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ١٤٢: ١٤٣

كما يرى المعتزلة أن تغيير المنكر يبدأ بالسهل ثم الصعب
فيقول الزمخشري :- فإن (قلت) كيف يباشر الإنكار؟ (قلت) يبتدىء بالسهل
فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب لأن الغرض كف المنكر قال الله
تعالى..(فأصلحوا بينهما) ... ثم قال : فقاتلوا^(١) وكذلك القاضى عبد الجبار
فإنه يرى رأى الزمخشري حيث قال : واعلم أن المقصود بالامر بالمعروف
، إيقاع المعروف ، وبالنهي عن المنكر زوال المنكر، فإذا ارتفع الغرض
بالأمر بالسهل لم يجز العدول عنه إلى الأمر الصعب ، وهذا مما يعلم عقلا
وشرعا^(٢) أما عقلا فلأن الواحد منا إذا امكنه تحصيل الغرض بالأمر السهل
لايجوز العدول عنه إلى الأمر الصعب ، وأما الشرع فهو قوله تعالى : (وإن
طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى
فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى إلى أمر الله .^(٣))
ونلاحظ مما تقدم أن فيما ذكره كل من الزمخشري والقاضى عبد الجبار
قضيتين :

القضية الأولى : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب كفايى إذا

(١) الكشاف حـ ٢٠٨/١ والأية رقم ٩ من سورة الحجرات

(٢) هذا من أخطاء المعتزلة وهو تقديم العقل على النقل وسوف نرد عليه فى حينه- إن شاء الله تعالى .

(٣) شرح الأصول الخمسة ص ١٤٤ والأية فى سورة الحجرات ٩

قام به البعض سقط عن الباقيين بفهم ذلك من قول الزمخشري (من للتبعيض) وكذلك الشروط التي اشترطها كل من الزمخشري والقاضي عبد الجبار فيمن يقوم بهذا الأمر ..

ونحن نؤيد رأيهما كمثل رأى المعتزلة فى ذلك فإن أهل السنة يرون هذا الحكم يقولون به .

القضية الثانية : وهى تتعلق بكيفية مباشرة النهى عن المنكر حيث يفهم من كلامهما وما صرحا به أن الناهى عن المنكر يبدأ بالسهل والأخف متدرجاً إلى أعلى فيبدأ بالتغيير بالقلب ثم اللسان ثم باليد ثم بالسيف وهذا ما لا يقول به أهل السنة والجماعة فهم يرون بان يبدأ باليد أولاً ثم باللسان ثم بالقلب كما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم - واللفظ له - والترمذى والنسائى

عن أبى سعيد - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله " صلى الله عليه وسلم " يقول : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان " (١)

(١) مسلم حـ ٢٢/٢ : ٢٥ ك الإيمان ب وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وانظر الترمذى حـ ٦ / ٣٩٣ : ٣٩٤ ك القنن ب ما جاء فى تغيير المنكر باليد وباللسان وبلقلب حديث رقم ٢١٧٢ - وانظر النسائى حـ ٨ / ٤٨٦ ك الإيمان ب تفاضل أهل الإيمان حديث رقم ٥٠٢٤

ففى هذا الحديث اشارة إلى أن التغيير بيد باليد فإن لم يكن فى وسعه فباللسان فإن لم يستطع فإنه ينكر ذلك بقلبه .

يقول النووى - رحمه الله - : -وأما صفة النهى ومراتبه فقد قال النبى " صلى الله عليه وسلم " فى هذا الحديث الصحيح فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه معناه فليكرهه بقلبه وليس ذلك بإزالةٍ وتغيير منه للمنكر ولكنه هو الذى فى وسعه . (١)

وقيل فى التغيير بالقلب بالأ يرضى به ، وينكر فى باطنه على متعاطيه ، فيكون تغيراً معنوياً ، إذ ليس فى وسعه إلا هذا القدر من التغيير ، وقيل : التقدير : فليكره بقلبه ، لان التغيير لا يتصور بالقلب . فيكون التركيب من باب : علفتها تبناً وماءً بارداً . (٢) أى وسقيتها ماءً بارداً .

وكان تغيير المنكر باليد ثم باللسان ثم بالقلب لتفاوت بنى البشر من حيث المستوى العلمى أو المسئولية ، فمنهم من أوتى قسطاً من العلم فمسئوليته التغيير باللسان، ومنهم أوتى الحكم فمسئوليته التغيير باليد ومن لم تكن له سلطة يحتمى بها فى التغيير ، ولا علم يحتج به فإنه ينكر بقلبه وبذلك يكون قد أدى ما عليه وسقط عنه الوزر ..

(١) شرح النووى حـ ٢٥/٢

(٢) تحفة الأحوذى حـ ٣٩٤/٦

يقول القرطبي - رحمه الله - :

قال العلماء : الأمر بالمعروف باليد على الأمراء ، وباللسان على العلماء ، وبالقلب على الضعفاء ، بعض عوام الناس (١)

والمعتزلة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حاولوا أن يحملوا الناس على إعتناق أرائهم بالحجة والبرهان ، أو الشدة وقوة السلطان ... وهم فى ذلك لم يفرقوا بين الأصول الدينية المجمع عليها وعقائدهم الإعتزالية (٢) ... التى أجمعوا عليها هم دون سواهم ، ولقد سبق الحديث عن قضية خلق القرآن ومحنة الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - وقتل كثير من العلماء وسجن بعضهم لهذا السبب الذى لم يقله إلا المعتزلة .

ولا يخفى خطأ هذا الفهم ، فإن البون شاسع بين من يخالف فى الأصول الدينية الثابتة المعلومة من الدين بالضرورة وبين غيرها من الفروع أو الأشياء التى نحن غير مكلفين بها ، فلا ينبغى لصاحب سلطان ولا لغيره أن يقتل من يخالفه لا سيما إن كان الذى يخالفه عالماً مجتهداً ، فإن المجتهد مأجور فى حالته الخطأ والصواب . فقد روى البخارى بسنده - واللفظ له - والترمذى والنسائى عن عمرو بن العاص رضى الله عنه -

(١) الجامع لاحكام القرآن ج٤ / ٤٩

(٢) تاريخ المذاهب الاسلامية الامام محمد ابو زهرة ص١٢٢-١٢٣ - وانظر التفسير

والمفسرون ج١ / ٣٥ الدكتور الذهبى

أنه سمع رسول الله " صلى الله عليه وسلم " يقول : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر (١)

هذا ، ومن أخطاء المعتزلة في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنهم قدموا العقل على الشرع - وهذا منهجهم في قضاياهم .. فذهب أبو علي الجبائي - وهو من علمائهم - إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعلم عقلاً.. (٢) وقد سبق ذكر مقولة القاضي عبد الجبار في حديثه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (هذا ما يعلم عقلاً وشرعاً) فنرى القاضي قدم العقل على الشرع كما أن الجبائي ذكر القول بمعرفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن طريق العقل فقط .

وهذا من الأخطاء الشنيعة التي وقع فيها أهل الإعتزال والتي فيها فساد الدين والدنيا قال ابن القيم - رحمه الله - : ففساد الدنيا والدين من تقديم المنتسبه على المحكم وتقديم الرأي على الشرع . (٣)

(١) البخارى حـ ٣٣٠/١٣ ك الإعتصام بالكتاب والسنة ب أجر الحاكم إذا اجتهد - الترمذى حـ ٦٣٦/٤ ك الأحكام ب ما جاء في القاضي يصيب ويخطئ حديث رقم ١٣٢٦ - النسائي حـ ٨ / ٦١٥ ك أداب القضاء ب الإصا بة في الحكم حديث رقم ٥٣٩٦

(٢) شرح الأصول الخمسة صـ ١٤٤

(٣) انظر اعلام الموقعين حـ ٢٣٠/٢ ط دار الحديث

والمعتزلة إذ جعلوا معرفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وغيره يعرف عقلاً لا شرعاً أو يعرف عقلاً ثم شرعاً فإنهم بذلك خالفوا ما أجمع المسلمون عليه من أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب بالشرع لا بالعقل^(١)

ومن المسلم به أن أهل السنة: " لا يعدلون عن النص الصريح ولا يعارضونه بمعقول ولا قول فلان ، كما قال البخارى رحمه الله - سمعت الحميدى يقول: كنا عند الشافعى رحمه الله - فأتاه رجل فسأله عن مسألة ، فقال قضى فيها رسول الله " صلى الله عليه وسلم " كذا وكذا ، فقال الرجل للشافعى : ما تقول أنت ؟ ! فقال : سبحان الله ! ترانى فى كنيسة ! ترانى فى بيعة ! ترانى على وسطى زُنَّار ؟ !^(٢) أقول لك قضى فيها رسول الله " صلى الله عليه وسلم " وأنت تقول : ما تقول أنت ؟ ! ونظائر ذلك فى كلام السلف كثير ، وقال تعالى : " وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ " ^(٣)

(١) شرح النووى حـ ٢٢/٢

(٢) الزنار للنصارى المختار الصحاح ص ٢٧٦

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٣٩ ط مكتبة الدعوة الإسلامية والآية من سورة

ومما يدل على اهتمام السلف الصالح رضوان عليهم بالنقل: أنه يقدم على العقل حيث لا اجتهاد للعقل إذا وجد النقل وهو النص الصريح .

وأن خبر الواحد يفيد العلم اليقيني ..

قال صاحب شرح العقيدة الطحاوية :

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول ، عملاً به وتصديقاً له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة ، وهو أحد قسمي المتواتر ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع . كخبر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : " إنما الأعمال بالنيات " ^(١) وخبر ابن عمر - رضى الله عنهما - : " نهى عن بيع الولاء وهبته " ^(٢) وخبر أبي هريرة - رضى الله عنه - لا تتكح المرأة على عمته ولا على خالتها " ^(٣) وأمثال ذلك .

(١) رواه البخارى حـ ١٥/١ ك بدء الوحي (ب) كيف بدء الوحي إلى رسول الله

" صلى الله عليه وسلم " حديث رقم : ١

(٢) رواه مسلم حـ ١٤٨/١٠ ك النكاح ب النهى عن بيع الولاء وهبته ونصه (عن ابن

عمر رضى الله عنهما) ان رسول الله " صلى الله عليه وسلم " نهى عن بيع الولاء

وعن هبته "

(٣) مسلم حـ ١٩٢/٩ - ك النكاح ب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها . وانظر

سنن النسائي حـ / ٤٠٤ " ك " النكاح ب الجمع بين المرأة وعمتها حديث وقم : ٣٢٨٨ .

وهو نظير خبر الذى أتى مسجد قباء (١) وأخبر أن القبلة تحولت إلى الكعبة فاستداروا إليها . (٢)

والمعتزلة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم يفرقوا بين صاحب سلطان وغيره .. (٣) وإنما أجازوا الخروج على الأئمة بالقتال . (٤)

قلت : نهى رسول الله " صلى الله عليه وسلم " عن الخروج على الأمراء وإن بدر منهم بعض التجاوز حيث إن الواجب ألا ننازع الأمر أهله .
عن عبادة عن أبيه عن جده قال بايعنا رسول الله " صلى الله عليه وسلم " على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا وعلى

(١) والذى أتى بالخبر إلى مسجد قباء هو عباد بن بشر وقيل عباد بن شهيك انظر فتح الباري حـ ١ / ١٢٠ / والحديث رواه البخارى ونصه على البراء (اى ابن عازب) أن النبى " صلى الله عليه وسلم " كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله - من الأنصار وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت وأن صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله " صلى الله عليه وسلم " قبل مكة فداروا - كما هم - قبل البيت " البخارى حـ ١ / ١١٨ ك الإيمان ب الصلاة من الإيمان حديث : ٤٠

(٢) شرح الطحاوية صـ ٣٣٩ : ٣٤٠

(٣) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبى حـ ١ / ٣٥٠

(٤) شرح الطحاوية حـ ٢٧٤

أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم .. وفى رواية وأن لا ننازع الأمر أهله قال إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان (١)

وسئل رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : " يا نبي الله أرأيت أن قامت علينا أمراء يسألون حقهم ويمنعون حقنا فما تأمرنا .. قال : اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم . (٢)

وما دام الأمراء يؤدون الصلاة فلا يجب الخروج عليهم وإن رأى الناس منهم ما ينكرون ..

فإن من أنكر فقد سلم ولكن الجرم على من رضى وتابع - فعن أم سلمة - رضى الله عنها - أن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " قال : ستكون إمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ ومن أنكر سلم ولكن من رضى وتابع قالوا أفلا نقاتلهم قال لا ماصلوا (٣) .. وفى رواية فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم (٤)

(١) رواه مسلم حـ ٢٢٨/١٢ ك الإمامة ب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية .

(٢) مسلم حـ ٢٣٦/١٢ ك الإمامة ب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن

(٣) مسلم حـ ٢٤٣/١٢ ك الإمامة ب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع

وانظر الترمذى حـ ٥٤١/٦ ك الفتن حديث رقم ٢٢٦٥ وقال أبو عيسى حديث حسن صحيح .

(٤) مسلم حـ ٢٤٤ / ١٢ ك الإمامة ب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع

وهذا الكره لا يحمل صاحبه على أن ينزع يد الطاعة ويشق الصف ويخرج على الأمير ..

فعن عوف بن مالك عن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " قال خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قيل يا رسول الله أفلا تنابذهم بالسيف فقال لا ما أقاموا فيكم الصلاة وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدا من طاعة . (١)

فلا شك أن هذه الأحاديث الصحيحة تبين أن الخروج على الأئمة لا يجوز ما داموا يقيمون الصلاة ، ولم يكن لدينا كفر بواح لنا فيه من الله سلطان .. وإن وقع منهم بعض الظلم لبعض الرعية ، أو حدث منهم بعض التقاعس عن واجبهم .

قال ابن تيمية - رحمه الله - : من أصول أهل السنة والجماعة : لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة ، وترك القتال في الفتن . وأما أهل الأهواء كالمعتزلة فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم .. وتجعل المعتزلة من أصول دينهم خمسة .. منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فيه قتال الأئمة . (٢)

(١) مسلم حـ ٢٤٤/١٢ ك الإمامة ب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ص ٩ مكتبة التوفيقية

ولا يخفى أن الخروج على الأئمة قد لا يخلو من الفوضى والهمجية اللتين تؤديان إلى الفتن وإزهاق الأرواح .. والأمر الذي يجعل المرء يتربس كثيراً ويتأنى حتى لا تكون فتنة وقتها يطول ، وشرها لا يزول ، ويموت فيها خلق كثير ..

ولا شك أن الصبر على والٍ ظلوم خير من فتنة تدوم .. واختيار أخف الضررين شيء معتبر في دين الله ..

قال القرطبي . قال سهل بن عبد الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه ، وليس على الناس أن يأمرؤا السلطان ، لأن ذلك لازم له واجب عليه ، ولا يأمرؤا العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم .^(١)

فمن ثم نرى أن أهل الاعتزال قد جانبهم الصواب حيث جعلوا الخروج على الإمام جائزاً من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إحتكاماً إلى العقل الذي اطلقوا له العنان كاملاً والذي جرّ بهم إلى أخطاء كثيرة ، هدموا بها كثيراً من محاسن الدين وأصوله ، وأنزلوا متاعب على المسلمين لم تعد عليهم بكثير من الخير ، بل أجلبت عليهم كما من القلاقل ، وفتحت الباب للجدل ووضع الدسائس ، من الزنادقة وأهل الخبائث ..

(١) الجامع لأحكام القرآن حـ ٧٣/١٢

ولعل أسوأ ما انتحلته المعتزلة انهم - وتحت السلطان العقلي المطلق - أنكروا كثيراً من الأحاديث الصحيحة التي هي في أعلى درجات الصحة ومنها ما رواه الشيخان البخارى ومسلم - رضى الله عنهما - لا لشيء إلا لأنها لا تتفق مع قواعدهم المذهبية وأسسهم الإعتزالية مثل حديث الرؤية الذى رواه الشيخان وغيرهما الذى يبشر المؤمنين صراحة - برؤية ربهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة بدر والشمس فى رابعة النهار^(١)، ولكن أهل الأهواء لا يتدبرون ولا يفقهون ، ولبعض أحاديث رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ينكرون ويجادلون !

وكذلك لم يلتفتوا إلى الحديث الصحيح الذى ينص على أن أحداً لا يدخل الجنة بعمله ، لكن برحمة الله وفضله - وهو فى الصحيحين - كما ذكرناه من قبل - ولو رجعوا إليه ما وقعوا فى خطائهم الجسيم وهو زعمهم أن العبد يدخل الجنة بعمله لا برحمة الله وفضله - بل إنهم أوجبوا على الله أن يدخله الجنة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ..

ونظراً لأن بحور السنة تتلاطم أمواجاً ، وكثرة الداخلين فيها افواجاً وجد المعتزلة وغيرهم سبيلاً إلى رد ما صح من أحاديث وذكر ما لم يصح ، بخلاف القرآن الكريم فإنه لم يكن فى الأستطاعة أن تصل إليه يد من المعتزلة أو غيرهم - إلا أنهم لم يتورعوا عن تفسير القرآن حسب أهوائهم

(١) الحديث سبق تخريجه فى مبحث الرؤية والقضية مذكورة هناك بالتفصيل

ومعتقداتهم وأن كان هذا التفسير لم يرد عن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " أو أحد من أصحابه الكرام - رضى الله عنهم - ، بل ولو كان فى السنة ما يخالف هذا التفسير الأعتزالى ، أو فى قواعد اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم ..

وحجتهم فى تفاسيرهم جلها مردها إلى أبيات من الشعر وقد يكون محرفا عن موضعه . وبعض الحكايات والأمثال .

ف نجد الزمخشري وهو من أشهر علمائهم يقول : فى قوله تعالى : " وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا " (١) بنصب لفظ الجلالة وهى قراءة غير صحيحة ولا تتفق وقواعد اللغة العربية كما سبق أن ذكرنا ذلك ولكن لجأ إليها الزمخشري حتى لا يصادم نظم القرآن عقيدته ، ويخالف هواه .

وكذلك الجبائى وهو أحد علمائهم أيضاً - عندما يتعرض لقوله تعالى : " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ " (٢)

يجد أن مذهبه القائل بوجوب الصلاح والأصلح على الله لا يتفق وهذا الظاهر من معنى الجعل ، حيث أن الآية حجة ودليل على أن الله خالق الخير والشر .

(١) سورة النساء من الآية : ١٦٤

(٢) سورة الفرقان من الآية : ٣١

فنرى الجبائي وغيره من المعتزلة يتخلصون من هذه الضائقة فيفسرون "جعل" بمعنى بين فيقول الجبائي : المراد من جعل التبين ، فإنه تعالى لما بين أنهم أعداؤه جاز أن يقول : جعلناهم أعداءه (١)
ثم يستدل بقول الشاعر :

جعلنا لهم نهج الطريق فأصبحوا على ثبت من أمرهم حين يمموا (٢)
وبعد .. فهذه أصول المعتزلة الخمسة التي اتخذوها ديناً ، ومن لم يقل بها لم يكن معتزلياً ، ولقد لاحظنا من خلال هذه الأصول جهلهم بكيفية الإستشهاد ، والحكم على الأشياء ، وجرأتهم على الله وعلى الآيات والأحاديث ، إذ أنهم يردون الحديث الصحيح ويصرفون الآيات إلى ما يستحسنون ويحملون التأويل على ما ينتحلون .. وهم بذلك كما قال ابو جعفر الطحاوي :
لبسوا الحق بالباطل ، إذ شأن البدع هذا ، اشتمالها على حق وباطل ، وهم مشبهة الأفعال لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه وما يقبح من العباد يقبح منه . وقالوا يجب عليه أن يفعل كذا ولا يجوز له ان يفعل كذا ، بمقتضى ذلك القياس الفاسد " فإن السيد من بنى آدم لو رأى عبده تزنى بإمائه ولا يمنعهم من ذلك لعداً إما مستحسناً للقبیح ، وإما عاجزاً فكيف يصح قياس أفعاله سبحانه وتعالى على

(١) الفخر الرازي حـ ٢٣ / ٤٠

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي حـ ١ / ٣٥٠

أفعال عباده؟! وأما العدل فستروا تحته نفى القدر ، وقالوا : أن الله لا يخلق الشر ولا يقضى به ، إذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه يكون ذلك جوراً!! والله تعالى عادل لا يجور . ويلزم على هذا الأصل الفاسد أن الله تعالى يكون فى ملكه ما لا يريده ، فيريد الشئ ولا يكون ، وأما التوحيد فستروا تحته القول بخلق القرآن ، إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدّد القدماء!! ويلزمهم على هذا القول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة ، أو التناقض وأما الوعيد ، فقالوا : إذا أُوعد بعض عبيده وعبداً فلا يجوز أن لا يعذبهم ويخلف وعيده ، لأنه لا يخلف الميعاد ، فلا يعفو عن يثاء ، ولا يغفر لمن يريد . عندهم . وأما المنزلة بين المنزلتين فعندهم أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل فى الكفر ! وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنهم قالوا : علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به ، وأن نلزمه بما يلزمنا ومن خلال ذلك أجازوا الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا ..^(١) وقد رددنا على كل شبهة من هذه الشبه فى موضعها عند الحديث عن كل أهل أصل من هذه الأصول الخمسة ..

وبعد ، فإن المعتزلة سلكوا هذا المسلك ، وأعطوا العقل سلطاناً واسعاً به فسروا الآيات القرآنية ، ومن خلاله أصدروا الأحكام الشرعية - أنهم فعلوا ذلك من أجل أن يبعثوا - كما يزعمون - كل الأساطير الخرافية عن محيط

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٩ بتلخص

الحقائق الدينية ، وليربطوا بين القرآن وبين عقيدتهم التي يرون أنها قامت على التوحيد الخالص من كل شائبة ، ولما كان هذا المسلك مخالفاً تماماً لمعتقدات أهل السنة لم يكن لأهل السنة أن يقفوا موقف التسليم له ، أو الرضا به ، أو السكوت عنه بل ثاروا عليهم ورموهم بالعبارات اللاذعة واتهموهم بتحريف النصوص عن مواضعها تمشياً مع هواهم ، وميلاً إلى عقيدتهم .. ومن الخير أن نذكر آراء بعض علماء أهل السنة في تفسير المعتزلة ، ونكتفى بذكر آراء ثلاثة من العلماء لهم شأن عظيم ، وباع كبير عند جمهور المسلمين وهم الإمام أبو الحسن الأشعري ، العلامة ابن تيمية ، والعلامة ابن القيم ..

حكم الإمام ابى الحسن الأشعري على تفسير المعتزلة

يرى أبو الحسن الأشعري - شيخ أهل السنة والجماعة ان تفسير المعتزلة زيغ وضلال . وإنه منبثق عن هوى لا عن دليل أو برهان حيث يقول - رحمه الله : " أما بعد ، فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن على آرائهم ، وفسروه على أهوائهم . تفسيراً لم ينزل الله به سلطاناً ، ولا أوضح به برهاناً ، ولا رواه عن رسول رب العالمين ولا عن أهل بيته الطيبين ، ولا عن السلف المتقدمين ، من الصحابة والتابعين ، إفتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين . وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبى الهذيل بياع العلف ومتبعيه ، وعن إبراهيم نظام الخرز ومقلديه ، وعن الفوطى وناصره وعن المنسوب إلى قرية جُبى ومنتحليه ، وعن جعفر بن مبشر القصبى ومتعصبيه .. فإنهم

قادة الضلال ، من المعتزلة الجاهل . الذين قلدوهم فى دينهم ، وجعلوهم معولهم الذى عليه يعولون ، وركنهم الذى إليه يستندون . (١)

حكم ابن تيمية على تفسير المعتزلة

وكذلك نجد العالم الفقيه ابن تيمية - رحمه الله - يصف المعتزلة بأنهم كانوا فى تفسيراتهم - بعيدين عن طريق الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين فيقول عنهم فى كتابة - مقدمة فى أصول التفسير "

إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم ، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة . وذلك من جهتين : تارة من العلماء بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلاً على قولهم أو جواباً على المعارض لهم . ومن هؤلاء من يكن حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع فى كلامه وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى أنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله ، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر فى كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التى يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدى لذلك . (٢)

(١) التفسير والمفسرون ص ١٦٤ نقلاً من تبين كذب المفترى ص ١٣٩

(٢) مقدمة فى أصول التفسير ص ٣٨ المطبعة السلفية ومكاتبها .

حكم ابن القيم على تفسير المعتزلة :

حكم ابن القيم حكماً قاسياً على تفسير المعتزلة حيث قال : إنه ذبالة الأذهان ونخالة (١) الأفكار و عفارة الآراء ووساس الصدور فملأوا به الأوراق سواداً والقلوب شكوكاً والعالم فساداً وكل من له مسكة من عقل يعلم ان فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأى على الوحى والهوى على العقل ، وما استحکم هذان الأصلان الفاسدان فى قلب إلا استحکم هلاكه وفى أمة إلا وفسد أمرها أتم فساد ... فكم نفى بهذه الآراء من حق وأثبت بها من باطل وأميت بها من هدى وأوحى بها من ضلاله . (٢)

(١) النخالة ما يخرج من الدقيق بعد غربلته - انظر المختار الصحاح باب النون كلمة

(ن خ ل) ص ٦٥١

(٢) أعلام الموقعين ح ١/٥٧

الحكم على عقيدة المعتزلة

إن الباحث في كتب المعتزلة القارئ لها قراءة متأنية يرى أن المعتزلة كان لهم رأى فى صفات الله يخالف ما قال به أهل السنة والجماعة ، وحكموا على أحاديث صحيحة بالضعف أو الوضع . وأصدروا أحكاماً على عصاة المسلمين لم ينزل الله بها من سلطان ، وهذا منبعه التعصب الشديد الممقوت مع اتباع الهوى المذموم .

ولعل سؤالاً يجول فى خلد القارئ ..

هل أفعال المعتزلة تؤدى بهم إلى الكفر؟؟

والحق أن أهل السنة والجماعة لا يرون كلمة الكفر سهلة حتى تطلق على كل مرتكب لذنوب ما ، أو على كل من خالفهم الرأى .

يقول الإمام النووى - رحمه الله - واعلم أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنوب ولا يكفر أهل الأهواء والبدع وأن من حجد ما يُعلم من دين الإسلام ضرورة حُكم يردته وكفره إلا ان يكون قريب عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه فيعرف ذلك فإن استمر حكم بكفره وكذا حكم من استحل الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة . (١)

(١) انظر شرح النووى ج١/١٥٠

ويقول الإمام المحدث الفقيه الحافظ أبو جعفر الطحاوى صاحب العقيدة الطحاوية : " ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي " صلى الله عليه وسلم " معترفين ، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين " (١) وقال رحمه الله : " ولا نكفر احداً من أهل القبلة بذنب مالم يستحله " (٢) ويقول الأستاذ حسن البنا " رحمه الله " :-

لانكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض - برأى أو معصية إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو كذب بصريح القرآن أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر (٣).
وقال صاحب جوهرة التوحيد (الشيخ إبراهيم اللقاني).

ومن المعلوم ضرورة جَدَّ من ديننا يقتل كفراً ليس حد
ومثل هذا من نفى لمجمع أو استباح كالزنا فلتسمع

ويقول شارح الجوهرة :- الشيخ إبراهيم البيجورى :- والمعنى من جد
أمراً معلوماً من أدلة ديننا يشبهه ، الضرورة بحيث يعرفه خواص المسلمين
وعوامهم ، كوجوب الصلاة والصوم وحرمة الزنا وشرب الخمر ونحوها،

(١) العقيدة الطحاوية ص ٢٩٠ - ٢٩١

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٥

(٣) رسالة التعاليم ص ٩ - ١٠ / ط رمسيس بالأسكندرية .

يقتل لأجل كفره. (١)

إذا ليس بمجرد الوقوع في الذنب - وإن جل - يكفر المسلم ولكن الجحود والإنكار والإعتراض على رب العزة هذا يؤدي به إلى الكفر ويجعله حلال الدم .

ولعل أقوى الأدلة على صحة هذا القول ما جاء في القرآن الكريم من قصة آدم عليه السلام - وإبليس عليه لعنة الله فكل من أبينا آدم وإبليس قد عصى ربه ولكن الحكم يختلف ..

أما أبونا آدم - "عليه السلام" - فإنه لم يستحل ما وقع منه من معصية لرب العالمين وإن كان قد خالف أمر الله جل جلاله ولكن لم يكن كافراً، بل نال التوبة ومنح النبوة قال تعالى :-

"وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتياه ربه فتاب عليه وهدى" (٢).

أما إبليس عليه لعنة الله - فإنه أبداً الإعتراض على حكم الله ، ورد الأمر على الله ولم يسجد لأدم عنادا لله فحاققت عليه اللعنة إلى يوم الدين (٣).

(١) انظر شرح البيجورى على الجوهرة لشيخ الإسلام إبراهيم البيجورى ص ٢٤٢ المطبعة العربية الحديثة .

(٢) سورة طه - ١٢١ - ١٢٢

(٣) يظهر إقرار آدم بأنه أخطأ من قوله تعالى : " قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " الأعراف أية : ٢٣ //

قال تعالى: " قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين " (١).
 فمن هذا المنطلق لانستطيع ان نصف المعتزلة بالكفر ، بل هم بعيدون عن
 الكفر وإن كنا لا نرفع عنهم اللوم ، ولانقبل لهم العذر وإنما أمرهم إلى الله
 رب العالمين فهو أعلم بالنوايا وهو بالعباد خبير بصير .
 يقول ابن حزم - " رحمه الله ":

ولكن المعتزلة معذورون بالجهل عذرا يبعدهم عن الكفر ولا يخرجهم عن
 الإيمان لاعذرا يسقط عنهم الملامة لأن التعلم لهم معروض ممكن ، ولكن لا
 هادى لمن أضل الله تعالى ونعوذ بالله من الخذلان (٢)
 نعم هم مسلمون ولكن لم يحسن إسلامهم قال تعالى :-
 ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً
 واتخذ الله إبراهيم خليلاً (٣).

// أما إبليس فيظهر عناده وإعتراضه على الله من قوله تعالى : قال يا إبليس مالك
 الا تكون مع الساجدين - قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من " حمأ مسنون "
 الحجر آيتان ٣٢:٣٣

(١) سورة ص آيتان ٧٧:٧٨

(٢) الفضل في الملل والأهواء والنحل حـ ٢ / ١٧٩ .

(٣) سورة النساء آية :- ١٢٥ .

فالإية تفيد أن كمال الإيمان لا يحصل إلا عند تفويض جميع الأمور إلى الخالق وإظهار التبرى من الحول والقوة . وفى الآية تنبيه على فساد طريقة من استعان بغير الله ، فإن المشركين كانوا يستعينون بالأصنام ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، والدهرية والطبيعيون يستعينون بالأفلاك والكواكب وغيرها ، أما المعتزلة فهم فى الحقيقة ما أسلمت وجوههم لله لأنهم يرون الطاعة الموجبة لثوابهم من أنفسهم ، والمعصية الموجبة لعقابهم من انفسهم ، فهم فى الحقيقة لا يرجون إلا أنفسهم ولا يخافون إلا أنفسهم (١)

والفرق واضح ، والبون شاسع بينهم وبين أهل السنة الذين فوضوا الأمر لله ، واعتقدوا أنه لا موجد ولا مؤثر إلا الله سبحانه وتعالى ، وانقطع رجاؤهم عن كل شئ سوى الله تعالى ، ولقد حذر علماؤنا من اتباع الحق لأنه يوافق ما نهوى ونحب ، ونستهى ونعتقد ، ولكن نتبع الحق لأنه حق ، والحق أحق أن يتبع ولا نخالف الحق لأنه لا يوافق هوأنا .

قال عمر بن عبد العزيز - "رضى الله عنه" : لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه ، ويخالفه إذا خالف هواه ، فإذا أنت لاتباب على ما وافقته من الحق ، وتعاقب على ما تركته منه ، لأنك إنما اتبعت هواك فى الموضعين (٢) . وقد بين "النبى صلى الله عليه وسلم" - أن الأعمال بالنيات وأن لكل امرئ

(١) تفسير الفخر الرازى حـ ١٠ / ٤٦٢ - ٤٦٣

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٣٠

ما نوى^(١) والعمل يتبع قصد صاحبه وإرادته ، فالاعتقاد القوي يتبع علم ذلك وتصديقه ، فإن كان تابِعاً للإيمان كان من الإيمان ، كما أن العمل الصالح إذا كان عن نية صالحة كان صالحاً ، وإلا فلا^(٢).

لذلك كان أئمة السلف رحمهم الله يحرصون أن يكون العمل خالصاً له وأن يكون له أصل من الكتاب أو السنة .

فهذا الفضيل بن عياض " رضى الله عنه " بين أن أحسن العمل هو أخلصه وأصوبه . فقيل له يا أبا على ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل - وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل - حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله . والصواب : أن يكون على السنة^(٣) .

قلت : صدق الفضيل ودليل صدقه قوله " البنى صلى الله عليه وسلم " . إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه^(٤) .

(١) الحديث رواه البخارى حـ ١ / ١٥ وكتاب بدء الوحي باب كيف بدء الوحي حديث

رقم ١ ونصه " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٣٠

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ص ٥٣

(٤) النسائي حـ ٦ / ٣٣٣ كتاب الجهاد باب من غزا يلتمس الأجر والذكر حديث رقم

٣١٤٠ ونصه " جاء رجل إلى النبي " صلى الله عليه وسلم " فقال :

هذا ، وإن كان المعتزلة قد أسهبوا فى علم الكلام ، وبالغوا فى الحديث عما يتعلق بالأعراض والأجسام ، الأمر الذى أغضب عليهم علماء الأمة حتى إن أبا حنيفة " رحمه الله " لما سئل عن الكلام فى الأعراض والأجسام قال:-
لعن الله عمرو بن عبيد هو فتح على الناس الكلام فى هذا ^(١) - وعمرو ابن عبيد من أشهر علماء المعتزلة وأول من انضم إلى واصل بن عطاء ووافقه
الرأى - كما مر من قبل .

فإن كان هذا مما يؤخذ على المعتزلة إلا أنه لا يخفى أن للمعتزلة جهداً مشكوراً فى وقوفهم ضد خصوم الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس والدهريين وغير هؤلاء الذين (دخلوا الإسلام ورؤسهم ممثلة بكل ما فى هذه الأديان من تعاليم جرت فى نفوسهم مجرى الدم فى العروق ، ومنهم من كان يظهر الإسلام ويبطن غيره: إما خوفاً ورهبة أو رجاء نفع دنيوى ، وإما بقصد الفساد والإفساد ، وتضليل المسلمين ، وقد أخذ ذلك الفريق ينشر بين المسلمين ما يشككهم فى عقائدهم ، وظهر ثمار غرسهم فى فرق هادمة للإسلام ^(٢) تحمل اسمه ظاهراً وهى معاول هدمه فى الحقيقة ، فظهرت "

أرايت رجلاً غزاً يلتمس الأجر والذكر ، ما له؟ فقال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " : لاشئ له فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله " صلى الله عليه وسلم " لاشئ له ، ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه " .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٣٢

(٢) لعل الافضل أن يقال تحاول هدمه

المجسمة " والرافضة " التي تقول بحلول الإله في جسم بعض الأئمة ،
 و"الزنادقة" وقد تصدى للدفاع عن الإسلام أمام هؤلاء فرقة درست المعقول
 وفهمت المنقول، فكانت المعتزلة ، تجردوا للدفاع عن الدين ، وما كانت
 الأصول الخمسة التي تضافروا على تأييدها، وتأزروا على نصرها إلا وليدة
 المناقشات الحادة التي كانت تقوم بينهم وبين مخالفيهم والتوحيد الذي اعتقدوه
 كان للرد على المشبهة ^(١) والعدل كان للرد على الجهمية ^(٢) والوعد كان للرد
 على المرجئة ^(٣) والمنزلة بين المنزلتين ردوا به على المرجئة والخوارج ^(٤)
 فوجود هذه الفرق دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم فجادلوهم جدالاً،
 وردوا هجمات القائمين بالجبر والمنكرين لله وما أثاره اليهود والنصارى
 والمجوس من شكوك ، ونشطوا لهذا العمل نشاطاً بديعاً . ^(٥)

(١) المشبهة : هم الذين شبهوا الله سبحانه بالخلق في صفاته - انظر شرح الطحاوية

ص ٥٢٨

(٢) الجهمية : هم المنتسبون إلى جهم ابن صفوان السمرقندي - انظر شرح الطحاوية

ص ٥٣٠

(٣) المرجئة الذين يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

(٤) الخوارج الذين يقولون إن مرتكب الكبيرة كافر ويرون أنه مخلد في النار أيداً .

(٥) انظر فجر الإسلام للاستاذ / احمد أمين - ١ / ٢٢٩ - ٣٠٠ الطبعة الثانية

عشرة مكتبه النهضة المصرية ، وانظر تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد ابو

زهرة ص ١٢٤ - ١٢٥ .

وفى عهد المهدي ظهر (المقنع الخراساني) وكان يقول بتناسخ الأرواح ، واستغوى طائفة من الناس وسار إلى ماوراء النهر . فلاقى " المهدي " عناء في التغلب عليه ، ولذلك أغوى بالزندقة والزندقة ، فكان يتعقبهم ليقضى عليهم بسيف السلطان ، ولكن السيف لا يقضى على رأى ، ولا يميت مذهباً ، ولذلك شجع المعتزلة وغيرهم للرد على الزنادقة وأخذهم بالحجة ، وكشف شبهاتهم . وفضح ضلالاتهم ، فمضوا في ذلك غير وانين^(١).

وبذلك يكون قد وجد خلفاء بنى العباس في المعتزلة سيفاً مسلولاً على الزندقة فلم يفلوه بل شجعوهم على الإستمرار في نهجهم وقد درس المعتزلة الفلسفة اليونانية . وتأثروا بها في آرائهم ، وأخذوا عنها كثيراً في استدلالهم . وقد دفعهم إلى دراسة هذه الفلسفة أمران : -

أحدهما : أنهم وجدوا فيها ما يرضى نهمهم العقلي وشغفهم الفكري ، وجعلوا فيها مراناً عقلياً جعلهم يلحنون بالحجة في قوة .

ثانيها : - أن الفلاسفة وغيرهم لما هاجموا بعض المبادئ الإسلامية تصدى هؤلاء للرد عليهم ، واستخدموا بعض طرقهم في النظر والجدل ، وتعلموا كثيراً منها ليستطيعوا أن ينالوا الفوز عليهم ، فكانوا بحق فلاسفة المسلمين^(٢).

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢٥

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية محمد ابوزهرة ص ١٢٤-١٢٥

غفر الله لعلماء المعتزلة لما وقعوا فيه من خطأ، وأثابهم على ما قدموا للإسلام من خير . وكلُّ يؤخذ ويرد عليه ولا عصمة إلا للمعصوم "صلى الله عليه وسلم" . ولقد أخذ المسلمون الكثير من علم المعتزلة لاسيما كتاب الكشاف للزمخشري وما فيه من المواقف البلاغية اللهم إلا ما فيه من الأفكار الإعتزالية التي أشرنا إلى بعضها في حينه .
والذي يمكن أن نقوله : إن المعتزلة ربما أرادوا - فيما ذهبوا إليه من أفكار واستدوا إليه من أصول - تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ووصفه سبحانه بما هو أهل له فبالغوا في ذلك بحسن نيه ، وإنما الأعمال بالنيات .

لماذا نشطت المعتزلة ؟

ولماذا أفل نشاطها ؟

كانت فرقة المعتزلة من أكثر الفرق الإسلامية نشاطاً - فهي نشأت في البصرة وسرعان ما انتشرت في العراق ، ثم استفحل أمرها لاسيما في العصر العباس حيث إنها احتلت أفكارهم وعقائدهم مكانة عظيمة لدى كثير من الخلق ، وأخذ الجدل مأخذاً كبيراً بينهم وتكونت لهم مدرستان .. فما سر نشاط هذه الفرقة دون غيرها من الفرق التي ظهرت في ذلك الوقت ؟ . يرى العلامة ابوالحسن الأشعري :- " رحمه الله " أن هناك ثلاثة أمور عاونت المعتزلة على هذا النشاط .

أولها :- أن " الله تعالى " قبض لهم في كل طبقة من طبقاتهم قوماً من أهل البراعة واللّسن ، فواصل بن عطاء من أوسع الناس عقلاً وأغزرهم علماً ، وأقدرهم على الجدل والمناظرة ، وأسرعهم بديهية في استحضر آيات القرآن الكريم التي يؤيد ظاهرها مذهبه وفي تأويل ما لا يتفق مع ما يدعو إليه ، وهو مع ذلك - أعلم الناس بكلام غالية^(١) الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين ، وأقدرهم على الرد عليهم ، وأبو الهذيل العلاف " نسيج وحده وواحد دهره في البيان ومعرفة جيد

(١) أي غلاوة الشيعة

الكلام " وهو الذى يقول عنه المبرد " ما رأيت أفصح من أبى الهذيل والجاحظ وكان ابوالهذيل أحسن مناظرة ، شهدته فى مجلس وقد استشهد فى جملة كلامه بثلاثمائة بيت " وقد امتلأت حياته بالمناظرة والجدل مع الزنادقة والشكّاك والمجوس والثوية ، ورووا أنه أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف رجل " وقد تكلم وحاج خصومه وفلج عليهم ^(١) وهو ابن خمس عشرة سنة " ثم إبراهيم بن سيّار النظام شيخ أبى عثمان الجاحظ إمام أهل الأدب وأوسعهم إطلاعا، وهو أية من آيات الله تعالى فى النبوغ وحدة الذهن وصفاء القريحة وسعة الإطلاع والغوص على المعانى الدقيقة ثم صوغها فى أبرع قالب وأجمل بيان ، وغير هؤلاء ممن لا يحصيهم العد ولاياتى عليهم الحساب .

الامر الثانى :- إتصالهم بالخلفاء والأمراء ، وإستطاعتهم - بما فتحوا من خلافة ^(٢) وقوة عارضة - أن يؤثروا فيهم ، وأن يحرزوا عندهم منازل مرموقة ، وأن يستعدوهم على خصومهم إن أرادوا .. فقد كان أبو الهذيل العلاف استاذ أمير المؤمنين المأمون . وكان النظام متصلا بمحمد بن على ابن سليمان أحد امراء البيت العباس ^(٣) وأحمد بن أبى دؤاد قاضى المعتصم

(١) اى ظهور وانتصر عليهم .

(٢) الخلافة : الخديعة باللسان - ورجل خلاب وخبوت خذاع كذاب - المختار الصحاح ص ٨٣ باب الخاء - كلمة خلب

(٣) سبق أن ذكرنا أن عمرو بن عبيد - زعيم المعتزلة - كان قريبا من أمير المؤمنين أبى

وهو الذى كتب المأمون عنه إلى أخيه المعتصم فى وصيته عند الموت "وأبو عبد الله أحمد ابن أبى دؤاد لايفارقك الشركة فى المشورة فى كل أمرك فإنه موضع ذلك (١)

وقد كان ابن دؤاد رأس الفئنة فى محنة خلق القرآن .

الأمر الثالث : - تعاون هؤلاء الناس على ما هم بسبيله ، وصلة بعضهم ببعض الصلة الوثيقة العروة ، وعطف بعضهم على بعض ، حتى ضرب الأدباء المثل بتآلفهم - كتب أبو محمد العلوى إلى أبى بكر الخوارزمى يقول : إن إعتداده به إعتداد العلوى بالشيعة ، والمعتزلى بالمعتزلى (٢) .

وأرى أن هناك أشياء أخرى كانت سبباً فى ظهور فكر المعتزلة . فإن الظروف التى نشأ فيها فكر الإعتزال لم تكن طبيعية .. فالخوارج جعلوا مرتكب الكبيرة كافراً خارجاً عن دين الله حلال الدم مخلداً فى الجحيم،

جعفر المنصور وصديقه ، وأن أمير المؤمنين عرض عليه جائزة سخية ولكن عمراً ترفع عنها وقال فيه أمير المومنين : كلكم يطلب صيد الإاعمر بن عبيد وأنه كان يطلب من أمير المومنين الا يدعوه إلى لقائه ، بل انه ليتكلم فى شأن ولى العهد امام الخليفة بما لم يكن ابو جعفر ليحتمله لولا ما يكنه لعمر بن عبيد من التجلية والإكرام..

(١) مقالات الإسلاميين حـ ١ / ٢١-٢٢

(٢) مقالات الإسلاميين حـ ١ / ٢٢- وانظر المنية والأمل صـ ١٠٤

والمرجئة لم يروا بأسا بأى معصية وإن كبرت أو تعددت فالمؤمن عندهم لا تضره المعصية كما أن الكافر لا تنفعه الطاعة . ولم يسترح الناس لأى من الفريقين حيث وجدوا ما يدعو إلى اليأس فى فكر الخوارج - كما أنهم وجدوا ما يدعو إلى الفوضى فى فكر المرجئة ، وإلى أمن مكر الله ومن ثمّ يصبحون خاسرين..

فلما ظهرت المعتزلة ولم يكفروا صاحب الكبيرة (المسلم العاصى) ولم يعفوه من شديد العذاب فكانوا كأنهم وسط بين الطائفتين وطبيعة الناس أنهم يصبون إلى الشئ الوسط ..

وربما وجد المعتزلة ضالتهم وأقنعوا الناس . وهم بارعون فى الإقناع بأنهم على الصواب إذ لم يكفروا مسلما كما فعل الخوارج ولم يستهينوا ويستخفوا بالمعاصى ومحارم الله كما فعل المرجئة ..

ظهور الظلم لاسيما فى بعض أمراء بنى أمية وبعض بنى العباس - تلك الفترة التى بعد فيها الناس عن عدل الصحابة الكرام وعن سماحة الإسلام ، وعدل شريعته ، وحكمة خلافته - فإنها وإن كانت قائمة ولكنها خلافة كان فيها دخن - كان بعض الأمراء وأتباعهم يعللون ظلمهم وإقترافهم المعاصى بأنه قضاء وقدر وأن هذا الظلم إرادة الله ... وغير ذلك من الكلمات التى تكون حقا ولكن أريد بها باطل - فلما قال المعتزلة إن الله لا يريد الظلم وأن هذه المعاصى انما وقعت بإرادة الإنسان لا بإرادة الله وجد المظلومون متنفساً لهم ، وشيئاً يتعلقون فيه ويحتجون به ، لأن المظلوم يجد الظالم أبغض الناس

إليه ومن ثمَّ يود لو يكون مخلدا في النار لاعذر له فيما ظلم فوجدوا ذلك في
فكر الإعتزال ..

وبهذا أكون بفضل الله تعالى ، ثم بجهدى المتواضع قد أتممت رسالتى - ولم
يبق سوى الخاتمة .. والتي أسأل الله حسنها...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ
وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً غَدِيرًا يَشْرَبُونَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ
وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً غَدِيرًا يَشْرَبُونَ

الخاتمة

ها أنا ذا قد انتهيت بتوفيق الله تعالى وعنايته - ثم مساعدة استاذى الجليل من إعداد بحثى المتواضع .

فإذا كنت قد وفقت بفضل الله تعالى وعونه ، وإن كان قد وقع منى الزلل فإنما هى طبيعة البشر الذين من شأنهم الإصابة والخطأ ولا عصمة إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام - وقد توصلت من خلال بحثى إلى النقاط التالية :

إن المعتزلة :

- ١- اقاموا التفسير على أصولهم الخمسة .
- ٢- انكروا ما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة ..
- ٣- تصرفوا فى القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم بما لا يصح ..
- ٤- ادعوا أن كل محاولاتهم فى التفسير مراد الله ..
- ٥- للمبدأ اللغوى أهمية عندهم فى التفسير لا سيما فيما يتعارض من ظاهر الآيات مع مبادئهم ..
- ٦- تمسكوا بالفروض المجازية إذا بدا ظاهر القرآن غريباً ..
- ٧- كانت عندهم جرأة مذمومة فى التقول على الله جل جلاله ووصف رسوله "صلى الله عليه وسلم" بما لا يليق به ..

تلك هي بعض النقاط التي توصلت إليها أثناء كتابتي لهذا البحث إلى جانب ما ذكر في ظياته وإذا كان لابد من توصيات اسدى بها إلى من يقرأون في الفرق الإسلامية فما هي توصياتي لهم :-

١- الإهتمام بدراسة الفرق الإسلامية حتى نعرف جهد علمائنا من أهل السنة والجماعة في الرد على تلك الفرق الضالة ..

٢- على المسلمين المعاصرين ان يعالجوا الخلل الذى يصيب عقول بعض المتقفين المعاصرين ، ففي علاج الفرق الضالة السالفة علاج للفرق الضالة المعاصرة - لاسيما أن الضلال يتوارث حيناً بعد حين .. وقد رأينا فى عصرنا من يكفر الموحدين ، ويتناول على علماء الدين ، وربما كان لا يعرف الواجب من المندوب ، ولا الحرام من المكروه ..

٣- على المسلمين أن ينتبهوا لتلك الثقافات التي ابتكرها بعض المنحرفين فاقصدوا بالمعتزلة فى إنكار سنة رسول الله " صلى الله عليه وسلم " زاعمين أن فى القرآن ما يغنى عن السنة وهذه فرية باطلة أرادها أعداء الإسلام كى يقضوا على الأصل الثانى من التشريع .

والمعلوم بداهة أن المسلم لا يستغنى بأى حال من الأحوال فى فهمه

للقرآن عن السنة المطهرة - ولا ادل على ذلك من قوله تعالى :

" وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون " (١)

(١) سورة النحل من الآية : ٤٤

٤- أن يتصدر للتفسير من هم أهل لذلك من علماء المسلمين الذين تتوافر فيهم شروط التفسير ولا ينبغي لكل ناعق أن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى بحجة أنه وصل إلى درجة علمية ما ..

٥- في وسائل الإعلام المختلفة - مقروءة أو مسموعة أو مرئية - ما يلاحظ ممن يتعرض لأبداء بعض الأحكام الشرعية معتمدين على آرائهم وعقولهم مخالفين لنصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة فينبغي أن نقف لهؤلاء بالمرصاد ، وأن نرد عليهم بما يفهمهم ويبطل حججهم - إلى غير ذلك من وصايا أخرى ..

قائمة المراجع

أهم المراجع

القرآن الكريم	١
أحمد بن حنبل والمحنة للإستاذ Malber m, Pahor	٢
إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي - ط دار الحديث	٣
أعلام الموقعين ... لابن القيم طبعة دار الحديث	٤
أفعال العباد في القرآن د/ عبد العزيز المجذوب ط الدار العربية للكتاب	٥
إقتداء الصراط المستقيم لابن تيمية - ط	٦
الإبانة عن اصول الديانة لأبي الحسن الأشعري - ط دار ابن زيدون	٧
الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد لإمام الحرمين ابي المعالى الجوينى - ط- السعادة بمصر	٨
الأسماء والصفات للبيهقى - ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان	٩
الإعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة للحافظ البيهقى - بدون طبعة	١٠
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية - ط المكتبة التوفيقية	١١
الإنتصار لأبي الحسين الخياط - ط دار الندوة الإسلامية بيروت - لبنان	١٢
الإنصاف على الكشاف لابن المنير - ط المكتبة التجارية الكبرى	١٣
البحر المحيط لابن حيان - ط مكتبة ومطابع النصر الحديثة	١٤
البداية والنهاية لابن كثير - ط دار المعرفة بيروت	١٥
التبصير في الدين لأبى المظفر الإسفراينى - ط الأنوار	١٦
التحرير والتنوير الامام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - ط الدار التونسية	١٧

التفسير الكبير "المسمى بمفتاح الغيب" للفخر الرازي - ط دار الغد	١٨
التفسير والمفسرون للدكتور / محمد حسين الذهبي	١٩
التوحيد واثبات صفات الرب للإمام محمد بن خزيمة - ط دار الشروق	٢٠
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - ط دار الكتب العربية	٢١
الخطط المقرزية لابي عباس المقريزي - ط المكتبة الثقافية الدينية	٢٢
الصواعق المرسله لابن القيم - ط دار إحياء الكتب العربية	٢٣
العقائد الإسلامية للشيخ / السيد سابق ط الفتح للإعلام	٢٤
العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه الأندلسي - ط دار الفكر	٢٥
العقيدة الواسطية لابن تيمية ط مؤسسة الطباعة والصحافة	٢٦
الفتوحات الإلهية للجمل - ط دار الفكر بيروت	٢٧
الفرق بين الفرق - ط دار الجيل	٢٨
الفصل في الملل والأهواء والنحل - لابن حزم - ط دار المعرفة	٢٩
الكبائر للذهبي - ط الإرشاد	٣٠
الكشاف للزمخشري - ط المكتبة التجارية الكبرى	٣١
المسند للإمام أحمد - ط المكتب الإسلامي - بيروت	٣٢
المعتزلة د/ ورداني عبد الراضي عبد الله دار الأمانة	٣٣
المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية د/ محمد عمارة ط دار الشروق	٣٤
الملل والنحل للشهرستاني - ط دار المعرفة بيروت ، لبنان	٣٥
المنية والأمل تأليف القاضي عبد الجبار - ط دار المعرفة	٣٦
النجوم الزاهرة للعلامة ابي المحاسن - ط نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب	٣٧
تأويلات أهل السنة للماتريدي - ط الإرشاد - بغداد	٣٨
تاريخ الأمم والملوك للطبري - ط الأعلمی للمطبوعات بيروت لبنان	٣٩

تاريخ الخطيب البغدادي - ط دار الكتاب العربي	٤٠
تاريخ الخلفاء للسيوطي - ط السعادة	٤١
تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد أبو زهرة - ط دار الفكر العربي	٤٢
تحفة الأحوزي للترمذي - ط التراث العربي	٤٣
تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار - محمد رشيد رضا - ط دار المعرفة	٤٤
تفسير القرآن العظيم لابن كثير - ط مكتبة الإيمان	٤٥
تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي - ط الحلبي	٤٦
تفسير النسفي للنسفي - ط إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي	٤٧
تفسير روح البيان للشيخ اسماعيل حقي البرسوي - ط دار الفكر	٤٨
تنزية القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار - ط دار النهضة الحديثة	٤٩
جامع البيان في تأويل القرآن للطبري - ط دار الغد	٥٠
جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي - ط دار مصر للطباعة	٥١
حادي الرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم - ط مكتبة نهضة مصر	٥٢
حاشية الصاوي على الجلالين - ط المطبعة الأزهرية	٥٣
حاشية محمد بن علي الصبان على شرح الأشموني - ط المكتبة التجارية الكبرى	٥٤
ديوان الإمام الشافعي - ط دار المنار	٥٥
رسالة التعاليم للأستاذ/ حسن البنا - ط رمسيس	٥٦
رياض الصالحين للنووي - ط دار التراث العربي الطبعة الثانية	٥٧
سنن ابن ماجه - ط دار الكتب العلمية	٥٨

سنن ابي داود - ط دار الكتب العلمية	٥٩
سنن الترمذى - ط دار التراث العربى	٦٠
سنن الدار قطنى - ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان	٦١
سنن النسائى للنسائى - ط دار المعرفة	٦٢
سير اعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبى ط مؤسسة الرسالة	٦٣
شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار - ط دار الإستقلال	٦٤
الكبرى	
شرح البيجورى على الجوهرة - ط الطبعة العربية الحديثة	٦٥
شرح العقيدة الطحاوية - ط مكتبة الدعوة الإسلامية حققها وراقبها	٦٦
جماعة من العلماء	
شرح المواقف للقاضى عبد الرحمن الإيجى مكتبة المتنبى	٦٧
شرح النووى - ط المطبعة المصرية ومكتبتها	٦٨
شهداء الصحابة للاستاذ محمد فهمى - ط دار الاعتصام	٦٩
صحيح البخارى - ط الريان	٧٠
صحيح مسلم - ط المطبعة المصرية ومكتبتها	٧١
ضحى الإسلام لأحمد أمين - ط مكتبة النهضة المصرية	٧٢
طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب السبكي ط - الحسينية	٧٣
طبقات المفسرين للداودى - ط مكتبة وهبه	٧٤
طبقات المفسرين للسيوطى - ط دار الكتب بيروت - لبنان	٧٥
ظهر الإسلام لأحمد أمين - ط دار مكتبة النهضة المصرية	٧٦
عقائد السلف للأئمة أحمد بن حنبل والبخارى وابن قتيبه	٧٧
تحقيق د/ سامى النشار	
غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى - ط الحلبي	٧٨
فتح البارى لابن حجر العسقلانى - ط الريان	٧٩

- ٨٠ فجر الإسلام لأحمد أمين - ط مكتبة النهضة المصرية
- ٨١ فيض المجيد فى انواع التوحيد مصطفى سلامة - ط دار ام القرى
- ٨٢ كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف - ط دار المعارف
- ٨٣ لباب التاويل فى معانى التنزيل للخازن - ط الإستقامة بالقاهرة
- ٨٤ لسان العرب لابن منظور - ط دار المعارف
- ٨٥ لسان الميزان لأبن حجر - ط مجلس دار المعارف النظامية
- ٨٦ متشابه القرآن للقاضى عبد الجبار - ط دار التراث
- ٨٧ مجلة كلية أصول الدين والدعوة فرع اسيوط العدد الرابع عشر
- ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م
- ٨٨ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - ط دار الكتاب العربى بيروت - لبنان
- ٨٩ مجموع الفتاوى لابن تيمية بدون طبعة
- ٩٠ محاسن التاويل للقاسمى - ط دار إحياء الكتب العربية
- ٩١ مختار الصحاح للإمام ابى بكر الرازى - ط المطبعة الأميرية
- ٩٢ مروج الذهب للمسعودى - ط دار المعرفة بيروت
- ٩٣ معانى القرآن وإعرابه للزجاج - ط دار الحديث
- ٩٤ معجم مفردات القرآن الكريم - الراغب الاصفهان - ط دار الكتب العلمية بيروت
- ٩٥ مقالات الإسلاميين ابو الحسن الأشعري - ط السعادة
- ٩٦ مقدمة اصول التفسير لابن تيمية - ط المطبعة السلفية -
- ٩٧ من قضايا علم الكلام د/ عبد الفتاح أحمد الفاوى ط مؤسسة الرسالة
- مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة لابن القيم تحقيق سيد إبراهيم - ط دار الحديث

منهاج السنة النبوية لابن تيمية - ط دار الكتب العلمية	٩٨
موطأ مالك - ط دار إحياء الكتاب العربي	٩٩
ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي - ط دار الفكر العربي	١٠٠
نيل الأوطار محمد بن علي الشوكاني - ط دار التراث	١٠١
وفيات الأعيان - ط دار الثقافة بيروت - لبنان	١٠٢
شذرات الذهب في أخبار من ذهب - عبد الحي بن العماد الحنبلي - ط دار التراث	١٠٣
الدرر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي - ط الحلبي	١٠٤
مجلة كلية أصول الدين والدعوة العدد الرابع عشر سنة ١٤١٦هـ -	١٠٥
أحكام القرآن للشافعي - ط دار الكتب العلمية	١٠٦
أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص - ط دار الكتب	١٠٧
تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك - ط دار الكتاب العربي	١٠٨
العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه الأندلسي - ط دار الفكر	١٠٩
إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعودى - ط مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد	١١٠
تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني - ط دار صادر	١١١
روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى للأوسى - ط دار إحياء التراث العربى	١١٢

الفهرست

الصفحة	الموضوع
١	تمهيد
	الفصل الأول : نشأة المعتزلة
	المبحث الأول
٥	نشأة المعتزلة
١٢	سبب تسميتهم بالمعتزلة
١٥	التسميات الأخرى للمعتزلة
	المبحث الثاني
١٦	فرق المعتزلة
٧٣	مدرسة المعتزلة
٨٠	الزمخشري
٨٥	القاضي عبد الجبار
	الفصل الثاني : التوحيد
	المبحث الأول
٩٣	مذهب المعتزلة في رؤية الباري
٩٤	أدلة المعتزلة النقلية على نفي الرؤية
١٠٥	استعظام سؤال الرؤية
١١٧	هل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه جل جلاله
١٤٠	شبهات أخرى للمعتزلة في نفي رؤية الله
١٤٧	تنطع المعتزلة

- أدلة المعتزلة العقلية على نفي الرؤية
المبحث الثانى
١٦٩
- الصفات ليست شيئاً غير الذات
المبحث الثالث
١٨٤
- خلق القرآن
٢٠٤
- بداية القول بخلق القرآن
٢٠٥
- الجانب السياسى
٢٠٥
- المأمون ومسألة خلق القرآن
٢٠٩
- سياسة المأمون فى حمله الناس على القول بخلق القرآن
٢١٢
- المعتصم يواصل المحنة ويمتحن الناس
٢٢٢
- الوائق والمحنة
٢٣١
- الجانب العلمى العقدى
٢٤٩
- قول الله تعالى : " وكلم الله موسى تكليماً "
٢٤٩
- قول الله تعالى : " فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن "
٢٥٨
- قول الله تعالى : " ويوم يحشر اعداء الله إلى النار فهم يوزعون "
٢٦٥
- قول الله تعالى : " إنا جعلناه قرآناً عربياً "
٢٧٠

الفصل الثالث : العدل

- المبحث الأول
العبد خالق لأفعال نفسه
٢٧٨
- المبحث الثانى
الله لا يريد الشر والقبائح
٢٩٤
- شبهة المعتزلة حول المشيئة
٣٠٩

المبحث الثالث

٣٢٠ وجوب فعل الصلاح على الله لعباده

الفصل الرابع

٣٣١ الوعد والوعيد

الفصل الخامس

٣٦٦ المنزلة بين المنزلتين

الفصل السادس

٤١٩ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٤٢١ التعريف الاصطلاحي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٤٤٥ الحكم على عقيدة المعتزلة

٤٥٥ لماذا نشطت المعتزلة ولماذا أفل نشاطها

٤٦٠ الخاتمة

٤٦٣ أهم المراجع

٤٦٩ الفهرست